



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية أصول الدين
قسم القرآن و علومه

توحيد العبادة في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في القرآن و علومه

إعداد الطالب:

نور الدين بن حامد بن حسن بكتاش

الإشراف:

الدكتور: رياض بن محمد المسيميري

الأستاذ المشارك في قسم القرآن و علومه

الدكتور: فهد بن سعد المقرن

الأستاذ المشارك في قسم العقيدة و المذاهب المعاصرة

العام الدراسي: ١٤٣١ - ١٤٣٢ هـ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده و نستعينه و نستغفره، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا، و من سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، و من يضل الله فلا هادي له، اللهم صل وسلم على نبينا محمد و على آله و أصحابه و من اتبعه إلى يوم الدين. أما بعد ...

فلقد أنزل الله تعالى كتابه ليكون حجة لنا أو علينا، فمن قال به صدق، و من حكم به عدل، و من عمل به أجر، و من دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم، و من تدبر معانيه فتح له نور البصيرة، و من قرأه بإخلاص كان له شافعاً يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. فالقرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم و يشفي من كل غي و داء، قال تعالى:

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (١) ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٢)

فالهداية القوامية و الشفاء التام و الرحمة الحاصلة لمن اتبع هذا القرآن العظيم و اجتنب الجدل و الفلسفة فيه. فإن من أكبر دلالة القرآن الكريم هو التوحيد و خاصة توحيد العبادة، فلما كانت العبادة حق الله على عباده فهو سبحانه رضي بها و شرعها بوضوح لا لبس فيها، فهي تمييز بين أهل السعادة و أهل الشقاوة، و هي دعوة أول الرسل و آخرهم، و أول كلمتهم و آخرها، و القلوب مفتقرة إليها، فلا يكون كمال الدين إلا بها، و لا دخول الجنة إلا بها، فالقرآن الكريم مملوء بدعوة إلى العبادة لله وحده، فمن لطخ عبادته بشيء مما ليس منها أو فرط في خاصيتها لله وحده، كان ذلك دليل على سوء فهمه لكتاب الله و سنة نبيه - ﷺ - و آثار توحيد العبادة يظهر جليا في أقوال و أفعال و توكل كل أحد، فهل يكون

١ - الإسراء: ٩

٢ - الإسراء: ٨٢

حب الحبيب في نسيانه أو ذكره في كل أحواله؟!
و أسباب الثبات على توحيد العبادة كثيرة ذكرها القرآن الكريم فمن فهمها نجى، و من غفل عنها غوى.
و حيث إن الموضوع الرئيسي الذي يدور عليه هذا البحث هو تعبيد الخلق للخالق، وتوحيده في العبادة، و التحذير من الشرك و وسائله، و قد رغبت في جمع آيات توحيد العبادة في القرآن الكريم و تفسيرها تفسيراً موضوعياً، ليكون رسالة الماجستير الذي أتقدم به إلى قسم القرآن و علومه في كلية أصول الدين.

أهمية البحث و أسباب اختياره

تبرز أهمية هذا البحث و دراسته في الأمور التالية:

- ١- أن توحيد العبادة هو أساس دعوة الرسل و اهتمام القرآن البالغ بتوحيد العبادة.
- ٢- أن العقيدة الإسلامية تؤخذ من المصدرين الأساسيين هما القرآن والسنة، لذلك كان اهتمام علماء الإسلام اهتماماً بالغاً في الاستشهاد بالآيات القرآنية في العقيدة.
- ٣- إبراز التفسير الصحيح لآيات توحيد العبادة في القرآن الكريم.
- ٤- أن هذا الموضوع مرتبط بكل الدين، لأن العبادة تدخل في كل مجالات الحياة سواء العلانية أو السرية.
- ٥- كثير من المسلمين لا يقرؤون كتب العقيدة، و لكن يقرؤون القرآن الكريم، فتوضيح توحيد العبادة فيه مهم جداً.

هدف البحث:

جمع الآيات الواردة في توحيد العبادة و دراستها دراسة موضوعية في ضوء عقيدة أهل السنة و الجماعة.

الدراسات السابقة

بعد البحث في المكتبات و مراكز البحوث تبين لي أن هذا البحث جديد،
فما وجدت أن أحدا أفرد رسالة علمية له، و قد كتب كثير من البحوث عن توحيد العبادة
عموما، لكن ما وجدت بحثا كتب في توحيد العبادة
كتفسير موضوعي، و لذا أذكر بعض من كتب عن توحيد العبادة عموما.

- عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي، قسم العقيدة، جامعة الإمام محمد بن
سعود الإسلامية، رسالة ماجستير ١٤٠٥ هـ ، حاول المؤلف أن يبين في هذه الرسالة الفرق
بين عقيدة السلف و بين عقيدة المتكلمين بعد أن وضح عقيدة السلف و استدلالهم عليها،
فهو ذكر بعض الأدلة في رسالته من القرآن بغير تعمق فيها لأن طبيعة بحثه يقتضي ذلك.

- اقتضاء القصد للتوحيد في القرآن المجيد، لطيف أحمد مصطفى، جامعة تكريت، اللغة
العربية ، ٢٠٠٧ م. في هذه الرسالة سلك المؤلف طريقة لغوية لبيان بعض المسائل برزت في
القرآن، مثل؛ بلاغة القرآن، نحو القرآن، و ذكر بعض الآيات في التوحيد و ما يستفاد منها
من الناحية اللغوية.

- الآيات الدالة على الله -تعالى- وفق نهج القرآن و مذهب السلف، إبراهيم آل
عيسى، الجامعة الإسلامية، قسم العقيدة، رسالة ماجستير ١٤٠٦ هـ. ذكر المؤلف في رسالته
هذه أنواع التوحيد و بعض المعتقدات، و ذكر بعض آيات في التوحيد عموما والاستدلال
منها بغير دراستها في التفسير.

- تحقيق الإخلاص في توحيد العبادة، هدى بنت محمد، الرئاسة العامة لتعليم البنات،
الدراسات الإسلامية بريدة، رسالة ماجستير ١٤٢٠ هـ. هذه الرسالة تتعلق بالإخلاص في
توحيد العبادة و تحقيق الإخلاص فيه.

- التفسير الموضوعي لآيات التوحيد في القرآن الكريم، عبد العزيز موسى، القاهرة، ١٤٠٢ هـ. و هذا الكتاب طبع في مصر و يحتوي على ١٩٢ صفحة، و المؤلف جمع فيه الآيات الدالة على الوحدانية و أكثر في ذكر دعوة الرسل قومهم إلى التوحيد. وشرح هذه الآيات شرحاً ميسراً، مستعينا ببعض التفاسير.

- سبيل الهدى و الرشاد في هدي خير العباد، محمد تقي الدين الهلالي، التحقيق مشهور آل سلمان ١٤٢٧ هـ. جمع المؤلف في هذا الكتاب آيات التوحيد الأربعة (هو قسمها على؛ توحيد الربوبية، توحيد الألوهية، توحيد الإتياع، توحيد الأسماء و الصفات) ثم فسرهما. و قال أنه جمع توحيد الربوبية و الألوهية في موضوع واحد لكثرة أدلتها، ثم ذكر تفسيرهما، و قال أنه اعتمد في تفسيره على تفسير ابن كثير.

- بلوغ السعادة من أدلة توحيد العبادة، صالح البدير، بيروت ١٤٢٤ هـ. ذكر المؤلف في هذا الكتاب ٢٠٢ باباً من أدلة التوحيد من أحاديث الرسول ﷺ - و بلغ عدد الأحاديث التي جمعها ١١٧٥ حديثاً.

- سبيل الهدى و الرشاد في بيان حقيقة توحيد رب العباد، محمد الحميس، ذكر المؤلف في الكتاب أنواع التوحيد الثلاثة و بعض الأدلة عليها و شرحها ميسراً ثم ذكر نواقض الإيمان.

- جهود ابن القيم الجوزية في توضيح توحيد العبادة، عبد الله منيب، الجامعة الإسلامية، قسم العقيدة، رسالة دكتوراه، ١٤٢١ هـ. هذه الرسالة جمع فيها المؤلف أقوال ابن القيم في توحيد العبادة و الرد على مخالفه.

- جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة، أحمد الغنيمان، الجامعة الإسلامية، قسم العقيدة، رسالة ماجستير، ١٤١٨ هـ. في هذه الرسالة جمع المؤلف أقوال ابن تيمية و آراءه في توحيد العبادة و الرد على مخالفه.

خطة البحث

المقدمة و فيها:

أهمية الموضوع، و أسباب اختياره، و هدف البحث، و الدراسات السابقة، و خطته،
ومنهج الدراسة فيه.

التمهيد و فيه: شرح مفردات العنوان

الفصل الأول: أهمية توحيد العبادة و حاجة الناس إليه

و فيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أنه حقيقة دعوة الرسل

المبحث الثاني: خلق الله الخلق لأجله

المبحث الثالث: افتقار القلوب إليه

الفصل الثاني: مقاصد القرآن من توحيد العبادة

و فيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أن يكون الدين كله لله

المبحث الثاني: تميز أهل السعادة من أهل الشقاوة

المبحث الثالث: رضا الله و الفوز بالجنة

الفصل الثالث: منهج القرآن في تقرير توحيد العبادة

و فيه مبحثان:

المبحث الأول: استدلال القرآن على توحيد العبادة

المبحث الثاني: أساليب القرآن في تقرير توحيد العبادة

الفصل الرابع: آثار توحيد العبادة و أسباب الثبات عليه

و فيه مبحثان:

المبحث الأول: آثار توحيد العبادة

المبحث الثاني: أسباب الثبات على توحيد العبادة

الفصل الخامس: حماية توحيد العبادة و النهي عما يضاده

و فيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تحريم الشرك في توحيد العبادة

المبحث الثاني: بيان آثار الشرك في توحيد العبادة

المبحث الثالث: أساليب معالجة الشرك و تدارك من وقع فيه

الخاتمة

الفهارس

منهج البحث

سلكت في كتابة هذا البحث المنهج الاستقرائي الموضوعي حسب ما يلي:

- ١ - جمعت الآيات القرآنية مراعيًا الوحدة الموضوعية لها و تفسيرها إجمالاً إلا ما تدعو إليه الحاجة عند الوقوف عندها و تفصيلها.
- ٢ - إذا وردت عدة آيات في المعنى الواحد أختار أظهرها دلالة على المعنى و بينت معاني باقي الآيات بجمل.
- ٣ - اعتمدت في تفسير الآيات على تفاسير السلف المعتمدة، مبرزاً عقيدة أهل السنة والجماعة في موضوع و سائر البحث.
- ٤ - عزوت الآيات إلى سورها مع ذكر رقم الآية.
- ٥ - خرجت الأحاديث و الآثار من مصادرها الأصيلة و بينت درجتها حسب الإمكان.
- ٦ - ذكرت في الحاشية ترجمة موجزة للأعلام.
- ٧ - بينت الغريب و بعض القضايا البلاغية و عرفت بالمواقع والبلدان.
- ٨ - عددت الفهارس اللازمة للبحث

فهارس البحث:

- فهرس الآيات القرآنية
- فهرس الأحاديث النبوية
- فهرس الآثار
- فهرس الأعلام و التراجم
- المصادر و المراجع
- فهرس الموضوعات

شرح مفردات العنوان

أولاً: معنى التوحيد لغة و شرعا

ثانياً: معنى العبادة لغة و شرعا

ثالثاً: معنى القرآن

رابعاً: معنى التفسير الموضوعي

التوحيد لغةً و شرعاً

التوحيد لغة

كلمة التوحيد مصدر: وحد يوحد توحيداً، و مادة وحد في اللغة تدور حول انفراد الشيء بذاته، أو بصفاته، أو أفعاله، و عدم وجود نظير له فيما هو واحد فيه. و إذا عدي بالتضعيف فقليل: وحد الشيء توحيداً، معناه: إما جعله واحداً، أو نسبه إلى وحدانية.^(١) قال أبو القاسم التيمي^(٢): "التوحيد على وزن التفعيل، و هو مصدر: وحدته توحيداً.... و معنى وحدته: جعلته متفرداً عما يشاركه أو يشبهه في ذاته و صفاته. و التشديد فيه للمبالغة؛ أي: بالغت في وصفه بذلك."^(٣)

قال الأزهري^(٤): "أما اسم الله جل ثناؤه (أحد) فإنه لا يوصف شيء بالأحادية غيره؛ لا يقال : رجل أحد، و لا درهم أحد، كما يقال: رجل واحد، أي: فرد؛ لأن أحداً صفة من صفات الله التي استأثر بها، فلا يشركه فيها شيء... و الواحد في صفة الله معناه: أنه لا ثاني له، يجوز أن ينعت الشيء بأنه واحد، فأما أحد فلا يوصف به غير الله بخلوص هذا الاسم الشريف له جل ثناؤه."^(٥)

١ - انظر: الصحاح للجوهري (٢ / ٥٤٨)

٢ - هو إسماعيل بن محمد، القرشي التيمي الطلحي الأصفهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السنة. قال عنه الذهبي: "الإمام العلامة الحافظ شيخ الإسلام." مات ٥٣٥ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٨٠

٣ - الحجة في بيان المحجة (١ / ٣٠٥) للتيمي

٤ - هو أبو منصور محمد بن أحمد بن منصور الأزهري الهروي الأديب الشافعي، أحد الأئمة اللغة و الأدب، ولد مدينة هراة بخراسان عام ٢٨٢ هـ، عنى بالفقه ثم غلب عليه التبحر في العربية فرحل في طلبها، و له غريب اللغة، وتفسير القرآن، و غريب الألفاظ. مات سنة بھرة، انظر: سير أعلام النبلاء (١٦ / ٣٤٥)

٥ - تهذيب اللغة (٥ / ١٢٧) للأزهري

قال الراغب الأصفهاني^(١): "الوحدة الانفراد في الحقيقة هو الشيء لا جزء له البتة."^(٢) و الحاصل: أن التوحيد في اللغة: الجزم بالشيء أنه واحد. تقول العرب: واحد و أحد ووحيد، أي: منفرد، فالله تعالى واحد، أي: منفرد عن الأنداد و الأشكال في جميع الأحوال. و قولهم و وحدت الله من باب: عظمت الله و كبرته، أي: علمته عظيماً كبيراً.

التوحيد في الشرع

إن معرفة التوحيد بالغ الأهمية لكل مسلم؛ لأن به يتحقق الدخول في الإسلام. و هو المقصد الأعلى، والهدف الأسمى، والغاية العظمى، وهو الذي يقاوم لأجله، ويوالي ويعادي بسببه، و من أجله خُلق الخلق و أرسل الرسل و أنزل الكتب، و هو حق الله على العباد، و به يكون حياة القلب و موته، و هو آخر ما يخرج به المسلم من هذه الدنيا، فمتى ختم للعبد به، سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، و به تكون السعادة في الدنيا و الآخرة. لذا كان السلف الصالح يهتمون بتعليمه للناس.

لقد نقل القرطبي^(٣): عن ابن المنذر^(٤) من حكاية الإجماع على أن دخول الإسلام يكون بكلمة التوحيد. قال: "ترجم ابن منذر في كتاب الإشراف (ذكر صفة كمال الإيمان): أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله و أن

١ - هو أبو القاسم الحسين بن محمد المفضل، المشهور بالراغب الأصفهاني. أديب من الحكماء. سكن بغداد واشتهر بها. له تصانيف منها: تفسير القرآن، كتاب في مفردات ألفاظ القرآن، و الذريعة في مكارم الشريعة وغيرها. توفي سنة ٥٠٢ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٨/١٢٠ و تاريخ حكماء الإسلام: ١١٢ - ١١٣

٢ - المفردات في غريب القرآن (٨٥٧)

٣ - هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الخزرجي الأنصاري القرطبي. أبو عبد الله. من تصانيفه: الجامع لأحكام القرآن. و الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى و التذكار في أفضل الأذكار. توفي في منية بني خصيب عن ٩٣ عاماً. - الأعلام ٦ / ٢١٧ - الوافي بالوفيات ٢ / ١٢٢

٤ - هو محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري أبو بكر. فقيه مجتهد، حافظ للحديث. كان شيخ الحرم المكي ومفتيه. من تصانيفه: المبسوط في الفقه، الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف، الإشراف على مذاهب أهل العلم، وغيرها. توفي سنة ٣١٨ هـ بمكة. انظر: طبقات الشافعية (٣ / ١٠٢) لسان الميزان ٥ / ٢٧.

محمدًا عبده ورسوله، و أن كل ما جاء به محمد حق، و أبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام - و هو بالغ صحيح العقل - أنه مسلم، و إن رجع بعد ذلك و أظهر الكفر كان مرتدًا، و يجب عليه ما على المرتد." (١)

و معنى التوحيد في الشرع الذي دلت عليه النصوص: هو الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢)

و إن النبي - ﷺ - جعل دخول الإسلام متوقفًا على الإقرار بالشهادة، كما قال: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله و أني رسول الله..." (٣) و قال النبي - ﷺ - لأسامة بن زيد (٤) حين قتل رجلاً قال لا إله إلا الله: "أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله." (٥)

قال ابن مسعود (٦): أن رجلاً من الأنصار أتى إلى رسول الله - ﷺ - بوليذة سوداء، فقال: يا رسول الله! إن علي رقبة مؤمنة، فإن كنت تراها مؤمنة أعتقها؟ فقال لها رسول الله: "

١ - تفسير القرطبي (٧ / ٣٣١) و أنظر: الإجماع لابن منذر (١٥٣)

٢ - سورة التوبة (٣١)

٣ - الحديث أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ برقم (٢٥) ١٢/١. و مسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله و أن محمد رسول الله، برقم (١٣٥) ١ / ٣٩

٤ - هو أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي. أبو محمد. صحابي، أمه أم أيمن (بركة) مولاة رسول الله ﷺ كان يدعى حب رسول الله. انظر: الإصابة (٨٩) ١ / ٤٩ و سير أعلام النبلاء (٤٩٦/٢)

٥ - الحديث أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب بعث أسام بن زيد إلى حركات جهينة برقم (٤٢٦٩) ١٨٣/٥ و مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله، برقم (٢٨٨) ١ / ٦٨

٦ - هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، أبو عبد الرحمن. صحابي من أول الناس إسلاماً. كان من كتاب الوحي، وكان أعلم الناس بكتاب الله وقرآته. اشتهر بتفسير القرآن ومعرفة أسباب نزوله. توفي سنة ٣٢ هـ. الإصابة (٢٣٣/٤)

- سير أعلام النبلاء (٤٦١/١)

أتشهدين أن لا إله إلا الله؟" فقالت: نعم. قال: " أتشهدين أن محمداً رسول الله؟" قالت: نعم. قال: " أفتؤمنين بالبعث بعد الموت؟" قالت: نعم. قال: " أعتقها".^(١)

قال الشافعي^(٢) سئل مالك^(٣) عن كلام و التوحيد، فقال: " محال أن نطن بالني - ﷺ - أنه علم أمته الاستنحاء ، و لم يعلمهم التوحيد، و التوحيد ما قاله النبي ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله".^(٤) فعصم به الدم و المال حقيقة التوحيد.^(٥)

و قال العيني^(٦): "ومعنى وحدت الله اعتقده منفرداً بذاته وصفاته لا نظير له ولا شبيهه، وقيل: التوحيد إثبات ذات غير مشبهة بالدوات ولا معطلة عن الصفات."^(٧)

و قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٨) رحمه الله: "سمي دين الإسلام توحيداً ؛ لأن مبناه على أن الله الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، و واحد في ذاته وصفاته لا نظير له، و واحد في إلهيته وعبادته لا ند له."^(٩)

- ١ - الحديث أخرجه مالك في الموطأ، كتاب العتق والولاء، باب ما لا يجوز في العتق في الرقاب الواجبة (١٤٦٩) ٧٧٧/٢
- ٢ - هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب القرشي. أبو عبد الله. أول من صنف في أصول الفقه وأول من قرر ناسخ الحديث من منسوخه. من تصانيفه: كتاب الأم، رسالة في أصول الفقه، سبيل النجاة، وغير ذلك. توفي في مصر عن ٥٤ سنة، سنة ٢٠٤ هـ. تاريخ بغداد (٢ / ٥٦). سير أعلام النبلاء ٥/١٠
- ٣ - هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي. أبو عبد الله. هو أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تنسب المالكية. كان مالك إماماً في الحديث، صنف مالك الموطأ وهو أول كتاب ظهر في الفقه الإسلامي. توفي في المدينة عن ٨٦ عاماً ودفن بالبقيع سنة ١٧٩ هـ. انظر: البداية والنهاية (١٠ / ١٧٤). سير أعلام النبلاء ٤٨/٨
- (٤) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة. رقم (١٣٩٩) ١٣١/٣ و مسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله. رقم (١٣٤) ٣٨/١
- ٥ - انظر: سير أعلام النبلاء (١٠ / ٢٦)
- ٦ - هو بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسي. ولد في عينتاب وإليها نسبته. من كتبه: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عمدة القاري في شرح البخاري، شرح الكنز (في فقه الحنفية) وغير ذلك. توفي في القاهرة عن ٩٣ سنة، سنة ٨٥٥ هـ. انظر: الأعلام ١٦٣/٧
- ٧ - عمدة القاري (٨١/٢٥)
- ٨ - هو عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب أبو الحسن. ولد في الدرعية ١١٩٣ هـ. كان بارعاً في التفسير و الحديث و الفقه، من مؤلفاته: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، قرّة عين الموحدين. انظر: الأعلام ٣٠٤/٣
- ٩ - تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص ١٧

و الخلاصة أن التوحيد هو اعتقاد بأن الله واحد في ذاته و صفاته و أفعاله، و واحد في إلهيته و عبادته، لا يشاركه أحد فيها. و هذا ما فهمه السلف من كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) و على هذه الكلمة عاشوا و عليها كانوا يموتون.

العبادة في اللغة و الشرع

العين و الباء و الدال أصلان صحيحان، كأثهما متضادان، والأول من الأصليين يدلُّ على لين و ذُلِّ، والآخر على شِدَّة و غِلْظ. فالأول العبد، وهو المملوك، وأما عَبَدَ يُعْبُدُ عِبَادَةً فلا يقال إلا لمن يُعْبُدُ الله تعالى. يقال منه عَبَدَ يَعْبُدُ عِبَادَةً، و تَعَبَّدَ يَتَعَبَّدُ تَعَبُّدًا. فالمتعَبَّدُ: المتفرد بالعبادة. و استعبدتُ فلاناً: اتخذته عبداً. و أما عَبَّدَ في معنى خَدَمَ مَوْلَاهُ فلا يقال عَبَدَهُ، ولا يقال يَعْبُدُ مَوْلَاهُ. و تَعَبَّدَ فَلَانٌ فَلَانًا، إذا صَيَّرَهُ كالعبد له وإن كان حُرًّا.^(١)

و قال ابن الأنباري^(٢) : "فلان عابد، و هو خاضع لربه، المستسلم لقضائه، المنقاد لأمره."^(٣) لأمره."^(٣)

و قال الراغب الأصفهاني: "العبودية إظهار التذلل، و العبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل."^(٤) التذلل."^(٤)

قال القرطبي: "أصل العبودية الخضوع و التذلل، و التعبيد التذليل. يقال: طريق معبد. قال: وظيفاً وظيفاً فوق مور معبد^(*)."^(٥)

١- انظر: مقاييس اللغة ١٦٩/٤

٢- هو محمد بن القاسم بن بشار بن الحسن الأنباري. أبو بكر. ولد في بغداد سنة ٢٧١هـ. محدث و لغوي. وكان ثقة دينا. و من تصانيفه: كتاب المشكل في معاني القرآن، كتاب في غريب الحديث، كتاب الزاهر في اللغة و كتاب الأضداد، و كتاب أدب الكاتب، و غير ذلك. مات سنة ٣٢٨ هـ. انظر: البداية و النهاية ١١/٢٢٢ و سير أعلام النبلاء ٢٧٤/١٥

٣- تهذيب اللغة (٢ / ١٤٠)

٤- المفردات في غريب القرآن (٥٤٢)

* - هذا بيت الشعر لطرفة بن العبد. انظر: تاج العروس من جواهر القاموس ١٤/١٥٢

٥- تفسير القرطبي (١٧ / ٥٦)

العبادة اصطلاحاً

و لمعنى العبادة علاقة وثيقة بمعنى التوحيد، فإن بعض المفسرين قد فسروا قول الله تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(١) أي: يوحّدون.^(٢)

وقال ابن عباس^(٣): "كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناه التوحيد."^(٤)

و هذا كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ٢١) و قوله تعالى: ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ (النساء:

٣٦) و قوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (الأنعام: ١٠٢) و غيرها.

قال القرطبي: "عبادة الله إنما هي امتثال أوامره الواجبة و المنذوبة و اجتناب نواهيه المحظورة و المكروهة."^(٥)

و قال أيضاً: "أصل العبادة الخضوع و التذلل، و سميت وظائف الشرع على المكلفين

عبادات؛ لأنهم يلتزمونها و يفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى."^(٦)

قال الطبري^(١): "أن معنى العبادة الخضوع لله بالطاعة والتذلل له بالاستكانة."^(٢)

١- سورة الذاريات (٥٦)

٢- انظر: تفسير القرطبي (١٧/ ٥٥) و تفسير البغوي ٩٣/١

٣- هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي. أبو العباس، ابن عم رسول الله ﷺ - حبر هذه الأمة. كان فقيهاً عليماً بأنساب العرب والمغازي والوقائع، كلف بصره في آخر عمره فسكن الطائف، فتوفي فيها سنة ٧٣ هـ. انظر: الإصابة (٤٧٨٤) ٤/ ١٤١

٤- انظر: تفسير البغوي (٩٣/ ١)

٥- المفهم (٤/ ٨٦)

٦- المفهم (١/ ١٨١)

و قال الشيخ ابن تيمية^(٣): "العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة، و بر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشيته الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه."^(٤)

قال الشنقيطي^(٥): "اعلم أنه يجب على كل مسلم أن يتأمل في معنى العبادة وهي تشمل جميع ما أمر الله أن يتقرب إليه به من جميع القربات فيخلص تقربه بذلك إلى الله ولا يصرف شيئاً منه لغير الله كائناً ما كان."^(٦)

معنى القرآن لغةً و اصطلاحاً

القرآن لغة

- ١- هو محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن كثير بن غالب الطبري. أبو جعفر. ولد في مدينة آمل ٢٢٤ هـ . نشأ فيها. من مصنفاته: أحكام شرائع الإسلام، كتاب الرسل والملوك. جامع البيان عن تأويل القرآن، وغير ذلك. الطبري إمام المفسرين والمؤرخين مات سنة ٣١٠ هـ. انظر: تاريخ بغداد ٢/١٦٢ و سير أعلام النبلاء ١٤/٢٦٧
- ٢- تفسير الطبري (٣٦٢/١)
- ٣- هو أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله. تقي الدين أبو العباس. شيخ الإسلام. ولد بجران سنة ٥٧١ هـ وقدم مع والده وأهله إلى دمشق وهو صغير. قرأ الحديث والتفسير واللغة وغيرها. من تصانيفه: مجموع الفتاوى، و دره تعارض العقل والنقل، و منهاج السنة النبوية و غير ذلك. مات سنة ٦٢٨. البداية والنهاية ١٤/١٥٦
- ٤- مجموع الفتاوى (١٤٩/١٠)
- ٥- هو محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، ولد في شنقيط سنة ١٣٢٠ هـ تعلم القرآن والفقہ المالكي و الأدب و العربية و السيرة. انتقل إلى المملكة السعودية العربية و درّس فيها و خاصة في الحرم النبوي. من كتبه: أضواء البيان، التذكرة و غيرها. مات سنة ١٣٩٣ هـ. انظر: الأعلام ٦/٤٥
- ٦- أضواء البيان (٤١٠/٧)

قال الرازي^(١) في مختار الصحاح: "قرأ الكتاب قراءة قرءاناً بالضم و قرأ لا شيء قرآنأ بالضم أيضاً جمعه وضمه، ومنه سمي القرآن؛ لأنه يجمع السور ويضمها وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) أي: قراءته، وفلان قرأ عليك السلام و أقرأك السلام بمعنى، وجمع القاري قرأة مثل: كافر وكفرة، و القرأ بالضم والمد المتسك، وقد يكون جمع قارئ." (٣)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "القرآن: هو في الأصل مصدر، قرأ قرآنأ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِغْ قُرْآنَهُ، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٨) ويسمى الكلام المقروء نفسه؛ قرآنأ. وهو كثير، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) كما أن الكلام هو اسم مصدر كلم تكليماً وتكلم تكلماً، ويراد به الكلام نفسه، وذلك لأن الإنسان إذا تكلم كان كلامه بفعل منه وحركة، هي مسمى المصدر وحصل عن الحركة صوت يقطع حروفاً هو نفس التكلم، فالكلام والقول ونحو ذلك يتناول هذا وهذا، ولهذا كان الكلام تارة يجعل نوعاً من العمل إذا أريد به المصدر، وتارة يجعل قسيماً له إذا أريد ما يتكلم به، وهو يتناول هذا وهذا." (٦)

و قال الزرقاني: "أما لفظ القرآن فهو في اللغة مصدر مرادف للقراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِغْ قُرْآنَهُ، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٨) وجعله اسماً للكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ - من باب إطلاق المصدر على مفعوله." (١)

١ - هو محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، زين الدين وهو من فقهاء الحنفية، وله علم بالتفسير والأدب. أصله من الري. زار مصر والشام. ومن كتبه: مختار الصحاح، شرح المقامات الحريرية، و حقائق الحقائق، عند عبيد، وغيرها، مات سنة ٦٦٦هـ. انظر: معجم المؤلفين ١١٢/٩

٢ - القيامة: ١٧

٣- مختار الصحاح ٥٦٠/١

٤- سورة القيامة ١٧ - ١٩

٥- سورة النحل ٩٨

٦- مجموع فتاوى (٨/١٣)

٧- القيامة ١٧ - ١٨

القرآن اصطلاحاً

فقد ورد بعض الآثار في معنى القرآن:

ذكر السيوطي^(٢) في الدر المنثور عن أنس - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - في قوله:

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾^(٣) قال غير مخلوق.^(٤)

عن أبي الدرداء^(٥) - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: "القرآن كلام الله غير مخلوق."^(٦)

و عن أنس بن مالك^(٧) - رضي الله عنه - أنه قال: "القرآن كلام الله وليس كلام الله بمخلوق."^(٨)

١ - مناهل العرفان في علوم القرآن (١٤/١)

٢ - هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيرى السيوطى، جلال الدين: إمام حافظ مؤرخ أديب. نشأ في القاهرة يتيماً ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس. له نحو ٦٠٠ مصنف، منها الكتاب الكبير، والرسالة الصغيرة. مات سنة ٩١١ هـ. انظر: الأعلام ٣٠١/٣

٣ - سورة الزمر: ٢٨

٤ - الدر المنثور (٦٥٢/١٢)

٥ - هو عويمر بن مالك بن زيد بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي. أبو الدرداء صحابي من الحكماء الفرسان. أسلم يوم بدر وشهد المشاهد كلها. ولاة معاوية بن أبي سفيان قضاء دمشق بأمر من عمر بن الخطاب وهو أول قاض بمهامات سنة ٦٠ هـ. انظر: الإصابة (٦١٢١) ٧٤٧/٤ و أسد الغابة (٦/٩٧)

٦ - الدر المنثور (٦٥٢/١٢)

٧ - هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد النجاري الخزرجي الأنصاري. أبو ثمامة أو أبو حمزة. أمه أم سليم الريمياء بنت ملحان الأنصارية. صاحب النبي صلى الله عليه وسلم وخدمه ولازمه منذ هاجر إلى أن قبض، ثم رحل إلى الشام ومنها إلى البصرة فمات فيها وهو آخر من مات من الصحابة بالبصرة، مات ٩٣ سنة. انظر: الإصابة

(٢٧٧) ١٢٦/١ و أسد الغابة ١ / ١٥١

٨ - ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/٣٢٥)

و قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأن الله - تعالى - تكلم به حقيقة، وأن هذا القرآن الذي أنزله على محمد هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره، ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة عنه، بل إذا قرأه الناس أو كتبوه بذلك في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مبلغاً مؤدياً."^(١)

و قال الزرقاني: "إنه اللفظ المنزل على النبي ﷺ - من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس."^(٢)

قال أيضاً: "فالذين أطنبوا عرفوه (القرآن) بأنه الكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ - المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته."^(٣)

و من هذه التعريفات نستطيع أن نقول بأن القرآن: هو كلام الله المنزل على محمد ﷺ - المتعبد بتلاوته، المنقول إلينا بين دفتي المصحف نقلاً تواتراً.^(٤)

التفسير الموضوعي لغةً و اصطلاحاً

التفسير لغة

فَسَّرَ، الفَسْرُ: البيان، فَسَّرَ الشَّيْءَ يُفَسِّرُهُ، بالكسر و يفسره بالضم فسرا و فسره أبانه. الفسر: كشف المغطى.^(٥)

وقال الليث^(١): "التَّفْسِيرُ: اسمٌ للَبْوْلِ الذي يَنْظُرُ فيه الأطباءُ يَسْتَدِلُّونَ بلونه على عِلَّةِ العليل وكلِّ شيءٍ يُعْرَفُ به تفسير الشيء ومعناه فهو تَفْسِيرَتُهُ."^(٢)

١- مجموع الفتاوى (١٤٤/٣)

٢- مناهل العرفان في علوم القرآن (١٤/١)

٣- مناهل العرفان في علوم القرآن (١٥/١)

٤- انظر: مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (١٤) و دراسات في علوم القرآن لزاھر الألمعي (٨)

٥- لسان العرب (٥٥ /٥)

التفسير اصطلاحاً

و التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر.^(٣)
قال الزركشي^(٤): "التفسير هو علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد - ﷺ -
وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف
وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ."^(٥)
و هو الكشف عن معاني آيات القرآن، و الغرس في أعماقها للوصول إلى مراد الله - تعالى -
بقدر الطاقة البشرية.^(٦)

و الموضوعي لغة

قال الأزهري: "وُضِعَ فلان في تجارته فهو مَوْضُوعٌ فيها إذا خَسِرَ فيها."^(٧)
الوَضْعُ ضدُّ الرفعِ وَضَعَهُ يَضَعُهُ وَضِعاً وَمَوْضُوعاً والمَوْضِعُ المكان والمصدر وَضَعَ الشيء من يده
يضعه وَضِعاً و مَوْضِعاً و مَوْضُوعاً.^(٨)

١ - هو الليث بن سعد عبد الرحمن الفهمي: بالولاء، أبو الحارث: شيخ الإسلام، إمام أهل مصر في عصره، حديثاً
وفقهاً. أصله من خراسان، ومولده في قلقشندة سنة ٩٤ هـ. قال الإمام الشافعي: الليث أفقه من مالك، إلا أن
أصحابه لم يقوموا به. وفاته في القاهرة سنة ١٧٥ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٣٦/٨

٢ - التهذيب اللغة ٢٨٣/١٢

٣ - لسان العرب (٥٥ / ٥)

٤ - هو بدر الدين أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي. تركي الأصل، مصري المولد والوفاء. عالم بفقهِ
الشافعية والأصول. له تصانيف كثيرة بعدة فنون منها: البحر المحيط في أصول الفقه، و إعلام الساجد بأحكام
المساجد، وكتاب المنشور يعرف بقواعد الزركشي بأصول الفقه. توفي في القاهرة عن ٥٠ عاماً. انظر: شذرات الذهب

٦ / ٣٣٥ - الأعلام ٢٨٦ / ٦

٥ - البرهان في علوم القرآن (١٣/١)

٦ - انظر: التفسير الموضوعي لظاهر الأملعي (٩)

٧ - تهذيب اللغة (٤٨/٣)

٨ - انظر: لسان العرب ٣٩٦/٨

و الموضوع لا يخرج من معنى وضع شيء في مكان ما، سواء في المعنى أو الحس. الموضوعي: اسم منسوب إلى مَوْضوع أي: نسبة إلى الموضوع، و هو ما تتساوى علاقته بجميع المشاهدين برغم اختلاف الزوايا التي يشاهدون منها.^(١) فيقال: البر في القرآن، الإحسان في القرآن و هكذا.

التفسير الموضوعي اصطلاحاً

لقد تعددت تعريفات الباحثين المعاصرين في التفسير الموضوعي، منها: هو جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد مشتركة في الهدف، و ترتيبها على حسب النزول، ثم تناولها بالشرح و التفصيل و بيان حكمة الشارع في شرعه وقوانينه مع إحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن الكريم، والكشف عما يمكن أن يكون قد أثير حوله من شبه الضالين و الملحددين من أعداء الدين.^(٢) أو هو بيان موضوع من خلال جمع آيات القرآن الكريم في سورة واحدة أو سور متعددة.^(٣) متعددة.^(٣) أو هو بيان ما يتعلق بموضوع من موضوعات الحياة الفكرية أو الإجتماعية أو الكونية من زاوية قرآنية للخروج بنظرية القرآنية بصدد.^(٤)

١ - انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة ٣ / ٢٤٥٧ الناشر: عالم الكتب ط: الأولى

٢ - مصدر سابق

٣ - انظر: المباحث في التفسير الموضوعي ص ١٦

٤ - انظر مصدر سابق

الفصل الأول: أهمية توحيد العبادة و حاجة الناس إليه

المبحث الأول : أنه حقيقة دعوة الرسل

المبحث الثاني : خلق الله الخلق لأجله

المبحث الثالث: افتقار القلوب إليه

المبحث الأول: توحيد العبادة هو حقيقة دعوة الرسل

أولاً: دعوة نوح عليه السلام إلى التوحيد

ثانياً: دعوة هود عليه السلام إلى التوحيد

ثالثاً: دعوة صالح عليه السلام إلى التوحيد

رابعاً: دعوة إبراهيم عليه السلام

خامساً: دعوة موسى عليه السلام

سادساً: دعوة عيسى عليه السلام

إن الله - تعالى - خلق الخلق و فطرهم على التعرف عليه - تعالى - قال النبي - ﷺ - كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه." (١)

وقال - ﷺ - ذات يوم في خطبته: "ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبداً حلال وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم." (٢)

فما اكتفى الله - تعالى - بهذه الفطرة لهدي الناس و أخذ الحجة عليهم ولكن من رحمته - تعالى - أرسل لهم الرسل، لبيان ما يحبه و يرضاه و ما الذي ينبغي أن يجتنبوه، و بيان ما يضرهم في الدنيا و الآخرة، فحقيقة دعوة الرسل -عليهم السلام- هو توحيد العبادة، فبه يُعرف أهل السعادة و أهل الشقاوة. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ وَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (٤)

١ - أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين. رقم الحديث (١٣٨٥) ١٢٥/٢ و مسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين. رقم الحديث (٦٩٢٦) ٥٢/٨ و هذا لفظ البخاري.

٢ - هذا جزء من الحديث أخرجه مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار. رقم الحديث (٧٣٨٦) ١٥٨/٨

٣ - سورة النحل: ٣٦

٤ - سورة الأنبياء: ٢٥

و قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبُدُونَ

(١) ﴿٤٥﴾

ذكر - تعالى - أنه بعث في كل أمة رسولا، و فعل (بعث) يفيد إثارة شيء و توجيهه، كما قال الراغب الأصفهاني. (٢)

و البعث على ضربين: أولهما: الكوني قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ (٣) و قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ (٤)

و الثاني البعث الشرعي، قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا

﴿١٦٤﴾ (٥) و قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴿١٠٣﴾ (٦)

و البعث في هذه الآية على الضرب الثاني، فإن الرسل بعثهم الله - تعالى - لإثارة قومهم من الشرك و عبادة غير الله، و توجيههم لعبادة الله وحده، و ترك كل ما يصرفهم عنها.

و في هذه الآية أخبرنا الله - تعالى - أنه بعث في كل قوم يتفقون على أصل واحد من يذكرهم به. فقد أخبرنا رسول الله ﷺ بذلك إذ قال: "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي؛ نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، و أيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة." (٧)

في هذا الحديث أخبرنا رسول الله - ﷺ - أن كل قوم لهم رسول خاص بهم، و أنه أرسل للناس كافة.

١ - سورة الزحرف: ٤٥

٢ - انظر: المفردات في غريب القرآن ١٣٢ ص

٣ - سورة المائدة ٣١

٤ - سورة الأنعام ٣٦

٥ - سورة آل عمران ١٦٤

٦ - سورة الأعراف ١٠٣

٧ - خرجه البخاري في كتاب الصلاة باب قول النبي: جعلت لي الأرض مسجداً، و طهوراً. رقم الحديث (٣٣٥) / ١

٩١ عن جابر بن عبد الله. و مسلم في كتاب المساجد و مواضع الصلاة. رقم الحديث (١١٩١) (٦٣ / ٢)

و في هذه الآية المراد بالرسول، هو كل من يذكرهم بالله - تعالى - و يوضح لهم الطريق المستقيم، كما وجهه الشيخ سليمان آل الشيخ.^(١)

و ﴿ أَنْ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ إما أن تكون المفسرة أو المصدرية. و الأول اختاره ابن عاشور.^{(٢)(٣)}

و العبادة هي كل ما شرعه الله و يحبه و يرضاه.

و في هذه الآية الكريمة يخبرنا الله -تعالى- أنه ما من نبي إلا قد بدأ دعوته إلى الله و هو يأمر بعبادة الله وحده، ذلك لأن قومهم كانوا يعبدون الله و كانوا يلجؤون إليه في الشدائد،

وإذا كشفت عنهم أشركوا، كما أخبرنا الله في كثير من الآيات، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي

الْفَلَائِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَّهْم إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾^(٤) و قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَّهْم إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا

يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾^(٥)

و اجتناب الطاغوت - ورد هذا اللفظ ليكون المرء بعيداً عن عبادة غير الله، لأنه لما أرسل الله رسله ليفرد الناس عبادتهم لله وحده.

قال سليمان آل الشيخ في شرح هذه الآية: وأما معنى الآية: " فأخبر -تعالى- أنه بعث في

كل أمة، أي: في كل طائفة وقرن من الناس رسولاً بهذه الكلمة: ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ

١ - هو سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب. مولده بالدرعية سنة ١٢٠٠هـ. إمام من أئمة الدعوة، كان بارعا في التفسير والحديث والفقهاء. من كتبه: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، و أوثق عرى الإيمان، مات سنة ١٢٣٣ هـ. انظر: الأعلام ١٢٩/٣

٢ - انظر: التحرير و التنوير ١٢٠/١٣

٣ - هو محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور. من أشرف تونس وكبير علمائها. من كتبه: شفاء القلب الجريح، وهدية الأريب، و التحرير و التنوير و غيرها. وتوفي سنة ١٢٨٤هـ. الأعلام ١٧٣/٦

٤ - سورة العنكبوت: ٦٥

٥ - سورة لقمان: ٣٢

وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿١﴾ أي: اعبدوا الله وحده واتركوا عبادة ما سواه، فهذا خلقت الخليقة وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب. ^(١)

وقال ابن كثير ^(٢) في تفسيره: "وبعث الله في كل أمة، أي: في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة الله، وينهون عن عبادة ما سواه، ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فلم يزل -تعالى- يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد - ﷺ - الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغرب، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ^(٣) (٤)

وهذه الآية تضمنت النفي والإثبات، كما تضمنته لا إله إلا الله، ففي قوله: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الإثبات، وفي قوله تَعَالَى: ﴿وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النفي، فدللت الآية على أنه لا بد في الإسلام من النفي والإثبات، فيثبت العبادة لله وحده، وينفي عبادة ما سواه. فلا تكون العبادة صحيحة إلا بهذين الشرطين، وفي الشهادة قدم النفي؛ لأنها الشرط في دخول الإسلام، فكان لا بد من أراد دخول الإسلام اجتناب كل ما يمنع الإيمان أو ينقضه. وقد أخبر الله تعالى في آية سورة الأنبياء أنه أوحى إلى كل رسول أنه لا إله إلا هو، ففي شأنهم وإسلامهم قدم الإثبات على النفي، وفي هذه الآية بيان أن دعوة الرسل هي العبادة وأنهم كانوا يجتنبون عبادة غير الله قبل بعثتهم.

١ - تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص ٣٤

٢ - هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشي البصري ثم الدمشقي، أبو الفداء، عماد الدين: حافظ، مؤرخ، فقيه. ولد في قرية من أعمال بصرى الشام، رحل في طلب العلم. من كتبه: البداية والنهاية، و شرح صحيح

البخاري، و تفسير القرآن الكريم. توفي بدمشق سنة ٧٧٤ هـ. انظر: الأعلام ١/٣٢٠

٣ - تفسير ابن كثير ٢/٥٧٠

٤ - سورة الأنبياء: ٢٥

قال ابن القيم^(١): "وطريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات، فينفي عبادة ما سوى الله ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد، والنفي المحض ليس بتوحيد، وكذلك الإثبات بدون النفي، فلا يكون التوحيد إلا متضمنا للنفي و الإثبات، وهذا حقيقة لا إله إلا الله."^(٢)

ويدخل في الكفر بالطاغوت^(٣) بغضه وكرهته وعدم الرضا بعبادته بوجه من الوجوه. ودلت الآية على أن الحكمة في إرسال الرسل هو عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وأن أصل دين الأنبياء واحد، وهو الإخلاص في العبادة لله وإن اختلفت شرائعهم، كما قَالَ تَعَالَى:

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾^(٤)

و قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا

يُعْبَدُونَ﴾^(٥) أي: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد.^(٦)

وقال زيد بن أسلم^(٧) في معنى هذه الآية: وأسألهم ليلة الإسراء، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جُمِعُوا له.^(٨)

١ - هو شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي أبو عبد الله معروف بابن القيم الجوزية. كان بارعاً في عدة علوم من فقه وتفسير وحديث وأصول ولغة. و هو من أبرز طلاب شيخ الإسلام ابن تيمية. من تأليفه: أعلام الموقعين و الطرق الحكمية في السياسة الشرعية و زاد المعاد وغير ذلك من مطبوع و مخطوط. مات سنة ٧٥١هـ. انظر: البداية والنهاية ٢٧٠/١٤

٢ - بدائع الفوائد لابن القيم ١٤١/١

٣ - الطاغوت ما عُبدَ من دون الله عز وجل، وكلُّ رأسٍ في الضلالِ طاغوتٌ، وقيل الطاغوتُ الأصنامُ، وقيل الشيطانُ، وقيل الكهنةُ، وقيل مرَدُّه أهل الكتاب. انظر: لسان العرب ٤٤٤/٨

٤ - سورة المائدة: ٤٨

٥ - سورة الزخرف ٤٥

٦ - انظر: تفسير ابن كثير ٢٣٠/٧

٧ - هو زيد بن أسلم العدوي العمري، مولاهم، أبو أسامة أو أبو عبد الله، فقيه مفسر. وكان ثقة، كثير الحديث. وله كتاب في التفسير رواه عنه ولده عبد الرحمن. مات سنة ١٣٦ هـ. وتهذيب التهذيب ٣٤١/٣. سير أعلام النبلاء

٣١٦/٥

و هذا مختصر من الأقوال في أمر الله نبيه - ﷺ - أن يسأل من قبله من الرسل عن عبادة غير الله. و هذه الآية ذكرها بعض العلماء في مواضع كثيرة مع الآيات التي ذكرتها لبيان توحيد العبادة و أنه أول دعوة الرسل.^(٢)

و قال البغوي: "ومعنى الأمر بالسؤال التقرير لمشركي قريش أنه لم يأت رسول ولا كتاب بعبادة غير الله عز وجل."^(٣)

قال القرطبي: "والخطاب للنبي - ﷺ - والمراد أمته."^(٤)

و في هذه الآية حجة على أهل الكتاب، و التوقيف والتقرير والتوبيخ لمن يدعو من دون الله، فإن الله - تعالى - قد أخبرنا بأن الرسل - عليهم السلام - قد كانوا على التوحيد والإخلاص، و دعوا إليه قومهم.

و هذه الآيات هي المجملة في بيان أن الرسل كانوا يدعون إلى توحيد العبادة، و قد وردت الآيات في ذكر دعوة بعض الرسل إلى توحيد العبادة مفصلة.^(٥)

١ - انظر: تفسير ابن كثير ٢٣٠/٧

٢ - انظر: تفسير ابن كثير (١ / ١٠٠،٥٠) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١ / ١٨٥،١٥٤،٧١ و غيرها)

٣ - تفسير البغوي ٢١٦/٧

٤ - تفسير القرطبي ٩٦/١٦

٥ - انظر: سورة المائدة ١١٧،٧٢، و سورة الأعراف ٨٥،٧٣،٦٥،٥٩، و سورة العنكبوت ١٦، و غيرها.

أولاً: دعوة نوح عليه السلام إلى التوحيد

نوح -عليه السلام- أول رسول بعث في الأرض، و أخبر الله -تعالى- عن دعوته إلى التوحيد فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١)

كان نوح أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، و هذا بعد أن كان الناس على التوحيد عشرة قرون، كما ذكره ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (٢) وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صور أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسمائهم، فلما تفاقم الأمر بعث الله - سبحانه وتعالى- رسوله نوحاً فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له. (٣)

فهنا يرى خطورة الشرك و لو كان في البداية شيئاً يسيراً، و هكذا في هذه الأمة انتشر الشرك بسبب الغلو في الصالحين، فهذا هو منهج الشيطان، فإنه يدعو حزبه بنفس الطريقة التي أضل بها قوم نوح من قبل، و من هنا نرى أهمية دعوة الرسل و لزوم متابعتهم.

و دعوة نوح - عليه السلام - ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فيها الدلالة الواضحة أن العبادة تكون بإفراد المعبود، و هو الله -تعالى- بكمال التذلل و الخضوع. ثم نفى الله تعالى الألوهية لغيره فقال: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ فقدّم الإثبات - كما ذكرت سابقاً- لدلالة أن الرسل من قبل دعوتهم قومهم خضعوا لله ثم دعوا قومهم إلى ذلك. ثم ذكر حقيقة التوحيد و هو شرط من شروط الشهادة، و هو نفى كل ما يعبد من غير الله.

١ - سورة الأعراف: ٥٩

٢ - انظر: تفسير الطبري ٢٧٥/٤

٣ - انظر: تفسير ابن كثير ٤٣١/٣

و ﴿ مَا ﴾ في قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ على عموم النفي، و ﴿ لَكُمْ ﴾ أي اختصاص الألوهية بالله وحده حقيقة، و إن وجدت في غيره، فهو الافتراء و البهتان والنزور و الكذب على أنفسهم قبل المعبود.

ثم أكد الله هذا النفي بـ ﴿ مِنْ ﴾ و النكرة ﴿ إِلَهٍ ﴾ يدل على استيفاء العموم، ثم ذكر - تعالى - كلمة ﴿ غَيْرُهُ ﴾^(١) و قرأها بعض القراء بالرفع على المحل نعتاً، و قرأ بعضهم بالخفض على النعت من ﴿ إِلَهٍ ﴾ فيكون في القراءة الأولى: النفي لذات الألوهية، و في القراءة الثانية: النفي لصفة الألوهية. و القراءتان تكمل بعضها بعضاً.^(٢)

ثم ذكر الله - تعالى - شفقة نوح - عليه السلام - و حرصه لهداية قومه، فقال: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فإن كل نبي كان أرفق بأمتة من أنفسهم، و الخوف في هذه الآية يدل على ذلك.

إن نوحاً استعمل هذا الأسلوب الجميل بعد أمرهم بالعبادة الذي يدل على تواضعه وحسن سلوكه و معرفته بمن يعصون، فإن كل من يعصي الله - تعالى - هو على جهالة من يعصي، و هذا كما قال النبي - ﷺ - : "والذي نفس محمد بيده لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتكم قليلاً."^(٣)

و إن قوم نوح طُبع على قلوبهم، و عُميةت أبصارهم، و صُم سمعهم، فأنى لهم الهدى. فقد ثبت بالقرآن أنهم ما استجابوا لدعوته إلا قليل منهم رغم دعوته ألف سنة إلا خمسين عاماً.

و قد ورد في آية سورة (المؤمنون) أمر نوح قومه بالعبادة على الصيغة نفسها قَالَ تَعَالَى:

١ - قرأ بالقراءة الأولى جمهور القراء (نافع، أبو عمرو، ابن عامر، حمزة، عاصم، ابن كثير، يعقوب، خلف) وبالثانية الكسائي و أبو جعفر المدني. انظر: النشر في القراءات العشر ٢/٣٠٤

٢ - انظر: تفسير القرطبي (٧ / ٢٣٣)

٣ - أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور قول الله تَعَالَى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ الآية. باب كيف كانت يمئن النبي ﷺ . رقم الحديث (٦٦٣١) ٨/١٦٠

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِزَّةٌ فَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٢٣) (١) و ذكر التقوى هنا يدل على معرفتهم بالله؛ لأن التقوى حين تطلق يراد بها من الله و لا شك، وجاء هذا صراحة في سورة الشعراء قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُّ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٠٦) إِيَّاكُمْ رَسُولٌ آمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٠٨) ﴿٢﴾ فما أنكروا عبادة الله، بل أنكروا من يتبع نوحاً استكباراً و عناداً. و أيضاً في سورة فصلت قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣) فهم اعترفوا بالرب و بإرسال الملائكة، لكن ما اعترفوا أن الله أرسل رسولا من البشر، فإبأؤهم ذلك قد يكون لأنهم ما سمعوا أن الله أرسل رسولا من قبلهم، أو لأن حبهم لآلهتهم طبع على قلوبهم.

ثانياً: دعوة هود (٤) عليه السلام إلى التوحيد

أرسل هود -عليه السلام- إلى عاد وكانت عاد ثلاث عشرة قبيلة ينزلون الرمل (٥) بالدور (٦) و الدهناء (٧) و عالج (٨) و وبار (٩) و يبرين (١٠) و عمان إلى حضرموت إلى اليمن،

١ - سورة المؤمنون ٢٣

٢ - سورة الشعراء: ١٠٦ - ١٠٨

٣ - سورة فصلت ١٤

٤ - يرجع نسبهم إلى رجل اسمه عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح، ثم عرفت قبيلته باسمه، فبعث الله إليهم هوداً و كان بينه و نوح سبعة آباء، انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢٣٦)

٥ - الرَّمْلُ: ممتد في الأرض طوله من وراء جبل طي إلى أن يتصل مشرقاً بالبحر، ويمضي من وراء جبل طي إلى أرض مصر، ثم إلى بلد النوبة، ويمتد إلى البحر المحيط، ومنه عرق يضرب من القادسية إلى البحرين. و خلاصة أن الرمل منطقة غلب عليها الرمال. معجم البلدان ٦٩/٣

٦ - الدُّور: سبعة مواضع بأرض العراق من نواحي بغداد أحدها دور تكريت. انظر: معجم البلدان ٤٨١/٢

٧ - الدهناء: من ديار بني تميم في الجانب الشرقي والشمال من نجد. انظر: معجم البلدان ٤٩٣/٢

٨ - عَالِجٌ: رمل عظيم في بلاد العرب يمر في شمال نجد قرب مدينة حائل إلى شمال تيماء، وقد سمي قسمه الغربي رمل بختري، ويسمى اليوم النفود، وهو القوز أو الدعص من الرمل. انظر: معجم البلدان ٧٠/٤

٩ - وَبَارٌ: هي فيما بين نجران وحضرموت وما بين بلاد مهرة والشحر. انظر: معجم البلدان ٣٥٦/٥

١٠ - يَبْرِينٌ: هو اسم قرية كثيرة النخل والعيون العذبة بجذاء الأحساء من بني سعيد بالبحرين. معجم البلدان ٧١/١

وكانت ديارهم أخصب البلاد، وكانوا عربياً يسكنون في المواضع المذكورة. وكانت قبائل عاد التي تسمت به قد ملكوا الأرض بقوتهم وافتخروا: ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ فلما كثر طغيانهم بعث الله إليهم هوداً، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَنقُوتُونَ ﴾ (١)

و في هذه الآية ذكر الله - تعالى - بداية دعوة هود -عليه السلام- فكأنما أكد الله - سبحانه - دعوة أول الرسل نوح و أن مصدر الرسولين واحد، و دعوتهم واحدة، و بدأ الآية ب ﴿ وَإِلَىٰ ﴾ لدلالة أن هناك محذوفاً، و هو: ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ و فائدة هذا الحذف والعطف على إرسال نوح، ليعلم أن دين الرسل واحد، كما قال النبي - ﷺ -: "أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة والأنبياء إخوة لعلات" (٢) أمهاتهم شتى ودينهم واحد." (٣)

ثم أمر - تعالى - هوداً بما أمر به نوحاً، فقال: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾ و هذا الأمر على نفس الصيغة التي أمر بها نوح -عليه السلام- بما يدل أن الرسل اتفقوا على أصول الإيمان، و أول دعوتهم هو توحيد العبادة. و ختم الله - تعالى - هذه الآية بإنكار هود حالهم و أمرهم بالتقوى. و في هذه الآية أنهم كانوا يعبدون الله و يشركون في عبادتهم غيره.

و في سورة هود قال: ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ (٤) فأمر الله لهم في هذه الآية بعبادته وحده لا شريك له، ناهياً لهم عن عبادة الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة، و وصفهم بالافتراء، والافتراء لا يكون إلا بعد معرفة الحق و معرفة المعبود حقيقة. ثم أخبرهم أنه لا يريد منهم

١ - سورة الأعراف: ٦٥

٢ - علات: أمهات شتى أي: ضرائر و أب واحد. انظر: تاج العروس من جواهر القاموس ٤٧/٣٠

٣ - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء باب ﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ رقم (٣٤٤٣) ٢٠٣/٤

٤ - هود: ٥٠

أجرة على هذا النصح والبلاغ من الله، إنما يبغي ثوابه على ذلك وأجره من الله الذي فطره، ثم دعاهم إلى ما يصلحهم في الدنيا والآخرة وأمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون من الأعمال السابقة ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره وحفظ عليه شأنه وقوته. و في هذا دليل على حرص نوح - عليه السلام - على هداية قومه و إعادتهم إلى عبادة الله وحده بعد أن أضلهم الشيطان. (١)

ثالثاً: دعوة صالح عليه السلام إلى التوحيد

كان قوم صالح (٢) يسكنون مدائن الحجر (٣) بين تبوك (٤) والمدينة، و سموا بتمود لقلّة مائهم. و قيل أنهم سموا بتمود لأبيهم ثمود. (٥) و لا تعارض بين القولين. فبعث الله إليهم صالحاً نبياً، فدعاهم إلى الله - تعالى - فخالفوا أمر الله وعبدوا غيره، وأفسدوا في الأرض، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْثُفٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ (٦)

و في هذه الآية حذف الفعل و الفاعل ﴿أَرْسَلْنَا﴾ بما يدل على إتباع صالح - عليه السلام - للرسل الذين كانوا من قبله، فهو دعاهم إلى توحيد العبادة، كما سبقه إليه الرسل،

١ - انظر: تفسير ابن كثير ٣٢٩/٤

٢ - نسب صالح: هو صالح بن عبيد بن جاثر بن إرم بن سام بن نوح وقيل صالح بن عبيد بن أنيف بن ماشخ بن جادر بن جاثر بن تمود كان بينه وبين تمود مائة سنة. عمدة القاري ٢٧٢/١٥

٣ - الحجر بالكسر ثم السكون وراء، اسم ديار تمود بوادي القرى بين المدينة والشام، وهو من وادي القرى على يوم بين جبال. انظر: معجم البلدان ٢٢١/٢

٤ - تبوك بالفتح ثم الضم وواو ساكنة وكاف، موضع بين وادي القرى والشام. وقيل بركة لأبناء سعد من بني عذرة.

انظر: معجم البلدان ١٤/٢

٥ - انظر: تفسير ابن كثير ٣٣١/٤

٦ - سورة الأعراف: ٧٣

ونهاهم عن الشرك، ف ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ فهذه الدعوة من جنس دعوة إخوانه من المرسلين، الأمر بعبادة الله، وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله، ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي: خارق من خوارق العادات التي لا تكون إلا آية سماوية لا يقدر الناس عليها، ثم بين أن هذه الآية ناقة شريفة فاضلة أضافها -تعالى- إلى نفسه إضافة تشريف. ثم أمرهم بتركها و عدم إيذائها.

و في سورة هود قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ أمرهم بتوحيد العبادة و ذكر نعمة الله عليهم، و أمرهم بالتوبة و الاستغفار مما فعلوا من الشرك والذنوب. فلما أمرهم صالح -عليه السلام- و رغبهم في الإخلاص لله وحده ردوا عليه دعوته، و قابلوه أشنع المقابلة.^(١)

رابعاً: دعوة شعيب عليه السلام

أرسل الله تعالى شعيباً^(٢) -عليه السلام- إلى أهل مدين، وكانوا قوماً عرباً يقطعون الطريق ويخيفون المارة، ويخسون المكاييل والموازين، وكانوا مكاسين^(٣) لا يدعون شيئاً إلا مكسوه. ومدين بلد على بحر القلزم^(٤) محاذية لتبوك على نحو ست مراحل^(٥) منها، أو هي قبيلة

١ - انظر: تفسير السعدي ص ٣٨٤

٢ - نسبه هو شعيب بن يشجر بن عنقا بن مدين بن إبراهيم، وقيل هو شعيب بن صفور بن عنقا بن ثابت بن مدين، وقيل غير ذلك، وكان مدين ممن آمن بإبراهيم. انظر: تفسير القرطبي (٢٨١/٩) و عمدة القاري ٣١١/١٥
٣ - وهو جمع مكَّاسٍ و المكَّسُ : إِنْتِقَاصُ الثَّمَنِ فِي الْبَيْعَةِ . وَالمَكَّسُ : الظُّلْمُ ، وَهُوَ مَا يَأْخُذُهُ الْعَشَّارُ، وَفِي الْحَدِيثِ: "لَا يَدْخُلُ صَاحِبُ مَكَّسِ الْجَنَّةِ". انظر: تاج العروس من جواهر القاموس ٥١٤/١٦

٤ - القلزم: بضم القاف و سكون اللام وضم الزاي وميم، بلدة كانت على ساحل بحر اليمن في أقصاه من جهة مصر، وهي كورة من كور مصر، وإليها ينسب بحر القلزم، وبالقرب منها غرق فرعون، و يعرف اليوم موضعها بالسويس تجاه عجرود. انظر: معجم البلدان ٣٨٧/٤

٥ - وَالْمَرَاجِلُ الْجَمْعُ مَفْرَدُهَا الْمَرْحَلَةُ وَ هِيَ الْمَسَافَةُ الَّتِي يَقْطَعُهَا الْمُسَافِرُ فِي نَحْوِ يَوْمٍ. انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (ر ح ل) ١٥٢/٢

نسبت إلى مدين بن إبراهيم. و قيل أم شعيب هي بنت لوط و قيل جدته، وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه ودخل دمشق.^(١)

فلما طغى قومه أرسل الله إليهم شعيباً، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢)

فقوم شعيب -عليه السلام- غرقوا في المعاصي و طغوا في الأرض، فجاءهم شعيب يدعوهم لعبادة الله وحده، و ترك المعاصي. و في هذه الآية الدليل الواضح أن الرسل كانوا أول ما يدعون إلى توحيد العبادة الذي هو أصل الدين السماوي. ثم أرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في هذه الدنيا، ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

و البينة في هذه الآية هي إقامة الله الحجج والبيئات على صدق ما جاء به شعيب عليه السلام، ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان.^(٣)

و كان يقال لشعيب -عليه السلام- خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه.^(٤) و هذا يظهر في قوله تَعَالَى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُسُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾^(٥) فبعد أمرهم لعبادة الله -تعالى- و تركهم الكسب الحرام، قال:

﴿إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ فالخير هنا سعة ما لهم، أو خفض الأسعار بما يدل على سهولة كسب الرزق، ثم ذكر خوفه من أن تُسلب ما هم فيه بانتهاكهم محارم الله، و في الدار

١ - انظر: فتح الباري ٤٤٩/٦

٢ - سورة الأعراف: ٨٥

٣ - انظر: تفسير ابن كثير ٤٤٧/٣

٤ - انظر: الكشاف ١٢٧/٢

٥ - سورة هود: ٨٤

الآخرة أن يُسلط عليهم عذاب. (١) فلم يؤمنوا بشعيب و ما جاء به، بل كذبوه و أرادوا إخراجهم من ديارهم، فأهلكهم الله العزيز الحكيم و هذه القصص عن الرسل الذين كانوا من العرب، كما ورد في صحيح ابن حبان (٢): "أربعة من العرب هود وشعيب وصالح ونيك محمد - ﷺ -". (٣)

خامساً: دعوة إبراهيم عليه السلام

أرسل الله إبراهيم -عليه السلام- إلى أهل بابل (٤) في العراق الذين كانوا صابئة، (٥) وكانوا يعبدون الأصنام، فدعاهم إبراهيم الخليل إلى توحيد العبادة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٦)

قال ابن كثير في تفسيره: "يخبر -تعالى- عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكور على النعم لا مسدي لها غيره، فقال لقومه ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾

أي: أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

أي: إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع

١ - انظر: تفسير القرطبي (٨٥ / ٩) و ابن كثير ٣٤٢/٤

٢ - محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي، أبو حاتم البستي، ويقال له ابن حبان: مؤرخ، علامة، جغرافي، محدث. من كتبه: المسند الصحيح، روضة العقلاء في الأدب، والأنواع والتفاسيم

في الأزهرية، وغيرها. ، توفي سنة ٣٥٤ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٩٦/١٦

٣ - هذا جزء من الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كل خير حظ رجاء التخلص في العقبى بشيء منها. رقم الحديث (٣٦١) ٧٧/٢

٤ - بابل: اسم قرية كانت على شاطئ نهر من أنهار الفرات بأرض العراق في قديم الزمان. انظر: معجم البلدان ٣٠٩/١

٥ - الصابئة فرق، فمنهم صابئة حنفاء وصابئة مشركون وصابئة فلاسفة وصابئة يأخذون بمحاسن ما عليه أهل الملل والنحل من غير تقييد بملة ولا نحلة. و منهم من يقر بالنبوات جملة ويتوقف في التفصيل. ومنهم من يقر بما جملة وتفصيلا ومنهم من ينكرها جملة وتفصيلا، وهم يقولون أن للعالم صناعا فاطرا حكيمًا مقدسا عن العيوب والنقائص.

والمشركون منهم يجعلون الوسائط ويوجبون التقرب بالروحانيات، وهم الروحانيون المقربون المقدسون عن المواد الجسمانية. انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ٢٥٢/٢ و الملل والنحل ٤/٢

٦ - سورة العنكبوت ١٦

عنكم الشر في الدنيا والآخرة. ثم أخبر -تعالى- أن الأصنام التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء فسميتموها آلهة، وإنما هي مخلوقة مثلكم. هكذا روي عن ابن عباس و به قال مجاهد^(١) و السدي^(٢). وروى الوالي^(٣) عن ابن عباس وتصنعون إفكاً، أي: تنحتونها أصناماً. و به قال مجاهد في رواية وعكرمة^(٤) و الحسن^(٥) وقتادة^(٦) وغيرهم. واختاره ابن جرير.^(٧)

قال الكسائي^(٨): ﴿وإبراهيم﴾ منصوب بـ ﴿فَأَيِّخَنَهُ وَأَصْحَبَ السَّيْنَةَ﴾ يعني أنه معطوف على الهاء. وأجاز الكسائي أن يكون معطوفاً على نوح، والمعنى: وأرسلنا إبراهيم. وقول ثالث أن يكون منصوباً بمعنى: واذكر إبراهيم.^(٩)

-
- ١ - هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، مولى بني مخزوم، تابعي، شيخ القراء والمفسرين. أخذ التفسير عن ابن عباس، قرأه عليه ثلاث مرات، يقف عند كل آية يسأله: فيم نزلت وكيف كانت؟ وتنقل في الإسفار، واستقر في الكوفة. و مات سنة ١٠٤ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٤/٤٩٤
- ٢ - هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي: أبو محمد، تابعي، حجازي الأصل، القرشي مولاهم، سكن الكوفة. وهو السدي الكبير صاحب التفسير والمغازي والسير، وكان إماماً عارفاً بالوقائع وأيام الناس. مات سنة ١٢٨ هـ. انظر: تهذيب التهذيب ١/٢٧٣ و سير الأعلام النبلاء ٥/٢٦٤
- ٣ - هو أبو خالد الوالي الكوفي. اسمه هرمز، روى عن ابن عباس وجابر بن سمرة، وأبي هريرة، وميمونة. وعنه الأعمش، ومنصور، وفطر بن خليفة، وإسماعيل بن حماد بن أبي سليمان. صالح الحديث وذكره ابن حبان في الثقات. مات سنة مائة. انظر: تهذيب التهذيب ١٢/٧٤
- ٤ - هو عكرمة البربري المدني، أبو عبد الله، مولى عبد الله بن عباس، تابعي، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي. ولي البصرة لعلي. وكانت وفاته بالمدينة ١٠٥ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٥/١٢ و تهذيب التهذيب ٧/٣٢٤
- ٥ - هو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد: تابعي، ولد بالمدينة ٢١ هـ، كان إمام أهل البصرة، وحرير الأمة في زمنه. وكانت أمه مولاة لأم سلمة أم المؤمنين. توفي بالبصرة سنة ١١٠ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٤/٥٦٣
- ٦ - هو قتادة بن دعامة بن قنادة بن عزيز، أبو الخطاب السدوسي البصري: مفسر حافظ ضريير. وكان مع علمه بالحديث، رأساً في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب. مات بواسط في الطاعون سنة ١١٨ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٥/٢٦٩
- ٧ - تفسير ابن كثير ٦/٢٦٩
- ٨ - هو علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء، الكوفي، أبو الحسن الكسائي: إمام في اللغة والنحو والقراءة. أصله من أولاد الفرس. له تصانيف، منها: معاني القرآن، والمصادر، و الحروف، و النوادر، ومختصر في النحو. وتوفي بالري سنة ١٨٩ هـ. معرفة القراء الكبار ١/١٢٠
- ٩ - تفسير القرطبي ١٣/٣٣٥

قال الطبري: "يقول - تعالى ذكره - لنبية محمد - ﷺ -: واذكر أيضاً يا محمد إبراهيم خليل الرحمن، إذ قال لقومه اعبدوا الله أيها القوم دون غيره من الأوثان والأصنام، فإنه لا إله لكم غيره واتقوه، يقول واتقوا سخطه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ما هو خير لكم مما هو شر لكم." (١)

وقد ذكر الله - تعالى - دعوة خليله لقومه في كتابه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ
ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءِالِهَةً إِنِّي أَرِنكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ (٢) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي
فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي
عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ (٣)

وعظ إبراهيم أباه في عبادة الأصنام و زجره عنها و نهاه، و وصفه بالضلال المبين، إذ لا يفعل ذلك من له عقل، فكيف يفعل هذا أبوه، فكان إبراهيم - عليه السلام - يستغفر لأبيه مدة حياته رجاء أن يسلم، فلما مات على الشرك تبرأ منه. (٤)

و قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا لَهْتَإِبْرَاهِيمَ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا
فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ (٥)

فلما كسر الخليل الأصنام و ترك أكبرهم وجد فرصة ليبين لقومه قلة عقلهم و حاجتهم في عبادتها، فاعترفوا بما أراد الخليل، لكن استكباراً و عناداً أبوا إلا أن يحرقوه فأنجاه الله تعالى. (٦)

و قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ
أَصْنَامًا فَظَلُّوا لَهَا عَكْفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ

١ - تفسير الطبري ١٨/٢٠

٢ - الأنعام: ٧٤

٣ - مريم: ٤١ - ٤٢

٤ - انظر: تفسير ابن كثير ٢٩٠/٣

٥ - الأنبياء: ٦٢ - ٦٣

٦ - انظر: تفسير الطبري ٤٦٣/١٨

وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾

فَاتَّهَمُوا عَدُوًّا لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴿١﴾

يأمر الله تعالى نبيه محمد - ﷺ - أن يتلو هذه الآيات لأمته ليقتدوا بإبراهيم في الإخلاص والتوكل و عبادة الله وحده لا شريك له، و التبري من الشرك و أهله. فإن قومه نشأوا على الشرك و ورثوه من آبائهم، و كانوا يظنون أن الأصنام تضر و تنفع، فوقف الخليل أمامهم يبين لهم حقيقتها و يبين لهم من يستحق العبادة.

سادساً: دعوة موسى عليه السلام

ذكر الله - تعالى - قصة موسى في مواضع كثيرة من القرآن الكريم. و موسى - عليه السلام - من أعظم رسل بني إسرائيل، و هم خيار أهل الأرض إذ ذاك، فسلط عليهم فرعون الملك الظالم الذي كان يقتل أبناءهم و يستحيي نساءهم، و هم صابرون على هذا لبشارتهم التي ورثوها من آبائهم أن الله سيرسل رسولاً يمكنهم به في الأرض و يملكهم مصر. و أرسل الله موسى إلى فرعون الذي كان يدعي الألوهية و يقهر الناس عليها، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتْبَعُوا آمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ

بِرَشِيدٍ ﴿١٧﴾ ﴿٢﴾ و قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى

فِرْعَوْنَ وَهَمْلَنَ وَقَرَّبُوا نِجْرًا كَذَابٍ ﴿٢٤﴾ ﴿٣﴾ و قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴿٤﴾ لما رجع موسى - عليه السلام - من مدين دعا فرعون إلى الله وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ممن اختار هو والملا من قومه، وأحضرهم عنده، و وعدهم بالعطاء

١ - الشعراء: ٦٩ - ٧٧

٢ - هود: ٩٦ - ٩٧

٣ - غافر: ٢٣ - ٢٤

٤ - الزخرف: ٤٦

الجزيل، ولهذا كانوا من أحرص الناس على الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون، وموسى -عليه السلام- لا يعرف أحداً منهم، ولا رآه ولا اجتمع به.^(١) و موسى -عليه السلام- حريص أن يري فرعون أمام الناس أنه ليس كما زعم وادعى الألوهية. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْفِرُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ

جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾^(٢)

أخبر -تعالى- عن مناظرة موسى لفرعون، وإجمامه إياه بالحجة، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه، فذكر لهم أنه مرسل من الذي خلق كل شيء وربّه ومليكه.

و قال واجب وحق علي ألا أخبر عن ربي إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من عز جلاله وعظيم سلطانه. و جاء بحجة قاطعة من الله أعطها له دليلاً على صدقه فيما جاء به، فأطلق بني إسرائيل من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم؛ فإنهم من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن عليهم صلوات الله.^(٣)

لكنه أنكر ذلك كما أنكر في هذه السورة إذ قال تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴿١٠٦﴾﴾^(٤) فإن فرعون لما رأى معجزة موسى ظن أنه سيعلو عليه؛ لأنه كان يتعامل بسحرة ماهرين، قال تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾^(٦) و في سورة الشعراء سأله عن رب العالمين، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾^(٧)

١ - انظر: تفسير ابن كثير ٤٥٨/٣

٢ - الأعراف: ١٠٤ - ١٠٥

٣ - انظر: تفسير ابن كثير ٤٥٤/٣

٤ - الأعراف: ١٠٦

٥ - الأعراف: ١١٢

٦ - الشعراء: ٣٧

٧ - الشعراء: ٢٣

وكان جحده لرب العالمين استكباراً و تجبراً، ليس حقيقة، فإنه قال: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنٌ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا ۗ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا كِيدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾^(١) بما يدل إقراره برب و أنه في السماء. فمن الصعب أن يخضع هذا الذي كان يفعل بني إسرائيل الأفاعيل و يدعي الألوهية، و أن يسلم لعبادة الله وحده، بل أراد لأن يبرز قوته و ألوهيته بأمر أن يُبني له هرم لا مثيل له.

ولما آمن السحرة و سجدوا لله و كانوا يعرفون السحر، فلما رأوا معجزة موسى تبين لهم الحق، فأسلموا، رغم أن فرعون وعدهم أجراً عظيماً، فقتلهم.

فلما أبحى الله بني إسرائيل من فرعون و قومه، جاءت مرحلة جديدة في دعوة موسى قومه، و دعوته ليحققوا توحيد العبادة كما أمرهم الله تعالى. فقد قص الله لنا كثيراً من هذه القصص، فأخبر تعالى قصتهم في عبادتهم العجل: ﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ﴾^(٢) و قال: ﴿ وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌّ أَلَمٌ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾^(٣) فموسى -عليه السلام- بذل نفسه و جهده في بيان توحيد العبادة، ولكن قومه خذلوه و آذوه كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِغُلَامِكُمْ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾^(٤) فالله -تعالى- يقص هذه القصص للعبرة و الموعدة و ليس للتاريخ و التسلية.

١ - غافر: ٣٦ - ٣٧

٢ - البقرة: ٥١

٣ - الأعراف: ١٤٨

٤ - الصف: ٥

سابعاً: دعوة عيسى عليه السلام

إن الله -تعالى- خلق عيسى -عليه السلام- بغير أب، و في هذا معجزة و ابتلاء لبني إسرائيل ثم للناس كافة، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١) فإذا أراد الله شيئاً خلقه بكن، فيكون، فكان خلق عيسى - عليه السلام- كذلك. فأول ما تكلم به أن نزه ربه و برأه عن الولد، و أثبت لنفسه العبودية لربه، فدعوته إلى توحيد العبادة في صغره قبل كبره. ثم انتشر خبره بين الناس، فعظموه و أمه، لكن اليهود حسدوه، و كانوا يسمونه ابن الباغية، و يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرِهِمْ وَّقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ (٢) فخرج من الشام إلى مصر ليكون بعيداً عن أعينهم و هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (٣)

ذكر ابن كثير قصته في مصر و أنه -عليه السلام- كان حتى في طفولته و شبابه مؤيداً بمعجزات. (٤)

فلما أرسله الله برسالة صار يدعو إلى توحيد العبادة، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ (٥) يخبر -تعالى- عن كفر النصارى بقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ بشبهة أنه خرج من أم بلا أب، وخالف المعهود من الخلق والحال. و إنه -عليه الصلاة والسلام- قد كذبهم في هذه الدعوى، وقال لهم: ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فدعاهم

١ - آل عمران: ٥٩

٢ - النساء: ١٥٦

٣ - المؤمنون: ٥٠.

٤ - انظر: البداية و النهاية ٢ / ٧٦

٥ - المائدة: ٧٢

إلى توحيد العبادة، ثم أثبت لنفسه العبودية التامة ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يُشْرِكْ﴾ أي: أحداً من المخلوقين لا عيسى ولا غيره، فقد حرم الله عليه الجنة، ومأواه النار، وذلك لأنه سوى الخلق بالخالق، وصرف ما خلقه الله له، وهو العبادة الخالصة لغير من هي له، فاستحق أن يخلد في النار. (١)

و قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُواهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٥١) (٢)

بعد أن ذكر الله -تعالى- على لسان عيسى -عليه السلام- المعجزات التي نصره الله بها، وأنه تابع لمن قبله من الرسل، وأنه جاء ليحل بعض ما حرم لبني إسرائيل، ذكر ما هو جامع لجميع الرسل، وهو توحيد العبادة، وهو الصراط المستقيم الذي من يسلكه أوصله إلى جنات النعيم، فحينئذ اختلفت أحزاب بني إسرائيل في عيسى، فمنهم من آمن به واتبعه، ومنهم من كفر به وكذبه ورمى أمه بالفاحشة، كاليهود. (٣)

و الخلاصة في هذا المبحث أن الله -تعالى- أرسل كل الرسل إلى لقومهم، فقالوا:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ و هذا هو أول دعوة الرسل و آخرها.

و أما بينهما فهو تحقيق هذا التوحيد. و القرآن مملوء من تحقيق هذا التوحيد و الدعوة إليه، و تعليق النجاة و الفلاح و اقتضاء السعادة في الآخرة به. و حقيقته أن تفتى بعبادته عما سواه -سبحانه-، و محبته عن محبة ما سواه، و بخشيته عن خشية ما سواه، و بطاعته عن طاعة ما سواه، و بمولاته عن موالاة ما سواه، و بسؤاله عن سؤال ما سواه، و التوكل عليه عن التوكل على ما سواه، و إلى غير ذلك مما أمر الله -سبحانه- في كتابه و سنة نبيه. كما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: كان النبي -ﷺ- إذا قام من الليل يتهجّد قال: "اللهم لك الحمد، أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، لك ملك السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت ملك السماوات والأرض، ولك الحمد، أنت الحق ووعدك

١ - انظر: تفسير السعدي ٢٤٠/١

٢ - آل عمران: ٥١

٣ - انظر: تفسير السعدي ص ٢٣٩

الحق ولقائوك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، و النبيون حق، ومحمد ﷺ - حق، والساعة حق. اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت أو لا إله غيرك." (١)

و قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ (٦٤) (٢) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَلَّ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٤) (٣) و الآيات في هذا التوحيد كثيرة في القرآن، و هو أول الدين و آخره، و باطنه و ظاهره، و ذروة سنام هذا التوحيد لأولي العزم من الرسل، ثم للأنبياء كلهم. (٤)

فمن ضل فيه، فقد رغب عن سبيل الرسل و الأنبياء، فكم من الفرق ضلت بسبب إعراضهم عن طريقة القرآن و ما نصه عن دعوة الرسل و منهجهم.

١ - أخرجه البخاري في أبواب التهجد، باب التهجد بالليل وقوله عز وجل ومن الليل فتهجد به نافلة لك. رقم

الحديث (١١٢٠) ٦٠/٢

٢ - الزمر: ٦٤

٣ - الأنعام: ١٤

٤ - انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٥/٢٤٤ - ٢٤٧

المبحث الثاني: خلق الله الخلق لأجله

أولاً: الأقوال في الآية

ثانياً: الفوائد

إن الله -تعالى- خلق الخلق لحكمة بالغة، وأسبغ عليهم ما لا يحصونه من نعمته، وكرم بني آدم بأصناف كرامته، و خص عباده المؤمنين بمهاديته، وجعل أمة محمد -ﷺ- خير أمة أخرجت للناس من بريته، وبعث فيهم رسولاً من أنفسهم، يعلمون صدقه وأمانته، وجميل سيرته، يتلو عليهم آياته ليخرجهم من ظلمة الكفر وحيرته، ويهديهم إلى صراط مستقيم، ويدعوهم إلى عبادته. وأنزل عليهم أفضل كتاب أنزله إلى خلقه، وجعله آية باقية إلى قيام ساعته، و معجزة باهرة بيّنة موضحة لدعوته، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١) فالسعيد من اعتصم بكتاب الله --تعالى- واتبع الرسول -ﷺ- في سنته وشريعته. وأصل العبادة هو إخلاص العبد لله، فإنه -سبحانه- إنما أنزل الكتب و أرسل الرسل، وخلق الخلق لعبادته، وهي دعوة الرسل لكافة بريته، كما ذكر ذلك في كتابه على ألسنة رسله بأوضح دلالاته.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ (٥٧) (٢)

عقب قوله تعالى: ﴿وَذَكَرْنَا فَإِنَّ الذِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣) يعني أقصى غاية التذكير وهو أن الخلق ليس إلا للعبادة و توحيد الله، فالمقصود من إيجاد الإنسان هو ما ذكرته، فذكرهم به وأعلمهم أن كل ما عداه تضييع للزمان، و طاعة للهوى و الشيطان و حرمان النفس من

١ - المائدة: ١٦

٢ - الذاريات: ٥٦ - ٥٧

٣ - الذاريات ٥٥

أسباب دخول الجنة. و عمل الأنبياء منحصر في أمرين: عبادة الله، وإبلاغ رسالة الله إلى

الخلق، قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٣٥) (١)

والحصر المستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ قصر علة خلق الله الإنس والجن على إرادته أن يعبدوه، والظاهر أنه قصر إضافي، وأنه من قبيل قصر الموصوف على الصفة، وأنه قصر قلب باعتبار مفعول ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي: إلا ليعبُدوني وحدي، أي: لا ليشركوا غيري في العبادة، فهو رد للإشراك، فإننا وإن لم نطلع على مقادير حكم الله -تعالى- من خلق الخلائق، لكننا نعلم أن الحكمة من خلقهم ليست مجرد أن يعبدوه؛ لأن حكم الله -تعالى- من أفعاله كثيرة لا يحيط بها. (٢)

و توضيحاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ فإن من المهم تحليل بعض مفردات الآية و ربطها بموضوع البحث.

قوله تعالى: ﴿ الْجِنَّ ﴾ أصل الجنّ: ستر الشيء عن الحاسة.

يقال: جنّه الليل وأجنّه وجنّ عليه، فجنّه: ستره، وأجنّه جعل له ما يجنّه، كقولك: قبرته وأقبرته، وسقيته و أسقيته، وجنّ عليه كذا: ستر عليه. قال عزّ وجل: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ أَيْلٌ رءَا كَوَكْبًا ﴾ (٣) والجنان: القلب، لكونه مستوراً عن الحاسة.

والجن: جنس من المخلوقات مستتر عن أعين الناس، وهو جنس شامل للشياطين، قال تعالى عن إبليس: ﴿ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ (٤)

﴿ وَالْإِنْس ﴾: خلاف الجن، والأنس: خلاف النفور، والإنسيّ منسوب إلى الإنس، يقال ذلك لمن كثر أنسه، ولكلّ ما يؤنس به. و هو اسم جمع، واحده إنسي بناء النسبة إلى جمعه. (٥)

١ - النحل: ٣٥

٢ - انظر: التحرير و التنوير ٤٥/٢٧

٣ - الأنعام: ٧٦

٤ - الكهف: ٥٠

٥ - انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب ص ٩٤

وما ذكر الله الجن هنا إلا لتنبية المشركين بأن الجن غير خارجين عن العبودية لله تعالى. وقد حكى الله عن الجن في سورة الجن، فقال قائلهم: ﴿وَأَنَّهُ كَانَتْ يَقُولُ سَفِينًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا

(١) ﴿٤﴾

وتقديم الجن في الذكر في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجن، ليعلموا أن الجن عباد الله تعالى، فهو نظير قوله تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٢) واللام في ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ لام العلة، أي: ما خلقتهم لعله إلا علة عبادتهم إياي. والتقدير: لإرادتي أن يعبدون.

أولاً: الأقوال في الآية

وأما تفسير قوله تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ففيه عدة أقوال: الأول: قيل هو مخصوص بمن وقعت منه العبادة. وهذا قول طائفة من السلف والخلف. (٣) وقيل المراد بذلك من وجدت منه العبادة، فهو مخلوق لها، ومن لم توجد منه، فليس مخلوقاً لها.

١ - الجن: ٤

٢ - الأنبياء: ٢٦

٣ - منهم: سعيد بن المسيب، والضحاك، والفراء، وابن قتيبة، والقاضي أبي يعلى، وغيرهم. انظر: تفسير ابن كثير

٤٢٥/٧ و مجموع الفتاوى ٣٩/٨

وكذلك قال الفراء^(١) و ابن قتيبة^(٢) و الضحاك^(٣).^(٤)

قراءة ابن عباس: "وما خلقت الجن والإنس -من المؤمنين- إلا ليعبدون." ثم قال في

أخرى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾^(٦) ^(٧)

و ذهب إلى هذا القول الكرامية^(٨) الذين قالوا إن غاية مقصودة واقعة في العبادة أنها وقعت من المؤمنين.

المؤمنين. وهذا القول اختيار أبي بكر بن الطيب،^(٩) و القاضي أبي يعلى^(١٠) وغيرهما ممن يقول أنه لا

يفعل لعله. و حجتهم أن البُله والأطفال والمجانين لا يدخلون تحت الخطاب، وإن كانوا من الإنس،

وكذلك الكفار يخرجون من هذا بدليل قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ

وَالْإِنسِ﴾^(١١) الآية

١ - هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، مولى بني أسد، أبو زكرياء، المعروف بالفراء، إمام الكوفيين، ولد بالكوفة سنة ١٤٤ هـ. وكان مع تقدمه في اللغة فقيهاً متكلماً، عالماً بأيام العرب وأخبارها. من كتبه: المقصور و معاني

القرآن وغيرها. وتوفي في طريق مكة سنة ٢٠٧ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٠/١١٨

٢ - هو أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو جعفر من أهل بغداد، له اشتغال بالأدب والكتابة. ولي القضاء بمصر سنة ٣٢١ هـ، مات وهو على القضاء. وكانت وفاته بمصر سنة ٣٢٢ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء

١٤/٥٦٥

٣ - هو الضحاك بن مزاحم الهلالي البلخي الخراساني، أبو محمد، صاحب التفسير. كان من أوعية العلم، وليس

بالمجود لحديثه، وهو صدوق في نفسه. توفي بخراسان سنة ١٠٥ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٤/٥٩٨

٤ - انظر: تفسير القرطبي ١٧/٥٥

٥ - هذه القراءة شاذة. انظر: القراءات الشاذة ص ١٤٥.

٦ - الأعراف: ١٧٩

٧ - انظر: تفسير البغوي ٧/٣٨٠

٨ - الكرامية: هم أتباع محمد بن كرام السجستاني مات ٢٥٥ هـ وهم طوائف متعددة من أهل الإثبات يغلب

عليهم الإرجاء في الإيمان، والتشبيه و التجسيم في الصفات، ولديهم انحرافات أخرى. الفرق بين الفرق ص ٢٠٢

٩ - هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر قاضي، ابن الباقلاني، من كبار علماء الكلام. انتهت إليه

الرياسة في مذهب الأشاعرة. ولد في البصرة سنة ٣٣٨ هـ، وسكن بغداد. من كتبه: إعجاز القرآن، الإنصاف، ومناقب

الأئمة، و دقائق الكلام، والملل والنحل وغيرها. توفي سنة ٤٠٤ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٧/١٩٠

١٠ - هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء، أبو يعلى، ولد سنة ٣٨٠ هـ عالم عصره في الأصول

والفروع وأنواع الفنون. من أهل بغداد. ولي قضاء دار الخلافة والحريم، وحران وحلوان. له تصانيف كثيرة، منها: الإيمان،

و الأحكام السلطانية، و أحكام القرآن، و غيرها. مات سنة ٤٥٨ هـ. سير أعلام النبلاء ١٨/٨٩

١١ - الأعراف: ١٧٩

فمن خلق للشقاء ولجهنم، لم يخلق للعبادة.^(١)

الثاني: قول زيد بن أسلم أن جبلهم على الشقاوة والسعادة. وقال وهب بن منبه جبلهم على الطاعة وجبلهم على المعصية.^(٢)

وهذا يشبه قول من قال في تفسير قول النبي ﷺ -: "كل مولود يولد على الفطرة."^(٣) أي: على ما كتب له من سعادة وشقاوة.^(٤)

الثالث: قول السدي، قال: خلقهم للعبادة، فمن العبادة عبادة تنفع، ومن العبادة عبادة لا تنفع. و استدل بقوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾^(٥) قال: هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع شركهم.^(٦)

الرابع: قول قتادة وذكره البغوي^(٧) عن مجاهد. أنه قال: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ أي: إلا ليعرفون. ليعرفون. قال البغوي: "وهذا قول حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده.

ودليله قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾^(٨) (٩)

الخامس: أن الله خلق الخلق لعبادته، وهو فعل ما أمروا به. روي هذا عن علي بن أبي

١ - انظر: تفسير القرطبي ١٧ / ٥٥ و مجموع الفتاوى ٥٠/٨

٢ - انظر: درء تعارض العقل والنقل ٤/٣٣٢

٣ - سبق تخرجه في الصفحة ٢٥

٤ - انظر: مجموع الفتاوى ٤٥/٨

٥ - العنكبوت: ٦١

٦ - انظر: تفسير ابن كثير ٧/٤٢٥

٧ - الحسين بن مسعود بن محمد، الفراء، أو ابن الفراء، أبو محمد، ويلقب بمحيي السنة، البغوي: فقيهه، محدث، مفسر. نسبته إلى بغا من قرى خراسان، ولد سنة ٤٣٦هـ. من كتبه: التهذيب في فقه الشافعية، و شرح السنة، ولباب التأويل في معالم التنزيل، و مصابيح السنة وغيرها. توفي بمرور سنة ٥١٠هـ. سير أعلام النبلاء ١٩/٤٣٩

٨ - الزخرف: ٨٧

٩ - تفسير البغوي ٧/٣٨٠

طالب^(١) - رضي الله عنه -: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ أي: إلا لآمرهم أن يعبدون، وأدعواهم لعبادتي^(٢). و غيره من السلف، و اختاره الزجاج، و هو ثابت عن مجاهد، و الربيع بن أنس^(٣) و غيره. و يؤيده قوله عز وجل: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٤) و قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٥) و قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(٦) أي: لا يؤمر و لا ينهى. و قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٧) وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ^(٨) وهو أيضاً أول الأمر واقع في القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٩)

١ - هو علي بن أبي طالب بن عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف أبو الحسن الهاشمي. أمير المؤمنين. كناه رسول الله ﷺ أبا تراب. أول من آمن بالله ورسوله من الصبيان، وزوجه رسول الله ﷺ - ابنته فاطمة.

من الخلفاء الراشدين، قتل سنة ٤٠ هـ. انظر: الإصابة ٤/٥٦٤ و تهذيب التهذيب ٧/٢٩٤

٢ - انظر: تفسير الطبري ٢٢/٤٤٤ و تفسير القرطبي ١٧/٥٣ و تفسير البغوي ٧/٣٨٠

٣ - هو الربيع بن أنس بن زياد البكري، الخراساني، المروزي. بصري، كان عالم مرو في زمانه، سمع أنس بن مالك، وأبا العالية الرياحي، والحسن البصري، و لقيه سفيان الثوري. حديثه في السنن الأربعة. توفي سنة ١٣٩ هـ انظر: سير أعلام

النبلاء ٦/١٦٩

٤ - التوبة: ٣١

٥ - البينة: ٥

٦ - القيامة: ٣٦

٧ - يس: ٦٠ - ٦١

٨ - البقرة: ٢١

السادس: قال بعض العلماء ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا ليخضعوا لي ويتذللوا. قالوا: ومعنى العبادة في اللغة التذلل والانقياد، وكل مخلوق من الجن والأنس خاضع لقضاء الله - تعالى - متذلل لمشيئته، لا يملك أحد لنفسه خروجاً عما خلق. (١)

السابع: وقيل: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إلا ليوحدوني، فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء، بيانه قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٢) هذه الأقوال قد يكون في الظاهر أنها قريبة بعضها من بعض، لكن حين ندقق تفسيرها نرى أن بعض أصحاب الفرق أرادوا نصرة مذهبهم من خلالها، فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية بعض هذه الأقوال في مجموع الفتاوى وناقشها و بين سرها. وأنا أحاول هنا ألخص ما رده عليهم.

أولاً: الرد على الكرامية و من وافقهم على أن المراد من هذه الآية الخصوص و إن ورد على العموم، فهو قول ضعيف مخالف لقول الجمهور، ولم تدل عليه الآية، فإن قصد العموم ظاهر في الآية. وبين بياناً لا يحتمل النقيض، إذ لو كان المراد المؤمنين فقط لم يكن فرق بينهم وبين الملائكة، فإن الجميع قد فعلوا ما خلقوا له، ولم يذكر الإنس والجن عموماً، ولم تذكر الملائكة مع أن الطاعة والعبادة وقعت من الملائكة دون كثير من الإنس والجن. إن سياق الآية يقتضي أن هذا ذم وتوبيخ لمن لم يعبد الله منهم؛ لأن الله خلقه لشيء، فلم يفعل ما خلق له، ولهذا عقبها بقوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ

يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ (٣) فإثبات العبادة ونفى هذا يبين أنه خلقهم للعبادة، ولم يرد منهم ما يريد السادة من عبيدهم من الإعانة لهم بالرزق والإطعام، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا

١ - انظر: تفسير البغوي ٣٨١/٧

٢ - العنكبوت: ٦٥

٣ - الذاريات: ٥٧

ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ ﴿٥٩﴾^(١) أي: نصيباً مثل ذنوب أصحابهم، أي: المتقدمين من

الكفار، أي: نصيباً من العذاب. وهذا وعيد لمن لم يعبد من الإنس والجن. فذكر هذا الوعيد عقيب هذه الآية من أولها إلى آخرها يتضمن وعيد من لم يعبد.^(٢)

ثانياً: الرد على الإباحية الذين قالوا أن المخلوقات كلها تحت مشيئته وقهره و حكمه. و هذا من أقوال هؤلاء الذين تشبه أقوالهم أقوال المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءَنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾^(٣) و أن إثبات القدر السابق حق، لكن ذلك هو الذي يصير العبد إليه ليس هو الذي فطر عليه، و هم فسروا العبادة بأمر واقع عام، لا كما جاء بها الرسل. و قالوا معنى العبادة في اللغة التذلل والإنقياد، وكل مخلوق من الجن والانس خاضع لقضاء الله -تعالى- متذلل لمشيئته لا يملك أحد لنفسه خروجاً عما خلق. وأما زيد بن أسلم و وهب بن منبه ونحوهم، فحاش لهم من مثل هذا، فإنهم كانوا من أعظم الناس تعظيماً للأمر والنهي والوعد والوعيد، ولكن قصدوا الرد على المكذبين بالقدر، القائلين بأنه يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء. وهؤلاء حقيقة قولهم أنه لا يقدر على تعبيدهم وتصريفهم تحت مشيئته، فأرادوا إبطال قول هؤلاء.^(٤)

ثالثاً: الرد على من قال خلقهم للعبادة، فمن العبادة عبادة تنفع، ومن العبادة عبادة لا تنفع. لكن المشرك يعبد الشيطان، وما عدل به الله لا يعبد ولا يسمى مجرد الإقرار بالصانع عبادة لله مع الشرك بالله، ولكن يقال كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(٥) فيإيمانهم بالخالق مقرون بشركهم به، وأما العبادة، ففي الحديث القدسي يقول الله تعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيري، فأنا منه

١ - الذاريات: ٥٩

٢ - مجموع الفتاوى ٨/٤٠-٤١

٣ - الأنعام: ١٤٨

٤ - مجموع الفتاوى ٨/٤٧-٥٠

٥ - يوسف: ١٠٦

بريء." (١) وهو كله للذي أشرك، فعبادة المشركين - وإن جعلوا بعضها لله - لا يقبل منها شيئاً، بل كلها لمن أشركوه، فلا يكونون قد عبدوا الله سبحانه.

ومثل هذا قول من قال (إلا ليوحدون) فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء، بيانه في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٢) (٣)

رابعاً: الرد على من قال أنه المعرفة، و استدلووا بقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٤) فيقال هذا المعنى صحيح، وكونه إنما عرف بخلقهم يقتضى أن خلقهم شرط في معرفتهم لا يقتضى أن يكون ما حصل لهم من المعرفة هو الغاية التي خلقوا لها. وهذا من جنس قول السدى، فإن هذا الإقرار العام هم مشركون فيه، لكن ليس هذا هو العبادة. (٥)

خامساً: قد ورد عن علي بن أبي طالب وغيره من السلف، فذكروا أنه المراد: إلا لآمرهم أن يعبدون و أدعوهم إلى عبادتي. و يؤيد هذا القول كثير من الآيات و الأحاديث، فهذا هو المعنى الذي قصد بالآية قطعاً، وهو الذي تفهمه جماهير المسلمين، ويحتجون بالآية عليه ويعترفون بأن الله خلقهم ليعبدوه لا ليضيعوا حقه، لكن خرج من هذا القول القولان:

قول أهل السنة المثبتة للقدر، و قول نفاة القدر. (٦)

١ - أخرجه مسلم في كتاب الزهد و الرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله. رقم الحديث (٧٦٦٦) ٢٢٣/٨

٢ - العنكبوت: ٦٥

٣ - انظر: مجموع الفتاوى ٥٠ / ٨

٤ - الزمر: ٣٨

٥ - انظر: مجموع الفتاوى ٥١/٨

٦ - والقدريه فرقتان: الأولى: القدريه الغلاة: وهم الذين ينكرون علم الله السابق، ويقولون الأمر مُسْتَأْنَفٌ جديد، لا يعلم الله الخير حتى يقع، ولا يعلم الشر حتى يقع. فهؤلاء كَفَرَهُمُ السلف، و هذه الفرقة كانت موجودة وانتهت. والفرقة الثانية المعتزلة وأشباههم: وهم الذين يُسَمَّونُ القدريه، وهم يقولون: إنَّ الإنسانَ يخلقُ فعلَ نفسه، وأنَّ الله - عز وجل - لا يُضَافُ إليه خَلْقاً كل ما هو سيء، لا يُضَافُ إليه خَلْقاً الشر ولا القتل ولا إلى آخره. ويقولون: إنَّ فعل العبد

فأما أهل السنة المبتنون للقدر، فيقولون قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ لا يستلزم وقوع العبادة منهم.

و يقولون أنه ما شاء كان، و ما لم يشأ لم يكن، وهو - سبحانه - خالق كل شيء. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾^(١) فإذا خلقهم للعبادة المأمور بها ولم يفعلوها، لم يكن قد شاء أن تكون، إذ لو شاء أن تكون لكونها، لكن أمرهم بها وأوجب أن يفعلوها، ورضي أن يفعلوها، وأراد أن يفعلوها إرادة شرعية تضمنها أمره بالعبادة.^(٢)

قال حافظ الحكمي^(٣) - رحمه الله - بعد أن رجح قول علي بن أبي طالب في الآية: "ويؤيد ذلك أن الله - تبارك وتعالى - إنما شاء العبادة من جميع عبادته، وأرادها منهم وقضاها عليهم في الشرع لا في الكون، فمن أطاع أمره وأتى بما أراده وشاءه منه، فله رضاه والجنة، ومن خالف في ذلك، فله سخطه والنار، ولو شاء الله تعالى من جميعهم العبادة وأرادها في الكون لم يكن لهم بد من ذلك، ولم يكن لأحد إلى معصية الله - تعالى - من سبيل، ولا يخرج عن قضائه - تعالى - وقدره شيء من المخلوقات مثقال ذرة، فإنه لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا مضاد لأمره، ولا ناقض لما أبرمه، ولا دافع لما قدره."

إلى أن قال: "وهذه المشيئة منه للعبادة من عبادته شرعاً عامة للمؤمنهم وكافرهم، وأما مشيئته للعبادة الكونية القدرية، فخاصة للمؤمنين، فلهذا اتفقت فيهم المشيئتان فوافقوا المشيئة الشرعية لما سبق لهم في المشيئة القدرية الكونية، وأما الكافر فلم يوافق المشيئة الشرعية لما

واستطاعة العبد وقدرة العبد، هذه ليس لله - عز وجل - فيها مأخذ؛ بل قدرة المطيع وقدرة العاصي وقدرة المؤمن وقدرة الكافر، إرادة المؤمن، إرادة الكافر للعمل واحدة. وقالوا: إن العدل يوجب على الله - عز وجل - أن يساوي بين العباد، والظلم بالتفريق ما بين هذا وهذا، ما بين المؤمن والكافر والمطيع والعاصي هذا ظلم. فَحَكِّمُوا عَقُولَهُمْ وَأَرَءَاهُمْ فِي فِعْلِ اللَّهِ - عز وجل - وفي تَصَرُّفِهِ وصفاته - عز وجل - . انظر: الفرق بين الفرق ص(٩٣ - ٩٤) ، و الملل والنحل ١/١٥ ومجموع الفتاوى (٣٨٤/٧ - ٣٨٦).

١ - هود: ١١٨

٢ - انظر: مجموع الفتاوى ٨ / ٥٤-٥٥

٣ - هو حافظ بن أحمد بن علي الحكمي: فقيه أديب. ولد في قرية السلام جنوبي جيزان سنة ١٣٤٢هـ. من كتبه: الجوهرة الفريدة في العقيدة، و اللؤلؤ المكنون في أحوال السند والمتون، وسلم الوصول إلى علم الأصول، أرحوزة، ومعارج القبول، و هي شرح لسلم الوصول. توفي بمكة سنة ١٣٧٧هـ. الأعلام ١٥٩/٢

سبق عليه في المشيئة القدرية من الشقاوة. فتبين بهذا أن المشيئة الكونية القدرية لا خروج لأحد منها، ولا محيد له عنها، سواء سبقت له بالشقاوة أو السعادة. وأما المشيئة الشرعية، فمن كان سبق له في القدرية أنه يوافقها كان كذلك، أو يخالفها كان كذلك." (١)

ثانياً: الفوائد

بعد أن بينت أقوال أهل العلم في معنى الآية الكريمة، فلعلي ألخص بعض الفوائد مما سبق:

أولاً: الأصل في الناس العبادة، فمن اتبع سبيل الرسل، فقد وافق ما خلق له.

ثانياً: من عرف الحكمة من خلقه، و أنه لم يترك سدى سهل على معرفة الله -تعالى- ولما خلقه له.

ثالثاً: بينت الآية الغاية من خلق الإنسان، فمن حققها اتفقت له المشيئتان (الكونية والشرعية)، و من لم يحققها تحقق له المشيئة الكونية.

رابعاً: المقصود من الحصر في الآية هو الغاية المحبوبة المرضية المستلزمة النجاة في الدارين، وليست لازمة الوقوع.

خامساً: تفسير بعض السلف الآية بالخصوص تفسير ضعيف.

سادساً: لتحقيق العبودية لا بد من شيئين؛ الغاية و الوسيلة المشروعة، فالغاية العبادة والتوحيد، و الوسيلة متابعة الرسل -عليهم الصلاة و السلام-.

سابعاً: إن أفضل الناس من يعرف الله -تعالى- حق معرفته، فمعرفة الله -تعالى- تكون بمعرفة ما أمر و ما نهى، و ما يحب و يرضى، ثم امتثال ذلك، فمن قال أن معرفة الله تكون بمعرفته في القلب دون غيره من جوارحه و عمله، و عرف ضلاله.

ثامناً: من قال أن الله خلق الخلق لعبادته، فكلما وقع من الإنسان من عمل فهو عبادة، فهم فسروا العبادة بأمر واقع عام، كان هذا تعطيلهم ما جاءت به الرسل، فهؤلاء الإباحية الباطنية الذين قالوا عن إبليس إن كان عصى الأمر، فقد أطاع المشيئة.

تاسعاً: إن أمر العبادة مبني على التسليم بما جاء من الله عن طريق الرسل، وقد يعرف منه الحكمة و قد لا يعرف، فمن امثله فهو عين الحكمة، و من طلب الحكمة بغير الامتثال ضاعت حكمته.

المبحث الثالث: افتقار القلوب إليه

أولاً: القلب السليم

ثانياً: علامات القلب السليم

- ١- الوجل عند سماع القرآن الكريم
- ٢- الاطمئنان بذكر الله تعالى
- ٣- الربط على القلوب
- ٤- تعظيم الشرع
- ٥- الصبر على البلاء و أداء الفرائض
- ٦- الإشفاق من عدم قبول العمل
- ٧- تعظيم السنة و الاستجابة للنبي ﷺ
- ٨- البغض للكفر و أهله
- ٩- الصبر على البلاء و أداء الفرائض
- ١٠- الدعاء بثبات القلب و الدعاء لمن سبقنا بالإيمان

ثالثاً: القلب المريض

رابعاً: قلب الميت

إن افتقار القلوب إلى التوحيد والعبادة أعظم من حاجة الأبدان للطعام والشراب. و القلب إذا زاد تعبده تقرب إلى الله، و أحب الطاعات، و كره المعاصي، و ازداد نور القلب بالإيمان بالله وامتثال أوامره في كل حال، و بالكفر و المعاصي يزيد ظلام القلب، فيحب المعاصي، و يكره الطاعات.

فمن ذاق طعم الإيمان اشتاق إلى تكميل الإيمان و الأعمال الصالحة، و تلهذ بعبادة الله، و ظهر الإيمان في حياته، و تعلق روحه بالملا الأعلى، فأحبه الله، و أحبه من في السماء، وجعل الله له القبول في الأرض.

و القلوب تسير حيث يوجهها الله تعالى، فقلب المؤمن يتقوى بالعبادة، و يضعف بالفتن و الذنوب. فإن أول من تؤثر عليه الفتن، هو القلب، و كان سلفنا الصالح يعرفون ذلك، فيتهيئون الفتنة و يخشون الذنوب دقها و جملها. فقد قال أنس -رضي الله عنه-: "إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدّها على عهد النبي -ﷺ- من الموبقات." (١)

وقد ورد في القرآن ذكر أنواع القلوب ليتعاهد المرء قلبه و يصلح و يسعى لتحصيل أفضل أنواع القلوب، و سأذكر فيما يلي هذه القلوب باختصار:

أولاً: القلب السليم

القلب يوصف بالحياة وضدها، و السلامة و ضدها، انقسم بحسب ذلك إلى عبادته وتعبده و طاعته لله تعالى، فلا يكن قلب سليماً إلا بالعبادة، و لا يكون حياً إلا بقدرها. فسلامة القلب تكون بالعبادة و اتجاهه بما أمر الله و نهى عنه. فالعلاقة الوثيقة بين القلب السليم والعبادة هي كما قال النبي -ﷺ-: "وجعل قرّة عيني في الصلاة." (٢)

و قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ (٣) قيل هي سليمة

١ - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب ما يتقى من محقرات الذنوب. رقم الحديث (٦٤٩٢) ١٢٨/٨

٢ - أخرجه النسائي في سننه كتاب عشرة النساء، باب حب النساء رقم (٣٩٣٩) ٦١/٧ قال شيخ الألباني: حسن صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة ٣٠٨/٤

٣ - الشعراء: ٨٨ - ٨٩

من الشرك و الدنس و البدعة و المطمئنة إلى السنة. (١)

و قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ (٢) قال ابن عباس رضي الله عنه: "يعني الشهادة أن لا إله إلا الله." (٣)

و قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ (٣٣) أَدْخَلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ (٤) قال ابن القيم: "و قد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، و الأمر الجامع لذلك أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق. و هذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده. فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله -تعالى- إرادة ومحبة وتوكلاً وإنابة وإحباتاً وخشية ورجاء، وخلص عمله لله، فإن أحب، أحب في الله، وإن أبغض، أبغض في الله، وإن أعطى، أعطى لله، وإن منع، منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله، فيعقد قلبه معه عقداً محكماً على الإتمام والافتداء به وحده دون كل أحد في الأقوال والأعمال." (٥)

والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك و الغل و الحقد و الحسد و الشح و الكبر و حب الدنيا و الرياسة، فسلم من كل آفة تبعده عن الله، و سلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، و سلم من كل إرادة تزاحم مراده، و سلم من كل قاطع يقطع عن الله. و لا تتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد،

١ - انظر: تفسير الطبري ٣٦٦/١٩

٢ - الصفات: ٨٣ - ٨٤

٣ - انظر: تفسير ابن كثير ٢٣ / ٧

٤ - ق: ٣٣ - ٣٤

٥ - إغائة اللهفان على مصائد الشيطان ٧/١

و بدعة تخالف السنة، و شهوة تخالف الأمر، و غفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص.^(١)

ثانياً: علامات القلب السليم

إن الله تعالى جعل لكل شيء علامات، فالعلامة هي صفة التي يعرف بها شيء أو شخص. فقد ذكر الله -تعالى- في القرآن الكريم علامات القلب السليم و منها:

١ - الوجل عند سماع القرآن الكريم

الوجل هو رجفان القلب و انصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته. فالعبد الخائف الوجل المشفق الذليل بين يدي الله -عز و جل- المنكس الرأس بين يديه الذي لا يرضى لربه شيئاً من عمله: هو أحوج شيء إلى عفوه ورحمته ولا يرى نفسه في نعمته إلا طفيلياً ولا يرى نفسه محسناً قط وإن صدر منه إحسان.^(٢)

فإذا سمع رجل تقي القرآن أو شرع في ذكر الله تعالى رجف قلبه و خدع لهذا الاستماع؛ لإيقانه عظمة قائله و كلامه، فهو متذلل و مشفق و منكسر في حاله لا يلتفت إلى شيء غير القرآن الكريم، فعند انتهائه شعر بزيادة إيمانه، فهو كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٣)

قال السدي في تفسير هذه الآية: "هو الرجل يريد أن يظلم أو يهجم بمعضية، فينزع عنه"^(٤)

وهذه صفة المؤمن الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، ففعل أوامره، وترك زواجره، و هذا الفعل هو دال على الخضوع التام لربه. و إذا كان وجل القلب من ذكر الله يتضمن خشيته وخافته، فذلك يدعو صاحبه إلى فعل المأمور وترك المحذور.

١ - انظر: الجواب الكافي ص ١٢١

٢ - انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٥١٣ و ٢/٣٥٩

٣ - سورة الأنفال: ٢

٤ - تفسير الطبري ١٣/٣٨٧

قال سهل بن عبد الله^(١): "ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق إليه أقرب من الافتقار، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله."^(٢)

و قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ

يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ

وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٣﴾^(٣)

ما من قلب سليم صحيح إلا افتقر إلا سماع القرآن، فإنه كلام تقشعر منه الجلود و يحدث خشية الله و يلين القلوب.

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق^(٤) - رضي الله عنهما - قالت: "كان أصحاب النبي ﷺ - إذا قرئ عليهم القرآن - كما نعتهم الله - تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم. قيل لها: فإن أناساً اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشياً عليه. فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم."^(٥)

وكان أصحاب رسول الله ﷺ - عند سماع القرآن كما ذكر الله تعالى في هذه الآية، توجل قلوبهم وتقشعر جلودهم وتدمع عيونهم. و كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾^(٦)

١ - هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري أبو محمد، شيخ الزهاد وعلمائهم. له كتاب في تفسير القرآن - مختصر، وكتاب رقائق المحبين وغير ذلك. مات سنة ٢٨٣هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٣/٣٣٠

٢ - انظر: مجموع الفتاوى ٧/٢٠

٣ - الزمر: ٢٣

٤ - هي أسماء بنت أبي بكر الصديق عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر، قرشية، صحابية، ذات النطاقين آخر المهاجرين والمهاجرات وفاة. وهي أخت أم المؤمنين عائشة لاييها، وأم عبد الله بن الزبير، توفيت ٧٣ هـ. انظر: الإصابة ٤٨٦/٧

٥ - أخرجه سعيد بن منصور في سننه عن هشيم بن بشير عن حصين بن عبد الرحمن السلمي عن عبد الله بن عروة عن جدته أسماء بنت أبي بكر رجال هذا الحديث ثقات. انظر: تقريب التهذيب. رقم الحديث ٩٥ (٣٣١/٢)

٦ - المائدة: ٨٣

فلما جاء التابعون كان فيهم من يموت أو يصعق عند سماع القرآن، فمن السلف من أنكر ذلك و رآه بدعة. وأما أكثر السلف والعلماء فقالوا: إن كان صاحبه مغلوباً، والسمع مشروعاً، فهذا لا بأس به. فقد صعق الكليم -موسى عليه السلام- لما تجلى ربه للجبل، بل هو حال حسن، و محمود، و فاضل بالنسبة إلى من يقسو قلبه. وحال الصحابة ومن سلك سبيلهم أفضل وأكمل، فإن الغشي إنما يكون لقوة الوارد على القلب، وضعف القلب عن حمله، فلو قوي القلب - كحال نبينا ﷺ وأصحابه- لكان أفضل وأكمل.^(١)

٢ - الاطمئنان بذكر الله تعالى

ما من نفس إلا أن تحب الاستقرار و الاطمئنان، و تبغض القلق، و لا يحصل الاطمئنان إلا من اتبع طريقة القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٢)

قال ابن كثير: "أي: تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً."^(٣)

قال القرطبي: "أي: تسكن وتستأنس بتوحيد الله. ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ قال : أي: وهم تطمئن قلوبهم على الدوام بذكر الله بألسنتهم."^(٤)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "القلوب فُطِرَتْ على الصحة، كما قال النبي - ﷺ -: "كل مولود يولد على الفطرة."^(٥) فهي مع السلامة لا تطمئن إلا بذكر الله، ولا تسكن إلا إليه، ولا تتأله إلا إياه، وافتقارها إلى معرفته وذكره وعبادته لا يشبهه شيء من الأشياء. كافتقار الجائع إلى الطعام، والعطشان إلى الماء، و المغمتم إلى الجماع. وكما أن هذه المفتقرات إلى هذه الأمور تفسد إذا لم يحصل ما يصلحها، ففساد النفوس إذا لم تعرف الله وتحبه

١ - انظر: جامع المسائل لابن تيمية ٢٣٢/٥-٢٣٣

٢ - الرعد: ٢٨

٣ - تفسير ابن كثير ٤٤٥/٤

٤ - تفسير القرطبي ٣١٥/٩

٥ - سبق تخرجه في صفحة ٢٤

وتعبده أعظم بكثير، وهذا حال كل من في السموات والأرض من الملائكة والجن والإنس، لا يجوز أن يصلح حالهم إلا بأن يكون الله إلههم ومعبودهم، وتكون حركاتهم لأجل عبادة له تجمع كمال محبته وكمال الذل له، فإن العبادة تجمع كمال الحب وكمال الذل، وهذا شأن المراد لذاته المقصود لذاته، وكل ما سواه فمفتقر إلى هذا المراد المحبوب المعبود لذاته، فلا يكون هو مرادًا محبوبًا لذاته، فإن محبته مستلزمة محبة محبوبه و معبوده الذي هو أكمل منه، بل هو معبود له. والفساد أن يكون كل من الشئيين محبوبًا، والتابع لغيره محبوب لذاته، والمتبوع محبوب لغيره. (١)

٣- الربط على القلوب

إن القلوب تحتاج للثبات و الرسوخ، و خاصة في وقت البلاء و الفتنة، فإن لم يثبتها الله - تعالى - و يقوها افتتنت و فسدت، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ (٢)

قال الطبري في تفسيره: "و ألهمناهم الصبر، وشددنا قلوبهم بنور الإيمان حتى عزفت أنفسهم عما كانوا عليه من خفض العيش." (٣)

إن أصحاب الكهف كانوا بين قومهم في خدمة ملكهم الكافر، فلما وجدوا حقيقة الإيمان والتوفيق و ذاقوا حلاوته و باشر قلوبهم قاموا من بين قومهم ﴿ فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ و الربط على قلوبهم يتضمن الشد عليها بالصبر والتثبيت وتقويتها وتأبيدها بنور الإيمان حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش، وفروا بدينهم إلى الكهف. والربط على القلب شده برياط التوفيق فيتصل بذكر ربه ويتبع مرضاته ويجتمع عليه شمله، فلهذا استشهد عليه بهذه الآية. (٤)

١ - جامع المسائل لابن تيمية ٦/١٢١-١٢٢

٢ - الكهف: ١٤

٣ - تفسير الطبري ١٧/٦١٥

٤ - انظر: مدارج السالكين ٣/٦٧-٦٨

٤ - تعظيم الشرع

و تعظيم الشرع من أكبر الأدلة على سلامة القلب و توحيد العبادة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَلِكُمْ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (١) قال السعدي (٢) في تفسير الآية: "أي: ذلك الذي ذكرنا لكم من تعظيم حرمانه وشعائره. والمراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة، ومنها المناسك كلها، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ (٣) ومنها الهدايا والقربان للبيت، فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب، فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه، لأن تعظيمها، تابع لتعظيم الله وإجلاله." (٤)

المقصود بتقوى القلوب لله هو عبادتها له وحده دون ما سواه . بغاية العبودية له، والعبودية فيها غاية المحبة وغاية الذل والإخلاص، وهذه ملة إبراهيم الخليل . وهذا كله مما يبين أن عبادة القلوب هي الأصل، كما قال النبي ﷺ: "إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب." (٥)

والنية والقصد هما عمل القلب، فلا بد في المتابعة للرسول - ﷺ - من اعتبارهما. (٦) وإن العبد يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح قال النبي - ﷺ -: "التقوى ههنا. وأشار إلى صدره." (٧)

١ - الحج: ٣٢

٢ - هو عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي: مفسر. مولده ووفاته في عنيزة بالقصيم. هو أول من أنشأ مكتبة فيها ١٣٥٨ هـ. له نحو ٣٠ كتابا. مات سنة ١٣٧٦ هـ. الأعلام ٣/٣٤٠

٣ - البقرة: ١٥٨

٤ - تفسير السعدي ص ٥٣٨

٥ - أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه. رقم حديث (٥٢) ٢٠/١ و مسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات. رقم الحديث (٤١٧٨) ٥/٥

٦ - انظر: مجموع الفتاوى ١٧/٤٨٥

٧ - هذا جزء من الحديث أخرجه مسلم في كتاب البر و الصلة و الأدب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله. رقم الحديث (٦٧٠٦) ١٠/٨

فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق. والتقدم والسبق إلى الله - سبحانه - إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل، فإن ساواه في همته تقدم عليه بعمله.^(١)

٥- الصبر على البلاء و أداء الفرائض

"وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر"^(٢)، و خاصة في العبادة و عند البلاء وأمر الله به، حيث الشيطان يحرص على تحقيق وعده و إغوائه لبني آدم، فالقلب السليم لا بد أن يتميز و يتحلى بالصبر و إخبارات القلب.

قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣٥) و قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

فِيَوْمِنَا بِهِ فَخَبِّرْ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٤)^(٤)

و قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ﴾ (١١)^(٥)

عن عبد الله بن مسعود قال: "إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد - ﷺ - خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد - ﷺ - فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه. فما رأى المسلمون حسناً، فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيئ."^(٦)

١ - انظر: الفوائد لابن القيم ١٤٢ ص

٢ - هذا جزء من حديث أخرجه البخاري، كتاب الزكاة باب الاستغفار عن المسألة. رقم (١٤٦٩) ١٥١/٢

٣ - الحج: ٣٥

٤ - الحج: ٥٤

٥ - التغابن: ١١

٦ - أخرجه الإمام أحمد في مسنده، في مسند عبد الله بن مسعود. رقم الحديث (٣٦٠٠) ٣٧٩/١ قال الشيخ

الألباني إسناده حسن. انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة ٣٥/٢

كان أصحاب محمد ﷺ - من أصلح الناس قلوباً و أشدهم حرصاً على اتباعه - ﷺ -
 فليس بغريب أن الله -تعالى- مدحهم من فوق سبع السموات، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ
 اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ
 فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١)

فقد صبروا على البلاء في أول الإسلام، ثم نشره بين الناس و دافعوا عنه بجيأتهم وأموالهم، و
 كانوا يتنافسون في أداء الفرائض مع شدة بلائهم. فإنهم أبواب الإسلام، فمن ذمهم يريد
 كسر أبواب الإسلام، و كسر الباب يعني بداية هدم البيت. فإنهم تواضعوا لله -تعالى-
 فدخلوا في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا
 أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٢) ففي هذه الآية ذكر -تعالى- أربع
 علامات لهم: وجل قلوبهم عند ذكره، والوجل خوف مقرون بهيبة ومحبة، وصبرهم على
 أقداره، وإتيانهم بالصلاة قائمة الأركان ظاهراً وباطناً، وإحسانهم إلى عباده بالإففاق مما
 آتاهم، وهذا إنما يتأتى للقلب المخبت. فالإخبات سكون الجوارح على وجه التواضع
 والخشوع لله. والمقصود أن القلب المخبت ضد القاسي و المريض وهو -سبحانه- الذي
 جعل بعض القلوب محبباً إليه وبعضها قاسياً. (٣) فمن اتبع الصحابة -رضي الله عنهم- في
 صبرهم على البلاء و أدائهم الفرائض، فقد دل ذلك على سلامة قلبه و صحة توحيده.

٦ - الإشفاق من عدم قبول العمل

كل الناس يعملون في هذه الدنيا، فمنهم من يراجع نفسه في الأعمال و يحاسبها، و منهم
 من يتغافل فيها، فلا يراجع نفسه و لا يحاسبها، بل لا يلتفت هل فعل خيراً أو شراً، قال
 النبي - ﷺ - : "كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها." (٤) فلشراء النفس لا

١ - الفتح: ١٨

٢ - الحج: ٣٤ - ٣٥

٣ - انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء و القدر ١٧/٤٤

٤ - جزء من حديث أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٥٥٦) ١/١٤٠ عن أبي مالك
 الأشعري

بد من العمل، و لا بد من المراجعة و المحاسبة عليه لكي يكون على أكمل وجه. فأفضل الأمة كانوا يعملون بأكمل وجه ويخافون على هذه الأعمال ألا تقبل الله منهم، كما

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (٦٠) (١)

عن عائشة (٢) - رضي الله عنها - قالت : سألت رسول الله - ﷺ - عن هذه الآية، فقلت: أهم الذين يشربون الخمر و يزنون ويسرقون؟ فقال: "لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون و يصلون و يتصدقون، و يخافون أن لا يتقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات." (٣)

والله - سبحانه - وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، و وصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن، و من تأمل أحوال الصحابة - رضي الله عنهم - وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، وكثير منا بين التقصير، بل التفريط والأمن. (٤)

و من هذه الآية نعلم أن كل ما يأتي منا يوجب عذراً لنقصاننا، وأن كل ما يأتي من الحق يوجب شكراً. فعلى العبد أن يعتذر إلى ربه من كل ما يأتي به من خير و شر. و الخير يعتذر من نقصانه ولا يراه صالحاً لربه، فهو مع إحسانه معتذر في إحسانه، ولذلك مدح الله أوليائه بالوجل منه مع إحسانهم في هذه الآية. و الشكر لكل ما يصدر منه - سبحانه - إليك، والاعتراف بأنه يوجب الشكر عليك، وأنت عاجز عن شكره. ولا يتبين هذا إلا في المحبة الصادقة، فإن المحب يستكثر من محبوبه كل ما يناله، فإذا ذكره بشيء وأعطاه إياه وكان

١ - المؤمنون: ٦٠

٢ - هي عائشة بنت أبي بكر الصديق، قرشية أم المؤمنين، أفقه نساء المسلمين وأعلمهن بالدين. كانت تكنى بأب عبد الله. تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم في السنة الثانية بعد الهجرة، فكانت أحب نسائه إليه، وأكثرهن رواية للحديث عنه. ماتت سنة ٥٨ هـ. انظر: الإصابة (١١٤٥٧) ١٦/٨

٣ - أخرجه الترمذي في سننه في كتاب تفسير القرآن، باب من سورة المؤمنون. رقم الحديث (٣١٧٥) ٣٢٧/٥ قال الشيخ الألباني صحيح.

٤ - انظر: الجواب الكافي ص ٤٠ بتصرف

سروره بذكره له وتأهيله لعطائه أعظم عنده من سروره بذلك العطاء بل يغيب بسروره بذكره له عن سروره بالعطية وإن كان المحب يسره ذكر محبوبه له وإن ناله بمساءة.^(١)

٧- تعظيم السنة و الاستجابة للنبي ﷺ

إن الله -تعالى- أنزل القرآن الكريم و بينه نبيه -ﷺ- في سنته، فمن بادر بالاستجابة للرسول -ﷺ- دل ذلك على سلامة قلبه، و فهمه لكتاب ربه، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(٢) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٣)

تضمنت هتان الآيتان أموراً أحدها: أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله -ﷺ- - فمن لم تحصل له هذه الاستجابة، فلا حياة له، و إن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهراً وباطناً. فهؤلاء هم الأحياء، وإن ماتوا، و غيرهم أموات، وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول -ﷺ- - فإن كان ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه، فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول -ﷺ- -^(٤)

قال مجاهد: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني: للحق. وقال قتادة: "هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة."

وقال السدي: "هو الإسلام، أحياهم به بعد موتهم بعد كفرهم."

١ - انظر: مدارج السالكين ٣٢٥/٢

٢ - الأنفال: ٢٤

٣ - الحجرات: ٣

٤ - انظر: الفوائد ص ٨٨

وقال ابن إسحاق^(١) و عروة بن الزبير^(٢): ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل، وقواكم بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم.^(٣) وهذه كلها عبارات عن حقيقة واحدة وهي القيام بما جاء به الرسول ظاهراً وباطناً.

فمن استجاب لله و لرسوله - ﷺ - فذلك دليل على إيمانه و حياة قلبه، فمن نقص شيئاً من اتباعه - ﷺ - و تغافل عن سنته، فقد نقص نور قلبه بقدر نقصانه لسنة نبيه - ﷺ - فما دخل القلب البدعة قط إلا لضعف السنة أو فهمها. و من استجاب للرسول - ﷺ - حق الاستجابة كانت البدعة عنده كرميه في النار.

٨ - بغض الكفر و أهله

الولاء و البراء أصل من أصول الإيمان، فأهل السنة يحبون الناس بقدر إيمانهم، و يكرهونهم بقدر معصيتهم و كفرهم، فمطلق الحب لله - تعالى - و لرسوله، ومطلق البغض لأهل الكفر و الزندقة، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٤)

قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ "يقول جل ثناؤه: هؤلاء الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم، أو أبناءهم، أو إخوانهم، أو عشيرتهم، كتب الله في قلوبهم الإيمان. و إنما عني بذلك: قضى لقلوبهم الإيمان. ﴿فِي﴾ بمعنى اللام، وأخبر - تعالى - ذكره - أنه كتب في قلوبهم الإيمان لهم،

١ - محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى بالولاء، المدني، أبو بكر، من أقدم مؤرخي العرب و من حفاظ الحديث. له السيرة النبوية. وكتاب الخلفاء، و كتاب المبدأ. وكان جده يسار من سبي عين التمر. وسكن بغداد فمات فيها سنة ١٥١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٣٣/٧

٢ - هو عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي، أبو عبد الله، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. كان صالحاً كريماً، توفي في المدينة سنة ٩٣هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٤٢١/٤

٣ - تفسير الطبري ٤٦٥/١٣

٤ - المجادلة: ٢٢

وذلك لما كان. (١)

أخبر -تعالى- رسوله أنه لا يجد مؤمناً يواد المحادين لله ورسوله، فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر. و الخطاب للنبي - ﷺ - و المراد الأمة. فإذا وجد الإيمان انتفى ضده، وهو موالاته أعداء الله. فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه، كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب. ومثله قوله -تعالى- في الآية الأخرى ﴿ تَكْرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٨٠) و (٢) قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴾ (٨١) (٣) فذكر " جملة شرطية " تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف " لو " التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط فقال: ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب. ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي ﷺ وما أنزل إليه. (٤) فإذا استوفى العبد الولاء و البراء دل ذلك على سلامة قلبه.

٩- الدعاء بثبات القلب و الدعاء لمن سبقنا بالإيمان

إن هذه الدنيا غرارة، تغر القلوب و الأبصار، فمن غرته الدنيا خالف أمر الله تعالى:

﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ (٥) فالعبد محتاج لثبات القلب، و

ثباته يكون في لجوئه إلى ربه و دعائه له، فإذا أكثر العبد من الدعاء و لجوئه إلى ربه،

١ - تفسير الطبري ٢٣/٢٥٨

٢ - المائة: ٨٠

٣ - المائة: ٨١

٤ - انظر: مجموع الفتاوى ٧/١٧

٥ - لقمان ٣٣، فاطر: ٥

فذلك من سلامة قلبه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنْتَ أَوْهَابُ ۝۸ ﴾ (١) عن عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ (٢) أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: " إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصْرَفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ". ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : "اللَّهُمَّ مُصْرَفِ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ." (٣)

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: "كان رسول الله - ﷺ - يدعو بهذه الدعوات: "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع، اللهم إني أعوذ بك من هؤلاء الأربع." (٤)

إن الفقر والفاقة إلى رب القلوب ومصرفها، فما شاء أن يزيغها منها أزاعه، وما شاء أن يقيمه منها أقامه، فهذا هو الفقر الصحيح المطابق للعقل والفطرة والشرع، و من خرج عنه وانحرف إلى أحد الطرفين زاغ قلبه عن الهدى. وانفراد القلب بالتصرف و الربوبية عن أوامر الله - تعالى - وشرعه وثوابه وعقابه، ويكون هذا الفقير المضطر إلى خالقه في كل طرفة عين. وكل إنسان إن تحرك بطاعة أو نعمة شكرها، وقال هذا من فضل الله تعالى، فله الحمد، و إن تحرك بمبادئ معصيته صرخ ولجأ واستغاث، وقال أعوذ بك منك، يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك. فإن تم تحريكه بالمعصية التجأ التجأ أسير قد أسره عدوه، وهو يعلم أنه لا خلاص له من أسره إلا بأن يفكه سيده من الأسر، ففكاكه في يد سيده ليس في يده منه شيء البتة، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا

١ - آل عمران: ٨

٢ - هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، أبو عبد الله، صحابي، فاتح مصر، وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأولي الرأي، وأسلم في هدنة الحديبية. كان من أمراء الجيوش في الجهاد. وله في كتب الحديث ٣٩ حديثاً. وتوفي بمصر سنة ٤٣ هـ. انظر: الإصابة (٥٨٨٦) ٤/٦٥٠ و سير أعلام النبلاء ٣/٥٤

٣ - أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء. رقم الحديث (٦٩٢١) ٨/٥١

٤ - أخرجه النسائي في كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق. رقم الحديث (٥٤٧٠) ٨/٢٦٣ قال الشيخ الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة ١٩/٦٤

موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فهو في أسر العدو ناظر إلى سيده وهو قادر قد اشتدت ضرورته إليه وصار اعتماده كله عليه.

قال سهل بن عبد الله التستري: "إنما يكون الالتجاء على معرفة الابتلاء، يعني على قدر الابتلاء تكون المعرفة بالمبتلي ومن عرف قوله - ﷺ : "وأعوذ بك منك." (١) وقام بهذه المعرفة شهوداً وذوقاً وأعطاهما حقها من العبودية، فهو الفقير حقاً، ومدار الفقر الصحيح على هذه الكلمة، فمن فهم سر هذا، فهم سر الفقر المحمدي، فهو - سبحانه - الذي ينجي من قضاؤه بقضائه، وهو الذي يعيد بنفسه من نفسه، وهو الذي يدفع ما منه بما منه، فالخلق كله له، والأمر كله له، والحكم كله له، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وما شاء لم يستطع أن يصرفه إلا مشيئته، وما لم يشأ لم يمكن أن يجلبه إلا مشيئته، فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا يهدي لأحسن الأعمال والأخلاق إلا هو، ولا يصرف سيئها إلا هو." (٢)

ثانياً: القلب المريض^(*)

قال ابن فارس^(٣): المرض: "الميم والراء والضاد أصلٌ صحيح يدلُّ على ما خرج به الإنسان عن حد الصحة من علة أو نفاق أو تقصير في أمر." (٤)

إن افتقار القلوب و حاجتها إلى العبادة شديدة لا تُعرف إلا بعد معرفة أمراضها و سقمها التي يعاني منهما كل من لا يسلم قلبه إلى ما أمر به من اتباع القرآن و السنة.

قال حذيفة^(١) سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: "تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، و أى قلب أنكرها نكت فيه نكتة

١ - جزء من الحديث أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود. رقم (١١١٨) ٥١/٢

٢ - انظر: طريق المهجرتين و باب السعادتين ٥٣ ص

* - و سأذكر هنا مرض قلوب عصاة المسلمين لا الكفار

٣ - هو أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين: من أئمة اللغة والأدب و الحديث. من تصانيفه

مقاييس اللغة و الجمل. مات سنة ٣٩٥ هـ. سير أعلام النبلاء ١٧/١٠٣

٤ - معجم مقاييس اللغة ٥/٣١١

بيضاء حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرابداً كالكوز مجحياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه." (٢)

فقد ذكر الله تعالى في كتابه القلوب المريضة و علاجها، فقال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (٣)
 عن ابن عباس: "في قلوبهم مرض". أي: شك. و قال أيضاً النفاق. (٤)

وقال تعالى: ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (٥) أي: محنة وبليّة، شك ونفاق، ﴿ وَالْقَاسِيَةِ ﴾ يعني الجافية عن الإيمان، ﴿ قُلُوبُهُمْ ﴾ عن قبول الحق. (٦)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "و مرض البدن خلاف صحته وصلاحه، وهو فساد يكون فيه يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية، فإدراكه إما أن يذهب كالعمى والصمم، و إما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه كما يدرك الحلو مرّاً، وكما يُخيل إليه أشياء لا حقيقة لها في الخارج. وأما فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته عن الهضم أو مثل أن يبغض الأغذية التي يحتاج إليها ويجب الأشياء التي تضره ويحصل له من الآلام بحسب ذلك، ولكن مع ذلك المرض لم يمت ولم يهلك، بل فيه نوع قوة على إدراك الحركة الإرادية في الجملة،

١ - هو حذيفة بن حسل بن جابر العبسي، أبو عبد الله، اليمان صحابي، من الولاة الشجعان الفاتحين. كان

صاحب سر النبي - ﷺ - في المنافقين. له في الصحيحين اثنا عشر حديثاً. مات سنة ٣٦ هـ. انظر: الإصابة (١٦٤٩)

٢/٤٤ و سير أعلام النبلاء ٣/٣١٨

٢ - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً وأنه يأرز بين المسحدين. (٣٨٦)

١/٨٩

٣ - البقرة: ١٠

٤ - انظر: تفسير الطبري ١/٢٨٠

٥ - الحج ٥٣

٦ - انظر: تفسير البغوي ٥/٣٩٥

فيتولد من ذلك ألم يحصل في البدن، إما بسبب فساد الكمية أو الكيفية. فالأول: إما نقص المادة، فيحتاج إلى غذاء، وإما بسبب زيادتها، فيحتاج إلى استفراغ. و الثاني: كقوة في الحرارة والبرودة خارج عن الاعتدال فيداوى." (١)

و قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (١٢٥) أي: زادتهم شكاً إلى شكهم، وريباً إلى ريبهم، كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٨٢) وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي هَدَىٰ ءَامَنُوا هُدًىٰ وَشِفَاءٌ ۗ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىٰ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (٤) وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم، كما أن سيئ المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً. (٥)

ثالثاً: قلب الميت

قال حذيفة رضي الله عنه:

"ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء

وقيل له: يا أبا عبد الله، وما ميت الأحياء؟ قال: "الذي لا يعرف المعروف بقلبه، ولا ينكر المنكر بقلبه" (٦)

وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف: بالخنم والطبع والضيق والمرض والرّين والموت والقسوة والانصراف والحمية والإنكار.

١ - مجموع الفتاوى ٩٢/١٠

٢ - التوبة: ١٢٥

٣ - الإسراء: ٨٢

٤ - فصلت: ٤٤

٥ - انظر: تفسير ابن كثير ٢٣٩/٤

٦ - ذكره البيهقي في شعب الإيمان (١٠١٨٨) ٢٠٢/١٣

فقال -تعالى- في الختم: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾^(١)

قال ابن جرير: "إن قلوب العباد أوعية لما أودعت من العلوم وظروف لما جعل فيها من المعارف بالأمر، فمعنى الختم عليها وعلى الأسماع التي بها تدرك المسموعات، ومن قبلها يوصل إلى معرفة حقائق الأنباء عن المغيبات، نظير معنى الختم على سائر الأوعية والظروف."^(٢)

ثم قال أيضاً: "أخبر رسول الله -ﷺ-^(٣) أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله -تعالى- والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص، فذلك هو الختم و الطبع الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فض خاتمه وحله رباطه عنها."^(٤)

قال القرطبي: "الختم يكون محسوساً، كما في هذه الآية. فالختم على القلوب: عدم الوعي عن الحق - سبحانه - مفهوم مخاطباته والفكر في آياته. وعلى السمع: عدم فهمهم للقرآن إذا تلى عليهم أو دعوا إلى وحدانيته. وعلى الأبصار: عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته. هذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم."^(٥)

وقال -تعالى- في الإنكار: ﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَحِدٌ فَأَلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾^(٦)

١ - البقرة: ٧

٢ - تفسير الطبري ٢٥٨/١

٣ - في حديث أبي هريرة المتقدم صفحة ٢١

٤ - تفسير الطبري ٢٦١/١

٥ - تفسير القرطبي ١٨٦/١

٦ - النحل: ٢٢

قال الطبري في تفسير هذه الآية: "معبودكم الذي يستحق عليكم العبادة وإفراد الطاعة له دون سائر الأشياء معبود واحد، لأنه لا تصلح العبادة إلا له، فأفردوا له الطاعة، وأخلصوا له العبادة، ولا تجعلوا معه شريكاً سواه. فالذين لا يصدقون بوعد الله ووعيده ولا يقرون بالمعاد إليه بعد الممات ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ مستنكرة لما نقص عليهم من قدرة الله وعظمته وجميل نعمه عليهم، وأن العبادة لا تصلح إلا له، و الألوهة ليست لشيء غيره، يقول: ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن إفراد الله بالألوهة، والإقرار له بالوحدانية، اتباعاً منهم لما مضى عليه من الشرك بالله أسلافهم." (١)

و قال ابن كثير: "يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك.

وقوله: ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده." (٢)

وقال -تعالى- في الحمية: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٣)

قال ابن كثير: "وذلك حين أبوا أن يكتبوا "بسم الله الرحمن الرحيم"، وأبوا أن يكتبوا: "هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله" (٤)

قال ابن القيم: "لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها، جعل الله في قلوب أوليائه سكينه تقابل حمية الجاهلية و في ألسنتهم كلمة التقوى مقابلة لما توجهه حمية الجاهلية من كلمة الفجور، فكان حظ المؤمنين السكينة في قلوبهم وكلمة التقوى على ألسنتهم، وحظ أعدائهم حمية الجاهلية في قلوبهم وكلمة الفجور والعدوان على ألسنتهم، فكانت هذه السكينة وهذه الكلمة جند من جند الله أيد بها الله رسوله والمؤمنين في مقابلة

١ - تفسير الطبري ١٧/١٨٩

٢ - تفسير ابن كثير ٤/٥٦٥

٣ - الفتح: ٢٦

٤ - تفسير ابن كثير ٧/٣٤٥

جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه و ألسنتهم. وثمره هذه السكينة الطمأنينة للخير تصديقاً وإيقاناً و للأمر تسليماً وإذعاناً، فلا تدع شبهة تعارض الخير، ولا إرادة تعارض الأمر، فلا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوسوس الشيطانية التي يتلى بها العبد ليقوى إيمانه ويعلو عند الله ميزانهم" (١)

و قال ابن القيم: "كان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - إذا اشتدت عليه الأمور قرأ آيات السكينة. وقد جربت أنا أيضاً قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب مما يرد عليه، فرأيت لها تأثيراً عظيماً في سكونه وطمأنينته." (٢)

وقال -تعالى- في الانصراف: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٣)

صرف الله قلوب هؤلاء المنافقين عن الخير والتوفيق والإيمان بالله ورسوله، ذلك: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فعل الله بهم هذا الخذلان، و صرف قلوبهم عن الخيرات من أجل أنهم قوم لا يفقهون عن الله مواعظه، استكباراً ونفاقاً. (٤)

قال ابن القيم: "أخبر -سبحانه- عن فعلهم وهو الانصراف وعن فعله فيهم، وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره لأنهم ليسوا أهلاً له، فاخل غير صالح ولا قابل، فإن صلاحية المحل بشيئين؛ حسن فهم، وحسن قصد، وهؤلاء قلوبهم لا تفقه، و قصدهم سيئ، وقد صرح -

سبحانه- بهذا في قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ^{بِ} وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ

مُعْرِضُونَ﴾ (٥) فأخبر -سبحانه- عن عدم قابلية الإيمان فيهم، وأنهم لا خير فيهم يدخل بسببه إلى قلوبهم، فلم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به، وإن سمعوه سماعاً تقوم به عليهم حجته، فسماع الفهم الذي سمعه به المؤمنون لم يحصل لهم، ثم أخبر -سبحانه- عن

١ - أعلام الموقعين ٢٠٢/٤

٢ - مدارج السالكين ٥٠٣/٢

٣ - التوبة: ١٢٧

٤ - انظر: تفسير الطبري ٥٨٢/١٤

٥ - الأنفال: ٢٣

مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص وهو الكبير والتولي. " (١)

و قال - تعالى - في القسوة: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۗ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) و قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (٣)

قال الطبري: "فويل للذين جفت قلوبهم ونأت عن ذكر الله وأعرضت، يعني: عن القرآن الذي أنزله تعالى ذكره، مذكراً به عباده، فلم يؤمن به، ولم يصدق بما فيه.

وقوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ يقول تعالى ذكره: هؤلاء القاسية قلوبهم من ذكر الله في ضلال مبين، لمن تأمله وتدبره بفهم أنه في ضلال عن الحق جائر. " (٤)
وقال مالك بن دينار (٥): "ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب، وما غضب الله على على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم. " (٦)

قال السعدي في تفسير هذه الآية: "أي: لا تلين لكتابه، ولا تتذكر آياته، ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن رها، ملتفتة إلى غيره، فهؤلاء لهم الويل الشديد، والشر الكبير.

﴿ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن وليه؟ ومن كل السعادة في الإقبال عليه، وقسا قلبه عن ذكره، وأقبل على كل ما يضره. " (٧)

١ - شفاء العليل ٢٥/١٧

٢ - الزمر: ٢٢

٣ - البقرة: ٧٤

٤ - تفسير الطبري ٢٧٨/٢١

٥ - هو مالك بن دينار البصري، أبو يحيى، علم العلماء الأبرار من رواة الحديث. كان ورعاً، يأكل من كسبه، ويكتب

المصاحب بالأجرة. توفي في البصرة سنة ١٣١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٣٦٢/٥

٦ - تفسير القرطبي ٢٤٨/١٥

٧ - تفسير السعدي ص ٧٢٢

وقال -تعالى- في الموت: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٣﴾﴾^(١)
عن مجاهد قال: ضالاً فهديناه.

عن ابن عباس: من كان كافراً فهديناه.^(٢)

قال ابن كثير: "هذا مثل ضربه الله -تعالى- للمؤمن الذي كان ميتاً، أي: في الضلالة، هالِكاً حائراً، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله."^(٣)
قال ابن القيم: "أو من كان كافراً ميت القلب مغموراً في ظلمة الجهل، فهديناه لرشده ووقفناه للإيمان وجعلنا قلبه حياً بعد موته مشرقاً مستنيراً بعد ظلمته، فجعل الكافر لانصرافه عن طاعته، وجهله بمعرفته وتوحيده وشرائع دينه، وترك الأخذ بنصيبيته من رضاه، والعمل بما يؤديه إلى نجاته وسعادته بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروهه، فهديناه للإسلام وأنعشناه به، فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط الله -تعالى- وعقابه، فأبصر الحق بعد عماه عنه، وعرفه بعد جهله به واتبعه بعد إعراضه عنه، وحصل له نور وضياء يستضيء به، فيمشي بنوره بين الناس وهم في سدف^(٤) الظلام."^(٥)

وقال -تعالى- في الرين: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤٤﴾﴾^(٦)
و الران هو من أغلظ الحجب على القلب وأكثفها.

١ - الأنعام: ١٢٢

٢ - انظر: تفسير الطبري ٥٣٥/٩

٣ - تفسير ابن كثير ٣٣٠/٣

٤ - سُدْفٌ - السُدْفَةُ والسُدْفَةُ في لغة نجد: الظلمة، وفي لغة غيرهم الضوء؛ وهو من الأضداد. وكذلك السُدْفُ بالتحريك. وقال أبو عبيد: وبعضهم يجعل السُدْفَةَ اختلاطاً للضوء والظلمة معاً، كوقت ما بين طلوع الفجر إلى

الإسفار. انظر: تهذيب اللغة ٢٥٦/١٢

٥ - إغائة اللهفان ٢١/١

٦ - المطففين: ١٤

وقال مجاهد: "العبد يعمل بالذنوب فتحيط بالقلب، ثم ترتفع، حتى تغشى القلب." (١)

والرين و الران هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق والانقياد له.

والحجب عشرة: الأول: حجاب التعطيل ونفي حقائق الأسماء والصفات. وهو أغلظها، فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله ولا يصل إليه.

الثاني: حجاب الشرك وهو أن يتعبد قلبه لغير الله.

الثالث: حجاب البدعة القولية، كحجاب أهل الأهواء والمقالات الفاسدة.

الرابع: حجاب البدعة العملية، كحجاب أهل السلوك المبتدعين في طريقهم وسلوكهم.

الخامس: حجاب أهل الكبائر الباطنة، كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد والفخر و الخيلاء.

السابع: حجاب أهل الصغائر

الثامن: حجاب أهل الفضلات والتوسع في المباحات.

التاسع: حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خلقوا له، وأريد منهم وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته.

العاشر: حجاب المجتهدين السالكين المشمرين في السير عن المقصود. (٢)

وقال -تعالى- في المرض (٣): ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ (٤) إن الله -تعالى- ذكر الذين في قلوبهم مرض و هم قد يكون المنافقين و قد يكون دون ذلك و في هذه الآية هم المنافقون الذين أسروا من النفاق هو الكفر. و الأضغان: جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره. (٥)

١ - انظر: تفسير الطبري ٢٤/٢٨٧

٢ - انظر: مدارج السالكين ٣/٢٢٢-٢٢٣

٣ - مرض الكفر و الشرك و النفاق

٤ - محمد: ٢٩

٥ - انظر: تفسير ابن كثير ٧/٣٢١

و في هذه الآية انتقال من التهديد والوعيد إلى الإنذار بأن الله مطلع رسوله - ﷺ - على ما يضمره المنافقون من الكفر والمكر والكيد ليعلموا أن أسرارهم غير خافية فيوقنوا أنهم يكفون عقولهم في ترتيب المكائد بلا طائل وذلك خيبة لآمالهم.

واستعير المرض إلى الكفر بجماع الإضرار بصاحبه، ولكون الكفر مقره العقل المعبر عنه بالقلب كان ذكر القلوب مع المرض ترشيحاً للاستعارة لأن القلب مما يناسب المرض الخفي إذ هو عضو باطن فناسب المرض الخفي.^(١)

وقال - تعالى - في الضيق: ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يُجْعَلْ صَدْرُهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۗ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(٢)

ومن أراد الله إضلاله عن سبيل الهدى يشغله بكفره وصدده عن سبيله، ويجعل صدره بخذلانه وغلبة الكفر عليه حرجاً.

والحَرْجُ: أشد الضيق، وهو الذي لا ينفذ من شدة ضيقه، وهو ههنا الصدر الذي لا تصل إليه الموعدة ولا يدخله نور الإيمان لرين الشرك عليه. وأصله من الحرج، والحَرْجُ جمع حَرْجَةٍ: وهي الشجرة الملتف بها الأشجار، لا يدخل بينها وبينها شيء لشدة التفافها بها.^(٣)

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية: "من يرد دوام ضلاله بالكفر، أو من يرد أن يضلّه عن الاهتداء إلى الإسلام، فالمراد ضلال مستقبل، إما بمعنى دوام الضلال الماضي، وإما بمعنى ضلال عن قبول الإسلام، وليس المراد أن يضلّه بكفره القديم، لأن ذلك قد مضى وتقرر."^(٤) فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، و الشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر و انحراجه.

١ - انظر: التحرير و التنوير ١٠١/٢٦

٢ - الأنعام: ١٢٥

٣ - انظر: تفسير الطبري ٥٤٤/٩

٤ - التحرير و التنوير ٤٤/٧

وقال -تعالى- في الطبع: ﴿أُولَٰئِكَ يَهْدِي اللَّهُ لِلَّذِينَ يَرْثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾^(١) وقال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢) و قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) و قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾^(٤)

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾^(٥)

والطَّبْعُ: الطاء والباء والعين أصلٌ صحيح، وهو مثلٌ على نهايةٍ ينتهي إليها الشيء حتى يختم عندها. يقال طَبَعْتُ على الشيء طابِعاً. ثم يقال على هذا طَبَعُ الإنسان وسَجِيئُهُ. ومن ذلك طَبَعَ اللهُ على قَلْبِ الكافر.^(٦)

إن الطبع مؤذن بأن قلوب الكفار قد ورد عليها ما لو خلت عند وروده عن الطبع عليها لكان شأنه أن يصل بهم إلى الإيمان، ولكن الطبع على قلوبهم حال دون تأثير البينات في قلوبهم.

وقد جعل الطبع الذي وقع على قلوب هؤلاء مثلاً لكيفيات الطبع على قلوب المعتدين فقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٧) أي: مثل هذا الطبع العجيب نطبع على قلوب المعتدين. والطبع: هو استعارة لعدم دخول الإيمان قلوبهم.^(٨)

قال ابن القيم: "أخبر -سبحانه- أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم وآثروه على الإيمان، فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة، والمعنى لم نخلق

١ - الأعراف: ١٠٠

٢ - النساء: ١٥٥

٣ - الروم: ٥٩

٤ - الأعراف: ١٠١

٥ - غافر: ٣٥

٦ - معجم مقاييس اللغة ٣/٤٣٩

٧ - يونس: ٧٤

٨ - انظر: التحرير و التنوير ٨/٢١٦

قلوبهم غلفاً لا تعي ولا تفقه ثم نأمرهم بالإيمان، وهم لا يفهمونه ولا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالاً عاقبتهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها.^(١)
فالقلوب الميتة و المريضة لا يعرف خسرتها إلا من كان كذلك، فأبجاء الله -تعالى- بفضله و كرمه، و إنما ذكرت القلوب المريضة و الميتة؛ لأن بضدها تتبين الأشياء.

الفصل الثاني: مقاصد القرآن من توحيد العبادة

المبحث الأول: أن يكون الدين كله لله

المبحث الثاني: تمييز أهل السعادة و أهل الشقاوة

المبحث الثالث: رضا الله و الفوز بالجنة

الفصل الثاني: مقاصد القرآن من توحيد العبادة

المبحث الأول: أن يكون الدين كله لله

أولاً: استسلام من في السماوات و الأرض لله تعالى

ثانياً: الأمر بقتال من لا يجعل دينه لله تعالى

ثالثاً: إرسال رسولنا محمد ﷺ ليكون الدين كله لله تعالى

المبحث الأول: أن يكون الدين كله لله

قال الله تعالى: ﴿ وَقَدْ لَوْهَمَ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ

أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٣٩)

من تأمل القرآن الكريم و السنة النبوية حق تأمل، سيجد أن الله -تعالى- خلق السماوات والأرض و أرسل رسله، وأنزل كتبه، و شرع الشرائع، ليُعرف و يُعبد، و يوحد و يكون الدين كله لله. فما من آية أشد تأكيداً لذلك من قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فهي قاضية بأن يكون الدين كله لله.

و إذا عزم مسلم على فعل أمر، فعليه أن يعلم أنه طاعة لله أم لا، فإن لم يكن طاعة، فلا يفعله إلا أن يكون مباحاً يستعين به على الطاعة، فإذا اتضح له أنه طاعة، فلا يقدم عليه حتى ينظر هل هو معانٍ عليه أم لا، فإن لم يكن معاناً عليه، فلا يقدم عليه فيذل نفسه. وإن كان معاناً على فعل مأمور، فليأته كما أمر، فإن أتاه من غير ما أمر، أضاعه أو فرط فيه أو أفسده، فيا له من خسارة. فأسعد الخلق أهل العبادة والاستعانة، و من يجعل دينه لله، وأشقاهم من جعل شيئاً لغير الله تعالى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ

اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢٥)

فأخبر - سبحانه - أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، ومن أعظم القسط التوحيد، وهو رأس العدل وقوامه، و العدل لا يكون قائماً حتى يكون الدين كله لله، ويظهر القائمون عليه، و يهدم الشرك الذي هو أظلم الظلم، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود -و

١ - الأنفال: ٣٩

٢ - الحديد: ٢٥

هو التوحيد- فهو من أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات.

ومن تأمل هذا الأصل حق تأمل، تعرف به على حكمة أحكم الحاكمين، و أعلم العالمين فيما فرضه على عباده، وحرمه عليهم، وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي.

فلما كان الشرك بالله منافياً لهذا المقصود كان أكبر الكبائر على الإطلاق، وحرّم الله الجنة على كل مشرك، وأبى الله - سبحانه و تعالى - أن يقبل من مشرك عملاً أو يقبل منه شفاعة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٤٨) (١)

أو يستجيب له في الآخرة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا أَوْلَم تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَوْا إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (٥٠) (٢)

فالمشرك أجهل الجاهلين بالله، و أبعدهم سعيًا بأن يكون الدين كله لله حيث جعل له من خلقه نداً، وذلك غاية الجهل بالله - تعالى - كما أنه غاية الظلم منه، وإن كان المشرك لم يظلم ربه وإنما ظلم نفسه.

والمقصود بجميع العبادات أن يكون الدين كله لله وحده. فالله هو المعبود والمسئول الذي يخاف ويرجى ويسأل ويعبد، فله الدين خالصاً، وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن معنى الشهادة لله بأنه لا إله إلا هو تتضمن إخلاص الألوهية له وحده في عبادته ومعاملته، فلا يجوز أن يتأله القلب غيره لا بحب ولا خوف ولا رجاء ولا إجلال ولا إكرام ولا رغبة ولا رهبة، بل لا بد أن يكون الدين كله لله، كما قال جل ذكره: ﴿ وَقَالُوا هُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونََ الَّذِينَ كُفُّوا لِلَّهِ ﴾ (٣) فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغيره، كان في ذلك من الشرك بحسب ما كان لغيره، ثم إن كان

١ - البقرة: ٤٨

٢ - غافر: ٥٠

٣ - الأنفال: ٣٩

أصغر مثل الرياء فله حكمه، وان كان أكبر مثل ما يأتي بيانه فله حكمه، وكمال الدين كما جاء في الحديث: "من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان."^(١) فالْمُؤْمِنُونَ يحبون لله، والمشركون يحبون مع الله، وهي الأنداد التي ذكرها في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ الآية.^(٢) كما أن الله -تعالى- قد أوجب قتال الكفار و جهاد المشركين ليكون الدين كله لله كما في قوله سبحانه: ﴿وَقَدِّمُوا لَهُم مَّا يَشْتَاءُونَ لِيُحِبُّوا إِلَهُكُمْ وَأَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ﴾ الآية.^(٣) هذا وراء من مقتضيات كون الدين لله ما يلي:

أولاً: استسلام من في السماوات و الأرض لله تعالى

ضرب الله -تعالى- لنا في كتابه أمثلة مما خلق من سماوات و أراضي و نجوم و كواكب لتكون دلالة على وجوده و وحدانيته، قال تعالى: ﴿لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤) و قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾^(٥) و في هذه الآية توبيخ و إنكار لمن جعل شيئاً من الدين لغير الله -تعالى- فإذا كانت السماوات و الأرض أسلمتا طوعاً: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آئِنًا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٦) فكيف بهذا الإنسان الضعيف العاجز يجعل شيئاً من الدين لغير الله تعالى!؟

١ - سيأتي تخريجه في صفحة ٩٧

٢ - اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ٣٧٤/٢

٣ - الأنفال: ٣٩

٤ - غافر: ٥٧

٥ - آل عمران: ٨٣

٦ - فصلت: ١١

و مقصود القرآن ولبه، وهو مقصود دعوة الرسل كلهم، وله خلق الخلق أن يكون الدين لله تعالى.

قال السعدي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: "أطلب الطالبون ويرغب الراغبون في غير دين الله؟! لا يحسن هذا ولا يليق؛ لأنه لا أحسن ديناً من دين الله. ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي: الخلق كلهم منقادون بتسخيره مستسلمون له ﴿طَوْعًا﴾ واختياراً، وهم المؤمنون المسلمون المنقادون لعبادة ربه، ﴿وَكَرْهًا﴾ وهم سائر الخلق حتى الكافرون مستسلمون لقضائه وقدره لا خروج لهم عنه، ولا امتناع لهم منه، وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويجازيهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل." (١)

و قال أيضاً: "أصول الإيمان التي أمر الله بها هذه الأمة قد اتفقت عليها الكتب والرسول، وأنها هي الفرض الموجه لكل أحد، وأنها هي الدين والإسلام الحقيقي، وأن من ابتغى غيرها، فعمله مردود، وليس له دين يعول عليه. فمن زهد عنه ورغب عنه، فأين يذهب إلى عبادة الأشجار والأحجار والنيران؟! أو إلى اتخاذ الأحرار والرهبان والصلبان، أو إلى التعطيل لرب العالمين؟! أو إلى الأديان الباطلة التي هي من وحي الشياطين؟! وهؤلاء كلهم - في الآخرة - من الخاسرين." (٢)

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾ أي: استسلم وانقاد وخضع وذل، وكل مخلوق فهو منقاد مستسلم؛ لأنه مجبول على ما لا يقدر أن يخرج عنه.

قال قتادة: أسلم المؤمن طوعاً والكافر عند موته كرهاً ولا ينفعه ذلك.

قال مجاهد: "إسلام الكافر كرهاً بسجوده لغير الله وسجود ظله لله." (٣)

و قال الطبري في قوله تعالى: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يقول: أسلم لله طائعاً من كان إسلامه منهم له طائعاً، وذلك كالملائكة والأنبياء والمرسلين، فإنهم أسلموا لله طائعين وكرهاً من كان منهم كارهاً.

١ - تفسير السعدي ص ١٣٧

٢ - تفسير السعدي ٩٧٠

٣ - تفسير القرطبي ١٢٨/٤

واختلف أهل التأويل في معنى إسلام الكاره للإسلام. وصفته، فقال بعضهم: إسلامه: إقراره بأن الله خالقه وربّه، وإن أشرك معه في العبادة غيره." (١)

فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم، الذي لا يخالف ولا يمانع.

قال مجاهد: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ طَوْعًا وَّكَرْهًا﴾ هو كقوله تعالى:

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ لَيَقُوْلُنَّ اللّٰهُ﴾ (٢)

قال ابن عباس: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ طَوْعًا وَّكَرْهًا﴾

"حين أخذ الميثاق." (٣)

فدين الله أن يدينه العباد، ويدينون له، فيعبدونه وحده، ويطيعونه، وذلك هو الإسلام له، فمن ابتغى غير هذا ديناً، فلن يقبل منه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "والإله هو المستحق للعبادة، فأما من اعتقد في الله أنه رب كل شيء وخالقه، وهو مع هذا يعبد غيره، فإنه مشرك بربه، متخذ من دونه إلهاً آخر، فليست الإلهية هي الخلق، أو القدرة على الخلق، أو القدم، كما يفسرها هؤلاء المبتدعون في التوحيد من أهل الكلام، (٤) إذ المشركون الذين شهد الله ورسوله ﷺ - بأنهم مشركون من العرب وغيرهم لم يكونوا يشكون في أن الله خالق كل شيء وربّه، فلو كان هذا هو الإلهية لكانوا قائلين إنه لا إله إلا هو، فهذا موضع عظيم جداً، ينبغي معرفته لما قد لبس على طوائف من الناس أصل الإسلام حتى صاروا يدخلون في أمور عظيمة هي شرك ينافي

١ - تفسير الطبري ٥٦٥/٦

٢ - لقمان: ٢٥

٣ - انظر: تفسير ابن كثير ٦٩/٢-٧٠

٤ - أهل الكلام: هم المشتغلون بعلم الكلام، وتعريفه عند المتكلمين هو: علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه. وهو كلام في الله بما يخالف الكتاب والسنة، وفيه تقديم ما تدل عليه عقولهم على الكتاب والسنة. انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/١٧٨، الموافق للإيجي ص ٢٧.

الإسلام لا يحسبونها شركاً، وأدخلوا في التوحيد والإسلام أموراً باطلة ظنوها من التوحيد، وهي تنافيه، وأخرجوا من الإسلام والتوحيد أموراً عظيمة لم يظنوها من التوحيد. ^(١) فالدين لا يكون كله لله إلا بأصلين عظيمين هما: الإخلاص و المتابعة. فكلما أمر الله - تعالى - في كتابه و بينه نبيه - ﷺ - في سنته ثم تُبع النبي - ﷺ - بعمل هذا يكون قد سلمنا لله حقاً و جعلنا ديننا لله وحده.

و قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغْرُبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرُبَنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُوبُ ۗ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۗ ﴾ ^(٢)

فلا تغرنكم الحياة الدنيا بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية عن دين الله - تعالى - فتصدكم عما خلقتكم له. و الشَّيْطَانُ هو عدوكم في الحقيقة إذ يزين لكم الحياة الدنيا و يوسوس لكم، فاتخذوه عدواً، فلتكن منكم عداوته على بال، ولا تهملوا محاربتة كل وقت، فإنه يراكم وأنتم لا ترونه، وهو دائماً لكم بالمرصاد.

فيجب على المسلم أن يعلم أن كل العبادات التي يعبد الله بها وحده لا شريك له من جنس المعروف الذي أمر الله - تعالى - لا بد من اجتهاد فيها ليكون الدين كله لله. فإن ترك الاجتهاد استسلم لعدوه الذي توعد أنه سيبدل الجهد ليمنعه أن يكون الدين كله لله رب العالمين.

فإذا كان بعض الدين لله، وبعضه لغير الله كان في ذلك من الشرك بحسب ذلك. وكمال الدين كما جاء في الحديث: "من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان." ^(٣)

١ - الفتاوى الكبرى ٥٦٦/٦

٢ - فاطر: ٥-٦

٣ - رواه أبو داود، كتاب السنة باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه. رقم (٤٦٨٣) ٣٥٤/٤ قال الألباني:

ثانياً: الأمر بقتال من لا يجعل دينه لله تعالى

إن الله -تعالى- حد الحدود و شرع العقوبات و أمر المؤمنين بقتال الكفار و من أعرض عن الإسلام ليكون الدين كله لله تعالى.

فمن تجاوز حدود الله التي حدها -تعالى- عوقب بالعقوبات التي شرعها الله - سبحانه وتعالى- و من رد الإسلام أو الجزية قوتل حتى يستسلم أو يقتل.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٢٩) (١)

قال الطبري -رحمه الله-: "يقول -تعالى- ذكره- للمؤمنين به قاتلوا أيها المؤمنون القوم الذين لا يصدقون بجنة ولا نار، ولا يطيعون الله طاعة الحق - وهي طاعة أهل الإسلام - من اليهود والنصارى، وهم أهل التوراة والإنجيل . ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ﴾ أي: حتى يعطوا الخراج عن رقابهم الذي يبذلونه للمسلمين دفعا عنها.

وأما قوله: ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ فإنه يعني: من يده إلى يد من يدفعه إليه.

﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ فإن معناه: وهم أذلاء مقهورون، يقال للذليل الحقير. (٢)

أنزل الله -تعالى- هذه الآية في السنة التاسعة من الهجرة يأمر فيها المؤمنين بقتال أهل الكتاب بعد أن نصر الله دينه في جزيرة العرب، و دخل الناس في دين الله أفواجا، و أصبح الدين كله لله تعالى. فتجهز رسول الله ﷺ - لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فأوعبوا معه، واجتمع من المقاتلة وخرج - عليه السلام- يريد الشام لقتال الروم. (٣)

١ - التوبة: ٢٩

٢ - تفسير الطبري ١٤/١٩٨-٢٠٠

٣ - انظر: تفسير ابن كثير ٤/١٣٢-١٣٣

وقال السعدي: "هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إيمانًا صحيحًا يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم. ولا يجرمون ما حرم الله، فلا يتبعون شرعه في تحريم المحرمات، ولا يدينون بالدين الصحيح، وإن زعموا أنهم على دين، فإنه دين غير الحق، لأنه إما بين دين مبدل، وهو الذي لم يشرعه الله أصلاً، وإما دين منسوخ قد شرعه الله، ثم غيره بشريعة محمد ﷺ - فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز. فأمره بقتال هؤلاء وحث على ذلك، لأنهم يدعون إلى ما هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس، بسبب أنهم أهل كتاب، ولأن دينهم مزعوم من عند الله تعالى. وغاية ذلك القتال ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ وهي المال الذي يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم، وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم، بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام، كل على حسب حاله، من غني وفقير ومتوسط، كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره، من أمراء المؤمنين.

والجزية يقدمونها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادماً ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم، ﴿وَهُمْ صَغِرُونَ﴾ فإذا كانوا بهذه الحال، وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية، وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم، وحال الأمن من شرهم وفتنتهم، واستسلموا للشروط التي أجزاها عليهم المسلمون مما ينفي عزهم وتكبرهم، ويوجب ذلهم وصغارهم، وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم. وإن لم يفوا، ولم يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، لم يجز إقرارهم بالجزية، بل يقاتلون حتى يسلموا.^(١)

وقد تكون المقاصد من أخذ الجزية من أهل الكتاب أن من عبد الله، فهو يستحق العزة والغلبة في هذه الدنيا، وأن عبادة الله هي التي ترفع أهلها وتذل تاركها، فإن فهم أهل الكتاب ذلك كان سبب لدخولهم الإسلام.

وهذا المقصد من العبادة في القرآن الكريم ظاهر في جميع القرآن، فإن أهل العبادة إن تغافلوا من هذا المقصد، وجعلوا شيئاً غير الله عُوقبوا عليه.

قال ابن كثير في تفسيره: "و أهل الكتاب لما كفروا بمحمد ﷺ - لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل، ولا بما جاؤوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد - صلوات الله عليه - لأن جميع الأنبياء الأقدمين بشروا به، وأمروا باتباعه، فلما جاء كفروا به، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم."^(١)

و في هذه الآية ليس المقصود اقتصار القتال على ما ذكر من الصفات الأربع، بل كل الصفة المقصودة التي أردت بالتبيين بقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ و المشركون مضى ذكرهم في الآيات السابقة، و هم لا شريعة لهم، فليس عندهم حلال وحرام، ولا يدينون دين الحق، وأما اليهود والنصارى، فيؤمنون بالله واليوم الآخر، ويحرمون ما حرم الله في دينهم، ولكنهم لا يدينون دين الحق، ويلحق بهم الجوس. فقد كانت هذه الأديان هي الغالبة على الأمم المعروفة من العالم يومئذ، فقد كانت الروم نصارى، وكان في العرب نصارى في بلاد الشام و غيرهم، وكان الجوس ببلاد الفرس، وقد توفرت في أصحاب هذه الأديان من أسباب الأمر بقتالهم؛ ليظهر دين الله في غير جزيرة العرب.

قال ابن عاشور: " ولا تحسب أن عطف جمل على جملة الصلة يقتضي لزوم اجتماع تلك الصلات لكل ما صدق عليه اسم الموصول، فإن الواو لا تقيد إلا مطلق الجمع في الحكم فإن اسم الموصول قد يكون مراداً به واحد، فيكون كالمعهود باللام، وقد يكون المراد به جنساً أو أجناساً مما يثبت له معنى الصلة أو الصلات على أن حرف العطف نائب عن العامل، فهو بمنزلة إعادة اسم الموصول سواء وقع الاقتصار على حرف العطف كما في هذه الآية، أم جمع بين حرف العطف وإعادة اسم الموصول بعد حرف العطف."^(٢)

١ - تفسير ابن كثير ٤/١٣٢

٢ - التحرير و التنوير ١٠/٦٦

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٩٣) ﴿١﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾

﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣٩) ﴿٢﴾

قال الطبري - رحمه الله -: "يقول تعالى ذكره لنبية محمد - ﷺ -: وقاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني: حتى لا يكون شرك بالله، وحتى لا يعبد دونه أحد، وتضمحل عبادة الأوثان، والآلهة، والأنداد، وتكون العبادة، والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان."

و قال: "وأما الدين الذي ذكره الله في هذا الموضع فهو العبادة والطاعة لله في أمره ونهيه." (٣) و قال في قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ "أي: حتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره." (٤)

قال القاسمي - رحمه الله - في تفسير الآية: ﴿وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ "أي: شرك أو إضلال لغيرهم، وفتن منهم للمؤمنين عن دينهم ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ أي: يخلص التوحيد لله، فلا يعبد غيره ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا﴾ أي: عن الكفر والمعاصي ظاهراً: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ببواطنهم. ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: فيجازيهم، وعليه حسابهم، فكفوا عنهم، وإن لم تعلموا ببواطنهم، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ (٥) الآية ، وفي الآية الأخرى: ﴿فَإِحْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ (٦) (٧)

١ - البقرة: ١٩٣

٢ - الأنفال: ٣٩

٣ - تفسير الطبري ٣/٥٧٠-٥٧١

٤ - تفسير الطبري ١٣/٥٣٨

٥ - التوبة: ٥

٦ - التوبة: ١١

٧ - محاسن التأويل ٨/٢٩٩٦

والمقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين أن يدفع شرهم عن الدين، وأن يذب عن دين الله الذي خلق الخلق له حتى يكون هو العلي على سائر الأديان.

قال ابن القيم -رحمه الله- عن الآية: ﴿وَقَدْ لُوهُمُ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كَلِمَةً لِلَّهِ﴾ "فناقض بين كون الفتنة وبين كون الدين كله، فكل منهما يناقض الآخر والفتنة قد فسرت بالشرك. فما حصلت به فتنة القلوب، فهو إما شرك وإما من أسباب الشرك، وهي جنس تحته أنواع من الشبهات والشهوات."^(١)

و قال: "ولفظ الفتنة في كتاب الله -تعالى- يراد بها الامتحان الذي لم يفتن صاحبه، بل خلص من الافتتان، ويراد بها الامتحان الذي حصل معه افتتان."^(٢)

فسر كثير من المفسرين الفتنة في هذا الموضع أنها الشرك، إما أصغر و إما أكبر، و حين نظر في الآية و ما هي غاية القتال، نرى أنها المقصد الذي نحن في صددده و أن دخول الإسلام وكمال العبادة يصددهم عن القتال و القتل، و هذا الحكم يجري على المشركين، أما أهل الكتاب فقد ذكرته سابقاً.

و إن كان مراد كثير من المفسرين بالفتنة الشرك،^(٣) فإن لفظها أعم، فمنها افتتان العبد عن الصلاة فلا بد في أول الأمر من النصح، و في الثاني المنع أو القتال، فإن الصلاة من أعظم الدين فمن تركها، فقد كفر أو أشرك،^(٤) فلا بد من منع حصول هذه الفتنة و لو بالقتال. و أما ما يحصل من فتنة القلوب، ففيه شرك بحسبها، وهو ينافي كون الدين كله لله، لكن قد يكون ذلك شركاً أكبر، وقد يكون شركاً أصغر بحسب الإيمان، فمن اتخذ ما يهويه إلهاً من دون الله وأحبه كحب الله، فهذا شرك أكبر.

١ - إغاثة اللهفان ١٥٨/٢

٢ - إغاثة اللهفان ١٥٩/٢

٣ - قال الطبري: (حتى لا تكون فتنة) "يعني: حتى لا يكون شرك بالله." انظر تفسير الطبري ٥٧٠/٣ قال ابن كثير: (حتى لا تكون فتنة) أي: شرك. قاله ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع، ومقاتل بن حيان، والسدي، وزيد بن أسلم. انظر: تفسير ابن كثير ٥٢٥/١

٤ - قال رسول الله ﷺ "إن العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر." أخرجه النسائي في سننه، كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة. رقم (٤٦٣) ٢٣١/١ و الترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة. رقم (٢٦٢١) ١٣/٥ قال الشيخ الألباني: صحيح

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "وكثير من الناس يكون معه من الإيمان بالله وتوحيده ما ينجيه من عذاب الله، وهو يقع في كثير من هذه الأنواع ولا يعلم أنها شرك، بل لا يعلم أن الله حرمها، ولم تبلغه في ذلك رسالة من عند الله، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١) فهؤلاء يكثرون جداً في الأمكنة والأزمنة التي تظهر فيها فترة الرسالة^(٢) بقلة القائمين بحجة الله، فهؤلاء قد يكون معهم من الإيمان ما يرحمون به وقد لا يعذبون بكثير مما يعذب به غيرهم ممن كانت عليه حجة الرسالة."^(٣) و قال: "فأمر الله -تعالى- بالجهاد حتى لا تكون فتنة، وحتى يكون الدين كله لله، جعل المقصود عدم كون الفتنة ووجود كون الدين كله لله، وناقض بينهما، فكون الفتنة ينافي كون الدين لله وكون الدين لله ينافي كون الفتنة."^(٤)

وقال: "و أصل الإسلام هو أن لا نعبد إلا الله، ولا نعبده إلا بما شرع، و لا نعبد بالبدع كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكْتُمَ عَمَلًا﴾^(٦) قال الفضيل بن عياض^(٧): "أخلصه وأصوبه. قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة والكتاب."^(٨)

١ - الإسراء: ١٥

٢ - المقصود من فترة الرسالة: الزمن الذي ليس فيه من يدعو إلى الله تعالى. انظر: جامع الرسائل لابن تيمية ٢/٢٩٣

٣ - جامع الرسائل لابن تيمية ٢/٢٩٢-٢٩٣

٤ - قاعدة في المحبة ص ٨٧

٥ - الكهف: ١١٠

٦ - الملك: ٢

٧ - هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي البربوعي، أبو علي، الإمام، القدوة، الثبت، شيخ الإسلام، من أكابر العباد الصالحاء. كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلق كثير، منهم الإمام الشافعي. ولد في سمرقند، ونشأ بأبيورد، ودخل الكوفة وهو كبير، وأصله منها. ثم سكن مكة وتوفي بها سنة ١٨٧ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٨/٤٢١

٨ - مجموع الفتاوى ٢٧/١٤٨-١٤٩

فمن أشرب الفتنة و لم يجعل العبادة كلها لله -تعالى- قوتل إما باللسان و الحجة، و إما بالسيف و القوة. و هذا القصد من توحيد العبادة مشروط في كل زمان و مكان بالعلم والاستطاعة، و لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

قال سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: "قلت: وقد أجمع العلماء على معنى ذلك، فلا بد في العصمة من الإتيان بالتوحيد، والتزام أحكامه، وترك الشرك، كما قال تعالى: ﴿ وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كَلَهُ لِلَّهِ ﴾ والفتنة هنا الشرك، فدل على أنه إذا وجد الشرك، فالقتال باق بحاله، كما قال تعالى: ﴿ وَقَنِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَأَفَّةً كَمَا يَقْنِلُونَكُمْ كَأَفَّةً ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَخَصَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٢) فأمر بقتالهم على فعل التوحيد وترك الشرك، وإقامه شعائر الدين الظاهرة، فإذا فعلوها خلي سبيلهم ومتى أبوا عن فعلها أو فعل شيء منها، فالقتال باق بحاله إجماعاً، ولو قالوا لا إله إلا الله.^(٣)

ثالثاً: إرسال رسولنا محمد ﷺ - ليكون الدين كله لله تعالى

مكث خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ - في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس إلى عبادة الله وحده بقوله: (لا إله إلا الله) وترك ما كان يعبد آباؤهم. و قد اجتمعت قريش عند أبي طالب في مرضه، فقال أبو طالب للنبي ﷺ - : يا ابن أخي ما تريد من قومك؟ قال النبي ﷺ - : "إني أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم العجم الجزية." قال كلمة واحدة! قال: "كلمة واحدة". قال: "يا عم قولوا لا إله إلا الله."

١ - التوبة: ٣٦

٢ - التوبة: ٥

٣ - تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص ١١٩

فقالوا إلهاً واحداً، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق. فنزل فيهم القرآن:

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا آخِلَاقٌ ۝٧﴾ (١)(٢)

فهل كان لقريش أو أحد من العرب أن يتصور أن دين محمد - ﷺ - سيصل إلى القدر الذي وصل إليه بعد نصف القرن أو أقل. فقد كان العرب يعيشون قبل الإسلام عيش الذل والهوان، لا شأن لهم في ذلك الزمان، بل إن القبائل تقاتل بعضها بعضاً؛ لأن ناقة سبقت ناقة، أو لأن شاعرهم أشعر من شاعر غيرهم، أو لأن صنمهم أكبر من صنم غيرهم، وكان وصفهم عند العجم من أقبح الصفات، ودينهم من أسوء الأديان، فلما بعث الله تعالى محمداً - ﷺ - بدين الحق أظهره على كل أديان.

قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝٣٣﴾ (٣)

قال الطبري - رحمه الله - في تفسيره: "يقول تعالى ذكره: الله الذي يأبى إلا إتمام دينه ولو كره ذلك جاحدوه ومنكروه الذي أرسل رسوله محمداً - ﷺ - بالهدى، يعني: ببيان فرائض الله على خلقه، وجميع اللازم لهم، وبدين الحق وهو الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ يقول: ليعلي الإسلام على الملل كلها. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ بالله ظهوره عليها. وقد اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ فقال بعضهم: ذلك عند خروج عيسى حين تصير الملل كلها واحدة."

و قال: "وقال آخرون: معنى ذلك: ليعلمه شرائع الدين كلها فيطلعه عليها." (٤)

١ - ص: ١ - ٧

٢ - أخرجه الترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة ص. رقم (٣٢٣٢) ٣٦٥/٥ قال هذا حديث حسن صحيح.

٣ - التوبة: ٣٣

٤ - تفسير الطبري ٢١٤/١٤ - ٢١٥

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ "فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع. ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ هي الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة.

﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أي: على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: "إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإنني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إنني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد. وإنني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها - أو قال من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً." (١)(٢)

قال السعدي - رحمه الله -: " ذكر سبب الظهور والانتصار للدين الإسلامي الحسي والمعنوي، فقال: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ أي: بالعلم النافع والعمل الصالح. بالعلم الذي يهدي إلى الله وإلى دار كرامته، ويهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلى مصالح الدنيا والآخرة. ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ أي: الدين الذي يدان به، ويتعبد لرب العالمين الذي هو حق وصدق لا نقص فيه، ولا خلل يعتريه، بل أوامره غذاء القلوب والأرواح، وراحة الأبدان، وترك نواهيه سلامة من الشر والفساد، فما بعث به النبي - ﷺ - من الهدى ودين الحق أكبر دليل وبرهان على صدقه، وهو برهان باق ما بقي الدهر كلما ازداد العاقل تفكيراً، ازداد به فرحاً وتبصراً.

﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان، فأما نفس الدين، فهذا الوصف ملازم له في كل وقت، فلا

١ - أخرجه مسلم كتاب الفتن و أشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض. رقم (٧٤٤٠) ١٧١/٨

٢ - تفسير ابن كثير ١٣٦/٤

يمكن أن يغالبه مغالب، أو يخاصمه مخاصم إلا فلجه^(١) وبلسه^(٢)، وصار له الظهور والقهر، وأما المنتسبون إليه، فإنهم إذا قاموا به، واستناروا بنوره، واهتدوا بهديه في مصالح دينهم ودنياهم، فكذلك لا يقوم لهم أحد، ولا بد أن يظهروا على أهل الأديان، وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه، لم ينفعهم ذلك، وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم، ويعرف هذا من استقرأ الأحوال ونظر في أول المسلمين وآخرهم.^(٣)

فلما تمسك الصحابة الكرام بهذا الدين و جعلوا عبادتهم و دينهم لله وحده أظهرهم الله - تعالى - و جعل هذا الدين -رغم ضعف أتباعه - فوق الأديان كلها، ولو كره كل مشرك وصد عنه، و بذل أمواله، و مكر كل مكر ليضعفه أو يضره، فلا يمكنه لأن الإيمان حين يخالط بشاشة القلب لا يضره بإذن الله تعالى شيء.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

شَهِيدًا ۗ ﴾ (٢٨)

قال الطبري -رحمه الله- : " يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ ﴾ الله الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ بالبيان الواضح، ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ وهو الإسلام الذي أرسله داعياً خلقه إليه ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ يقول: ليبتل به الملل كلها حتى لا يكون دين سواه، وذلك كان كذلك حتى ينزل عيسى ابن مريم، فيقتل الدجال، فحينئذ تبطل الأديان كلها غير دين الله الذي بعث به محمداً ﷺ ويظهر الإسلام على الأديان كلها.^(٤)

فالدين الحق هو يظهر على الأديان كلها، و لا يظهر الدين الحق إلى بتمسك بتوحيد العبادة، فهل يتصور الدين الحق بدونها، فكل دين يعرف بقوائمه التي يقوم عليها و يظهر، و دين الله تعالى يقوم ويظهر على عبودية خالصة لله وحده، و مهما ضعف هذه القوائم ضعف إظهار هذا الدين، فليعلم الذين يريدون رفعة و عزة و تقدم لهذا الدين أن قوائمه موجودة بقي تمسك بما فعل أسلافنا.

١ - الفلج بوزن الفلج والظفر والفوز. انظر مختار الصحاح ٥١٧/١.

٢ - (بَلَسَ) - أَبْلَسَ من رحمة الله أي يئس. انظر: مختار الصحاح ٧٣/١

٣ - تفسير السعدي ص ٨٦٠

٤ - الفتح: ٢٨

٥ - تفسير الطبري ٣٣٦٠/٢٣

المبحث الثاني: تمييز أهل السعادة من أهل الشقاوة

أولاً: أحوال أهل السعادة

ثانياً: أحوال أهل الشقاوة

كل حي يعمل ما فيه سعادته ولذته، فالسعادة هي المقصود الأول من كل قصد، كما أن العذاب والتألم هو المكروه الأول، ولكن وقع الجهل والظلم من الناس بكليهما، فأهل الشقاوة طلبوا السعادة بالفساد والدنيا الفاجرة، ففاتتهم السعادة من حيث طلبوها وآثروها، ووقعوا في الألم والعذاب من حيث هربوا منه. والأعمال التي يعملها جميع الناس إما أن يتخذوها ديناً أو لا يتخذوها ديناً.

والذين يتخذونها ديناً إما أن يكون ديناً حقاً، وإما أن يكون ديناً باطلاً.

فالسعادة التامة هي في الدين الحق، و العبادة لله -تعالى- - علماً وعملاً، فأهله هم أصحاب السعادة الكاملة، كما أخبر الله -تعالى- بذلك في كتابه في غير موضع، كقوله تعالى:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ۚ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ^(١) وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ

هُدَايَ فَلَا يَضِلْ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ ^(٢) وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعْ هُدَايَ فَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ^(٣) وقوله تعالى عن المهتدين بالكتاب: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن

رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(٤) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ

﴿١٤﴾ ^(٥) والقرآن مملوء من هذا، فوعد أهل الهدى والعمل الصالح بالسعادة التامة في الدار

الآخرة، وتوعد أهل الضلال والفجور بالشقاء في الدار الآخرة مما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى آخرهم وتضمنته الكتب.

قال ابن القيم -رحمه الله-: " إن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان في الدنيا من المصائب، وما ينال كثيراً من الكفار والفجار والظلمة في الدنيا من الرياسة

١ - النحل: ٩٧

٢ - طه: ١٢٣

٣ - البقرة: ٣٨

٤ - البقرة: ٥

٥ - الانفطار: ١٣ - ١٤

والمال وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا للكفار والفجار، وأن المؤمنين حظهم من النعيم في الدنيا قليل. وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة في الدنيا تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين، فإذا سمع في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٣) ونحو هذه الآيات، وهو ممن يصدق بالقرآن، حمل ذلك على أن حصوله في الدار الآخرة فقط، وقال: أما الدنيا فإننا نرى الكفار والمنافقين يغلبون فيها ويظهرون، ويكون لهم النصر والظفر، والقرآن لا يرد بخلاف الحس، ويعتمد على هذا الظن إذا أدب عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الفجرة الظالمين، وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى، فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق، فيقول: أنا على الحق وأنا مغلوب، فصاحب الحق في هذه الدنيا مغلوب مقهور والدولة فيها للباطل. فإذا ذكر بما وعده الله -تعالى- من حسن العاقبة للمتقين والمؤمنين، قال: هذا في الآخرة فقط. وإذا قيل له: كيف يفعل الله -تعالى- هذا بأوليائه وأحبابه وأهل الحق؟ فإن كان ممن لا يعلل أفعال الله -تعالى- بالحكم والمصالح، قال: يفعل الله في ملكه ما يشاء ويحكم ما يريد: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(٤) وإن كان ممن يعلل الأفعال، قال: فعل بهم هذا ليعرضهم بالصبر عليه لثواب الآخرة وعلو الدرجات وتوفية الأجر بغير حساب. ولكل أحد مع نفسه في هذا المقام مباحثات وإيرادات وإشكالات، وأجوبة بحسب حاصله، وبضاعته من المعرفة بالله -تعالى- وأسمائه وصفاته وحكمته، والجهل بذلك، فالقلوب تغلي بما فيها كالقدر إذا استجمعت غلياناً.^(٥)

١ - المنافقون: ٨

٢ - الصافات: ١٧٣

٣ - المجادلة: ٢١

٤ - الأنبياء: ٢٣

٥ - إغاثة اللهفان ١٧٦/٢

فلا بد من تمييز أهل السعادة من أهل الشقاوة في هذه الدنيا ليرى الله -تعالى- صدقنا وصبرنا في العبادة، و هل نحن صادقون في مجيئنا إليه وإقبالنا عليه، فنصبر على بلائه، فتكون لنا العاقبة، أم نحن كاذبون فنرجع على أعقابنا.

ومن اعتقد أن الله -سبحانه وتعالى- لا يؤيد صاحب العبادة و الدين الحق، وينصره ويميزه عن أهل الشقاوة، فقد كذب بآياته. فقد قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ

الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلْنَا لَهُمُ جَنَّةَ النَّعِيمِ ۗ﴾^(١)

فإن أهل الكتاب آمنوا بالله -تعالى- لكن إيمانهم ما وصل إلى أن يكفر عنهم ذنوبهم، و لا أن يدخلهم الجنة، و لا أن يمكنهم و يميزهم في الدنيا، فصاروا أهل الشقاوة، بل عاشوا مظلومين مقهورين مع زعمهم أنهم مؤمنون.

فأهل الشقاوة فاسدون و يفسدون، و شقاوتهم تظهر عند أدنى ابتلاء؛ لأنهم لا معرفة لهم بحقائق الدين.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "إنه من المعلوم أن العبد إن كان من أهل السعادة فإنه طالب في الدنيا لما لا بد له منها من جلب النفع و دفع الضرر بما يعتقد أنه مستحب أو واجب أو مباح، فإذا اعتقد أن الدين الحق و اتباع الهدى و الاستقامة على التوحيد و متابعة السنة لا يدخله في أهل السعادة لزم من ذلك إعراضه عن الرغبة في كمال عبادته و تجرده لله

ورسوله، فيعرض قلبه عن حال أهل السعادة، و يدخله في حال أهل الشقاوة من الظالمين أو المنافقين. وإن لم يكن هذا في أصل الدين كان في كثير من فروع و أعماله،

كما قال النبي -ﷺ-: "بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي كافراً ويصبح مؤمناً، يبيع دينه بعرض من الدنيا."^(٢)

وذلك أنه إذا اعتقد أن الدين الكامل لا يحصل إلا بفساد دنياه من حصول ضرر لا يحتمله، وفوات منفعة لا بد له منها، لم يقدم على احتمال هذا الضرر ولا تفويت تلك المنفعة.

١ - المائة: ٦٥

٢ - أخرجه مسلم كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن. رقم (٣٢٨) ٧٦/١

فسبحان الله كم قد صدت هذه الفتنة الكثير من الخلق، بل صدت أكثرهم عن القيام بحقيقة الدين، وأصلها ناشىء من جهلين كبيرين: جهل بحقيقة العبادة، وجهل بحقيقة السعادة التي هي غاية مطلوبة النفوس وكمالها، وبها ابتهاجها والتذاذها، فيتولد من هذين الجهلين إعراضه عن القيام بحقيقة الدين وعن طلب حقيقة النعيم.

ومعلوم أن كمال العبد هو بأن يكون عارفاً بالسعادة التي يطلبها، والعمل الذي يوصله إليه، وأن يكون مع ذلك فيه إرادة جازمة لذلك العمل، ومحبة صادقة لتلك السعادة، وإلا فالعلم بالمطلوب وطريقه لا يحصلها إن لم يقترن بذلك العمل، والإرادة الجازمة لا توجد وجود المراد إلا إذا لازمها الصبر.^(١)

فمن اعتقد أن السعادة الكاملة لا تحصل إلا باتباع شهوته و ملذاته لم يقدر هذا الضرر الذي صده عن سبيل الله -تعالى- و أدخله في أهل الشقاوة.

أولاً: أحوال أهل السعادة

عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتى رسول الله ﷺ - فقعد، وقعدنا حوله، ومعه مخرصة فنكس، فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: "ما

منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة. قال: فقال رجل: يا رسول الله! أفلا نمكث على كتابنا وندع

العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة، فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان

من أهل الشقاوة، فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ

بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلنَّسْرِ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى

﴿١٠﴾﴾ وفي لفظ: اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة، فييسرون لعمل أهل

السعادة، وأما أهل الشقاوة، فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾

١ - إغاثة اللفهان ١٧٩/٢

٢ - الليل: ٥ - ١٠

وَصَدَقَ بِالْحَسَنِ ﴿٦﴾ فَسَنِيْرُهُ، لِلْبَسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخَلَ وَاسْتَعْتَنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنِ ﴿٩﴾ فَسَنِيْرُهُ،
لِلْعَسْرَى ﴿١٠﴾ ﴿١﴾

فأهل السعادة هم الذين اتبعوا الهدى و عملوا بها، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ ﴿١٣٣﴾ ﴿٢﴾

قال الطبري - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ يقول: "فإن يأتيكم يا آدم وحواء وإبليس مني هدى: يقول: بيان لسبيلي، وما اختاره لخلق من دين ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ يقول: فمن اتبع بياني ذلك وعمل به، ولم يزع منه ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ يقول: فلا يزول عن محجة الحق، ولكنه يرشد في الدنيا ويهتدي ﴿وَلَا يَشْقَى﴾ يقول: ولا يشقى في الآخرة بعقاب الله، لأن الله يدخله الجنة، وينجيه من عذابه." ﴿٣﴾

و قال السعدي - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: "يخبر - تعالى - أنه أمر آدم وإبليس أن يهبطوا إلى الأرض، وأن يتخذوا - آدم وبنوه - الشيطان عدوا لهم، فيأخذوا الحذر منه، ويعدوا له عدته ويحاربوه، وأنه سينزل عليهم كتبا، ويرسل إليهم رسلا يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلى جنته، ويحذرونهم من هذا العدو المبين، وأنهم أي: وقت جاءهم ذلك الهدى، الذي هو الكتب والرسل، فإن من اتبعه اتبع ما أمر به، واجتنب ما نهي عنه، فإنه لا يضل في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يشقى فيهما، بل قد هدي إلى صراط مستقيم، في الدنيا والآخرة، وله السعادة والأمن في الآخرة." ﴿٤﴾

قال القرطبي - رحمه الله - في تفسيره: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ "أي: رسداً وقولاً حقاً. ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ يعني الرسل والكتب. ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ قال ابن عباس:

١ - أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله. رقم (١٣٦٢) (١٢٠/٢) و أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته. رقم

٤٦/٨ (٦٩٠١)

٢ - طه: ١٢٣

٣ - تفسير الطبري ٣٨٩/١٨

٤ - تفسير السعدي ص ٥١٥

ضمن الله -تعالى- لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وتلا الآية. من قرأ واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، ثم تلا الآية. ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ﴾ أي: ديني، وتلاوة كتابي، والعمل بما فيه. وقيل: عما أنزلت من الدلائل. ويحتمل أن يحمل الذكر على الرسول؛ لأنه كان منه الذكر. ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ أي: عيشاً ضيقاً، يقال منزل ضنك، وعيش ضنك، يستوي فيه الواحد والاثنتان والمؤنث والجمع.^(١)

قال ابن عاشور-رحمه الله-: "تفريع جملة ﴿ فَأَمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ على الأمر بالهبوط من الجنة إلى الدنيا إنباء بأنهم يستقبلون في هذه الدنيا سيرة غير التي كانوا عليها في الجنة لأنهم أودعوا في عالم خليط خيره بشره، وحقائقه بأوهامه بعد أن كانوا في عالم الحقائق المحضة والخير الخالص، وفي هذا إنباء بطور طراً على أصل الإنسان في جبلته كان معداً له من أصل تركيبه.

والخطاب في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ لآدم باعتبار أنه أصل لنوع الإنسان إشعاراً له بأنه سيكون منه جماعة، ولا يشمل هذا الخطاب إبليس؛ لأنه مفطور على الشر والضلال إذ قد أنباه الله بذلك عند إبائه السجود لآدم، فلا يكلفه الله باتباع الهدى؛ لأن طلب الاهتداء ممن أعلمه الله بأنه لا يزال في ضلال يعد عبثاً ينزه عنه فعل الحكيم تعالى. وليس هذا مثل أمر أبي جهل وإضرابه بالإسلام، إذ أمثال أبي جهل لا يوقن بأنهم لا يؤمنون، ولم يرد في السنة أن النبي -ﷺ- دعا الشيطان للإسلام ولا دعا الشياطين.^(٢)

قال الشنقيطي -رحمه الله-: "الظاهر أن الخطاب لبني آدم. أي: ﴿ فَأَمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي: رسول أرسله إليكم، وكتاب يأتي به رسول، ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ ﴾ أي: من آمن برسلي وصدق بكتبي، وامتل ما أمرت به، واجتنب ما نهيت عنه على السنة رسلي، ﴿ فَلَا يَضِلُّ ﴾ في الدنيا، أي: لا يزيغ عن طريق الحق لاستمساكه بالعروة الوثقى، ولا يشقى

١ - تفسير القرطبي ٢٥٨/١١

٢ - التحرير و التنوير ١٦٦/١٩٨

في الآخرة؛ لأنه كان في الدنيا عاملاً بما يستوجب السعادة من طاعة الله -تعالى- وطاعة رسله. وهذا المعنى المذكور هنا ذكر في غير هذا الموضع. كقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١) ونحو ذلك من الآيات. وفي هذه الآيات دليل على أن الله بعد أن أخرج أبويننا من الجنة لا يرد إليهما أحداً منا إلا بعد الابتلاء، والامتحان بالتكاليف من الأوامر والنواهي، ثم يطيع الله فيما ابتلاه به.^(٢)

وقال أيضاً: "وقد دلت آية طه هذه على انتفاء الضلال والشقاوة عن متبعي الوحي.

ودلت آية البقرة على انتفاء الخوف والحزن عنه، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣)

ولا شك أن انتفاء الضلال والشقاوة والخوف والحزن عن متبعي الوحي المصرح به في القرآن، لا يتحقق فيمن يقلد عالماً ليس بمعصوم، لا يدري أصواب ما قلده فيه أم خطأ في حال كونه معرضاً عن التدبر في كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - ولا سيما إن كان يظن أن آراء العالم الذي قلده كافية مغنية عن كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ -.^(٤)

عن علي -رضي الله عنه- قال: "قليل يا رسول الله! إن أمتك ستفتن من بعدك. قال: فسأل رسول الله - ﷺ - أو سئل ما المخرج منها. قال: الكتاب العزيز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(٥) تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ من ابتغى الهدى في غيره، فقد أضله الله، ومن ولي هذا الأمر من جبار فحكم بغيره قصمه الله. هو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، فيه خبر من قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو

١ - البقرة: ٣٨

٢ - تفسير أضواء البيان ١٢٥/٤

٣ - البقرة: ٣٨

٤ - تفسير أضواء البيان ٣٠٢/٧

٥ - فصلت: ٤٢

الفصل ليس بالهزل، وهو الذي سمعته الجن فلم تتناها أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾^(١) ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عبره، ولا تفتنى عجائبه.^(٢) قال ابن القيم: "فضمن -سبحانه- لمن اتبع هداه، وهو كلامه الهدى في الدنيا والآخرة، والسعادة في الدنيا والآخرة. فهاهنا أمران: طريقة وغاية. فالطريقة: الهدى. والغاية: السعادة والفلاح. فمن لم يسلك هذه الطريقة لم يصل إلى هذه الغاية، والله -سبحانه- قد أخبر أن كتابه الذي أنزله هو الهدى والطريق، فلو كان العقل الصريح يخالفه لما كان طريقاً إلى الفلاح والرشد، وقد أخبر -سبحانه- أن الذين اتبعوا النور الذي أنزل مع رسوله هم المفلحون لا غيرهم."^(٣)

وكما جعل -سبحانه- الهدى والفلاح لمن اتبع كتابه وآمن به وقدمه على غيره، جعل الضلال والشقاء لمن أعرض عنه واتبع غيره، وعارضه برأيه ومعقوله وقياسه، فالهدى والسعادة متلازمان، والضلال والشقاء متلازمان.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "نفى الله -تعالى- عن متبع هداه أمرين: الضلال والشقاء. قال عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-: "تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾^(١١٣) والآية نفت مسمى الضلال والشقاء عن متبع الهدى مطلقاً، فاقتضت الآية أنه لا يضل في الدنيا ولا يشقى، ولا يضل في الآخرة ولا يشقى فيها، فإن المراتب أربعة: هدى وشقاوة في الدنيا، وهدى وشقاوة في الآخرة، لكن ذكر ابن عباس - رضي الله عنهما- في كل دار أظهر مرتبتها، فذكر الضلال في الدنيا إذ هو أظهر لنا وأقرب من ذكر الضلال في الآخرة. وأيضاً، فضلال الدنيا أضل ضلال في الآخرة، وشقاء الآخرة

١ - الجن: ١ - ٢

٢ - أخرجه الدارمي في سننه، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه رقم (٣٣٣٢) (٥٢٧/٢) قال محققه حسين سليم أسد: إسناده حسن.

٣ - الصواعق المرسله ١١٢٨/٣

مستلزم للضلال فيها، فنبه بكل مرتبة على الأخرى، فنبه بنفي ضلال الدنيا على نفي ضلال الآخرة، فإن العبد يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه." (١)

أصل جامع في الاعتصام بكتاب الله ووجوب اتباعه وبيان الاهتداء به في كل ما يحتاج إليه الناس من دينهم، وأن النجاة والسعادة في اتباعه والشقاء في مخالفته، وما دل عليه من اتباع السنة والجماعة.

إن من أبرز صفات أهل السعادة الدعاء في هذه الدنيا رهم الذي يعرفون أنه -تعالى- لن يخزيهم و لا يضلهم مهما يدعونه تضرعاً و خفية، فحصل لهم علاقة برهم ما جعلهم سعداء. قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١٩) (٢)

قال الطبري -رحمه الله- في تفسيره: "يقول تعالى ذكره: ﴿ إِنَّهُ ﴾ وهذه الهاء في قوله إنه هي الهاء التي يسميها أهل العربية المجهولة. قال بعض نحوي الكوفة معنى دخولها في الكلام: أن الأمر والشأن. و قال في قوله تعالى: ﴿ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي ﴾ يقول: كانت جماعة من عبادي، وهم أهل الإيمان بالله، يقولون في الدنيا: ﴿ رَبَّنَا ءَامَنَّا ﴾ بك وبرسلك، وما جاءوا به من عندك، ﴿ فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ وأنت خير من رحم أهل البلاء، فلا تعذبنا بعذابك." (٣)

قال السعدي -رحمه الله-: "فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لرهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته، ومنته عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحمته، وعموم إحسانه، وفي ضمنه ما يدل على خضوعهم وخشوعهم، وانكسارهم لرهم، وخوفهم ورجائهم. فهؤلاء سادات الناس وفضلائهم." (٤)

١ - مفتاح دار السعادة ٣٥/١

٢ - المؤمنون: ١٠٩

٣ - تفسير الطبري ٧٩/١٩

٤ - تفسير السعدي ص ٥٦٠

قال ابن القيم - رحمه الله -: "إن حياة أهل السعادة في الدنيا أطيب الحياة، ولهم في البرزخ وفي الآخرة أفضل الثواب، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ﴾ فهذا في الدنيا ثم قال: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(١) فهذا في البرزخ والآخرة. وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوِّنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَا جُرْأَلُومَةَ الْآخِرَةِ ۚ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿ وَإِنِ اسْتَفْهَرُوا رَبَّكُمْ ۖ ثُمَّ تَابُوا إِلَيْهِ يُصَنِّعْكُمْ مِّنْعَا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۗ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾^(٣) فهذا في الآخرة. وقال تعالى: ﴿ قُلْ يٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّٰدِقِينَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٤) فالإحسان له جزاء معجل، والإساءة لها جزاء معجل، ولو لم يكن إلا ما يجازي به المحسن من انشراح صدره في انفساح قلبه وسروره ولذاته بمعاملة ربه - عز و جل - وطاعته وذكره ونعيم روحه بمحبته، وذكره وفرحه بربه - سبحانه وتعالى - أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه. وما يجازي به المسيء من ضيق الصدر وقسوة القلب، وتشتته وظلمته، وحزازاته وغمه وهمه وحزنه وخوفه، وهذا أمر لا يكاد من له أدني حس وحياة يرتاب فيه، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوبات عاجلة، ونار دنيوية وجهنم حاضرة. والإقبال على الله - تعالى - والإجابة إليه، والرضاء به وعنه، وامتلاء القلب من محبته، واللهج بذكره والفرح والسرور بمعرفته ثواب عاجل وجنة، وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة." ^(٥)

١ - النحل: ٩٧

٢ - النحل: ٤١

٣ - هود: ٣

٤ - الزمر: ١٠

٥ - الوابل الصيب ص ٦٧

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة." وقال: "ما يصنع أعدائي بي؟! أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحمت، فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة." وقال أيضاً: "المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه." قال ابن القيم: "ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً وأشرحهم صدرًا وأقواهم قلباً وأسرههم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

و قال: كنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضائق بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحاً وقوة و يقيناً وطمأنينةً. فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقاءه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها." (١)

و قال: "فأهل السعادة يحبون الله -تعالى- و يعرفونه ويداومون على ذكره، ويسكنون إليه، ويطمئنون إليه، ويفردونه بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة، بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد، وعزماته وإرادته، هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرّة عين المحبين و حياة العارفين، وإنما تقر عيون الناس به على حسب قرّة أعينهم بالله -عز وجل- فمن قرّت عينه بالله قرّت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات." (٢)

فأهل العبادة هم أهل السعادة لا يستغنون عن ذكر ما يسعدهم في هذه الدنيا لحظة واحدة، فمن شعر بقرب ربه و هو سبحانه عنه راض، فسعادته لا يفارقه مهما كان كذلك، و مهما حصل له في هذه الدنيا من تقلبها و تضيقها و توسعها.

١ - الوابل الصيب ص ٦٦-٦٧

٢ - الوابل الصيب ص ٦٨

و أما أهل السعادة في الجنة، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُوزٍ﴾ (١)

قال الطبري-رحمه الله-: "واختلفت القراءة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء المدينة والحجاز والبصرة وبعض الكوفيين: (وأما الذين سعدوا) بفتح السين. وقرأ ذلك جماعة من قراء الكوفة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾ بضم السين،^(٢) بمعنى: رزقوا السعادة. و القراءتان المعروفتان، فبأيتهما قرأ القارئ، فمصيب الصواب. وسعد وأسعد بمعنى واحد، والعرب تستعمل أحدهما مكان آخر كثيراً.

و تفسيرهما: وأما الذين سعدوا برحمة الله، فهم في الجنة خالدون ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: أبداً.^(٣)

قال السعدي في تفسيره: "﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾ أي: حصلت لهم السعادة، والفلاح، والفوز ﴿فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ثم أكد ذلك بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُوزٍ﴾ أي: ما أعطاهم الله من النعيم المقيم، واللذة العالية، فإنه دائم مستمر غير منقطع بوقت من الأوقات، نسأل الله الكريم من فضله."^(٤)

ميز الله - سبحانه و تعالى - أهل السعادة في هذه الدنيا بتوحيد العبادة، و هم بهذا التوحيد قد يكونون الغرباء في هذه الدنيا، لكن غربتهم تزيدهم رجوعاً إلى ربهم و توكلهم عليه، فيشعرون بزيادة سعادتهم بذلك، كما كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول في محبسه في القلعة: "لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير."^(٥)

١ - هود: ١٠٨

٢ - قرأ حفص وحمزة و الكسائي وخلف: (وأما الذين سعدوا) بضم السين، والباقون (ابن كثير، أبو عمرو، ابن عامر، نافع، يعقوب، أبو جعفر) بفتحها. انظر: تحبير التيسير في القراءات العشر لابن الجزري ص ٤٠٨

٣ - تفسير الطبري ٤٨٦/١٥-٤٨٧

٤ - تفسير السعدي ص ٣٨٩

٥ - انظر: الوابل الصيب ص ٦٧

هذا هو شأن من ذاق حلاوة إيمانه، و أحس بسعادة في قربه من ربه، و خاصة حين يكون في العبادة، فقد كان النبي -ﷺ- يقول لبلال-رضي الله عنه-: "يا بلال أرحنا بها"^(١) (يعني الصلاة) و كان يقول: "جعل قرّة عيني في الصلاة."^(٢)

ثانياً: أحوال أهل الشقاوة

إن أهل الشقاوة غافلون متغافلون، فلو سمع أحد بزلزال في بلد ما لاستمع إلى خبره ساعات، أو لو سمع بموت أحدهم فجأة، لأثر عليه تأثيراً بليغاً، لكن حين يسمع بخبر السماء و دعوة إلى الحق، يستهزأ و يُكذّب، فهلا تساءل عن هذا الحق، أو استفسر عنه.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾^(٣)

قال ابن عباس: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ "كل مال أعطيته عبداً من عبادي قل أو كثر، لا يتقيني فيه لا خير فيه، وهو الضنك في المعيشة. ويقال: إن قوماً ضلالاً أعرضوا عن الحق، وكانوا أولي سعة من الدنيا مكثرين، فكانت معيشتهم ضنكاً، وذلك أنهم كانوا يرون أن الله -عز وجل- ليس بمخلف لهم معايشهم من سوء ظنهم بالله، والتكذيب به، فإذا كان العبد يكذب بالله، ويسيء الظن به، اشتدت عليه معيسته، فذلك الضنك."^(٤) و قال في قوله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ "يقول ت عالي ذكره: ونحشره من قبره إلى موقف القيامة أعمى."^(٥)

١ - هذا الحديث أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة. رقم (٤٩٨٧) ٤/٤٥٣ بلفظ: "يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها." قال الألباني: صحيح

٢ - هذا جزء من الحديث أخرجه النسائي في سننه، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، عن أنس - رضي الله عنه- رقم (٣٩٣٩) ٧/٦١ بلفظ: "حب إلي من الدنيا، النساء والطيب، وجعل قرّة عيني في الصلاة." قال الشيخ الألباني: حسن صحيح

٣ - طه: ١٢٤

٤ - تفسير الطبري ١٨/٣٩٠-٣٩٢

٥ - تفسير الطبري ١٨/٣٩٤

قال ابن كثير في تفسيره: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ﴾ "أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه، وأخذ من غيره هداه ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة.

قال ابن عباس: ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ قال: الشقاء.

وقال الضحاك: هو العمل السيئ، والرزق الخبيث، وكذا قال عكرمة^(١)، ومالك بن دينار.

وعن أبي سعيد الخدري^(٢) في قوله: ﴿ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ قال: يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه.

وقوله: ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ قال مجاهد، وأبو صالح^(٣) والسدي: لا حجة له.

وقال عكرمة: عمي عليه كل شيء إلا جهنم^(٤).

و قال السعدي في تفسيره: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ﴾ "أي: كتابي الذي يتذكر به جميع المطالب العالية، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه، أو ما هو أعظم من ذلك بأن يكون على وجه الإنكار له، والكفر به. ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ أي: فإن جزاءه أن نجعل معيشتة ضيقة مشقة، ولا يكون ذلك إلا عذاباً.

وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره، ويحصر فيه ويعذب جزاء لإعراضه عن ذكر ربه، وهذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر.

١ - هو عكرمة البربري المدني، أبو عبد الله، مولى عبد الله بن عباس، تابعي، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي.

ولي البصرة لعلي. وكانت وفاته بالمدينة ١٠٥ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٢/٥ و تهذيب التهذيب ٣٢٤/٧

٢ - سعد بن مالك بن سنان الخدري الانصاري الخزرجي، أبو سعيد: صحابي، الإمام، المجاهد، مفتي المدينة، كان من

ملازمي النبي ﷺ. غزا اثني عشرة غزوة، وله ١١٧٠ حديثاً. توفي في المدينة ٧٤ هـ. انظر: الإصابة ٧٨/٣

٣ - هو باذان أبو صالح مولى أم هانئ بنت أبي طالب. روى عن علي وابن عباس وأبي هريرة ومولاته أم هانئ.

و أغلب رواياته في التفسير. انظر: الإصابة (٣١٩٤) ٧٢/٣ و تهذيب التهذيب ٤١٦/٣

٤ - تفسير ابن كثير ٣٢٢/٥-٣٢٤

إلى أن قال: "وبعض المفسرين يرى أن المعيشة الضنك عامة في دار الدنيا بما يصيب المعرض عن ذكر ربه من الهموم، والغموم، والآلام التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ وفي الدار الآخرة لإطلاق المعيشة الضنك، وعدم تقييدها. ﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ أي: هذا المعرض عن ذكر ربه. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ البصر على الصحيح، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾^(١)

قال على وجه الدل والمراجعة والتألم والضجر من هذه الحالة.^(٢)

قال القرطبي في تفسيره: "﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي: ديني، وتلاوة كتابي، والعمل بما فيه. وقيل: عما أنزلت من الدلائل. ويحتمل أن يحمل الذكر على الرسول؛ لأنه كان منه الذكر. ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي: عيشاً ضيقاً.

وقرى ﴿ضَنْكِي﴾^(٣) على وزن فعلى: ومعنى ذلك أن الله - عز وجل - جعل مع الدين التسليم والقناعة والتوكل عليه وعلى قسمته، فصاحبه ينفق مما رزقه الله - عز وجل - بسمح وسهولة ويعيش عيشاً رافعاً، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ والمعرض عن الدين مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا، مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق، فعيشه ضنك، وحاله مظلمة، كما قال بعضهم: "لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه، وكان في عيشة ضنك." وقال عكرمة: ﴿ضَنْكًا﴾ كسباً حراماً. وقال الحسن: طعام الضريع والزقوم."

إلى أن قال في وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ "قيل: أعمى في حال وبصيراً في حال. وقيل: أعمى عن جهات الخير لا يهتدي لشيء منها. وقيل: عن الحيلة في دفع العذاب عن نفسه، كالأعمى الذي لا حيلة له فيما لا يراه."^(٤)

١ - الإسراء: ٩٧

٢ - تفسير السعدي ص ٥١٥

٣ - هذه القراءة شاذة روي عن الحسن البصري. انظر: القراءات الشاذة لابن خلوويه ص ٩٠

٤ - تفسير القرطبي ١١/٢٥٨-٢٥٩

و إن أهل الشقاوة إن كانوا في سعة من الدنيا، فلا تزيدهم سعتها إلا ضنكاً؛ لأن الدنيا لا تطمئن إليها النفس مهما كانت في سعة؛ لأن كل بني آدم يعرف أنه سيتركها، فقد خدع الشيطان آدم - عليه السلام - بهذه المعلومة إذ قال له: ﴿يَتَّادُمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمَلِكٍ لَا يَبْلَى﴾^(١) فلو كان لأهل الشقاوة هذا الضنك فقط، لكفاهم شقاوة، فكيف بالضنك في الآخرة، نسأل الله السلامة.

و قال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ أَخْسِرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾^(٢)
هنا اعترف أهل الشقاوة بشقاوتهم إذ قالوا: ربنا غلب علينا ما سبق لنا في سابق علمك، وخطأ لنا في أم الكتاب.

ثم قال - تعالى ذكره - مخبراً عن قيل الذين خفت موازين صالح أعمالهم يوم القيامة في جهنم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ثم قال - تعالى - لهم جيبياً: ﴿أَخْسِرُوا فِيهَا﴾ أي: اقعدهوا في النار. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فعند ذلك أيس المساكين من الفرج، ولقد كانوا طامعين فيه.^(٣)

قال ابن كثير في تفسيره: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ "أي: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها، فضللنا عنها، ولم نرزقها. ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ "أي: ردنا إلى الدار الدنيا، فإن عدنا إلى ما سلف منا، فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قالوا: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ

١ - طه: ١٢٠

٢ - المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨

٣ - انظر: تفسير الطبري ٧٦/١٩ - ٧٧

﴿ أَلْعَلِّيَ الْكَبِيرِ ﴾^(١) أي: لا سبيل إلى الخروج؛ لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون. ﴿ قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ هذا جواب من الله -تعالى- للكفار إذا سألوا الخروج من النار، والرجعة إلى هذه الدار، يقول: ﴿ أَخْسُوا فِيهَا ﴾ أي: امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء. ﴿ وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ أي: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندي.^(٢)

قال السعدي في تفسيره: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ أي: غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر، وترك ما ينفع، ﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ في عملهم، وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون، أي: فعلنا في الدنيا فعل التائه الضال السفيه، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾^(٣) ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ وهم كاذبون في وعدهم هذا، فإنهم كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾^(٤) ولم يبق الله لهم حجة، بل قطع أعدارهم، وعمرهم في الدنيا، ما يتذكر فيه المتذكر، ويرتدع فيه المجرم، فقال الله جواباً لسؤالهم: ﴿ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ وهذا القول - نسأله تعالى العافية- أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون في التخييب، والتوبيخ، والذل، والخسار، والتأيس من كل خير، والبشرى بكل شر، وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم، أشد عليهم وأبلغ في نكايتهم من عذاب الجحيم.^(٥)

١ - غافر: ١١ - ١٢

٢ - تفسير ابن كثير ٤٩٨/٥

٣ - الملك: ١٠

٤ - الأنعام: ٢٨

٥ - تفسير السعدي ص ٥٦٠

وقال الشوكاني^(١) في تفسيره: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ "مستأنفة جواب سؤال مقدر، أي: غلبت علينا لذاتنا وشهواتنا، فسمي ذلك شقوة؛ لأنه يؤول إلى الشقاء. قرأ أهل المدينة،^(٢) وأبو عمرو^(٣) وعاصم^(٤): ﴿شِقْوَتُنَا﴾ وقرأ الباقون^(٥):

- ١ - محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني: فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء. ولد بحجرة شوكان سنة ١١٧٣هـ ونشأ بصنعاء. وولي قضاءها. له نحو ١١٤ مؤلفاً، منها: نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، وإتحاف الأكابر، وغيرها. مات ١٢٥٠ هـ. انظر: الأعلام ٢٩٨/٦
- ٢ - قرأ أهل المدينة هما: أبو جعفر، واسمه يزيد بن القعقاع مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي. قرأ القرآن على مولاه، وقرأ أيضاً على أبي هريرة، وابن عباس رضي الله عنهم. مات سنة ١٣٠ هـ روى عنه عيسى بن وردان، وابن جازر. انظر: معرفة القراء الكبار، لمحمد الذهبي ٧٢/١.
- ونافع بن عبد الرحمن ابن أبي نعيم. قرأ على الأعرج، وأبي جعفر القاري، وشيبة بن نصاح ومسلم بن جندب. مات سنة ١٦٩ بالمدينة. روى عنه القراءة قالون وورش. انظر: معرفة القراء الكبار ١٠٧/١
- ٣ - الأسود بن يزيد النخعي أبو عمرو. أخذ القراءة عرضاً عن ابن مسعود -رضي الله عنه- وحدث عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاذ وبلال وعائشة -رضي الله عنهم- وجماعة. مات بالكوفة سنة ١٥٤ هـ روى عنه القراءة الدوري والسوسي. انظر: معرفة القراء الكبار ٥٠/١
- ٤ - عاصم بن أبي النجود الأسدي مولاهم الكوفي القارئ الإمام أبو بكر. قرأ القرآن على أبي عبد الرحمن السلمي وزر بن حبيش الأسدي وغيرهم. مات بالكوفة سنة ١٢٧ هـ روى عنه القراءة شعبة وحفص. انظر: معرفة القراء الكبار ٨٨/١
- ٥ - و هم: حمزة بن حبيب ابن عمارة بن إسماعيل، الإمام أبو عمارة الكوفي مولى آل عكرمة بن ربعي التيمي الزيات، أحد القراء السبعة، وقرأ القرآن عرضاً على الأعمش، وحران بن أعين، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، ومنصور وأبي إسحاق، وغيرهم. مات ١٥٦ هـ روى عنه خلف وخلاد. انظر: معرفة القراء الكبار ١١١/١
- و يعقوب بن إسحاق الحضرمي قارئ أهل البصرة أبو محمد مولى الحضرميين. قرأ القرآن على أبي المنذر سلام بن سليم وعلى أبي الأشهب ومهدي بن ميمون وشهاب بن شرنفة. مات سنة ٢٠٥ هـ روى عنه رويس وروح. انظر: معرفة القراء الكبار ١٥٧/١
- و ابن عامر هو سليم بن عيسى بن عامر بن غالب أبو عيسى ويقال أبو محمد الحنفي مولاهم الكوفي المقرئ صاحب حمزة الزيات وأخص تلامذته به وأحذقهم بالقراءة وأقومهم بالحرف وهو الذي خلف حمزة في الإقراء بالكوفة. مات سنة ١١٨ هـ بدمشق. روى عنه هشام بن عمار و ابن ذكوان. انظر: معرفة القراء الكبار ١٣٨/١
- و ابن كثير المكي هو أبو معبد محمد أو عياد أو المطلب عبد الله بن كثير الداري، نسبة إلى تميم الداري تابعي، مولى فارس بن علقمة الكناني، قرأ على عبد الله بن السائب المخزومي وغيره، كان إمام الناس بمكة، لم ينازعه فيها منازع، ولذلك نقل عنه أبو عمر والخليل بن أحمد والشافعي. مات سنة ١٢٠ هـ روى عنه البيهقي وقيل. انظر: معرفة القراء الكبار ٥/١

﴿ شقاوتنا ﴾^(١)

﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ أي: بسبب ذلك فإنهم ضلوا عن الحق بتلك الشقوة.

ثم طلبوا ما لا يجابون إليه فقالوا: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ أي: فإن عدنا إلى ما كنا عليه من الكفر، وعدم الإيمان، فإننا ظالمون لأنفسنا بالعود إلى ذلك، فأجاب الله عليهم بقوله: ﴿ قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴾ أي: اسكنوا في جهنم.

﴿ وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴾ في إخراجكم من النار ورجوعكم إلى الدنيا، أو في رفع العذاب عنكم، وقيل: المعنى: لا تكلمون رأساً.^(٢)

إن الكفر والفسوق والعصيان يورث الشقاوة في الدنيا والآخرة، و في هذا يدخل كل الأعمال الدينية والدينية، ويشترك فيه الدين الصحيح والفساد، و أدل على ذلك الآيات السابقة التي بينت مدى الشقاوة أهل الشقاوة و حاجتهم إلى عمل صالح ينفعهم و تمنيتهم الرجوع إلى الدنيا لاكتسابها. فكان رد الجبار سبحانه لهم بما استحق من العقوبة لسبق علمه تعالى و لو ردوا لعادوا لما نوحوا عمه.

و قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلْدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾^(٣)

قال الطبري: "والشقاء: الشدة والعسر، وشاقيتُهُ، أي: صابرتُهُ.

- و الكسائي هو علي بن حمزة سبق تعريف عنه في صفحة ٤٠

- وخلف هو خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف بن ثعلب بن هشيم بن ثعلب بن داود بن مقسم بن غالب أبو محمد الأسدي البزار بالراء البغدادي أحد القراء العشرة الرواة عن سليم عن حمزة. مات سنة ٢٢٩ هـ روى عنه إسحاق و إدريس. انظر: معرفة القراء الكبار ٣٠/١

١ - قال ابن الجزري: قَرَأَ حَمَزُهُ، وَالْكَسَائِيُّ، وَخَلْفٌ بَفَتْحِ الشَّيْنِ وَالْقَافِ وَأَلْفٍ بَعْدَهَا. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِكَسْرِ الشَّيْنِ، وَإِسْكَانِ الْقَافِ مِنْ غَيْرِ أَلْفٍ. انظر: النشر في القراءات العشر ٣٢٩/٢ و إتخاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة

عشر ص ٤٠٦

٢ - تفسير فتح القدير للشوكاني ٤٩٩/٣

٣ - هود: ١٠٦ - ١٠٧

وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا ﴾ ابتداء. ﴿ فَفِي النَّارِ ﴾ فهنا تبين لهم شقاوة حقيقية إذا رأوا ثمرة إعراضهم عن ذكر الله تعالى. وكذا ﴿ لَمْ يَزِفُوا فِيهَا زُفِيرًا ﴾ قال أبو العالية^(١): الزفير من الصدر. والشهيق من الحلق، وعنه أيضاً ضد ذلك. وقال الزجاج^(٢): الزفير من شدة الأنين، والشهيق من الأنين المرتفع جداً. وقال ابن عباس -رضي الله عنه-: الزفير الصوت الشديد، والشهيق الصوت الضعيف. " (٣)

و عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله -ﷺ-: "ليصين أقواماً سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته يقال لهم الجهنميون." (٤)
قال السعدي: "و الأشقياء هم الذين كفروا بالله، وكذبوا رسله، وعصوا أمره. وأما جزاء الأشقياء، فحصلت لهم الشقاوة، والحزني والفضيحة، ﴿ فَفِي النَّارِ ﴾ منغمسون في عذابها، مشد عليهم عقابها، ﴿ لَمْ يَزِفُوا فِيهَا ﴾ من شدة ما هم فيه ﴿ زَفِيرًا وَشَهيقًا ﴾ وهو أشنع الأصوات وأقبحها." (٥)

وهذه حال الأشقياء، وكل من اتخذ من دون الله ورسوله أولياء، و أعرض عن ذكر الله تعالى، فإن أعماله كلها باطلة يراها يوم القيامة حسرات عليه، و إن ظن الناس أنه سعيد في هذه الدنيا، فالسعادة الحقيقية في عبادة الله -تعالى- التي ميز الله بها الأشقياء من السعداء، فيوم القيامة تنقطع كل وسيلة و سعادة كانت لغير الله -تعالى- ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربّه، وهو تجريد عبادته له وحده، ولوازمتها من الحب والبغض والعطاء

١ - هو رفيع بن مهران الرياحي البصري الإمام، المقرئ، الحافظ، المفسر، أبو العالية الرياحي، البصري. كان مولى لامرأة من بني رياح، ثم من بني تميم. أدرك زمان النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق. مات سنة ٩٣هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٢٠٧/٤

٢ - إبراهيم بن محمد بن السري، أبو إسحاق الزجاج: عالم بالنحو واللغة. ولد ٢٤١هـ في بغداد. لازم المبرد. كان يؤدب ابن الوزير إلى أن ولى الوزارة مكان أبيه فأصاب في أيامه ثروة كبيرة، وكانت للزجاج مناقشات مع ثعلب وغيره. من كتبه: معاني القرآن و الاشتقاق وغيرها. مات ٣١١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٣٦٠/١٤

٣ - تفسير الطبري ٤٨٠/١٥-٤٨٢

٤ - أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في قول الله تعالى { إن رحمة الله قريب من المحسنين } رقم (٧٤٥٠) ١٦٤/٩

٥ - تفسير السعدي ص ٣٨٩

والمنع والموالاتة والمعاداة، وتجريده متابعة رسوله وترك أقوال غيره، و عدم الالتفات إلى غيره فضلاً عن الشركة بينه وبين غيره.

فهذا هو السبب الذي ميز بين الفريقين في الدارين، وهذه هي النسبة التي بين العبد وبين ربه، وهي نسبة العبودية المحضة.

وهذه هي حال السعادة التي تنفع العبد، فلا تنفعه غيرها في دار الدنيا ودار البرزخ ودار الآخرة، فلا قوام له ولا عيش ولا نعيم ولا فلاح إلا بهذه الحال، وهي السبب الواصل بين العبد وبين الله تعالى.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "والمقصود أن الله -سبحانه- يقطع يوم القيامة الأسباب والوصلات التي كانت بين الخلق في الدنيا، ولا يبقى إلا السبب والوصلة التي بين العبد وبين الله فقط، وهو سبب العبودية المحضة التي لا وجود لها ولا تحقيق إلا بتجريد متابعة الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم- إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم وما عرفت إلا بهم

ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم. وقد قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً

مَنْثُورًا ۗ ﴾ (٢٣) (١) فهذه هي أعماله التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه يجعلها الله هباءً منثوراً، ولا ينتفع منها صاحبها بشيء، وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة أن يرى سعيه كله ضائعاً لم ينتفع منه بشيء، وهو أحوج ما كان العامل إلى عمله، وقد سعد أهل السعادة بسعادتهم، و شقى أهل الشقاوة بشقاوتهم. وهذا هو تمييز قد جعله الله -تعالى- في كتابه بتوحيد العبادة. (٢)

فما من شقي إلا و قد ظلم نفسه إما بترك عبودية الله تعالى بأكملها أو بإكمالها، فشقاوته على حسب تركها، وهذه الدرجات يرى في الدنيا قبل الآخرة، فالعمل العمل، و كل ميسر لما خلق له. أما من كان من أهل السعادة، فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة، فسييسر لعمل أهل الشقاوة.

١ - الفرقان: ٢٣

٢ - الرسالة التبوكية زاد المهاجر إلى ربه ص ٥٢

المبحث الثالث: رضا الله و الفوز بالجنة

أرشد الله عباده إلى ما يكون لهم خير في الدنيا والآخرة، وقد أنزل الله - سبحانه وتعالى - مئة كتاب وأربعة كتب جمع معانيها في أربعة: وهي التوراة والإنجيل والقرآن والزبور. وجمع معانيها في القرآن، وجمع معانيه في المفصل، وجمع معانيه في الفاتحة، وجمع معانيها في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ و هذه الآية عند تحقيقها تدخل العبد في رضا الله - تعالى - وقد اشتملت على نوعي التوحيد: وهما توحيد الربوبية وتوحيد العبادة، وتضمنت التعبد الكامل، فهو يعبد بألوهيته ويستعان بربوبيته ويهدي إلى الصراط المستقيم برحمته ورضوانه، و لا يعين على عبادته سواه، ولا يهدي سواه، و لا يرضى إلا بهما.^(١)

فمن رضوانه - تعالى - بعباده ما ذكره: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾^(٢)

لما ذكر الله - تعالى - المستجيبين له ولرسوله من بعد ما أصابهم القرح، و هم الذين اتبعوا رسول الله - ﷺ - إلى حمراء الأسد^(٣) في طلب العدو من مشركي قريش منصرفهم عن أحد،^(٤) خرج رسول الله - ﷺ - في أثرهم، ليري الناس أن به وأصحابه قوة على عدوهم رغم أنهم خوفوا بعدد عدوهم ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ يقول: فزادهم ذلك من تخويف من خوفهم أمر المشركين يقيناً إلى يقينهم، وتصديقاً لله ولوعده ووعد رسوله إلى تصديقهم، ولم ينهم ذلك عن وجههم الذي أمرهم رسول الله - ﷺ - بالسير فيه، ولكن ساروا

١ - انظر: الصلاة وأحكام تاركها ص ١٤٤

٢ - آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤

٣ - حمراء الأسد: هو موضع على ثمانية أميال من المدينة، إليه انتهى رسول الله ﷺ يوم أحد في طلب المشركين.

انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي ٣٠١/٢

٤ - الأحد: بضم أوله وثانيه معاً، اسم الجبل الذي كانت عنده غزوة أحد، وهو مرتجل لهذا الجبل، وهو جبل أحمر ليس بذي شناخيب، وبينه وبين المدينة قرابة ميل في شمالها. انظر: معجم البلدان ١٠٩/١

حتى بلغوا رضوان الله منه، وقالوا ثقة بالله وتوكلاً عليه، إذ خوفهم من خوفهم من المشركين: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ يعني: يكفينا الله، ونعم الوكيل، يقول: ونعم المولى لمن وليه وكفله.

ثم ذكر تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ﴾ فانصرفوا من وجههم الذي توجهوا فيه، وهو سيرهم في أثر عدوهم إلى حمراء الأسد ﴿بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ﴾ يعني: بعافية من ربهم لم يلقوا بها عدواً ﴿وَفَضَّلِ﴾ يعني: ما أصابوا فيها من الأرباح بتجارته التي اتجروا بها، والأجر الذي اكتسبوه ﴿لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ﴾ يعني: لم ينلهم بها مكروه من عدوهم ولا أذى ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ يعني بذلك أنهم أرضوا الله بفعلهم ذلك واتباعهم رسوله إلى ما دعاهم إليه من اتباع أثر العدو وطاعتهم. ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: والله ذو إحسان وطول عليهم بصرف عدوهم الذي كانوا قد هموا بالكرة إليهم، وغير ذلك من أياديه عندهم، وعلى غيرهم بنعمة، عظيم عند من أنعم به عليه من خلقه. (١)

قال بعض العلماء: "إن الصحابة لما فوضوا أمورهم إلى الله، واعتمدوا بقلوبهم عليه، أعطاهم من الجزاء أربعة معان: النعمة، والفضل، وصرف السوء، واتباع الرضا. فراضاهم عنه، ورضي عنهم." (٢)

تضمنت هذه الآية الكريمة حسن العبادة و حسن الاستعانة، فإن التوكل هو العبادة من أعمال القلوب، و حين أظهر الصحابة على ألسنتهم و دعوا الله به صار من الاستعانة. فإن التوكل هو سبب الانقلاب بنعمة من الله وفضل، وأن هذا الجزاء جزاء على ذلك العمل. وفي الأثر عن عمر بن عبد العزيز قال: "من أحب أن يكون أقوى الناس، فليتوكل على الله، و من أحب أن يكون أكرم الناس، فليثق الله - عز و جل - و من أحب أن يكون أغنى الناس، فليكن بما في يد الله أوثق مما في يده." (٣)

١ - انظر: تفسير الطبري ٧/٤١٠-٤١٤

٢ - تفسير القرطبي ٤/٢٨٢

٣ - ذكره الحاكم في مستدركه، كتاب الأدب رقم (٧٧٠٧) ٤/٣٠١

فلو كان التوكل لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة لم يكن المتوكل أقوى من غيره. فأمر الله - سبحانه - بتقواه واتباع ما يوحى إلى رسوله، وأمره بالتوكل كما جمع بين هذين الأصلين في غير موضع كقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١) وقوله: ﴿وَأذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَلَيْنَا تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(٣)

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٥) وإذا أفرد لفظ العبادة دخل فيه التوكل، فإنه من عبادة الله تعالى، وإذا قرن به التوكل، كان مأمورا به بخصوصه. وهذا كلفظ الإسلام والإيمان ونظائر ذلك متعددة.^(٦) فإن الغاية المقصودة من التوحيد عامة، و من توحيد العبادة خاصة هو رضا الله - تعالى - والفوز بالجنة. فقد ذكر الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٧)

قال الطبري: "ذكر - تعالى - الذين سبقوا الناس أولاً إلى الإيمان بالله ورسوله من المهاجرين الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم، وفارقوا منازلهم وأوطانهم، والأنصار الذين نصرُوا رسول الله - ﷺ - على أعدائه من أهل الكفر بالله ورسوله ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ يقول: والذين سلكوا سبيلهم في الإيمان بالله ورسوله والهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام طلباً

١ - هود: ١٢٣

٢ - المزمل: ٨ - ٩

٣ - الممتحنة: ٤

٤ - الرعد: ٣٠

٥ - الطلاق: ٢ - ٣

٦ - انظر: جامع رسائل ابن تيمية ١/٩٠-٩٣

٧ - التوبة: ١٠٠

رضا الله ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ أي: رضي الله عن جميعهم لما أطاعوه وأجابوا نبيه إلى ما دعاهم إليه من أمره ونهيهِ، ورضي عنه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم إياه وإيمانهم به وبنبيه -عليه الصلاة والسلام- وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار يدخلونها خالدين فيها لا يثين فيها أبداً لا يموتون فيها ولا يخرجون منها ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾^(١)

إن الله -تعالى- يخبر في هذه الآية عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم.

قال السعدي: "والسابقون هم الذين سبقوا هذه الأمة وبادروها إلى الإيمان والهجرة، والجهاد، وإقامة دين الله. و المهاجرون هم: ﴿ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾^(٢) و الأنصار، هم: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾^(٣)

﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال، فهؤلاء هم الذين سلموا من الذم، وحصل لهم نهاية المدح، وأفضل الكرامات من الله. ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ ورضاه -تعالى- أكبر من نعيم الجنة، ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ ﴾ الجارية التي تساق إلى سقي الجنان، والحدائق الزاهية الزاهرة، والرياض الناضرة. ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ لا ييغون عنها حولاً ولا يطلبون منها بدلاً؛ لأنهم مهما تمنوه أدركوه، ومهما أرادوه وجدوه. ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذي حصل لهم فيه كل محبوب للنفوس،

١ - تفسير الطبري ١٤/٤٣٤-٤٣٩

٢ - الحشر: ٨

٣ - الحشر: ٩

ولذة للأرواح، ونعيم للقلوب، وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كل محذور.^(١) قال الشنقيطي: "صرح -تعالى- في هذه الآية الكريمة بأن الذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار بإحسان أنهم داخلون معهم في رضوان الله -تعالى- والوعد بالخلود في الجنات، والفوز العظيم، وبين في مواضع آخر أن الذين اتبعوا السابقين بإحسان يشاركونهم في الخير كقوله جل وعلا: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٣) وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾^(٤)

ولا يخفى أنه -تعالى- صرح في هذه الآية الكريمة أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.^(٥)

قال ابن القيم: "فهؤلاء هم السعداء الذين ثبت لهم رضا الله عنهم وهم أصحاب رسول الله ﷺ - وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة، ولا يختص ذلك بالقرن الذين رأوهم فقط. وإنما خص التابعين بمن رأوا الصحابة تخصيصاً عرفياً لتمييزوا به عن بعدهم، فكل من سلك سبيلهم، فهو من التابعين لهم بإحسان، وهو ممن رضي الله عنهم، ورضوا عنه الإحسان في التبعية. وقيد -سبحانه- هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان ليست مطلقة، فتحصل بمجرد النية والأتباع في شيء، والمخالفة في غيره، ولكن تبعية مصاحبة الإحسان، وأن الباء هنا للمصاحبة. والإحسان والمتابعة شرط في حصول رضا الله عنهم وجناته."^(٦)

١ - تفسير السعدي ص ٣٤٩

٢ - الجمعة: ٣

٣ - الحشر: ١٠

٤ - الأنفال: ٧٥

٥ - أضواء البيان ١٤٨/٢

٦ - الرسالة التبوكية زاد المهاجر إلى ربه. ص ٥٣

و دين الله هو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه، وهو الصراط المستقيم، وهو طريقة أصحاب رسول الله - ﷺ - خير القرون، وأفضل الأمة، وأكرم الخلق على الله - تعالى - بعد النبيين، كما ورد في هذه الآية الكريمة، فالرضا عن السابقين الأولين رضا مطلقاً ورضي عن التابعين لهم بإحسان. وهذا لما ثبت لهم حسن اللجوء إلى الله وكمال العبادة.

وقد قال النبي - ﷺ - في الحديث: " خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.

ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته." (١)

كان عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- يقول: " من كان منكم مستنأ فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب رسول الله - ﷺ - أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه - ﷺ - وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم." (٢)

وقال حذيفة بن اليمان -رضي الله عنهما-: " يا معشر القراء استقيموا، وخذوا طريق من كان قبلكم، فوالله لئن اتبعتموهم، فقد سبقتهم سبقاً بعيداً، ولئن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتهم ضلالاً بعيداً." (٣)

فالسابقون الأولون قد كسبوا رضا الله -تعالى- بعبادتهم و طاعتهم لله و لرسوله سواء قلنا أن السابقين الأولين هم الذين صلوا إلى القبلتين أو الذين بايعوا بيعة الرضوان، قد قال الله

تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ

السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (٤)

١ - أخرجه البخاري في كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد. رقم (٢٦٥١) ٢٢٤/٣

و مسلم كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. رقم (٦٦٣٢) ١٤٨/٧

٢ - ذكره البغوي في شرح السنة ٢١٤/١

٣ - أخرجه البخاري كتاب الإعتصام بالكتاب و السنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه و سلم. رقم

١١٥/٩ (٧٢٨٢)

٤ - الفتح: ١٨

أخبر - تعالى ذكره- أنه رضي عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله - ﷺ - بالحديبية^(١) حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب، وعلى أن لا يفروا، ولا يولوهم الدبر تحت الشجرة. وكان سبب هذه البيعة أن رسول الله - ﷺ - أرسل عثمان بن عفان^(٢) - رضي الله عنه - برسالته إلى الملا من قريش، فأبطأ عثمان عليه بعض الإبطاء، فظن أنه قد قتل، فدعا أصحابه إلى تجديد البيعة على حربهم، فبايعوه على ذلك، وهذه البيعة التي تسمى بيعة الرضوان، وكان الذين بايعوه هذه البيعة: ألفا وأربع مئة.^(٣)

فعلم الله - تعالى - ما في قلوب المؤمنين من أصحاب محمد - ﷺ - إذ يبايعونه تحت الشجرة، من صدق النية، والوفاء بما يبايعونه عليه، والصبر معه، فأنزل الله تعالى الطمأنينة، والثبات على ما هم عليه من دينهم وحسن بصيرتهم بالحق الذي هداهم له. فعوضهم في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة بقتالهم أهلها فتحاً قريباً. وأثاب الله هؤلاء الذين بايعوا رسول الله - ﷺ - تحت الشجرة، مع ما أكرمهم به من رضاه عنهم، وإنزاله السكنية عليهم، وإثابته إياهم فتحاً قريباً، معه مغنم كثيرة يأخذونها من أموال يهود خيبر،^(٤)

١ - الحُدَيْبِيَّة - سميت الحديبية بشجرة حذاء كانت في ذلك الموضع، أو بيئر كان هناك. وبين الحديبية ومكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل. انظر: معجم البلدان ٢/٢٢٩

٢ - عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، من قريش: أمير المؤمنين، ذو النورين، ثالث الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين. من كبار الرجال الذين اعترف بهم الإسلام في عهد ظهوره. ولد بمكة، وأسلم بعد البعثة بقليل. وكان غنياً شريفاً في الجاهلية. ومن أعظم أعماله في الإسلام تجهيزه نصف جيش العسرة بماله، له فضائل كثيرة، قتل سنة ٣٥ هـ. الإصابة (٥٤٥٢) ٤/٤٥٦

٣ - و يشهد لهذا الحديث الذي أخرجه البخاري و فيه: وكان بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال هذه لعثمان. " أخرجه البخاري كتاب المغازي، باب قول الله تعالى (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم وإن الله غفور حلیم). رقم (٣٦٩٨) ٥/١٨ و قال جابر رضي الله عنه: "كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمره." أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة. رقم (٤٩١٤) ٦/٢٥

٤ - خَيْبَر: حصون على ثمانية برد من المدينة لمن أراد الشام، ذات مزارع ونخيل كثيرة، وهي موصوفة بكثرة الحمى ولا تفارق الحمى أهلها. انظر: آثار البلاد وأخبار العباد. لذكريا القزويني ١/٣٥

فإن الله جعل ذلك خاصة لأهل بيعة الرضوان دون غيرهم. وكان الله عزيزاً حكيماً في انتقامه من انتقم من أعدائه، حكيماً في تدبيره خلقه وتصريفه إياهم فيما شاء من قضائه.^(١) قال ابن كثير: "علم الله تعالى ما في قلوب المؤمنين من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة، فأنزل الطمأنينة وأجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٩) ﴿٢﴾ (٣)"

فقد أنال الله المبايعين رضوانه وهو أعظم خير في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(٤) والشهادة لهم بإخلاص النية، وإنزاله السكينة قلوبهم ووعدهم بثواب فتح قريب ومغانم كثيرة.

قال ابن عاشور: "والمقصود بإخبارهم بأن الله علم ما حصل في قلوبهم من الكآبة و أنه قدر ذلك لهم وشكرهم على حبهم نصر النبي ﷺ - بالفعل ولذلك رتب عليه قوله ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ والسكينة هنا هي: الطمأنينة والثقة بتحقيق ما وعدهم الله من الفتح والارتياض على ترقبه دون حسرة فترتب على علمه ما في قلوبهم إنزاله السكينة عليهم، أي على قلوبهم فعبر بضميرهم عوضاً عن ضمير قلوبهم لأن قلوبهم هي نفوسهم. وعطف أثنابهم على فعل رَضِيَ اللَّهُ. و فعل ﴿أَثَبَهُمْ﴾ مستعمل في المستقبل.

وهذا الفتح هو فتح خيبر فإنه كان خاصاً بأهل الحديبية وكان قريباً من يوم البيعة بنحو شهر

١ - انظر: تفسير الطبري ٢٢/٢٢٧-٢٢٨

٢ - الفتح: ١٩

٣ - تفسير ابن كثير ٧/٣٣٩-٣٤٠

٤ - التوبة: ٧٢

ونصف. وفائدة وصف المغنم بجملة ﴿يَأْخُذُونَهَا﴾ تحقيق حصول فائدة هذا الوعد لجميع أهل البيعة قبل أن يقع بالفعل ففيه زيادة تحقيق لكون الفتح قريباً وبشارة لهم بأنهم لا يهلك منهم أحد قبل رؤية هذا الفتح.^(١)

و قال الشنقيطي: "فقوله تعالى: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ثم يأتي بعدها: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّتٍ﴾ هو في قوة الوعد في المستقبل، فيكون الإخبار بالرضا مسبقاً عليه.

إن العبد حقاً في حاجة إلى أن يعلم رضوان الله تعالى عليه؛ لأنه غاية أمانيه، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أما الإخبار عن رضا العبد عن الله، فهل من حق العبد أن يسأل عما إذا كان هو راضياً عن الله أم لا؟ إنه ليس من حقه ذلك قطعاً، فيكون الإخبار عن ذلك بلازم الفائدة، وهي أنهم في غاية من السعادة والرضا فيما هم فيه من النعيم إلى الحد الذي رضوا وتجاوز رضاهم حد النعيم إلى الرضا عن المنعم. كما يشير إلى شيء من ذلك آخر آية النبأ: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾^(٢) قالوا: إنهم يعطون حتى يقولوا: حسبنا حسبنا، أي: كافينا.^(٣)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله: "وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي وهو راض عن أصحاب الشجرة، ومن رضي الله عنه ورسوله لا يضره غضب أحد من الخلق عليه كائناً من كان، بل من رضي الله عنه ورضي عن الله يكون رضاه موافقاً لرضا الله، فإن الله راض عنه فهو موافق لما يرضى الله، وهو راض عن الله، فحكم الله موافق لرضاه، وإذا رضوا بحكمه غضبوا لغضبه، فإن من رضي بغضب غيره لزم أن يغضب لغضبه، فإن الغضب إذا كان مرضياً لك، فعلت ما هو مرضٍ لك، وكذلك الرب تعالى وله المثل الأعلى إذا رضي عنهم غضب لغضبهم إذ هو راض بغضبهم."^(٤)

١ - التحرير و التنوير ١٤٨/٢٦

٢ - النبأ: ٣٦

٣ - أضواء البيان ٩/٥٣-٥٤

٤ - منهاج السنة ٤/١٣٣

و قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢٢) (١)

قال الطبري: "هؤلاء الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم، أو أبناءهم، أو إخوانهم، أو عشيرتهم، كتب الله في قلوبهم الإيمان.

وإنما عني بذلك: قضى لقلوبهم الإيمان. ف ﴿في﴾ بمعنى اللام، وأخبر تعالى ذكره أنه كتب في قلوبهم الإيمان لهم، وذلك لما كان الإيمان بالقلوب، وكان معلوماً بالخبر عن القلوب أن المراد به أهلها، اجتاز بذكرها من ذكر أهلها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ يقول: وقواهم ببرهان منه ونور وهدى. يقول: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يقول: ويدخلهم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يقول: ماكنين فيها أبداً، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعتهم إياه في الدنيا ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ في الآخرة بإدخاله إياهم الجنة. ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ يقول: أولئك الذين هذه صفتهم جند الله وأولياؤه. ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ﴾ يقول: ألا إن جند الله وأولياؤه. ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يقول: هم الباقون المنجحون بإدراكهم ما طلبوا، والتمسوا ببيعتهم في الدنيا، وطاعتهم ربهم. (٢)

قال ابن كثير: "و قد أمر تعالى رسوله - ﷺ - أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله وعلى رسوله وجهاد في سبيله، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٤) (٣)

أَلْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ (١) أي: اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتَجَرَّةٌ تَخْشُونَ كَسَادَهَا وَمَسَكِنٌ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي: تجوئونها لطيبها وحسنها، أي: إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَأَلَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ وقوله: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه، فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان، أي: كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته.

وفي قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ سر بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ أي: هؤلاء حزبُ الله، أي: عباد الله وأهل كرامته.

وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرهم في الدنيا والآخرة. (٢)

قال السعدي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: "وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان أي: رسمه وثبته وغرسه غرساً، لا يتزلزل، ولا تؤثر فيه الشبهة والشكوك. وهم الذين قواهم الله بروح منه أي: بوحيه، ومعونته، ومدده الإلهي وإحسانه الرباني. وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها من كل ما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين، وتختار، ولهم أكبر النعيم وأفضله، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل الهبات، ورفع الدرجات بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا فوقه نهاية. وأما من يزعم أنه يؤمن

١ - التوبة: ٢٤

٢ - تفسير ابن كثير ٥٤/٨-٥٥

بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك مواد لأعداء الله، محب لمن ترك الإيمان وراء ظهره، فإن هذا إيمان زعمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه، فمجرد الدعوى، لا تفيد شيئاً ولا يصدق صاحبها." (١)

تضمنت هذه الآيات: جزاءهم على صدقهم وإيمانهم وأعمالهم الصالحة ومجاهدة أعدائه وعدم ولايتهم بأن رضي الله عنهم فأرضاهم فرضوا عنه وإنما حصل لهم هذا بعد الرضا به رباً وبمحمد نبياً وبالإسلام ديناً.

و الرضا يكون في ثلاثة أمور: الرضا بالله والرضا عن الله والرضا بقضاء الله.

فالرضا به فرض، و يتضمن توحيدهِ وعبادته والإِنابة إليه والتوكل عليه وخوفه ورجاءه ومحبته والصبر له وبه، والشكر على نعمه يتضمن رؤية كل ما منه نعمة وإحساناً وإن ساء عبده، فالرضا به يتضمن شهادة أن لا إله إلا الله، والرضا بمحمد رسولاً يتضمن شهادة أن محمداً رسول الله، والرضا بالإسلام ديناً، يتضمن التزام عبوديته وطاعته وطاعة رسوله فجمعت هذه الثلاثة الدين كله.

والرضا عنه وإن كان من أجل الأمور وأشرف أنواع العبودية فلم يطالب به عموم الناس لعجزهم عنه ومشقته عليهم. وهو رضا العبد بما يفعله به ويعطيه إياه ولهذا لا يجيء إلا في

الثواب والجزاء كقوله تعالى: ﴿يَتَّيْنَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً﴾ (٢٨) (٢) فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته كقوله تعالى ﴿خَلْدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (٣)

ثمرة الرضا به وسر المسألة أن الرضا به متعلق بأسمائه وصفاته.

والرضا عنه متعلق بثوابه وجزائه. والرضا بقضاء الله ينقسم إلى: الرضا بالقضاء الديني الشرعي وهو واجب وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان فيجب على العبد أن يكون راضياً

١ - تفسير السعدي ص ٨٤٨

٢ - الفجر: ٢٧ - ٢٨

٣ - البينة: ٨

به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض.

والرضا بالقضاء الكوني القدرى الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه من الصحة والغنى والعافية واللذة أمر لازم بمقتضى الطبيعة لأنه ملائم للعبد محبوب له فليس في الرضا به عبودية، بل العبودية في مقابلته بالشكر والاعتراف بالمنة ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها وأن لا يعصى المنعم بها وأن يرى التقصير في جميع ذلك والرضا بالقضاء الكوني القدرى الجارى على خلاف مراد العبد ومحبهه مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره مستحب وهو من مقامات أهل الإيمان وفي وجوبه قولان وهذا كالمرض والفقر وأذى الخلق له والحر والبرد والآلام ونحو ذلك.

والرضا بالقدر الجارى عليه باختياره مما يكرهه الله ويسخطه وينهى عنه كأنواع الظلم والفسوق والعصيان حرام يعاقب عليه وهو مخالفة لربه تعالى فإن الله لا يرضى بذلك ولا يجبه فلا تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه.^(١)

فلحصول رضا الله تعالى لا بد أن يجتهد العبد في العبادة و ما شرعه الله قولاً أو عملاً أو اعتقاداً، و أن يجتهد في الدعاء كما أرشدنا رسول الله ﷺ - أن نقول عند سماع المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله رضيت بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالإسلام ديناً.^(٢)

وقال رسول الله ﷺ -: " من قال رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً وجبت له الجنة "^(٣)

فجزاء رضا الله -تعالى- في الدنيا السعادة و في الآخرة الجنة. قال تعالى: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ

١ - انظر: مدارج السالكين ١٨٥/٢-١٩٥

٢ - أخرجه مسلم كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلى على النبي ﷺ - ثم يسأل الله له الوسيلة. رقم (٨٧٧) ٤/٢

٣ - أخرجه أبو داود في سننه كتاب الوتر، باب في الاستغفار. رقم (١٥٣١) ٥٦٢/١ قال الشيخ الألباني: صحيح. انظر حديث رقم: ٦٤٢٨ في صحيح الجامع الصغير ١٠٩٧/٢

ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾^(١) و قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾^(٢)

قال الطبري: " القول في تأويل قوله تعالى : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يقول تعالى ذكره: رضي الله عن هؤلاء الصادقين الذين صدقوا في الوفاء له بما وعدوه من العمل بطاعته واجتناب معاصيه ، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ يقول : ورضوا هم عن الله تعالى في وفائه لهم بما وعدهم على طاعتهم إياه ، فيما أمرهم ونهاهم من جزيل ثوابه . ذلك الفوز العظيم ، يقول : هذا الذي أعطاهم الله من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، مرضياً عنهم ، وراضين عن ربهم ، هو الظفر العظيم بالطلبة وإدراك الحاجة التي كانوا يطلبونها في الدنيا ، ولها كانوا يعملون فيها، فنالوا ما طلبوا وأدركوا ما أملوا." ^(٣)

وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ "أي: رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم." ^(٤)

و هذا كما قال أبو سعيد الخُدري -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال: "إن الله - عز وجل- يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك يا ربنا وسعديك، والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطَ أحداً من خلقك. فيقول: ألا أعطيتكم أفضل من ذلك؟! فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟! فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً." ^(٥)

١ - المائدة: ١١٩

٢ - التوبة: ٧٢

٣ - تفسير الطبري ١١ / ٢٤٥

٤ - تفسير ابن كثير ٤ / ١٧٧

٥ - أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة. برقم (٧٥١٨) ٩/١٨٤ و مسلم، كتاب الجنة و صفة نعيمها و أهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبداً. برقم (٧٣١٨) ٨/١٤٤

عن أبي هريرة^(١) قال: قال رسول الله - ﷺ -: "من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها". قالوا: يا رسول الله! أفلا نخبر الناس؟ قال: "إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن"^(٢)

إن تجريد العبادة مما ينقصها في الأوقات الصعبة و الفتن و الاستمرار على العبادة بالإحسان من أصعب الأمور، فلما علم الله تعالى من الصحابة -رضي الله عنهم- الإحسان و العزم في العبادة أدخلهم في رضاه -سبحانه- و رضي عنهم في هذه الدنيا و أخبرهم بذلك في كتابه و وعدهم بالجنة و لهم فيها ما لا عين رأت و أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر. فمن كان محسناً في عبادته و اتبع الصحابة على ذلك أدخل نفسه في رضا ربه، عاش حياة طيبة مطمئنة و له في الآخرة خير الجزاء.

١ - هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي أبو هريرة: صحابي، كان أكثر الصحابة حفظاً للحديث ورواية له. ولزم صحبة

النبي ﷺ ثم دعا له بالحفظ وولي إمرة المدينة مدة. مات بها سنة ٥٩ هـ. الإصابة (٥١٤٤) ٣١٦/٤

٢ - أخرجه البخاري كتاب الجهاد و السير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله. برقم (٢٧٩٠) ١٩/٤

الفصل الثالث: منهج القرآن في تقرير توحيد العبادة

المبحث الأول: استدلال القرآن على توحيد العبادة

المبحث الثاني: أساليب القرآن في تقرير توحيد العبادة

المبحث الأول: استدلال القرآن على توحيد العبادة

أولاً: الاستدلال على الخلق

ثانياً: الاستدلال بالرزق

ثالثاً: الاستدلال بالموت و البعث

رابعاً: الاستدلال بعبادة الملائكة

لقد وردت الأدلة من الكتاب والسنة، وتنوعت دلالتها في وجوب إفراد الله بالعبادة، فتارة تأتي نصوص الكتاب أمرًا بعبادة الله أمرًا مباشرًا، وتارة تأتي مبينة الغاية من خلق المخلوقات، وتارة تأتي موضحة الهدف من إرسال الرسل وإنزال الكتب، و هذه النصوص العظيمة في نفسها و دلالاتها، و عظمتها في جلاله قائلها سبحانه.

ولقد ذكر الله -تعالى- في كتابه أدلة على استحقيقه عبادته وحده، و ما ترك -سبحانه- لعقل دليلاً في هذه الدنيا إلا دله عليه سبحانه، فمن الناس من يعظم هذه الأدلة التي جعلها الله في خلقه، و يترك تعظيم خالقها، و هذا الخلق من أعظم الأدلة على وجود فاطرها وكمال قدرته و علمه و حكمته و انفراده بالعبودية والوحدانية.

والله -سبحانه- إنما يدعو عباده إلى النظر، و التفكير في مخلوقاته العظام لظهور أثر الدلالة فيها، و بديع عجائب الصنعة، و الحكمة منها و اتساع مجال الفكر و النظر في أرجائها.

فكيف يسمح لعقل عقله أن ينظر في هذه الأدلة ثم يعبد غير خالقها، أو يتعافل عنها، والله -سبحانه- إنما يذكر من مخلوقاته للدلالة عليه أشرفها و أظهرها للحس و العقل، و أبينها دلالة و أعجبها صنعة، كالسما و الأرض، و الشمس و القمر، و الليل و النهار، و النجوم و الجبال، و السحاب و المطر، و غير ذلك من آياته، و يدعو عباده إلى التفكير فيها، فإن فُتح لعبد قلبه لفقه ما وراءها صار كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ

وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وُقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ

النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴿١﴾ و العباد مثل هؤلاء قليل، إما لسفاهة العقول، أو ذنية الرغبة و القصد،

فكيف يتصور لعقل عظم المخلوقات و لا يتصور عظم خالقها؟! و في هذا البحث سأحاول أن أذكر بعض الأدلة العظيمة ذكرها -تعالى- في كتابه، ثم ذكر -تعالى- بعدها العبادة التي لا بد من يفكر فيها و يتفكر أن يقر بها و يفعلها.

أولاً: الاستدلال على الخلق

لما كانت مخلوقات الله -تعالى- مُدْرَكَةٌ بأي وسيلة من الوسائل لكل أحد، ذكر -تعالى- أمرها، فأحياناً يذكر -تعالى- بديع صنعه وكمال خلقه، ثم يذكر أمر العبادة، و أحياناً يذكر -تعالى- أمر العبادة، ثم يذكر بديع صنعه وكمال قدرته و خلقه، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١)

فالمنفرد بالخلق هو المستحق للعبادة.

قال الطبري: "فأمر -جل ثناؤه- الفريقين الذين أخبر الله عن أحدهما أنه سواءٌ عليهم أنذروا أم لم يُنذروا أنهم لا يؤمنون، لطبعه على قلوبهم وعلى سمعهم، وعن الآخر أنه يُجادع الله والذين آمنوا بما يبدي بلسانه من قيله: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾"^(٢) مع استبطانه خلاف ذلك، ومرض قلبه، وشكّه في حقيقة ما يُبدي من ذلك، وغيرهم من سائر خلقه المكلفين بالاستكانة، والخضوع له بالطاعة، وإفراد الربوبية له والعبادة دون الأوثان والأصنام والآلهة؛ لأنه -جلّ ذكره- هو خالقهم وخالق مَنْ قبلهم من آبائهم وأجدادهم، وخالقُ أصنامهم وأوثانهم وألهتهم. فقال لهم -جل ذكره-: فالذي خلقكم وخلق آباءكم وأجدادكم وسائر الخلق غيركم، وهو يقدر على ضرركم ونفعكم أولى بالطاعة ممن لا يقدر لكم على نفع ولا ضرر."^(٣)

١ - البقرة: ٢١-٢٢

٢ - البقرة: ٨

٣ - تفسير الطبري ٣٦٢/١

قال القرطبي: "اختلف مَنْ المراد بالناس هنا على قولين: أحدهما: الكفار الذي لم يعبدوه،

يدل عليه قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾^(١)

الثاني: أنه عام في جميع الناس، فيكون خطابه للمؤمنين باستدامة العبادة، وللكافرين بابتدائها. وهذا حسن. قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا﴾ أمر بالعبادة له. والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه.

و قال في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ خص -تعالى- خلقه لهم من بين سائر صفاته إذ كانت العرب مقرة بأن الله خلقها، فذكر ذلك حجة عليهم وتقريباً لهم. وقيل: ليذكرهم بذلك نعمته عليهم. وفي أصل الخلق وجهان: أحدهما: التقدير، يقال: خلقت الأديم للسقاء إذا قدرته قبل القطع.

و قال في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فيقال إذا ثبت عندهم خلقهم ثبت عندهم خلق غيرهم، فالجواب: أنه إنما يجري الكلام على التنبيه والتذكير ليكون أبلغ في الموعظة، فذكرهم من قبلهم ليعلموا أن الذي أمات من قبلهم وهو خلقهم يُميتهم، وليفكروا فيمن مضى قبلهم كيف كانوا، وعلى أي الأمور مضوا من إهلاك من أهلك، وليعلموا أنهم يتتلون كما ابتلوا. والله أعلم."^(٢)

قال السعدي: "هذا أمر عام لكل الناس بأمر عام، وهو العبادة الجامعة لامثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم -تعالى- بما خلقهم له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٣) ثم استدل على وجوب عبادته وحده، بأنه ربكم الذي رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فراشاً تستقرون عليها، وتنتفعون بالأبنية، والزراعة، والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من أنواع الانتفاع بها، وجعل السماء بناء

١ - البقرة: ٢٣

٢ - الجامع لأحكام القرآن ١/٢٢٥-٢٢٦

٣ - الذاريات: ٥٦

لمسكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم، كالشمس، والقمر، والنجوم." (١)

قال ابن القيم: "هذا استدلال في غاية الظهور ونهاية البيان على جميع مطالب أصول الدين من إثبات الصانع وصفات كماله من قدرته وعلمه، وإرادته وحياته، وحكمته وأفعاله، وحدوث العالم، وإثبات نوعي توحيدته تعالى؛ توحيد الربوبية المتضمن أنه وحده الرب الخالق الفاطر، وتوحيد الإلهية المتضمن أنه وحده الإله المعبود المحبوب الذي لا تصلح العبادة والذل، والخضوع والحب إلا له. ثم قرر -تعالى- بعد ذلك إثبات نبوة رسوله محمد أبلغ تقرير وأحسنه، وأتمه وأبعده عن المعارض، فثبت بذلك صدق رسوله في كل ما يقوله، وقد أخبر عن المعاد والجنة والنار، فثبت صحة ذلك ضرورة، فقررت هذه الآيات هذه المطالب كلها على أحسن وجه فصدرها -تعالى- بقوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ وهذا خطاب لجميع بني آدم يشتركون كلهم في تعلقه بهم، ثم قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ فأمرهم بعبادة ربهم، وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته؛ لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمه وإحسانه، وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا، وكل ذرة من العبد، فمملوكه له ملكاً خالصاً حقيقياً، وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه عبادته له، وشكره إياه واجب عليه ولهذا قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ ولم يقل إلهكم والرب هو السيد والمالك، والمنعم والمربي والمصلح، والله -تعالى- هو الرب بهذه الاعتبار كلها، فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له. ثم قال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ فنبه بهذا أيضاً على وجوب عبادته وحده وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم، كما قال في غير موضع من القرآن: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٢) فإذا كان هو وحده الخالق، فكيف لا يكون وحده المعبود، وكيف تجعلون معه شريكاً في العبادة، وأنتم مقرون بأنه لا شريك له في الخلق. وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية.

١ - تفسير السعدي ص ٤٤

٢ - لقمان: ٢٥

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فبنيه بذلك على أنه وحده الخالق لكم ولآبائكم ومن تقدمكم، وإنه لم يشركه أحد في خلق من قبلكم ولا في خلقكم، وخلقته -تعالى- لهم متضمن لكمال قدرته وإرادته، وعلمه وحكمته وحياته، وذلك يستلزم لسائر صفات كماله ونعوت جلاله، فتضمن ذلك إثبات صفاته وأفعاله، ووحدانيته في صفاته، فلا شبهة له فيها ولا في أفعاله، فلا شريك له فيها.

ثم ذكر المطلوب من خلقهم وهو أن يتقوه فيطيعونه، ولا يعصونه ويذكرونه، فلا ينسونه ويشكرونه، ولا يكفرونه، فهذه حقيقة تقواه. ^(١)

ومما سبق من الأقوال في هذه الآية نستطيع أن نقول: إن الله -تعالى- أمر جميع الناس بالعبادة، ثم وجه الأنظار والقلوب إلى ما في هذا الكون من مخلوقات عجيبة لتبحر العقول فيها و في كمال قدرته، وعظيم تدبيره، وإتقان صنعه، ومن ذلك عجائب خلق الإنسان وعناية الله به و من قبله من الأمم، وبيانه - سبحانه- ما فيه من عالم النبات خلقه وتكوينه، وأجهزته، وتنويعه، وما فيه من غرائب وعجائب وسُنن تُحار فيها العقول، وأعظم من ذلك كله توجيه الأنظار إلى خلق السماوات والأرض، وما في ذلك من آيات تدل على عظمة الخالق، فمن تعمق فيها أسلم لربها طوعاً أو كرهاً، فإن أبي فهذا دليل على ضعف عقله و سفاخته.

و من الآيات التي تدل على العبادة قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلِقُ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ^(٢)

قال الفخر الرازي في تفسيره: "اعلم أنه -تعالى- لما أقام الحجة على وجود الإله القادر المختار الحكيم الرحيم، وبين فساد قول من ذهب إلى الإشراك بالله، وفصل مذاهبهم على أحسن الوجوه، وبين فساد كل واحد منها بالدلائل اللائقة به. ثم حكى مذهب من أثبت لله البنين والبنات، وبين بالدلائل القاطعة فساد القول بها، فعند هذا ثبت أن إله العالم فرد واحد صمد منزه عن الشريك، والنظير وال ضد والند، ومنزه عن الأولاد والبنين والبنات، فعند

١ - بدائع الفوائد ٤/٩٤٢-٩٤٤

٢ - الأنعام: ١٠٢

هذا صرح بالنتيجة، فقال: ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل ما سواه فاعبدوه ولا تعبدوا غيره أحداً، فإنه هو المصلح لمهمات جميع العباد، وهو الذي يسمع دعاءهم ويرى ذلمهم وخضوعهم، ويعلم حاجتهم، وهو الوكيل لكل أحد على حصول مهماته. ومن تأمل في هذا النظم والترتيب في تقرير الدعوة إلى التوحيد والتنزيه، وإظهار فساد الشرك، علم أنه لا طريق أوضح منه ولا أصلح منه.^(١)

قال البقاعي^(٢): "ولما ثبت أنه لا كفاء له بما ذكر من صفاته وأفعاله، وبين فساد أقوال المشركين، وفصل مذاهبهم على أحسن الوجوه، وبين فساد كل واحد منها بأمتن الحجج، فثبت بذلك ما افتتح السورة به من إحاطته بصفات الكمال، قال مشيراً إلى ذلك كله بمبتدأ خبر بعده أخبار: ﴿ذَلِكَكُمْ﴾ أي: العالِي الأوصاف جداً الذي لا حاجة له إلى شيء، وكل شيء محتاج إليه ﴿اللَّهُ﴾ أي: الذي له كل كمال. ﴿رَبُّكُمْ﴾ أي: الموجد لكم والمحسن بجميع أنواع الإحسان، فهي فذلكة^(٣) ما قبلها وثمرته؛ لأن من اتصف بذلك كان هو رب الكل وحده، والخالق للجميع واستحق العبادة وحده، فلذا أتبع ذلك قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأن المقام للتوحيد اللازم للإحاطة بأوصاف الكمال التي هي معنى الحمد المفتتح به السورة، وساق قوله: ﴿خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الذي هو مطلع ما بعده

مساق التعليل دليلاً على ذلك، فلما أقام الدليل سبب عنه الأمر بالعبادة، فقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أي: وحده؛ لأن من أشرك به لم يعبد؛ لأنه الغني المطلق، ومن كان له الغني المطلق لا يحسن أن يقبل مشركاً، وختم الآية بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ ولما كان المقام لنفي احتياجه إلى شيء، قدم قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ إشارة إلى أن الولد أو الشريك إنما يحتاجه العاجز المفتقر، وأما هو، فهو القادر، ومن سواه عاجز، وهو الغني ومن سواه فقير، فكيف

١ - مفاتيح الغيب ٩٤/١٣

٢ - هو إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي، أبو الحسن برهان الدين: مؤرخ أديب. أصله من البقاع في سورية، وسكن دمشق ورحل إلى بيت المقدس والقاهرة. من كتبه: عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران وأسواق الاشواق وغيرها. وتوفي بدمشق ٨٨٥ هـ. انظر: الأعلام ٥٦/١

٣ - فذلكة - وهي حاصل الجمع فذلِكَ حسابَه فذلِكَ. انظر: تاج العروس من جواهر القاموس ٢٧/٢٩٣

يحتاج التقدير الغني إلى العاجز الفقير، هذا ما لا يكون، ولا ينبغي أن تتخيله الظنون، وفيه إشارة إلى أن العابد ينبغي أن يتفرغ لعبادته، ويقطع أموره عن غير وكالته، فإنه يكفيه فضله عن سواه." (١)

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: الذي خلق كل شيء وهو بكل شيء عليم، هو الله ربكم أيها العادلون بالله الآلهة والأوثان، والجاعلون له الجن شركاء، وألهتكم التي لا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا تفعل خيراً ولا شراً، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذا تكذيب من الله - جل ثناؤه - للذين زعموا أن الجن شركاء الله، يقول - جل ثناؤه - لهم: أيها الجاهلون، إنه لا شيء له الألوهية والعبادة إلا الذي خلق كل شيء وهو بكل شيء عليم، فإنه لا ينبغي أن تكون عبادتكم وعبادة جميع من في السموات والأرض إلا له خالصة بغير شريك تشركونه فيها، فإنه خالق كل شيء وبارئها وصانعه، وحق على المصنوع أن يفرد صانعه بالعبادة. ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ يقول: فذلوا له بالطاعة والعبادة والخدمة، واحضعوا له بذلك. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يقول: والله على كل ما خلق من شيء رقيب وحفيظ يقوم بأرزاق جميعه وأقواته وسياسته وتدييره وتصريفه بقدرته." (٢)

قال ابن منده (٣): "ذكر الله ما يستدل به أولو الألباب من الآيات الواضحة التي جعلها الله - عز وجل - دليلاً لعباده من خلقه على معرفة وحدانيته من انتظام صنعته، وبدائع حكمته في خلق السموات والأرض وما أحكم فيها وخلق الإنسان والأرواح وما ركب فيها. قال الله - عز وجل - منها على قدرته: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾

١ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٦٨٩/٢ - ٦٩٠

٢ - تفسير الطبري ١٣/١٢

٣ - هو عبد الرحمن بن محمد بن إسحاق، ابن منده العبدي الأصبهاني، أبو عبد الله: حافظ، مؤرخ. ومولده ٣٨٣هـ واسع الرواية، كان شديداً في السنة وصنف كتباً كثيرة، وردوداً على أهل البدع. من كتبه: تاريخ أصبهان و التوحيد و غيرها، وفاته ٤٧٠ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٣٤٩/١٨

﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾ وقال تعالى: ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ ^(١) الآية. وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ ^(٢) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ^(٣) بيان ذلك من الأثر على أن العقول ودلالة على توحيد الله تعالى. ^(٤)

بين - سبحانه و تعالى - في هذه الآية - بعد أن أبطل العبودية لغيره - أنه - تعالى - وحده رب الناس و خالقهم و خالق كل شيء، فهو وحده يستحق العبادة.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ^(٥)

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: إن ربكم الذي له عبادة كل شيء، ولا تنبغي العبادة إلا له، هو الذي خلق السموات السبع والأراضين السبع في ستة أيام، وانفرد بخلقها بغير شريك ولا ظهير، ثم استوى على عرشه مدبراً للأمر، وقاضياً في خلقه ما أحب، لا يضادُّه في قضائه أحد، ولا يتعقب تدبيره متعقب، ولا يدخل أموره خلل. ﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ يقول: لا يشفع عنده شافع يوم القيامة في أحد إلا من بعد أن يأذن في الشفاعة ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ يقول جل جلاله: هذا الذي هذه صفته، سيّدكم ومولاكم، لا من لا يسمع ولا يبصر، ولا يدبّر ولا يقضي من الآلهة والأوثان. ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ يقول: فاعبدوا ربكم الذي هذه صفته، وأخلصوا له العبادة، وأفردوا له الألوهية والربوبية بالذلة منكم له دون أوثانكم، وسائر ما تشركون معه في العبادة. ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ يقول: أفلا تتعظون

١ - الملك: ٣

٢ - آل عمران: ١٩١

٣ - آل عمران: ١٩٠

٤ - التوحيد لابن منده ص ١٠٠

٥ - يونس: ٣

وتعتبرون بهذه الآيات والحجج، فتنبئون إلى الإذعان بتوحيد ربكم وإفراده بالعبادة، وتخلعون الأنداد وتبرؤون منها." (١)

قال ابن كثير: "يخبر -تعالى- أنه رب العالم جميعه، وأنه خَلَقَ السموات والأرض في ستة أيام، قيل: كهذه الأيام. وقيل: كل يوم كألف سنة مما تعدون. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ والعرش أعظم المخلوقات وسقفها."

إلى أن قال في قوله تعالى: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ "أي: يدبر أمر الخلائق، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ (٢) ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير في الجبال والبحار، والعمران والقفار: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَوْدَعَهَا كُلُّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (٣) ﴿وَمَا نَسْفُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (٤)(٥)

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية: "استئناف ابتدائي للاستدلال على تفرد الله -تعالى- بالإلهية. وإنما أوقع هنا؛ لأن أقوى شيء بعث المشركين على ادعاء أن ما جاء به النبي سحر هو أنه أبطل الشركاء لله في الإلهية ونفاها عن إلهتهم التي أشركوا بها فقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (٦) فلا جرم أن أعقب إنكار إحالتهم ذلك بإقامة الدليل الدليل على ثبوته."

١ - جامع البيان في تأويل القرآن ١٥/١٨

٢ - سبأ: ٣

٣ - هود: ٦

٤ - الأنعام: ٥٩

٥ - تفسير القرآن العظيم ٤/٢٤٦-٢٤٧

٦ - ص: ٥

إلى أن قال: "الغاية من التدبير الإيجاد والعمل على وفق ما دبر. وتدبير الله الأمور عبارة عن تمام العلم بما يخلقها عليه؛ لأن لفظ التدبير هو أوفى الألفاظ اللغوية بتقريب إتقان الخلق. والأمر: جنس يعم جميع الشؤون والأحوال في العالم."

إلى أن قال: "بعد أن وصف الإله الحق بما هو منتف عن إلهتهم نفي عن إلهتهم وصف الشفاعة عند الله وحماية المغضوب عليهم منه، وأكد النفي ب ﴿ مِنْ ﴾ التي تقع بعد حرف النفي لتأكيد النفي وانتفاء الوصف عن جميع أفراد الجنس الذي دخلت ﴿ مِنْ ﴾ على اسمه بحيث لم تبق لإلهتهم خصوصية. وزيادة ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ احتراست لإثبات شفاعته محمد ﷺ - بإذن الله، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ﴾ ^(١) والمقصود من ذلك نفي الشفاعة لألهتهم من حيث إنهم شركاء لله في الإلهية، فشفاعتهم عنده نافذة كشفاعة الند عند نده.

وجملة: ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ ابتدائية فذلحة للجمل التي قبلها ونتيجة لها، وهي معترضة بين تلك الجمل وبين الجملة المفرعة عليها، وهي جملة: ﴿ فَأَعْبُدُوهُ ﴾ وتأكيد لمضمون الجملة الأصلية وهي جملة: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ ﴾ والإتيان في صدرها باسم الإشارة لتمييزه أكمل تمييز؛ لأنهم امتروا في صفة الإلهية وصلوا فيها ضلالاً مميناً، فكانوا أحرىء بالإيقاظ بطريق اسم الإشارة، وللتنبية على أن المشار إليه حقيق بما سيذكر بعد اسم الإشارة من حيث إنه اتصف بتلك الأوصاف التي أشير إليه من أجلها، فإن خالق العوالم بغاية الإتيان والمقدرة، ومالك أمرها ومدبر شؤونها، والمتصرف المطلق مستحق للعبادة."

إلى أن قال: "والمقصود من العبادة، العبادة الحق التي لا يشرك معه فيها غيره بقريئة تفرع الأمر بها على الصفات المنفرد بها الله دون معبوداتهم. وجملة: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ابتدائية للتقريع. وهو غرض جديد، فلذلك لم تعطف، فالاستفهام إنكار لانتفاء تذكركم إذ أشركوا معه غيره ولم يتذكروا في أنه المنفرد بخلق العوالم وبملكها وتدبير أحوالها." ^(٢)

١ - الأنبياء: ٢٨

٢ - التحرير والتنوير ١١/١٣-١٥

وقال تعالى: ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾

(١) ﴿٦٥﴾

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: لم يكن ربك يا محمد ربّ السماوات والأرض وما بينهما نسياً؛ لأنه لو كان نسياً لم يستقم ذلك، ولهلك لولا حفظه إياه، فالربّ مرفوع رداً على قوله ﴿ رَبُّكَ ﴾ وقوله ﴿ فَاعْبُدْهُ ﴾ يقول: فالزم طاعته، وذلّ لأمره ونهيته ﴿ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ يقول: واصبر نفسك على النفوذ لأمره ونهيته، والعمل بطاعته تنفر برضاه عنك، فإنه الإله الذي لا مثل له ولا عدل ولا شبيه في جوده وكرمه وفضله ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ يقول: هل تعلم يا محمد لربك هذا الذي أمرناك بعبادته، والصبر على طاعته مثلاً في كرمه وجوده، فتعبده رجاء فضله وطوله دونه كلا ما ذلك بوجوده." (٢)

قال أبو السعود (٣): "وقوله تعالى: ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ بيان لاستحالة النسيان عليه -تعالى- فإن من بيده ملكوت السموات والأرض وما بينهما، كيف يُتصور أن يحوم حول ساحته -سبحانه- الغفلة والنسيان؟! وهو خبرٌ مبتدأٌ محذوفٌ أو بدلٌ من ربك، والفاء في قوله تعالى: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ لترتيب ما بعدها من موجب الأمرين على ما قبلها من كونه تعالى: ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ وقيل: من كونه -تعالى- غير تارك له -عليه السلام- أو غير ناس لأعمال العاملين، والمعنى: فحين عرفته -تعالى- بما ذكر من الربوبية الكاملة فاعبده الخ، فإن إيجاب معرفته -تعالى- كذلك لعبادته مما لا ريب فيه، أو حين عرفت أنه -تعالى- لا ينسأك أو لا ينسى أعمال العاملين كائناً من كان، فأقبل على عبادته واصطبر على مشاقها، ولا تحزن بإبطال الوحي وهزؤ الكفرة، فإنه يراقبك.

١ - مرتب: ٦٥

٢ - تفسير الطبري ٢٢٦/١٨

٣ - محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، أبو السعود: مفسر شاعر، من علماء الترك المستعربين. ولد بقرب القسطنطينية، سنة ٨٩٨ هـ، وتقلد القضاء. من كتبه الجواب مرارا في يوم واحد على ألف رقعة، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم وغيرها. مات سنة ٩٨٢ هـ. انظر: الأعلام ٥٨/٧

وتعدية الاصطبار باللام لا بحرف الاستعلاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ لتضمينه معنى الثبات للعبادة فيما تورّد عليه من الشدائد والمشاق، كقولك للمبارز: اصطبر لقرنك، أي: أثبت له فيما يورّد عليك من شدائده ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ السميُّ الشريك في الاسم، والظاهر أن يراد به هاهنا الشريك في اسم خاص قد عبّر عنه -تعالى- بذلك وهو ربُّ السموات والأرض وما بينهما، والمراد بإنكار العلم ونفيه إنكار المعلوم ونفيه على أبلغ وجهٍ وأكده، فالجملة تقريرٌ لما أفاده الفاء من عليّة ربوبيته العامة لوجوب عبادته، بل لوجوب تخصّصها به -تعالى- ببيان استقلاله -عز وجل- بذلك الاسم وانتفاء إطلاقه على الغير بالكلية حقاً أو باطلاً.

وقيل: المراد هو الشريك في الاسم الجليل، فإن المشركين مع غلوهم في المكابرة لم يسمّوا الصنم بالجلالة أصلاً. وقيل: هو الشريك في اسم الإله، والمراد بالتسمية التسمية على الحق، فالمعنى هل تعلم شيئاً يسمى بالاستحقاق إلهاً؟ وأما التسمية على الباطل، فهي كلا تسمية، فتقرير الجملة لوجوب العبادة حينئذ باعتبار ما في الاسمين الكريمين من الإشعار باستحقاق العبادة فتدبر. ^(١)

قال ابن القيم في هذه الآية: "فهذا الرب الذي له هذا الجند العظيم ولا ينزلون إلا بأمره، وهو المالك ما بين أيديهم وما خلفهم وما بين ذلك، فهو الذي قد كملت قدرته وسلطانه وملكوته وكمل علمه، فلا ينسى شيئاً أبداً، وهو القائم بتدبير أمر السموات والأرض وما بينهما، كما هو الخالق لذلك كله، وهو ربه ومليكه، فهذا الرب هو الذي لا سمي له لتفرده بكمال هذه الصفات والأفعال، فأما من لا صفة له ولا فعل، ولا حقائق لأسمائه إن هي إلا ألفاظ فارغة من المعاني، فالعدم سمي له وكذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ

﴿ ١١ ﴾ (٢) (٣)

١ - تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٢٧٣/٥

٢ - الشورى: ١١

٣ - الصواعق المرسلّة على الجهمية والمعظلة ١٠٢٨/٣

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ

وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾^(١)

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ومن حجج الله -تعالى- على خلقه ودلالته على وحدانيته، وعظيم سلطانه، اختلاف الليل والنهار، ومعاقبة كل واحد منهما صاحبه، والشمس والقمر، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٢) لا تسجدوا أيها الناس للشمس ولا للقمر، فإنهما وإن جريا في الفلك بمنافعكم، فإنما يجريان به لكم بإجراء الله إياهما لكم طائعين له في جريهما ومسيرهما، لا بأنهما يقدران بأنفسهما على سير وجري دون إجراء الله إياهما وتسييرهما، أو يستطيعان لكم نفعاً أو ضراً، وإنما الله مسخرهما لكم لمنافعكم ومصالحكم، فله فاسجدوا، وإياه فاعبدوا دونها، فإنه إن شاء طمس ضوءهما، فترككم حيارى في ظلمة لا تهتدون سبيلاً ولا تبصرون شيئاً. وقيل: ﴿وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ فجمع بالهاء والنون؛ لأن المراد من الكلام: واسجدوا لله الذي خلق الليل والنهار، والشمس والقمر، وذلك جمع، وأنت كنيائهن."

إلى أن قال: "وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يقول: إن كنتم تعبدون الله، وتذلون له بالطاعة، وإن من طاعته أن تخلصوا له العبادة، ولا تشركوا في طاعتكم إياه وعبادتكموه شيئاً سواه، فإن العبادة لا تصلح لغيره، ولا تنبغي لشيء سواه."^(٣)

قال ابن كثير: "يقول -تعالى- منبها خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له، وأنه على ما يشاء قادر، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي: أنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضياءه، وهما متعاقبان لا يقران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه، وتقدير منازلها في فلكه، واختلاف سيره في سمائه ليُعرف باختلاف سيره وسير الشمس بمقادير الليل والنهار، والجمع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات. ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي

١ - فصلت: ٣٧

٢ - يس: ٤٠

٣ - تفسير الطبري ٢١/٤٧٣-٤٧٤

والسفلي نبه -تعالى- على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخييره، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به. (١)

ثانياً: الاستدلال بالرزق

إن تحصيل الرزق أمر جعله الله -تعالى- في كل مخلوق، فكل مخلوق مفطور على تحصيل الرزق، فلما كان الأمر كذلك جاء في القرآن الكريم الاستدلال بالرزق على التوحيد، وأن الذي يرزق يستحق العبادة وحده، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَخَلْقُونَ إِفْكَارًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢)

قال الطبري: "يقول -جل ثناؤه: إن أوثانكم التي تعبدونها لا تقدر أن ترزقكم شيئاً فابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ ۗ يقول: فالتمسوا عند الله الرزق، لا من عند أوثانكم تدركوا ما تبتغون من ذلك ﴿وَأَعْبُدُوهُ﴾ يقول: وذلوا له ﴿وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾ على رزقه إياكم، ونعمه التي أنعمها عليكم، يقال: شكرته وشكرت له أفصح من شكرته. وقوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول: إلى الله تردون من بعد مماتكم، فيسألكم عما أنتم عليه من عبادتكم غيره، وأنتم عباده وخلقته، وفي نعمه تتقبلون، ورزقه تأكلون." (٣)

و هذه الآية ذكرها الله -تعالى- على لسان إبراهيم -عليه السلام- و استدلاله على قومه بحجة يعرفونها من أنفسهم؛ لأن الرزق مهما اجتهد العبد في طلبه لا يأتيه إلا ما قد كتبه

١ - تفسير ابن كثير ١٨٢/٧

٢ - العنكبوت: ١٧

٣ - تفسير الطبري ٢٠/٢٠

الله له، و هذا الدليل يعرفه كل عاقل. فإن كان كذلك فعليه أن يطلب الرزق من صاحبه و إلا فطلبه من الأوثان و من الأحجار يقدح في عقله، و لذا كان توجيه هذه الآية في غاية دقة بما يحتاجه كل إنسان، و هو ابتغاء الرزق من الله تعالى، و هو أول الخطوة إلى الإخلاص. و الثاني - و هو المقصود- العبادة لله وحده، و هي الشكر على الأول للإنعام بالعمل. و الثالث: الشكر على نعمتين العظيمةتين يعني ابتغاء الرزق من الله وحده والعبادة، وهذا الشكر يزيد العبد النعم.

و قال ابن كثير: " أخبرهم -تعالى- أن الأصنام التي يعبدونها والأوثان لا تضر ولا تنفع، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء سميتوها آلهة، وإنما هي مخلوقة مثلكم.

إلى أن قال: "وهي لا تملك لكم رزقاً، ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ وهذا أبلغ في الحصر، كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾^(١) ولهذا قال: ﴿فَابْتَغُوا﴾ أي: فاطلبوا ﴿عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أي: لا عند غيره، فإن غيره لا يملك شيئاً، ﴿وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾ أي: كلوا من رزقه واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم، ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله."^(٢)

والعبد لا بد له من رزق، محتاج إلى ذلك؛ لأن فيه بقاءه، فإذا تدبر من سهل له الرزق وعمل في تحصيله على ما أحل له، و طلبه من الله صار عبداً لله، فقيراً إليه، شاكراً له، وإن طلبه من مخلوق، و نسي من يرزقه في الحقيقة، صار عبداً لذلك المخلوق فقيراً إليه. ولذلك كان توضيح مسألة الرزق في القرآن الكريم واضحاً لكل عاقل يفكر في سعادة الدارين ليده على الطريقة السليمة في ذلك فيدخل في عبادة ربه الذي سهل له الرزق.

١ - التحريم: ١١

٢ - تفسير ابن كثير ٦/٢٦٩

و في الحديث أن أبا عبيدة^(١) قدم بمال من البحرين،^(٢) فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع النبي - ﷺ - فلما انصرف تعرضوا له فتبسم رسول الله - ﷺ - حين رآهم ثم قال: " أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء؟ قالوا: أجل يا رسول الله. قال: فأبشروا وأملوا ما يسركم، فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم."^(٣)

فالرزق الواسع قد يخشى منه، و خاصة في هذا الزمان الذي كثر فيه الرزق و تزخرت الدنيا ما لم تزخر من قبله قط، لكن كثيراً من الناس أبعد ما يكونون عن شكر النعم والتفكر من هو الرزاق ذو القوة المتين.

و قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ ﴾^(٤)

قال القرطبي: "المراد بمساق هذا الكلام الرد على المشركين، وتقرير الحجة عليهم، فمن اعترف منهم، فالحجة ظاهرة عليهم، ومن لم يعترف، فيقرر عليه أن هذه السموات والأرض لا بد لهما من خالق، ولا يتمارى في هذا عاقل. وهذا قريب من مرتبة الضرورة. ﴿ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أي: بالمطر." ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ بالنبات. ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ ﴾ أي: من جعلهما وخلقهما لكم. ﴿ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ أي: النبات من الأرض، والإنسان من النطفة، والسنبلة من الحبة، والطير من البيضة، والمؤمن من الكافر. ﴿ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ أي: يقدره

١ - هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال الفهري القرشي: فاتح الديار الشامية، والصحابي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وكان لقبه أمين الأمة. وهو من السابقين إلى الإسلام. وشهد المشاهد كلها. وولاه عمر بن الخطاب قيادة الجيش الزاحف إلى الشام. وتوفي بطاعون سنة ١٨ هـ. انظر: الإصابة (٤٤٠٣) ٥٨٦/٣

٢ - البَحْرَيْن - هي الخط والقطيف والآرة وهجر وبينونة والزارة وجوانا والسابور ودارين والغابة، و هي الآن الأحساء في المملكة العربية السعودية. انظر: معجم البلدان ٣٤٧/١

٣ - أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب شُهُودِ الْمَلَائِكَةِ بَدْرًا. رقم (٤٠١٥) ١٠٨/٥ و مسلم كتاب الزهد والرقائق. رقم (٧٦١٤) ٢١٢/٨

٤ - يونس: ٣١

ويقضيه. ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ لأنهم كانوا يعتقدون أن الخالق هو الله، أو فسيقولون هو الله إن فكروا وأنصفوا ﴿فَقُلْ﴾ لهم يا محمد. ﴿أَفَلَا نُنْقِوَنَ﴾ أي: أفلا تخافون عقابه ونقمته في الدنيا والآخرة. ^(١)

و قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ^(٢)

قال البقاعي: "ولما سلب عن شركائهم أن يملكوا شيئاً من الأكوان، وأثبت جميع الملك له وحده، أمره - ﷻ - بأن يقرهم بما يلزم منه ذلك، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ﴾ ولما كان كل شيء من الرزق متوقفاً على الكونين، وكان في معرض الامتنان والتوبيخ جمع لئلا يدعي أن لشيء من العالم العلوي مدبراً غيره سبحانه، فقال: ﴿مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بالإفراد لأنهم لا يعلمون غيرها.

ولما كان من المعلوم أنهم مقرون بأن ذلك لله وحده، وكان من المحقق أن إقرارهم بذلك ملزم لهم الإخلاص في العبادة عند كل من له أدنى مسكة ^(٣) من عقله، أشار إلى ذلك بالإشارة بأمره - ﷻ - بالإجابة إلى أنهم كالمُنكرين لهذا؛ لأن إقرارهم به لم ينفعهم، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أي: الملك الأعلى وحده، وأمره بعد إقامة هذا الدليل البين بأن يتبعه ما هو أشد عليهم من وقع النبل بطريق لا أنصف منه، ولا يستطيع أحد أن يصوب إليه نوع طعن بأن يقول مؤكداً تنبيهاً على وجوب إنعام النظر في تمييز الحق من المبطل بالانخلاع من الهوى، فإن الأمر في غاية الخطر: ﴿وَإِنَّا﴾ أي: أهل التوحيد في العبادة لمن تفرد بالرزق ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ أي: أهل الإشراك به من لا يملك شيئاً من الأشياء و ﴿أَوْ﴾ على باهما لا بمعنى الواو، أي: إن أحد فريقنا على إحدى الحالتين مبهم غير معنية، فهو

١ - تفسير القرطبي ٣٣٥/٨

٢ - سبأ: ٢٤

٣ - المسكوة - الحظ القليل من العقل. انظر: المعجم الوسيط ٨٧٠/٢

على خطر عظيم لكونه في شك من أمره غير مقطوع له بالهدى، فانظروا بعقولكم في تعيينه هل هو الذي عرف الحق لأهله أو الذي بذل الحق لغير أهله.

قال ابن الجوزي^(١): "وهذا كما تقول للرجال تكذبه: والله إن أحدنا لكاذب، وأنت تعينه تكذيباً غير مكشوف، ويقول الرجل: والله لقد قدم فلان، فيقول له من يعلم كذبه: قل إن شاء الله، فكذبه بأحسن من تصريح التكذيب."^(٢)

يعني ولا سيما بعد إقامة الدليل على المراد. ثم مثل المهتدين بمن هو على متن جواد يوجهه حيث شاء من الجواد^(٣) بقوله: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ أي: في متابعة ما ينبغي أن يعمل مستعملين عليه ناظرين لكل ما يمكن أن يعرض فيه مما قد يجر إلى ضلال فتنكبه ﴿أَوْ فِي ضَلَالٍ﴾ أي: عن الحق في الاعتقاد المناسب فيه منغمسين فيه وهو محيط بالمبتلى به لا يتمكن معه من وجه صواب: ﴿مُيِّنٍ﴾ أي: واضح في نفسه داع لكل أحد إلى معرفة أنه ضلال إلا من كان منغمساً فيه مطروفاً له، فإنه لا يحس بنفسه، وما بينه وبين أن يستبصر إلا أن يخرج منه وقتاً ما فيعلم أنه كان في حاله ذلك فاعلاً ما لا يفعله من له نوع من العقل، ففي هذا حث على النظر الذي كانوا يأبونه بقوله: ﴿قُلُوبَنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾^(٤) ونحوه في الأدلة التي يتميز بها الحق من الباطل على أحسن وجه بأنصف دعاء، وألطف نداء حيث شرك الداعي نفسه معهم فيما دعاهم إلى النظر فيه، فالمعنى أنه يتعين على كل منا - إذا كان على إحدى الطريقتين مبهمه - أن ينظر في أمر ليسلم، فإن الأمر في غاية الوضوح مع أن الضال في نهاية

١ - هو عبد الرحمن بن علي بن محمد، ابن الجوزي القرشي البغدادي الحنبلي، أبو الفرج: علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف. مولده ٥٠٨ هـ ببغداد، ونسبته إلى مشرعة الجوز. له نحو ثلاث مئة مصنف، منها: تليح فهوم أهل الآثار، و الأذكياء وأخبارهم و المدهش. وفاته ٥٩٧ هـ. انظر: شذرات الذهب ٤/٣٢٩

٢ - زاد المسير ٦/٤٥٥

٣ - الجواد- الجمع من الجادة- و هو مُعْظَمُ الطَّرِيقِ، وقيل وَسَطُهُ، وقيل: هي الطَّرِيقُ الأعْظَمُ الَّذِي يَجْمَعُ الطُّرُقَ ولا بُدَّ من المرور عليه. وقيل: جادة الطريق: مَسْلُكُهُ وما وَصَحَ منه. انظر: تاج العروس من جواهر القاموس ٧/٤٨٣

٤ - فصلت: ٥

الخطر، ولقد كان الفضلاء من الصحابة كخالد بن الوليد^(١) وعمرو بن العاص، وناهيك بهما جلالاً، ونباهة وذكاءً وكمالاً، قالوا: والله كنا نعجب غاية العجب ممن يدخل في الإسلام واليوم نحن نعجب غاية العجب ممن يتوقف عنه.^(٢)

و في هذه الآية البراهين القاطعة في استدلال القرآن الكريم على استحقاق العبادة لله وحده، إذ كان إنزال المطر عند العرب أمر عظيم لقلته و عظم فائدته، قد جاء في القرآن ذكره كثيراً،

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ

يُنِيبُ ۗ ﴾ (١٣) و قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۗ ﴾ (٤) و قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۗ ﴾ (٥) و قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ

نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ

لَا يَعْقِلُونَ ۗ ﴾ (٦) و قال تعالى: ﴿ أَمَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۗ ﴾ (٦٤)

و قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ

وَالْأَرْضِ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ۗ ﴾ (٧) و قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ

١ - هو خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي: سيف الله الفاتح الكبير، الصحابي. كان من أشرف قريش في الجاهلية، يلي أعنة الخيل، وأسلم قبل فتح مكة سنة ٧ هـ فسر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاه الخيل. ولما ولي أبو بكر وجهه لقتال من ارتد من أعراب نجد. مات ٢١ هـ. انظر: الإصابة ٢/٢٥١

٢ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٦/١٧٨

٣ - غافر: ١٣

٤ - إبراهيم: ٣٢

٥ - النحل: ١٠

٦ - العنكبوت: ٦٣

٧ - النمل: ٦٤

٨ - فاطر: ٣

وَيُزَلِّكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾^(١) وغيرها من الآيات التي تدل على تعظيم أمرها عند السامع.

ثالثاً: الاستدلال بالموت و البعث

ما من حقيقة أيقن من الموت، فكل إنسان يعرف و يشاهد الموت في حياته، و يعرف أن الموت سيدركه، لكن ما أشد غفلة الناس عن هذا اليقين. و لما كان الأمر كذلك ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة و ما بعدها من البعث ليكون الناس على يقين بما سيصيبهم ليخلصوا عبادتهم، و ليرى الله -تعالى- من يكون أحسن عملاً، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾^(٢) فاهتمام القرآن به، و ذكر أحواله و أحوال المعاد في غاية البلاغة. وهذا اللقاء الذي يعده الله -تعالى- لنا ولا مهرب منه يجعل الإنسان يتعظ و يتذكر.

فالموت واعظ بلا شك، فلذا جاء ذكره كثيراً في القرآن الكريم ليتعظ الناس به و يخلصوا العبادة. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾^(٣)

قال أبو جعفر: "يقول -تعالى- ذكره- لنبهه محمد -ﷺ-: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك الذين عجبوا أن أوحيت إليك: إن كنتم في شك أيها الناس من ديني الذي أدعوكم إليه، فلم تعلموا أنه حق من عند الله: فيني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عني شيئاً، فتشكُّوا في صحته. وهذا تعريض و لحن من الكلام لطيف. وإنما معنى الكلام: إن كنتم في شك من ديني، فلا ينبغي

١ - غافر: ١٣ - ١٤

٢ - الملك: ٢

٣ - يونس: ١٠٤

لكم أن تشكوا فيه، وإنما ينبغي لكم أن تشكوا في الذي أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا تعقل شيئاً ولا تضر ولا تنفع. فأما ديني، فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه؛ لأني أعبد الله الذي يقبض الخلق، فيميتهم إذا شاء، وينفعهم ويضرهم إن شاء. وذلك أن عبادة من كان كذلك لا يستنكرها ذو فطرة صحيحة. وأما عبادة الأوثان، فينكرها كل ذي لبٍّ وعقلٍ صحيح. وقوله: ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي تَوَقَّفَكُمْ﴾ يقول: ولكن أعبد الله الذي يقبض أرواحكم فيميتكم عند آجالكم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: وهو الذي أمرني أن أكون من المصدقين بما جاءني من عنده.^(١)

قال أبو حيان^(٢) في تفسيره: "الخطاب لأهل مكة. يقول: إن كنتم لا تعرفون ما أنا عليه فأنا أبينه لكم، فبدأ أولاً بالانتفاء من عبادة ما يعبدون من الأصنام تسفيها لآرائهم، وأثبت ثانياً من الذي يعبده، وهو الله الذي يتوفاكم. وفي ذكر هذا الوصف الوسط الدال على التوفي دلالة على البدء وهو الخلق، وعلى الإعادة، فكأنه أشار إلى أنه يعبد الله الذي خلقكم ويتوفاكم ويعيدكم، وكثيراً ما صرح في القرآن بهذه الأطوار الثلاثة، وكان التصريح بهذا الوصف لما فيه من التذكير بالموت وإرهاب النفوس به، وصيرورتهم إلى الله بعده، فهو الجدير بأن يخاف ويتقى ويعبد لا الحجارة التي تعبدونها. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لما ذكر أنه يعبد الله، وكانت العبادة أغلب ما عليها عمل الجوارح، أخبر أنه أمر بأن يكون من المصدقين بالله الموحدين له المفرد له بالعبادة، وانتقل من عمل الجوارح إلى نور المعرفة، وطابق الباطن الظاهر.

وقيل: معناه إن كنتم في شك من ديني ومما أنا عليه، أثبت أم أتركه وأوافقكم، فلا تحدثوا أنفسكم بالمحال، ولا تشكوا في أمري، واقطعوا عني أطماعكم، واعلموا أنني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولا أختار الضلالة على الهدى، كقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ

١ - جامع البيان في تأويل القرآن ١٥ / ٢١٧

٢ - محمد بن يوسف بن علي الغرناطي الأندلسي الجياني، النفري، أثير الدين، أبو حيان: من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات. ولد في غرناطة ٦٥٤ هـ، رحل في طلب العلم إلى أن أقام بالقاهرة. وتوفي فيها ٧٤٥ هـ بعد أن كف بصره. و من كتبه: البحر المحيط، و النهر، و غيرها. انظر: شذرات الذهب ٦ / ١٤٥

﴿ ١ ﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ﴿١﴾ ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ أصله: بأن أكون، فحذف الجار، وهذا الحذف يحتمل أن يكون من الحذف المطرد الذي هو حذف الحروف الجارة مع أن وأن يكون من الحذف غير المطرد وهو قوله: ﴿فَأَصَدَقَ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢) (٣) قال الشوكاني في تفسير هذه الآية: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ "أمر - سبحانه - رسوله بأن يظهر التباين بين طريقته وطريقة المشركين، مخاطباً لجميع الناس، أو للكفار منهم، أو لأهل مكة على الخصوص بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ الذي أنا عليه، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، ولم تعلموا بحقيقته ولا عرفتم صحته، وأنه الدين الحق الذي لا دين غيره، فاعلموا أنني بريء من أديانكم التي أنتم عليها ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ في حال من الأحوال ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي: أحصه بالعبادة لا أعبد غيره من معبوداتكم من الأصنام وغيرها، وخص صفة المتوفي من بين الصفات لما في ذلك من التهديد لهم، أي: أعبد الله الذي يتوفاكم، فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد، ولكونه يدل على الخلق أولاً، وعلى الإعادة ثانياً، ولكونه أشد الأحوال مهابة في القلوب، ولكونه قد تقدم ذكر الإهلاك، والوقائع النازلة بالكفار من الأمم السابقة، فكأنه قال: أعبد الله الذي وعدني بإهلاككم. ولما ذكر أنه لا يعبد إلا الله بين أنه مأمور بالإيمان فقال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بأن أكون من جنس من آمن بالله، وأخلص له الدين.^(٤)

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَيُّنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾^(٥)

١ - الكافرون: ١ - ٢

٢ - الحجر: ٩٤

٣ - تفسير البحر المحيط ١١١/٦-١١٢

٤ - فتح القدير ٤٧٧/٢

٥ - الأعراف: ٣٧

قال أبو جعفر: "يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ إلى أن جاءتهم رسلنا. يقول جل ثناؤه: وهؤلاء الذين افتروا على الله الكذب، أو كذبوا بآيات ربهم ينالهم حظوظهم التي كتب الله لهم، وسبق في علمه لهم رزق وعمل وأجل وخير وشر في الدنيا إلى أن تأتيهم رسلنا لقبض أرواحهم. فإذا جاءتهم رسلنا - يعني ملك الموت وجنده - ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يقول: يستوفون عددهم من الدنيا إلى الآخرة ﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يقول: قالت الرسل: أين الذين كنتم تدعونهم أولياء من دون الله وتعبدونهم، لا يدفعون عنكم ما قد جاءكم من أمر الله الذي هو خالقكم وخالقهم، وما قد نزل بساحتكم من عظيم البلاء؟ وهلا يُغيثونكم من كرب ما أنتم فيه فينقذونكم منه؟! فأجابهم الأشقياء فقالوا: ضلَّ عنا أولياؤنا الذين كنا ندعو من دون الله. يعني بقوله: ﴿ضَلُّوا﴾ جاروا وأخذوا غير طريقنا، وتركونا عند حاجتنا إليهم فلم ينفعوننا. يقول الله جل ثناؤه: وشهد القوم حينئذ على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بالله، جاحدين وحدانيته. ^(١)

فالأمر الجلل الذي يصيب الكفار هو الموت، وحين يُكشف حقيقة أمرهم و هم كانوا عنها في الغفلة، و ليس أنهم أنكروا وقوعها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ^(٢)

و قال تعالى: ﴿الَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ ^(٣) وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنْعَا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ. وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ^(٤) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^(٥)

قال أبو جعفر: "يقول تعالى ذكره: ثم فُصِّلَت بأن لا تعبدوا إلا الله وحده لا شريك له،

١ - جامع البيان في تأويل القرآن ١٢/١٣-١٤-٤١٤

٢ - الأنعام: ٩٣

٣ - هود: ٢ - ٤

وتخلعوا الآلهة والأنداد. ثم قال - تعالى ذكره لنبيه - محمد - ﷺ -: قل يا محمد للناس ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْ عِندِ اللَّهِ نَذِيرٌ﴾ ينذركم عقابه على معاصيه وعبادة الأصنام ﴿وَبَشِيرٌ﴾ يبشركم بالجزيل من الثواب على طاعته، وإخلاص العبادة والألوهة له. " و قال: "يقول تعالى ذكره: ثم فصلت آياته بأن لا تعبدوا إلا الله، وبأن استغفروا ربكم. ويعني بقوله: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ وأن اعملوا أيها الناس من الأعمال ما يرضي ربكم عنكم، فيستر عليكم عظيم ذنوبكم التي ركبتموها بعبادتكم الأوثان والأصنام، وإشراككم الآلهة والأنداد في عبادته.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ يقول: ثم ارجعوا إلى ربكم بإخلاص العبادة له دون ما سواه من سائر ما تعبدون من دونه بعد خلعكم الأنداد وبراءتكم من عبادتها.

ولذلك قيل: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ ولم يقل: "وتوبوا إليه" لأن التوبة معناها الرجوع إلى العمل بطاعة الله، والاستغفار: استغفار من الشرك الذي كانوا عليه مقيمين، والعمل لله لا يكون عملاً له إلا بعد ترك الشرك به، فأما الشرك فإن عمله لا يكون إلا للشيطان، فلذلك أمرهم - تعالى ذكره - بالتوبة إليه بعد الاستغفار من الشرك؛ لأن أهل الشرك كانوا يرون أنهم يُطيعون الله بكثير من أفعالهم، وهم على شركهم مقيمون.

وقوله: ﴿يَمْنَعُكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يقول - تعالى ذكره - للمشركين الذين خاطبهم بهذه الآيات: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ فإنكم إذا فعلتم ذلك بسط عليكم من الدنيا ورزقكم من زينتها، وأنسأ لكم في آجالكم إلى الوقت الذي قضى فيه عليكم الموت.

وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ يقول تعالى ذكره: وإن أعرضوا عما دعوهم إليه من إخلاص العبادة لله، وترك عبادة الآلهة، وامتنعوا من الاستغفار لله والتوبة إليه، فأدبروا مؤلّين عن ذلك ﴿فَإِنِّي﴾ أيها القوم ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ شأنه عظيم هؤوله، وذلك يوم تجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون.

وقال جل ثناؤه: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ ولكنه مما قد تقدمه قول، والعرب إذا قدمت قبل الكلام قولاً خاطبت، ثم عادت إلى الخبر عن الغائب، ثم رجعت بعد إلى الخطاب.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول تعالى ذكره ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ أيها القوم مآبكم ومصيركم، فاحذروا عقابه إن توليتم عما أدعوكم إليه من التوبة إليه من عبادتكم الآلهة والأصنام، فإنه مخلدكم نار جهنم إن هلكتم على شرككم قبل التوبة إليه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول: وهو على إحيائكم بعد مماتكم، وعقابكم على إشراككم به الأوثان وغير ذلك مما أراد بكم وبغيركم قادر.^(١)

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ "أي: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٢) وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٣)

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي: إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه.^(٤)

إن الفصل بين عبادة الله وحده وعبادة غيره واضح في جميع القرآن الكريم ولهذا أرسل الرسل و أنزل الكتب، فمن جعل شيئاً من عبادته لغير الله تعالى فهو على أمرين: إما أن يتوب عنه، أو يدخل في الوعيد الشديد، وهذا الوعيد يتبين بعد الموت و البعث، فهذه الحقيقة لا يمكن تغافل عنها، فلذا كان النبي نذيراً لمن أشرك في عبادته شيئاً، و بشيراً لمن عبد الله وحده.

١ - جامع البيان في تأويل القرآن ١٥/٢٢٩-٢٣٢

٢ - الأنبياء: ٢٥

٣ - النحل: ٣٦

٤ - تفسير القرآن العظيم ٤/٣٠٣

رابعاً: الاستدلال بعبادة الملائكة

الإيمان بالملائكة الركن الثاني من أركان الإيمان، كما قال النبي ﷺ: "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسوله وتؤمن بالبعث."^(١) فقد ورد ذكر الملائكة في القرآن الكريم كثيراً، وهم عباد الله مطيعون له، لا يشغلهم شيء عن عبادته سبحانه. فكل حركة في السموات والأرض من حركات الأفلاك والنجوم، والشمس والقمر، والرياح والسحاب والنبات والحيوان، فهي ناشئة عن الملائكة الموكلين بالسموات والأرض. وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه - سبحانه - وكل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظه، وملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكل بالأفلاك ملائكة يجركونها، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، قال الله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۗ وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۗ﴾^(٢) ووكل بالجنة وعمارتها وغراسها وعمل الأنهار فيها ملائكة.

و قال تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۗ﴾^(٣)

فالملائكة أعظم جنود الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ﴾^(٤) و ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۗ﴾^(٥) وممنهم ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۗ﴾^(١) فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا ۗ﴾^(٢) وَالنَّشْرَاتِ نَشْرًا ۗ﴾^(٣) فَالْفَرَقَاتِ فَرَقًا

١ - جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ - عن الإيمان والإسلام، والإحسان وعلم الساعة. رقم (٥٠) ٢٠/١

٢ - المدثر: ٣٠ - ٣١

٣ - الرعد: ٢٣

٤ - الفتح: ٤

٥ - المدثر: ٣١

﴿٤﴾ فَأَلْمَلَيْتَ ذِكْرًا ﴿٥﴾ ﴿١﴾ وملائكة قد وكلوا بحمل العرش، وملائكة قد وكلوا بعمارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقديس، وإلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله تعالى. فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر لله الواحد القهار، وهم ينفذون أمره:

﴿لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴿٢﴾ و ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٣﴾ وكلهم ﴿لَا يَعصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٤﴾ وهم ﴿عبادٌ مَّكْرُمُونَ﴾ ﴿٥﴾ ومنهم ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ ﴿٦﴾ ومنهم ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ﴾ ﴿٧﴾ وليس منهم إلا من له مقام معلوم ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ ﴿٨﴾ ومنهم ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ﴿١٩﴾ يُسِيحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴿٩﴾ لمعرفة عظمتهم بهم.

ورؤساؤهم الأملاك الثلاث: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وكان النبي -ﷺ- يقول: "اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم." ﴿١٠﴾

١ - الرسائل: ١ - ٥

٢ - الأنبياء: ٢٧ - ٢٨

٣ - النحل: ٥٠

٤ - التحريم: ٦

٥ - الأنبياء: ٢٦

٦ - الصافات: ١٦٥

٧ - الصافات: ١٦٦

٨ - الصافات: ١٦٤

٩ - الأنبياء: ١٩ - ٢٠

١٠ - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء. رقم (٧٦٧) ٢٧٩/١ والترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل. رقم (٣٤٢٠) ٤٨٤/٥ قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. قال الشيخ الألباني: صحيح

و كل هذه الملائكة في غاية الخوف و العبادة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُوْنَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُوْنَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُوْنَ اَلَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُوْنَ ﴿٢٠﴾﴾^(١)

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وكيف يجوز أن يتخذ الله لهواً، وله ملك جميع من في السماوات والأرض، والذين عنده من خلقه لا يستنكفون عن عبادتهم إياه ولا يعيون من طول خدمتهم له، وقد علمتم أنه لا يستعبد والد ولده ولا صاحبه، وكل من في السماوات والأرض عبيده، فأنى يكون له صاحبة وولد. يقول: أولاً تتفكرون فيما تفترون من الكذب على ربكم.

يقول تعالى ذكره: يسبح هؤلاء الذين عنده من ملائكة رهم الليل والنهار لا يفترون من تسبيحهم إياه.

سأل ابن عباس كعباً^(٢) - رضي الله عنهم - عن قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ و ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ فقال: هل يئودك طرفك؟ هل يئودك نفسك؟ قال: لا. قال: فإنهم ألهمو التسبيح كما ألهتم الطرف والنفس.^(٣)

قال ابن كثير: "أخبر -تعالى- عن عبودية الملائكة له، ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: ﴿وَلَهُمْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ يعني: الملائكة، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ﴾ أي: لا يستنكفون عنها، كما قال: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾^(٤)

١ - الأنبياء: ١٩ - ٢٠

٢ - كعب بن مالك بن عمرو بن القين، النصراني السلمى الخزرجي، أبو عبد الله، صحابي، من أكابر الشعراء. وكان في الإسلام من شعراء النبي صلى الله عليه وآله وشهد أكثر الوقائع. مات سنة ٥٠ هـ. الإصابة (٧٤٣٨) ٦١٠/٥

٣ - جامع البيان في تأويل القرآن ١٨/٤٢٢-٤٢٣

٤ - النساء: ١٧٢

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يتعبون ولا يملون. ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً وعملاً قادرين عليه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١)

قال حكيم بن حزام^(٢): بينا رسول الله - ﷺ - بين أصحابه، إذ قال لهم: "هل تسمعون ما أسمع؟" قالوا: ما نسمع من شيء. فقال رسول الله - ﷺ -: "إني لأسمع أطيظ^(٣) السماء، وما تلام أن تتط، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم."^(٤)

عن عبد الله بن الحارث بن نوفل^(٥) قال: جلست إلى كعب الأخبار وأنا غلام، فقلت له:

أرأيت قول الله للملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل؟. فقال: فمن هذا الغلام؟ فقالوا: من بني عبد المطلب. قال: فقبل رأسي، ثم قال لي: يا بني! إنه جعل لهم التسبيح، كما جعل لكم النفس أليس تتكلم وأنت تتنفس وتمشي وأنت تتنفس؟^{(٦)(٧)}

لما كانت الملائكة عباد الله المخلصين، يخافون الله كثيراً، كما وصفهم الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ

١ - التحريم: ٦

٢ - هو حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، أبو خالد، صحابي، قرشي. وهو ابن أخي خديجة أم المؤمنين. و كان من سادات قريش في الجاهلية والإسلام. مات سنة ٥٤ هـ. الإصابة (١٨٠٢) ١١٢/٢

٣ - الأطيظ: صَوْتُ الرَّحْلِ الْجَدِيدِ، وَالإِبِلِ مِنْ ثِقَلِهَا، وَفِي الصَّحاح: مَنْ ثَقَلَ أَحْمَالُهَا. انظر: تاج العروس من جواهر القاموس ١٣٠/١٩

٤ - ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠١/٣) وله شاهد من حديث أبي ذر الغفاري أخرجه الترمذي في السنن برقم (٢٣١٢) وقال: "هذا حديث حسن غريب" و قال الشيخ الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع الصغير ١٠/١

٥ - هو عبد الله بن الحارث بن نوفل الهاشمي القرشي ولقبه: بَنَّةٌ. من أشرف قريش. ولد في حياة النبي - ﷺ - سنة ٩ هـ أمه هند أخت معاوية، أتت به إلى النبي - ﷺ - إذ دخل عليها، فتفل في فيه، ودعا له. وكان ورعاً ظاهر الصلاح. ولاه ابن الزبير على البصرة. توفي فيها سنة ٨٤ هـ. انظر: الإصابة (٦١٧٣) ٩/٥ و سير أعلام النبلاء ٢٠٠/١

٦ - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان. رقم (١٥٩) ٣١٨/١

٧ - تفسير القرآن العظيم ٣٣٧/٥

أَلْعَلِّيَ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾^(١) فلما كان أمر كذلك كان على الناس أن يقتدوا بهم و يعبدوا الله - تعالى - كما يفعلون.

و قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾^(٢)

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فإن استكبر يا محمد هؤلاء الذين أنت بين أظهرهم من مشركي قريش، وتعظموا عن أن يسجدوا لله الذي خلقهم، وخلق الشمس والقمر، فإن الملائكة الذين عند ربك لا يستكبرون عن ذلك، ولا يتعظمون عنه، بل يسبحون له، ويصلون ليلاً ونهاراً، ﴿ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ يقول: وهم لا يفترقون عن عبادتهم، ولا يملون الصلاة له." ^(٣)

قال أبو حيان في تفسير: ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا ﴾ "أي: تعاضموا على اجتناب ما نهيته من السجود لهذين المحدثين المريبين، وامثال ما أمرت به من السجود للخالق لهن، فإن الملائكة الذين هم عند الله بالمكانة والرتبة الشريفة ينزهونه عن ما لا يليق بكبريائه ﴿ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي: لا يملون ذلك، وهم خير منكم مع أنه -تعالى- غني عن عبادتكم وعبادتهم. ولما ذكر شيئاً من الدلائل العلوية، ذكر شيئاً من الدلائل السفلية." ^(٤)

قال البقاعي: "ولما كانوا في هذا الأمر بين طاعة ومعصية، وكذاك درء المفسد مقدماً، سبب عن ذلك قوله معبراً بأداة الشك تنبيهاً لهم على أن استكبارهم بعد إقامة هذه الأدلة ينبغي أن لا يتوهم، وصرف القول إلى الغيبة تحقيراً لهم وإبعاداً على تقدير وقوع ذلك منهم." ^(٥)

١ - سبأ: ٢٣

٢ - فصلت: ٣٨

٣ - جامع البيان في تأويل القرآن ٤٢٣/١٨

٤ - تفسير البحر المحيط ٣٠٨/٩

٥ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٥٧٦/٦-٥٧٧

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إنه قد علم - سبحانه - أن في بني آدم من يستكبر عن السجود له، فقال: الذين هم أعظم من هؤلاء لا يستكبرون عن عبادة ربهم، بل يسبحون له بالليل والنهار، ولا يحصل لهم سامة ولا ملالة بخلاف الآدميين، فوصفهم هنا بالتسبيح له، ووصفهم بالتسبيح وهم يصفون له صفوفاً، كما قالوا: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴾ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿ (١) (٢)

فالملائكة عباد الله، لا يعلم عددهم إلا الله - تعالى - يعبدونه و يمجّدونه، فمن من الناس يستكبر عن عبادة الله - تعالى - فإنه لا يضره شيئاً، بل يضر نفسه، فإن الله - تعالى - مستغن عن عبادتهم.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال: "إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان. قال علي، وقال غيره: صفوان ينفذهم ذلك، فإذا فزع عن قلوبهم. قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: - للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر. ووصف سفيان^(٣) بيده وفرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها فوق بعض - فربما أدرك الشهاب^(٤) المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه حتى يلقوها إلى الأرض. وربما قال سفيان حتى تنتهي إلى الأرض - فتلقى على فم الساحر فيكذب معها مئة كذبة فيصدق

١ - الصفات: ١٦٥ - ١٦٦

٢ - مجموع الفتاوى ٢٣/١٤٦-١٤٧

٣ - هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أبو عبد الله: كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. ولد سنة ٩٧ هـ في الكوفة ونشأ بها، وكان آية في الحفظ. وخرج من الكوفة سنة ١٤٤ هـ فسكن مكة والمدينة. ثم طلبه المهدي، فتوارى. وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفياً سنة ١٦١ هـ. له من الكتب: الجامع الكبير، و الجامع الصغير. انظر: سير أعلام النبلاء ٧/٢٢٩

٤ - الشهاب - هو شعلة نارٍ ساطعة. انظر: معجم مقاييس اللغة ٣/٢٢٠

فيقولون ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقا للكلمة التي سمعت من السماء." (١)

وسأل النبي -ﷺ- جبريل -عليه السلام- يوم عُرِجَ به إلى السماء عن البيت المعمور، فقال جبريل -عليه السلام-: "هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم." (٢)

١ - أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ﴾ رقم (٤٧٠١) ١٠٠/٦

٢ - جزء من الحديث أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة. رقم (٣٢٠٧) ١٣٣/٤

المبحث الثاني: أساليب القرآن في تقرير توحيد العبادة

أولاً: أسلوب القصة

١- قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

٢- قصة موسى عليه السلام

ثانياً: أسلوب ضرب الأمثال

ثالثاً: أسلوب الاستفهام

١- الاستفهام الإنكاري

٢- الاستفهام التوبيخي

٣- الاستفهام التقريري

تنوعت أساليب القرآن الكريم في تقرير توحيد العبادة، فتارة يقص لنا قصص الأنبياء والأمم السابقة، و تارة يضرب لنا الأمثال، و تارة يذكر لنا عواقب المعرضين و المطيعين، وتارة يذكر عظمة ربنا و صفاته، لعلنا نتذكر ونتعظ، فنؤمن بما أراد ربنا منا و نقبل على عبادته وتعظيمه، فنفوز بما وعد به عباده الصالحين.

أولاً: أسلوب القصة

إن قصص الأنبياء و الأمم السابقة المذكورة في القرآن الكريم أكمل من غيرها وأصدق، ولهذا كثيراً ما يبدئ ويعيد في قصص الأنبياء الذين فضلهم على غيرهم، ورفع قدرهم، وأعلى أمرهم بسبب ما قاموا به من عبادة الله ومحبتة، والإنابة إليه، والقيام بحقوقه، وحقوق العباد، ودعوة الخلق إلى الله، والصبر على ذلك، والمقامات السامية، والمنازل العالية. و إن في القصص تفكيراً وموعظة؛ لأن في سرد القصص واستحضار النظائر شأنًا عظيمًا في اهتداء النفوس بها، وتقريب الأحوال الخفية إلى النفوس الذاهلة أو المتغافلة لما في التنظير بالقصة المخصوصة من تذكر مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التذكير المجرد عن التنظير بالشيء المحسوس. و في القرآن الكريم قصص كثيرة لا نستطيع أن نقف على كل واحدة منها لتقرير توحيد العبادة منها، و في هذا المبحث أذكر بعضها و أقف عندها وقفة يسيرة لعلني أضرب مثلاً منها في تقرير توحيد العبادة.

١ - قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

و من قصص القرآن قصة إبراهيم -عليه السلام- هو أفضل الأنبياء كلهم بعد محمد ﷺ - وهو الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وهو الذي دعا الخلق إلى الله، وصبر على ما ناله من العذاب العظيم، فدعا القريب والبعيد، واجتهد في دعوة أبيه مهما أمكنه، وذكر الله مراجعته إياه.

فقال تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ٤٥﴾^(١)

إن إبراهيم -عليه السلام- قد جاء بالحنيفية وخالفها العرب بالإشراك. وهم ورثة إبراهيم - عليه السلام- و كانوا ينسبون دينهم إلى إبراهيم -عليه السلام- فذكر القرآن الكريم قصصه، ودعوة أبيه و قومه لعبادة الله وحده؛ ليتبين للعرب حقيقة دينه و حنيفيته. وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ - على ما لقي من مشركي قومه لمشاهدة حالهم بحال قوم إبراهيم.

قال الطبري -رحمه الله-: "يقول تعالى ذكره لنبيه: ﴿وَأذْكُرْ﴾ يا محمد في كتاب الله ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ خليل الرحمن، فاقصص على هؤلاء المشركين قصصه و قصص أبيه ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ يقول: كان من أهل الصدق في حديثه وأخباره ومواعيده لا يكذب، والصدِّيق هو الفعيل من الصدق. ﴿نَبِيًّا﴾ يقول: كان الله قد نبأه وأوحى إليه.

وقوله ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ يقول: اذكره حين قال لأبيه ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾

يقول: ما تصنع بعبادة الوثن الذي لا يسمع ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ شيئاً ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ يقول: ولا يدفع عنك ضرر شيء، إنما هو صورة مصورة لا تضر ولا تنفع. يقول ما تصنع بعبادة ما هذه صفته؟ اعبد الذي إذا دعوته سمع دعائك، وإذا أحيط بك أبصرك فنصرك، وإذا نزل بك ضرر دفع عنك."

و قال في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِبِ إِيَّيَّ قَدْ جَاءَ نِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ "يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم لأبيه: يا أبت إني قد آتاني الله من العلم ما لم يؤتك فاتبعني: يقول: فاقبل مني نصيحتي ﴿أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ يقول: أبصرك هدى الطريق المستوي الذي لا تضل فيه إن لزمته، وهو دين الله الذي لا اعوجاج فيه."

و قال في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِبِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ "يقول تعالى ذكره: يا أبت لا تعبد الشيطان، إن الشيطان كان لله عاصياً. والعصيّ هو ذو العصيان."

إلى أن قال في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِبِ إِيَّيَّ أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يقول: يا أبت إني أعلم إنك إن متّ على عبادة الشيطان أنه يمسك عذاب من عذاب الله ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يقول: تكون له ولياً دون الله ويتبرأ الله منك، فتهلك، والخوف في هذا الموضع بمعنى العلم."^(١)

هذا ما ذكره الإمام الطبري في تفسير هذه الآيات مختصراً، فهنا أريد أن أذكر ما ذكره الشيخ الشنقيطي -رحمه الله- حيث أراد أن يجمع الآيات التي تقص قصة إبراهيم -عليه السلام.

قال الشنقيطي رحمه الله: "أمر الله -جل وعلا- نبيه محمداً -ﷺ- في هذه الآية الكريمة أن يذكر في الكتاب الذي هو القرآن العظيم المنزل إليه من الله إبراهيم -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- ويتلو على الناس في القرآن نبأه مع قومه ودعوته لهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر، وكرر هذا المعنى المذكور في هذه

الآيات، و في آيات آخر من كتابه -جل وعلا- فهذا الذي أمر به نبيه -ﷺ- هنا من ذكره في الكتاب إبراهيم: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ﴿الآية (١)﴾. أوضحه في سورة الشعراء في قوله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ (٢) فقوله هنا: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ﴾ هو معنى قوله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿وزاد في الشعراء أن هذا الذي قاله لأبيه من النهي عن عبادة الأوثان قاله أيضاً لسائر قومه، وكرر -تعالى- الإخبار عنه بهذا النهي لأبيه وقومه عن عبادة الأوثان في مواضع أخرى، كقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَأَيْتَ أَصْنَامًا مَا إِلَهَةٌ لِئِنِّي أَخَافُ أَرْتِكُمْ وَقَوْمَكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٧٤) ﴿٣﴾ وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عِزًّا نَحْنُ وَإِنَّا مُبْتَلُونَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضَرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ أَتَقَدَّمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴿٤﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَحِثْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴿٥﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٦٧﴾ ﴿٦﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ

١ - مرثم ٤١-٤٢

٢ - الشعراء: ٦٩ - ٧٠

٣ - الأنعام: ٧٤

٤ - الشعراء: ٧٠ - ٧٧

٥ - الأنبياء: ٥١ - ٥٦

٦ - الزخرف: ٢٦ - ٢٧

﴿٨٥﴾ أَيَفْكَاءِ إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴿١﴾ وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴿٢﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

إلى أن قال: "والصديق صيغة مبالغة من الصدق لشدة صدق إبراهيم في معاملته مع ربه وصدق لهجته، كما شهد الله له بصدق معاملته في قوله: ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣﴾ وقوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ﴿٤﴾ من صدقه في معاملته ربه رضاه بأن يذبح ولده، وشروعه بالفعل في ذلك طاعة لربه مع أن الولد فلذة من الكبد. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّابِرْهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا ﴿٥﴾ ومن صدقه في معاملته مع ربه صبره على الإلقاء في النار، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦﴾ وقال: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ ﴿٧﴾ ﴿٧﴾

ومن صدقه في معاملته ربه صبره على مفارقة الأهل والوطن فراراً بدينه، كما قال تعالى: ﴿فَقَامَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٨﴾ وقد هاجر من

١ - الصفات: ٨٣ - ٨٧

٢ - الممتحنة: ٤

٣ - النجم: ٣٧

٤ - البقرة: ١٢٤

٥ - الصفات: ١٠٣ - ١٠٥

٦ - الأنبياء: ٦٨

٧ - العنكبوت: ٢٤

٨ - العنكبوت: ٢٦

سواد العراق^(١) إلى دمشق، وقد بين -جل وعلا- في مواضع أخر أنه لم يكتف بنهيمهم عن عبادة الأوثان وبيان أنها لا تنفع ولا تضر، بل زاد على ذلك أنه كسرها وجعلها جذاذاً^(٢) وترك الكبير من الأصنام، ولما سألوه هل هو الذي كسرها قال لهم: إن الذي فعل ذلك كبير الأصنام، وأمرهم بسؤال الأصنام إن كانت تنطق، كما قال تعالى عنه: ﴿ وَتَاللَّهِ

لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَازًا إِلَّا كَثِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴿ وقال تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَى ءَالِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴿ فقولته: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ أي: مال إلى الأصنام يضربها ضرباً بيمينه حتى جعلها جذاذاً، أي: قطعاً متكسرة من قولهم: جذه: إذا قطعه وكسره. "

١ - سُمِّي سَوَادُ الْعِرَاقِ لِأَنَّهُ يُرَى شِدَّةَ حُضْرَتِهِ مِنْ بُعْدِ أَسْوَدٍ، وَلِذَلِكَ لِكَثْرَةِ شَجَرِهِ. انظر: معجم مقاييس اللغة

١٩٥/٢

٢ - جُذَازٌ - الجيم والذال أصلٌ واحدٌ، إمَّا كَسَّرٌ وَإِمَّا قَطَعٌ. يقال جَذَذْتُ الشَّيْءَ كَسَرْتُهُ وَجَذَذْتُهُ قَطَعْتُهُ. انظر:

معجم مقاييس اللغة ٤٠٩/١

٣ - الأنبياء: ٥٧ - ٦٧

٤ - الصافات: ٩١ - ٩٦

إلى أن قال في قوله: ﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ طاعته للشيطان في الكفر والمعاصي، فذلك الشرك شرك طاعة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَئِءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾^(١)

والآية تدل على أن الكفار المعذبين يوم القيامة أولياء الشيطان لقوله هنا: ﴿يَتَّابَتِ إِيَّيْ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ والآيات الدالة على أن الكفار أولياء الشيطان كثيرة.

إلى أن قال: "وكل من كان الشيطان يزين له الكفر والمعاصي، فيتبعه في ذلك في الدنيا، فلا ولي له في الآخرة إلا الشيطان، كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلُهُمْ فَهُمْ وِلِيُّهُمْ أَلْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾^(٢) ومن كان لا ولي له يوم القيامة إلا الشيطان تحقق أنه لا ولي له ينفعه يوم القيامة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يعني ما علمه الله من الوحي وما ألهمه وهو صغير، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾^(٣) ومحاجة إبراهيم لقومه كما ذكرنا بعض الآيات الدالة عليها أتني الله بها على إبراهيم، وبين أنها حجة الله آتاه نبيه إبراهيم، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾^(٤)

وقال تعالى ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾^(٥) وكون الآيات المذكورة واردة في محاجته لهم المذكورة في سورة الأنعام لا ينافي ما ذكرنا؛ لأن أصل المحاجة في

١ - يس: ٦٠ - ٦١

٢ - النحل: ٦٣

٣ - الأنبياء: ٥١

٤ - الأنعام: ٨٣

٥ - الأنعام: ٨٠

شيء واحد، وهو توحيد الله - جل وعلا- وإقامة الحجّة القاطعة على أنه لا معبود إلا هو وحده - جل وعلا- في سورة الأنعام وفي غيرها، والعلم عند الله تعالى." (١)

يمكننا إبراز اهتمام القرآن الكريم في تقرير توحيد العبادة من قصة إبراهيم -عليه السلام- فيما يلي:

١- إن إبراهيم -عليه السلام- يعتبر أبا الأنبياء؛ ولذا كان اهتمام القرآن أن يبرز لنا حقيقة دعوة إبراهيم -عليه السلام-

٢- كان العرب عامة، و قريش خاصة ينتمون إلى دين إبراهيم، و خاصة في أعمال الحج، فقص القرآن قصته مع أبيه و قومه و ما فيها من العبر و الحكم و تقرير وحدانية الله -تعالى- و دعوة إبراهيم إليها.

٣- تكررت قصة إبراهيم في بعض السور، فيظن الظان أنها قصة أُعيدت، لكن من يتدبرها يجد أن القصة تذكر جوانب ما ذكرت في السورة السابقة. فمثلا: يذكر الله

-تعالى- في سورة مريم: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْتَنِي لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ﴿٤٢﴾ و في سورة الأنعام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ

ءَازَرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أُنذِرْكُ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ففي سورة مريم مما يدل على بداية دعوة إبراهيم أباه، و تطفه معه غاية تطف، و في سورة الأنعام إنكاره عبادة الأصنام، و وصفه و قومه بالضلال، و أن هذا الضلال أخرج إبراهيم

أن يكون من قومه. و في سورة الصفات: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيْفَكَ ءَالِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ بما يدل على أنه

دخل معهم في الجدل، و أنهم بعد الجدل أرادوا تعذيبه، فأجابه الله. و في سورة الشعراء كان -عليه السلام- يستفسر عن آلهتهم و ما هي حقيقتها، قال تعالى: ﴿

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْزِلُهَا عَنَكِنِ ﴿٧١﴾﴾ بما

١ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣/٤٢٣-٤٢٧

٢ - الصفات: ٨٥ - ٨٧

٣ - الشعراء: ٧٠ - ٧١

يدل على أنهم لا حجة لهم في عبادة الأصنام، و أنهم ورثوها من آبائهم. و في الأنبياء: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾^(١) بما يدل على إنكاره بشدة عبادتهم الأصنام.

٤- و في قصته -عليه السلام- أنه كان يقرر عبادة الله وحده بشتى الوسائل. فمثلا: سؤاله عن حقيقة أصنامهم، و هل تنفعهم و تضره، و إنكاره عبادة الأصنام بجهله هذه الأصنام ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾^(٢) و وصف أبيه و قومه بالضلال، ثم كسرهما إلا واحداً، ثم تركهم وخروجه من بلده. و من هذه القصص تتبين كمال دعوة إبراهيم -عليه السلام- وأنه ما ترك لقومه حجة ليعبدوا الأصنام. ٥- و في هذه القصة كمال توكل إبراهيم -عليه السلام- على ربه إذ هدده قومه بإحراقه بالنار و ألقوه فيها.

٦- و فيها كمال عبوديته لله تعالى، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا و لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾^(٣) مما يوجب التأسي به و متابعته.

١ - الأنبياء: ٥١ - ٥٦

٢ - الأنبياء: ٥٢

٣ - النحل: ١٢٠

٢ - قصة موسى عليه السلام

من أكثر القصص ذكراً في القرآن الكريم قصة موسى -عليه السلام- و قومه، فإن بني إسرائيل كانوا أفضل الأمم في زمن موسى -عليه السلام- فقص الله -تعالى- قصتهم لكثرة فوائدها. ومن المعلوم أن قصة موسى وما جرى له مع فرعون وغيره من أعظم وأشرف القصص، ثناها الله -تعالى- أكثر من غيرها، وبسطها وطولها أكثر من غيرها.

و هنا أذكر بعض الآيات في قصة موسى -عليه السلام- لتقرير توحيد العبادة مع قومه ومع

فرعون. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يُعْرَفُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا

أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ ^(١)

يقص تعالى مناظرة موسى لفرعون، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه،

و هي دليل على صدقه فيما جاء به ليطلق بني إسرائيل من أسر فرعون وقهره، فقال فرعون:

لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها

لنراها، إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

فأراهم حجته، و ألقى عصاه، فإذا هي ثعبان مبین، ونزع يده، فإذا هي بيضاء للناظرين.

و حقيقة هذه الحجة ما أدركها إلا من كان خبيراً بها، لكنه ﴿ وَأَسْتَكَبرَ هُوَ وَحُوْدُوْهُ فِي

الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ^(٢) و قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ

مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ

﴿٣٦﴾ ^(٣) فموسى -عليه السلام- جاء بالحجج إلى فرعون و قومه ليقرؤا بعبودية الله

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ^ط ﴿١﴾ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ

فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ^(٢) وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه

١ - الأعراف: ١٠٤ - ١٠٥

٢ - القصص: ٣٩

٣ - القصص: ٣٦

فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون. منها: ضربه الحجر بالعصا، وخروج الأنهار منه. ومنها تظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك مما أوتي بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر هاهنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، وكانت حجة عليهم، فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً.

و بعد كل هذه الآيات ما أقر فرعون بعبودية الله -تعالى- ولهذا قال موسى له: ﴿ قَالَ لَقَدْ

عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعُونَ مُشْبُورًا ۝١٠٢﴾

﴿ (١٠٢) أي: حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به فأظنك هالِكاً.

فأهلك الله -تعالى- فرعون و جنوده؛ لأنهم استكبروا و أرادوا قتل موسى و من آمن معه، فأبجأهم الله من فرعون، قال تعالى: ﴿ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ۝١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ

وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا

مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ (٤)

و أما قصص قوم موسى -عليه السلام- فكثيرة، فقد أبجأهم الله من فرعون و أراهم آياته، و رغم ذلك ما أخلصوا لله العبودية. فهذه القصص تقرر ضرورة إخلاص في العبادة

والاستسلام لله تعالى. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مِمَّا لَمْ يُوْت أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ۝٢٠﴾ يَنْقُورُ أَذْخُلُوا

الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَىٰ آدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ

إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ

١ - وهي: العصا، واليد، والسنين، والبحر، والباقية المذكورة في قوله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ

وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَءَ ابْتِ مَفْضَلَتِ ﴿ الأعراف: ١٣٣

٢ - الإسراء: ١٠١

٣ - الإسراء: ١٠٢

٤ - الأعراف: ١٣٦ - ١٣٧

﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴿^(١)

فلما نجح الله موسى -عليه السلام- و قومه من فرعون، و كيده بشق البحر و أغرق فرعون و جنوده و هم ينظرون، أمرهم بدخول الأرض المقدسة.

والدخول إلى بيت المقدس الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب، فوجدوا فيها قوماً من العمالقة الجبارين، قد استحذوا عليها وتملكوها، فأمرهم رسول الله موسى -عليه السلام- بالدخول إليها، وبقتال أعدائهم، وبشرهم بالنصرة والظفر عليهم، فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره، فعوقبوا بالذهاب في التيه لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد مدة أربعين سنة عقوبة لهم على تفریطهم في أمر الله -تعالى- فقال -تعالى- مخبراً عن موسى أنه قال: ﴿يَقَوْمٌ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أي: المطهرة و هي بيت المقدس.

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل: أنه وراثة من آمن منكم. ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾ أي: ولا تقعدوا عن الجهاد ﴿فَنَنْقَلِبُوا﴾

﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴿أي: اعتذروا بأن في هذه البلدة -التي أمرتنا بدخولها و قتال أهلها- قوماً جبارين، أي: ذوي خلق هائل، وقوى شديدة، وإنا لا نقدر على مقاومتهم، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها دخلناها، وإلا فلا طاقة لنا بهم.

وقوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي: فلما قعد بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى -عليه السلام- حرضهم رجلان لله عليهما نعمة

عظيمة، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه. ويقال: إنهما يوشع بن نون^(١) و كالب بن يوفنا،^(٢) قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطية^(٣)، والسدي، والربيع بن أنس، وغيرهم - رحمهم الله - فقالوا ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: متى توكلتم على الله واتبعتم أمره، ووافقتم رسوله، نصركم الله على أعدائكم وأيديكم وظفركم بهم، ودخلتم البلدة التي كتبها الله لكم. فلم ينفع ذلك فيهم شيئاً. ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^(٢٤) وهذا نكول منهم عن الجهاد، ومخالفة لرسولهم وتخلف عن مقاتلة الأعداء.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢٥) يعني: لما قعد بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى -عليه السلام- وقال داعياً عليهم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أي: ليس أحد يطيعني منهم، فيمثل أمر الله، ويجيب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخي هارون، ﴿فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني اقض بيني وبينهم.

١ - هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام وأهل الكتاب يقولون يوشع ابن عم هود. وقد ذكره الله تعالى في القرآن غير مصرح باسمه في قصة الخضر وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب. انظر: البداية و النهاية ١/٣٧٢

٢ - هو كالب بن يوفنا بن حصرون بن بارص بن يهودا بن يعقوب وكان قام بأمر بني إسرائيل بعد يوشع بن نون. و هو أحد أصحاب موسى عليه السلام، وهو زوج اخته مريم. انظر: تاريخ ابن خلدون ٢/٨٩

٣ - هو عطية بن قيس أبو يحيى الكلبي المذبوح الإمام، مقرئ دمشق مع ابن عامر، الدمشقي، من التابعين عرض على أم الدرداء، غزا في زمن معاوية، وحدث عن الصحابة، قيل عاش ١٠٤ سنة توفي سنة ١٢١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٦٦) قال ابن كثير في هذه الآية: "لما دعا عليهم موسى -عليه السلام- حين نكلوا عن الجهاد حكم الله عليهم بتحريم دخولها مدة أربعين سنة، فوقعوا في التيه يسيرون دائماً لا يهتدون للخروج منه، وفيه كانت أمور عجيبة، وخوارق كثيرة، من تظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تحمل معهم على دابة، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عيناً تجري لكل شعب عين، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى. وهناك أنزلت التوراة، وشرعت لهم الأحكام.

عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية. قال: "فتاهوا في الأرض أربعين سنة، يصبحون كل يوم يسيرون ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى، ثم كانت وفاة هارون -عليه السلام- ثم بعده بمدة ثلاثة سنين مات موسى الكليم -عليه السلام- وأقام الله فيهم يوشع بن نون -عليه السلام- نبياً خليفة عن موسى بن عمران، ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة." (١)

من هذه القصة نستفيد أموراً منها:

- ما أنجا الله بني إسرائيل من فرعون و جنوده و رأوا هلاكهم في البحر ما عظموا الله حق التعظيم؛ لأنهم حين أمروا بقتال العمالق، و وعدوا بالنصر ما امتثلوا الأمر، بل خذلوا موسى -عليه السلام- إذ قالوا: ﴿ فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (٢) و هذا سوء الأدب مع ربهم و رسولهم، فدعا عليهم إذ قال: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ

١ - تفسير ابن كثير ٧٩/٣

٢ - المائدة: ٢٤

﴿٢٥﴾ (١) فاستجاب الله دعاءه ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢)

إن موسى كان من أشجع الناس، فقد قال لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ (٣) أي: هالكاً. و كان قائداً عظيماً، لكن حين كان مع قوم نشأوا على الذل و الخذلان، ما استفادوا من قدرته و براعته شيئاً، بل خذلوه و تخلفوا عنه فقالوا: ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ و لا نذهب بعيداً، فإن أصحاب محمد ﷺ - قد فهموا المراد من هذه القصة حين دعوا إلى قتال قريش قبل معركة بدر، فقال الأنصار: "لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ والذي بعثك بالحق لو ضريت أكبادها إلى برك الغماد (٤) لا تبعناك." (٥)

- إن العبادة تحتاج إلى الرياضة و الثبات، و هي شكر على نعم الله التي أنعم على الإنسان، فإن بني إسرائيل أوتوا نعماً كثيرة ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مِمَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ و رأوا معجزات كثيرة، لكن ما شكروا رهم بالعبودية التامة، و ما أطاعوا رسولهم، بل عاملوه معاملة مستهزئ مستحقر ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ فدعا موسى -عليه السلام- عليهم ﴿فَأَفَرَقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فتأهوا في الصحراء أربعين سنة.

١ - المائة: ٢٥

٢ - المائة: ٢٦

٣ - الإسراء: ١٠٢

٤ - برك الغماد بكسر الغين المعجمة وهو موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر. وقيل بلد باليمن دفن عنده عبد الله بن جدعان التيمي القرشي. انظر: معجم البلدان ١/٣٩٩ لياقوت الحموي

٥ - أخرجه الإمام أحمد في مسنده في مسند أنس بن مالك. رقم (١٢٩٧٧) ٣/١٨٨ قال الألباني: قلت: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٣/١٤٣

-إن موسى -عليه السلام- قضى في مصر مدة طويلة يدعو قومه إلى عبادة الله وحده، واليهود انتظروا هذا النبي الموعود الذي سيخرجهم من الذل، و يمكنهم في الأرض، فلما جاءهم و أخرجهم من ذل و قهر فرعون، خالفوا أمره و خذلوه، فدعا عليهم.

-إن بني إسرائيل كانوا من أفضل الأمم في زمانهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ ^(١) فظنوا أن لهم فضلاً، و ما أخلصوا لله العبادة، فأدبهم الله -تعالى- فأصبحوا يتيهون في صحراء الطور حتى ماتوا جميعاً إلا قليلاً، فلما نشأ جيل جديد في الصحراء وتقوى على القتال، قاتلوا العمالقة و أمروا بدخول بيت المقدس سجداً و أن يستغفروا ربهم، كما قال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا أَبْطَابَ سُجْدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢﴾﴾ ^(٢) لكنهم خالفوا الأمر، و قالوا حنطة و دخلوا القدس مستكبرين.

-إن بني إسرائيل كانوا يعتمدون في دينهم على الوعود، و هكذا كانوا قبل بعثة محمد -ﷺ- ظنوا أن الله -تعالى- سيبعث لهم رسولاً، فيظهرون على أهل المدينة و العرب، فلما جاءهم الرسول -ﷺ- بالكتاب كفروا به، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ ^(٣)

-إن اليهود من أجبين الناس كما جاء في هذه القصة و كما قال تعالى: ﴿صُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ أَيَّنَ مَا تُفْقُوا إِلَّا يَجْبِلِي مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبِعَضِبٍ مِنَ اللَّهِ وَصُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ﴿٤﴾﴾ ^(٤) فسبب جنهم ضعف إيمانهم و حبهم الحياة، كما قال

١ - الجاثية: ١٦

٢ - البقرة: ٥٨

٣ - البقرة: ٨٩

٤ - آل عمران: ١١٢

تعالى: ﴿وَلَنَجْذَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحٍ مِنْهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) (١)

ثانياً: أسلوب ضرب الأمثال

والأمثال: جمع مثل، والمثل والمثيل والمثيل: كالشبه والشبه والشبيه لفظاً ومعنى. (٢) وهو عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة ليبيّن أحدهما الآخر ويصوّره.

ويطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشأن. وبهذا المعنى فُسر لفظ المثل في كثير من آيات. كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ (٣) أي: قصتها وصفتها التي يُتَعَجَّب منها. (٤)

والمثَلُ يقال على وجهين: أحدهما: بمعنى المثل. أي الشبه. وقد يعبر بهما عن وصف الشيء. نحو قوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ (٥) والثاني: عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان، وهو أعم الألفاظ الموضوعية للمشابهة.

إن ضرب الأمثال من فصيح الكلام، فلما كان كذلك استعمله القرآن لتأكيد معنى أو بيان غاية. وقد اشتمل القرآن على ثلاثة و أربعين مثلاً (٦) وهذا يدل على اهتمام القرآن بها،

فقد قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٧)

١ - البقرة: ٩٦

٢ - انظر: تاج العروس من جواهر القاموس ٣٠/٣٨٠

٣ - محمد: ١٥

٤ - انظر: مباحث في علوم القرآن ص ٢٩١

٥ - الرعد: ٣٥

٦ - ذكره ابن القيم في القصيدة النونية ص ١٢

٧ - العنكبوت: ٤٣

أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه. قال ابن القيم: "فصل ضرب الأمثال يوضح المعنى. فهذه وأمثالها من الأمثال التي ضربها رسول الله - ﷺ - لتقريب المواد وتفهم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثل الذي مثل به، فإنه قد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره، فإن النفس تأنس بالنظائر والأشياء الأنس التام، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير. ففي الأمثال من تأنس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد ولا ينكره، وكلما ظهرت له الأمثال ازداد المعنى ظهوراً ووضوحاً، فالأمثال شواهد المعنى المراد ومركبة له، فهي كزرع أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه، وهي خاصة العقل ولبه وثمرته." (١)

قال عمرو بن مرة (٢): ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزني؛ لأني سمعت الله

تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٣)

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ

جَدَلًا﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ

النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٥)

فحضر الأمثال لا بد لها من فهم، وإلا كيف يعرف رجل مراد الله - تعالى - من هذه

الأمثال. ولهذا نفى الله - تعالى - المشابهة من كل وجه، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ

١ - أعلام الموقعين ٢٣٩/١

٢ - عمرو بن مرة بن عبد الله المرادي الإمام، القدوة، الحافظ، أبو عبد الله الجملي، الكوفي، أحد الأئمة الأعلام. أحاديثه في الكتب الستة، مات سنة ١١٨ هـ: انظر: سير أعلام النبلاء ١٩٦/٥

٣ - تفسير ابن كثير ٢٨٠/٦

٤ - الكهف: ٥٤

٥ - الإسراء: ٨٩

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾^(١) و قد منع الله - تعالى - عن ضرب الأمثال له، فقال: ﴿فَلَا

تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) ﴿٧٤﴾^(٣)

ورد في القرآن الكريم أنواع من الأمثال، فتارة يضرب الله مثلاً لكلمة التوحيد و الشرك، و تارة مثلاً للحق و الباطل، و تارة مثلاً لأعمال المشركين، و تارة مثلاً لقلب المؤمن و قلب الكافر، و تارة مثلاً لعبادة المؤمن و الكافر. و هنا أذكر بعض الآيات المضروبة مثلها للعبادة. قال

تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخْتَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا

وَإِنَّ أَوْلِيَاءَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٤) ﴿٤١﴾

قال الطبري - رحمه الله - : "قول تعالى ذكره: مثل الذين اتخذوا الآلهة والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرها ونفعها عند حاجتهم إليها في ضعف احتياهم، وقبح رواياتهم، وسوء

اختيارهم لأنفسهم ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ﴾ في ضعفها، وقلة احتياها لنفسها ﴿اتَّخَذَتْ

بَيْتًا﴾ لنفسها كيما يُكِنَّهَا، فلم يغن عنها شيئاً عند حاجتها إليه، فكذلك هؤلاء المشركون

لم يغن عنهم حين نزل بهم أمر الله، وحلّ بهم سخطه أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله

شيئاً، ولم يدفعوا عنهم ما أحلّ الله بهم من سخطه بعبادتهم إياهم." ^(٥)

قال ابن كثير: "هذا مثل ضربه الله - تعالى - للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون

نصرهم ووزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه

ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي

عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه

لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام

لها لقوتها وثباتها." ^(٦)

١ - الشورى: ١١

٢ - النحل: ٧٤

٣ - انظر: المفردات في غريب القرآن ص ٧٥٩

٤ - العنكبوت: ٤١

٥ - تفسير الطبري ٣٨/٢٠

٦ - تفسير ابن كثير ٢٧٩/٦

قال ابن عاشور: "لما بينت لهم الأشباه والأمثال من الأمم التي اتخذت الأصنام من دون الله، فما أغنت عنهم أصنامهم لما جاءهم عذاب الله، أعقب ذلك بضرب المثل لحال جميع أولئك، وحال من ماثلهم من مشركي قريش في اتخاذهم ما يحسبونه دافعاً عنهم، وهو أضعف من أن يدفع عن نفسه بحال العنكبوت تتخذ لنفسها بيتاً تحسب أنها تعتصم به من المعتدي عليها فإذا هو لا يصمد ولا يثبت لأضعف تحريك، فيسقط ويتمزق."

إلى أن قال: "وجملة: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ معترضة مبينة وجه الشبه، وهذه الجملة تجري مجرى المثل، فيضرب لقللة جدوى شيء، فاقتضى ذلك أن الأديان التي يعبد أهلها غير الله هي أحقر الديانات وأبعدها عن الخير والرشد، وإن كانت متفاوتة فيما يعرض لتلك العبادات من الضلالات كما تتفاوت بيوت العنكبوت في غلظتها بحسب تفاوت الدويبات التي تنسجها في القوة والضعف."^(١)

قال ابن القيم: "فذكر - سبحانه - إهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياء أضعف منهم، فهم في ضعفهم، وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتاً وهو أوهن البيوت وأضعفها، وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حيث اتخذوا من دون الله أولياء، فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفاً، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ

اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۗ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۗ﴾^(٢)

وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۗ﴾^(٣) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ

جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ ۗ﴾^(٤) وقال بعد أن ذكر هلاك الأمم المشركين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ

ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ۗ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۗ وَمَا

زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۗ﴾^(٥) فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون

الله ولياً يتعزز به ويتكثر به، ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده، وفي القرآن أكثر

١ - التحرير والتنوير ٢٠/١٧٢-١٧٣

٢ - مرتب: ٨١-٨٢

٣ - يس: ٧٤ - ٧٥

٤ - هود: ١٠١

من ذلك، وهذا من أحسن الأمثال، وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه، وحصوله على ضد مقصوده. فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت، فكيف نفى عنهم علم ذلك بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فالجواب أنه - سبحانه - لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت، وإنما نفى علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتاً، فلو علموا ذلك لما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزاً وقوة، فكان الأمر بخلاف ما ظنوا.^(١)

فيا للعجب لهذا المثل الذي يصف حال من يعبد غير الله و يرجو منه، فحين ننظر إلى هذا المثل نجد أن الله - تعالى - ذكر حيواناً غاية في الضعف. و أما بيته، فهو أهون ما يكون،

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فبيت العنكبوت لا يدفع عنه برداً و لا يحميه من حر، و غالباً يكون بين الأشجار مكشوف، و أي ضرر يأتيه يهدمه. أما الصيد به، فكما يصطاد به العنكبوت حشرات، كذلك يكون مصاداً عليه.^(٢)

أما المشبه في هذا المثل، و هم الكفار و المشركون، و كل من يتخذ من دون الله ولياً، فضعف عقولهم واضح، إذ يعبدون ما يملكون، كما قال تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾^(٣)

فهم قد يكونون أقدر من أوليائهم الذين اتخذوهم، فهم يعتمدون عليهم، و هم لا يدفعون عنهم ضرراً و لا يجلبون لهم نفعاً، و توهموا ذلك و غرقوا في ضلالهم. و علاقتهم بأوليائهم حين يشتد الأمر ضعيفة واهية، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكَّבוْا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾^(٤) فهم صيد سهل لمن كان أقوى منهم، و إن كانوا هم أقوى فيصطادون الناس الذين عقولهم ضعيفة، فمثلهم كمثل العنكبوت.

١ - الأمثال في القرآن لابن القيم ص ١٤

٢ - انظر: كتيب بيت العنكبوت ١٥-٢٠ لخليل بن إبراهيم أمين

٣ - الأعراف: ١٣٨

٤ - العنكبوت: ٦٥

وقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٩) (١)

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: مثل الله مثلاً للكافر بالله الذي يعبد آلهة شتى، ويطيع جماعة من الشياطين، والمؤمن الذي لا يعبد إلا الله الواحد، يقول تعالى ذكره: ضرب الله مثلاً لهذا الكافر رجلاً فيه شركاء. يقول: هو بين جماعة مالكين متشاكسين، يعني مختلفين متنازعين، سيئة أخلاقهم، من قولهم: رجل شكس: إذا كان سيئ الخلق، وكل واحد منهم يستخدمه بقدر نصيبه وملكه فيه، ورجلاً مسلماً لرجل، يقول: ورجلاً خلوفاً لرجل يعني المؤمن الموحد الذي أخلص عبادته لله، لا يعبد غيره ولا يدين لشيء سواه بالربوبية.

وقوله: ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ يقول تعالى ذكره: هل يستوي مثل هذا الذي يخدم جماعة شركاء سيئة أخلاقهم مختلفة فيه لخدمته مع منازعته شركاءه فيه، والذي يخدم واحداً لا ينازعه فيه منازع إذا أطاعه عرف له موضع طاعته وأكرمه، وإذا أخطأ صفح له عن خطئه، يقول: فأبي هذين أحسن حالاً وأروح جسماً وأقلّ تعباً ونصباً.

وقوله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ يقول: الشكر الكامل، والحمد التام لله وحده دون كلّ معبود سواه. وقوله: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يقول جل ثناؤه: وما يستوي هذا المشترك فيه، والذي هو منفرد ملكه لواحد، بل أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعلمون أنهما لا يستويان، فهم بجهلهم بذلك يعبدون آلهة شتى من دون الله. وقيل: ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ ولم يقل: مثلين لأنهما كلاهما ضرباً مثلاً واحداً، فجرى المثل بالتوحيد. (٢)

قال البقاعي: "ولما أقام - سبحانه - الدليل المنير على التفاوت العظيم بين من هو قانت آناء الليل، ساجداً وقائماً، يدعو الله مخلصاً له الدين، وبين من يدعو الله أنداداً، وختم بضرب الأمثال، وكان الأمثال أبين فيما يراد من الأحوال، قال منبهاً على عظمتها بلفت القول عن مظهر العظمة إلى الاسم الأعظم الجامع لجميع صفات الكمال: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ ﴾ أي: الملك

١ - الزمر: ٢٩

٢ - تفسير الطبري ٢١/٢٨٣-٢٨٦

الأعظم المتفرد بصفات الكمال ﴿مَثَلًا﴾ لهذين الرجلين مع أنه لا يشك ذو عقل أن المشرك لا يداني المخلص فضلاً عن أن يقول: إن المشرك أعظم كما يقوله المشركون. ولما كان الذكر أقوى من الأنثى، وأعرف بمواقع النفع والضرر، وكان كونه بالغاً أعظم لقوته وأشد لشكيمته، فيكون أنفى للعار عن نفسه وأدفع للظلم عن جانبه، وأذب عن حماه، قال مبيناً للمثل مشيراً إلى تبكيت الكفار ورضاهم لأنفسهم بما لا يرضاه لنفسه أدنى الأرقاء ﴿رَجُلًا فِيهِ﴾ أي: خاصة.

ولما كانت معبوداتهم - لكونها من جملة المخلوقات - كثيرة الأشباه والنظائر، عبر عنها بجمع الكثرة فقال: ﴿شُرَكَاءُ﴾ في الظاهر من الأصنام وفي الباطن من الحظوظ والشهوات، ووصف الشركاء بقوله: ﴿مُتَشَكِّسُونَ﴾ أي: مختلفون عسرون يتجاذبون مع سوء الأخلاق وضيقها وقباحة الشركة، فليس أحد منهم يرضى بالإنصاف، فهو لا يقدر أن يرضيهم أصلاً ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ أي: من نزاع ﴿لِرَجُلٍ﴾ فليس فيه لغيره شركة ولا علاقة أصلاً، فهو أجدر بأن يقدر على رضاه مع راحته من تجاذب الشركاء.

ولما انكشف الحال فيها جداً، قال: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ أي: الرجلان يكون أحدهما مساوياً للآخر بوجه من الوجوه، ولو بغاية الجهد والعناية .

ولما كان الاستواء مبهماً، قال: ﴿مَثَلًا﴾ أي: من جهة المثل، أي: هل يستوي مثلهما، أي: يجمعهما مثل واحد حتى أن يكونا هما متساويين، فهو تمييز محمول في الأصل عن الفاعل، والجواب في هذا الاستفهام الإنكاري قطعاً: لا سواء، بل مثل الرجل السالم في غاية الحسن، فكذا ممثلوه وهو القانت المخلص، ومثل الرجل الذي وقع فيه التشاكس في غاية القبح فكذا مثموله وهو الداعي للأنداد .

ولما علم بهذا المثل المضروب للرجلين سفول المشترك وهو الداعي للأنداد، وعلو السالم وهو القانت، ظهر بذلك بلا ريب حقارة المتشاركين، وجلالة المتفرد وهو الله، فأنتج قطعاً قوله: ﴿الْحَمْدُ﴾ أي: الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿لِلَّهِ﴾ الذي لا مكافئ له، يعلم ذلك كل أحد لما له من الظهور لما عليه من الدلائل، فلا يصح أن يكون له شريك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾

أي: الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم يعملون لما لا يليق بهذا العلم، فيشركون به إما جلياً وإما خفياً، ويجوز أن يقال: له الكمال كله، فليس الملتفتون إلى غيره أدنى التفات علماء، بل لا علم لهم أصلاً، وهو المشركون شركاً جلياً، وأما أصحاب الشرك الخفي فهم، وإن كان لهم علم - فليس بكامل. ^(١)

قال ابن القيم: "هذا مثل ضربه الله - سبحانه - للمشرك والموحد، فالمشرك بمنزلة عبد تملكه جماعة مشتركين في خدمته لا يمكنه رضاهم أجمعين، والموحد لما كان يعبد الله وحده، فمثله كمثل عبد رجل واحد قد سلم له وعلم مقاصده وعرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحن الخلقاء فيه، بل هو سالم لملكه من غير منازع فيه مع رافة مالكه به ورحمته له وشفقته عليه وإحسانه إليه وتوليته بمصالحه، فهل يستوي هذان العبدان، وهذا منه أبلغ الأمثال، فإن الخالص لملك واحد مستحق من معونته وإحسانه والتفاته إليه وقيامه بمصالحه

ما لا يستحقه صاحب الشركاء المتشاكسين ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ^(٢) فهذا المثل يبرز لنا شيئين مهمين، هما: أن العبد الذي يكون مملوكاً لعدة أشخاص - غالباً - يحدث نزاع في ملكه و يسبب مشاكل. و الثاني: أنه لا يمكن أن يرضي جميع شركائه، فيكون يعيشه شاقاً. أما العبد الذي يكون في ملك واحد، فلا نزاع فيه، و سهل أن يرضي ربه، فعيشه أسهل من سابق، فكذلك من يعبد الله - تعالى - وحده، فإن أطاعه يكون عيشه طيباً سهلاً، مرضياً لربه و راضٍ عن نفسه، و هذا فضل الله وحده. وأما من يعبد غير الله - تعالى - فهو في صراع بين نفسه و آلهته، و لن يرضي آلهته؛ لأن ليس لها حقيقة الأمر، فيعيش في ظلام ليس بخارج منها، و الحمد لله رب العالمين.

و قَالَ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ^(٧٥) وَضَرَبَ

١ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٦/٤٤٣-٤٤٤

٢ - الأمثال في القرآن ص ٥٤-٥٥

اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۗ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾^(١)

قال الطبري: "وهذا مثل ضربه الله - تعالى - لنفسه والآلهة التي تُعبد من دونه، فقال - تعالى ذكره: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ يعني بذلك الصنم أنه لا يسمع شيئاً، ولا ينطق؛ لأنه إما خشب منحوت، وإما نحاس مصنوع لا يقدر على نفع لمن خدمه، ولا دفع ضرر عنه وهو كلُّ على مولاة، يقول: وهو عيال على ابن عمه وحلفائه وأهل ولايته، فكذلك الصنم كلُّ على من يعبده يحتاج أن يحمّله، ويضعه ويخدمه، كالأبكم من الناس الذي لا يقدر على شيء، فهو كلُّ على أوليائه من بني أعمامه وغيرهم ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ يقول: حيثما يوجهه لا يأتي بخير؛ لأنه لا يفهم ما يُقال له، ولا يقدر أن يعبر عن نفسه ما يريد، فهو لا يفهم، ولا يُفهم عنه، فكذلك الصنم لا يعقل ما يقال له، فيأتمر لأمر من أمره، ولا ينطق، فيأمر وينهي، يقول الله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ يعني: هل يستوي هذا الأبكم الكلُّ على مولاة الذي لا يأتي بخير حيث توجه، ومن هو ناطق متكلم يأمر بالحق ويدعو إليه، وهو الله الواحد القهار الذي يدعو عباده إلى توحيدهِ وطاعته، يقول: لا يستوي هو - تعالى ذكره - والصنم الذي صفتَهُ ما وصف. وقوله: ﴿ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ يقول: وهو مع أمره بالعدل على طريق من الحق في دعائه إلى العدل، وأمره به مستقيم، لا يَعُوجَّ عن الحق ولا يزول عنه."^(٢)

قال أبو حيان: "مناسبة ضرب هذا المثل أنه لما بين - تعالى - ضلالهم في إشراكهم بالله غيره، وهو لا يجلب نفعاً ولا ضرراً لنفسه ولا لعباده، ضرب لهم مثلاً قصة عبد في ملك غيره، عاجز عن التصرف، وحر غني متصرف فيما آتاه الله. فإذا كان هذان لا يستويان عندكم مع كونهما من جنس واحد، ومشتركين في الإنسانية، فكيف تشركون بالله وتسوون به من

١ - النحل: ٧٥ - ٧٦

٢ - تفسير الطبري ١٧/٢٦١-٢٦٣

مخلوق له مقهور بقدرته من آدمي وغيره مع تباين الأوصاف، وأن موجد الوجود لا يمكن أن يشبهه شيء من خلقه، ولا يمكن لعاقل أن يشبهه به غيره." ^(١)

و قال: "ولما كان لفظ عبد قد يطلق على الحر، خصص بمملوك. ولما كان المملوك قد يكون له تصرف وقدره كالمأذون له والمكاتب، خصص بقوله: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ والمعنى: على شيء من التصرف في المال؛ لأنه يقدر على أشياء من حركاته: كالقيام، والقعود، والأكل، والشرب، والنوم، وغير ذلك. والظاهر كون ومن موصولة أي: والذي رزقناه، ودلت الصلة وما عطف على أنه يراد به الحر."

إلى أن قال: "وضرب الله مثلاً رجلين، أي: قصة رجلين. قال الزمخشري^(١): وهذا مثل ثان ضربه لنفسه ولما يفيض على عباده، ويشملهم من آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدينية، والأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع. والأبكم الذي ولد أحرص لا يفهم ولا يفهم. ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ أي: ثقل، وعيال على من يلي أمره ويعوله. ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ﴾ حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم لم ينفع ولم يأت بنجاح. ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ﴾ ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات مع رشد وديانة، فهو يأمر الناس بالعدل، وهو في نفسه على صراط مستقيم على سيرة صالحة، ودين قويم انتهى.^(٢)

وقال ابن عباس: أحدهما أبكم مثل للكافر، والذي يأمر بالعدل المؤمن. وقال قتادة: هذا مثل لله - تعالى - والأصنام، فهي الأبكم الذي لا نطق له ولا يقدر على شيء، وهو عيال على من والاه من قريب أو صديق، كما الأصنام تحتاج أن تنقل وتخدم ويتعذب بها، ثم لا يأتي من جهتها خير البتة. وعن قتادة أيضاً وغيره: هذا مثل ضربه الله لنفسه وللوثن، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو الوثن، والذي يأمر بالعدل هو الله - تعالى - وهذا ليس كذلك؛ لأنه قال: مثلاً رجلين، فلا بد أن يكون عدل الأبكم الموصوف بتلك

١ - هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم: كبير المعتزلة، والمفسر واللغوي والأديب. ولد في زمخشتر - من قرى خوارزم - ٤٦٧ هـ وسافر إلى مكة فجاور بها زمناً فلقب بجار الله. توفي ٥٣٨ هـ من كتبه: الكشاف، و أساس البلاغة، و المفصل، و غيرها. انظر: سير أعلام النبلاء ١٥١/٢٠

٢ - انظر: الكشاف ٦٢٣/٢

الصفات، ومقابلته رجل موصوف بما يقابل تلك الصفات من النطق والقدرة والكفاية، ولكنه حذف المقابل لدلالة مقابله عليه، ثم قيل: هل يستوي ذلك الأبكم الموصوف بتلك الصفات، وهذا الناطق. ففي ذكر استوائهما أيضاً دليل على حذف المقابل. ولما كان البكم هو المبدأ به من الأوصاف، وعنه تكون الأوصاف التي بعده قابلة في الاستواء بالنطق، وثمرته من الأمر بالعدل غيره وهو في نفسه على طريقة مستقيمة، فحيثما توجه صدر منه الخبر ونفع، وليس بكال على أحد. وقد تقرر في بداهة العقول أنّ الأبكم العاجز لا يكون مساوياً في العقل والشرف للناطق القادر، الكامل مع استوائهما في البشرية، فلأن يحكم بأنّ الجماد لا يكون مساوياً لرب العالمين في العبودية أحرى وأولى." (١)

ثالثاً: أسلوب الاستفهام

و الاستفهام هو: طلب معرفة شيء مجهول - حقاً - للمتكلم. أو هو: طلب الإفهام، والإفهام: تحصيل الفهم. والاستفهام والاستعلام والاستخبار بمعنى واحد. (٢)

و له أنواع: الاستفهام الحقيقي، الاستفهام الإنكاري، الاستفهام التوبيخي، الاستفهام التقريري. (٣)

و أسلوب الاستفهام ورد في القرآن الكريم كثيراً، و هذا الأسلوب يختلف بحسب الخطاب الموجه إلى السامع، فتارة يأتي الاستفهام و يراد به إنكار شيء، و تارة يأتي الاستفهام و يراد به العتاب الشديد الموجه على فعل شيء غير حسن، و تارة يأتي و يراد به حمل السامع على طلب شيء بوقوعه والموافقة على حصول مدلوله، لكن أصله - و هو أكثر في القرآن الكريم - يأتي على طلب بيان شيء مراد به، و يسمى الاستفهام الحقيقي. فلما كان أسلوب الاستفهام من فصيح الكلام ذكرته هنا.

١ - تفسير البحر المحيط ٥٧٠/٦-٥٧١

٢ - هذا تعريف الاستفهام الحقيقي، انظر: أصول النحو العربي ١٢٩/٢ و النحو الوافي ٣٥٧/٤

٣ - سيأتي التفصيل عن هذه أنواع الاستفهام

١ - الاستفهام الإنكاري

و الإنكاري من أنكر الشيء إذا جهله، قال تعالى: ﴿ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ

مُنْكَرُونَ ﴾^(١) و قال تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾^{(٢)(٣)}

و الاستفهام الإنكاري ويسمى الإبطالي هو: ما كان مضمونه غير واقع، ولا يمكن أن يحصل، ومدعيه كاذب، وهو بمعنى النفي، فأداته بمنزلة أداة للنفي، والكلام الذي دخلت

عليه نفي، كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾^{(٤)(٥)}

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَبَلًا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ قُلُوبَ إِبْنِي أُمِّرْتُ أَنْ

أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَسَلَهُ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٦)

قال ابن عاشور: " استئناف آخر ناشئ عن جملة: ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ

لِلَّهِ ﴾^(٧) وأعيد الأمر بالقول اهتماماً بهذا المقول؛ لأنه غرض آخر غير الذي أمر فيه بالقول

بالقول قبله، فإنه لما تقرر بالقول، السابق عبودية ما في السماوات والأرض لله، وأن مصير

كل ذلك إليه انتقل إلى تقرير وجوب إفراده بالعبادة؛ لأن ذلك نتيجة لازمه لكونه مالكا

لجميع ما احتوته السماوات والأرض، فكان هذا التقرير جارياً على طريقة التعريض، إذ أمر

الرسول -عليه الصلاة والسلام- بالتبرئ من أن يعبد غير الله. والمقصود الإنكار على الذين

عبدوا غيره واتخذوهم أولياء، كما يقول القائل بمحضر المجادل المكابر: "لا أجد الحق" لدلالة

١ - يوسف: ٥٨

٢ - النحل: ٨٣

٣ - انظر: المعجم الوسيط ٩٥١/٢

٤ - النساء: ١٢٢

٥ - النحو الوافي لعباس حسن ٦٠١/٣

٦ - الأنعام: ١٤

٧ - الأنعام: ١٢

المقام على أن الرسول ﷺ - لا يصدر منه ذلك، كيف وقد علموا أنه دعاهم إلى توحيد الله من أول بعثته، وهذه السورة ما نزلت إلا بعد البعثة بسنين كثيرة." ^(١)

إلى أن قال: "والاستفهام للإنكار. وقدم المفعول الأول لـ ﴿أَتَّخِذُ﴾ على الفعل وفاعله ليكون موالياً للاستفهام؛ لأنه هو المقصود بالإنكار لا مطلق اتخاذ الولي. وشأن همزة الاستفهام بجميع استعمالاته أن يليها جزء الجملة المستفهم عنه كالمنكر هنا، فالتقديم للاهتمام به، وهو من جزئيات العناية التي قال فيها عبد القاهر^(١) أن لا بد من بيان وجه العناية، وليس مفيداً للتخصيص في مثل هذا لظهور أن داعي التقديم هو تعيين المراد بالاستفهام، فلا يتعين أن يكون لغرض غير ذلك. فمن جعل التقديم هنا مفيداً للاختصاص، أي: انحصار إنكار اتخاذ الولي في غير الله، كما مال إليه بعض شراح الكشاف، فقد تكلف ما يشهد الاستعمال والذوق بخلافه، وكلام الكشاف بريء منه، بل الحق أن التقديم هنا ليس إلا للاهتمام بشأن المقدم ليلي أداة الاستفهام، فيعلم أن محل الإنكار هو اتخاذ غير الله ولياً، وأما ما زاد على ذلك فلا التفات إليه من المتكلم." ^(٢)

قال البقاعي: "ولما نهض من الحجج ما لم يبق معه لذي بصيرة شك، كان لسان الحال مقتضياً لأن ينادي بالإنكار عليهم في الالتفات عن جنابه والإعراض عن بابه، فأبرز - تعالى - ذلك في قالب الأمر له - ﷻ - بالإنكار على نفسه، ليكون أدعى لهم وأرفق بهم، ولأن ما تقدم منبئ عن غاية المخالفة، منذر بما أنذر من سوء عاقبة المشاققة، فكأنهم قالوا: فهل من سبيل إلى الموافقة؟ فقيل: لا إلا باتخاذكم إلهي ولياً، وذلك لعمري سعادتكم في الدارين، وبطمعكم في اتخاذي أندادكم أولياء، وهذا ما لا يكون أبداً، وهو معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: مصرحاً لهم بإنكار أن تميل إلى أندادهم بوجه.

١ - هو عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، أبو بكر، شيخ العربية، وكان شافعيًا، عالمًا، أشعريًا، ذا نسك ودين. أخذ النحو عن أبي الحسين محمد بن حسن ابن أخت أبي علي الفارسي. من كتبه: إعجاز القرآن، و مختصر شرح الإيضاح، وفسر الفاتحة في مجلد، و غير ذلك. مات سنة ٤٧١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٤٣٢/١٨

٢ - التحرير والتنوير ٦/٣٦-٣٧

ولما كان الإنكار منصباً إلى كون الغير متخذاً لا إلى اتخاذ الولي أولى ﴿غير﴾ الهمزة فقال: ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ﴾ أي: الذي لا شيء يدانيه في العظمة ﴿أَتَّخَذُ﴾ أي: أكلف نفسي إلى خلاف ما تدعو إليه الفطرة الأولى والعقل المجرد عن الهوى كما فعلتم أنتم وآخذ ﴿وَلِيّاً﴾ أي: أعبده لكونه يلي جميع أموري، ثم وصفه بما يحقق ولايته ويصرف عن ولاية غيره، فقال: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ابتداء على غير مثال سبق ﴿وَهُوَ﴾ أي: والحال أن الله ﴿يُطْعِمُ﴾ أي: يرزق كل من سواه مما فيه روح. ^(١)

و قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرُوْنَ بِأَعْبَادِ أَيَّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ^(٢)

قال ابن عاشور: "هذا نتيجة المقدمات، وهو المقصود بالإثبات، فالفاء في قوله: ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ﴾ لتفريع الكلام المأمور الرسول - ﷺ - بأن يقوله على الكلام الموحى به إليه ليقرع به أسماعهم، فإن الحقائق المتقدمة موجهة إلى المشركين، فبعد تقررها عندهم وإنذارهم على مخالفة حالهم لما تقتضيه تلك الحقائق أمر الرسول - ﷺ - بأن يوجه إليهم هذا الاستفهام الإنكاري منوعاً على ما قبله، إذ كانت أنفسهم قد خست بما جبهها من الكلام السابق تأسيساً لهم من محاولة صرف الرسول - ﷺ - عن التوحيد إلى عبادة غير الله.

وتوسط فعل ﴿قُلْ﴾ اعتراض بين التفريع والمفرع عنه لتصيير المقام لخطاب المشركين خاصة بعد أن كان مقام الكلام قبله مقام البيان لكل سامع من المؤمنين وغيرهم."

و ﴿غَيْرَ اللَّهِ﴾ منصوب بـ ﴿أَعْبُدُ﴾ الذي هو متعلق بـ ﴿تَأْمُرُوْنَ﴾ على حذف حرف الجر مع "أن" وحذف حرف الجر مع "أن" كثير فقوله: ﴿أَعْبُدُ﴾ على تقدير: أن أعبد، فلما حذف الجار المتعلق بـ ﴿تَأْمُرُوْنَ﴾ حذفت "أن" التي كانت متصلة به."

إلى أن قال: "ونداؤهم بوصف الجاهلين تقريع لهم بعد أن وصفوا بالخسران ليجمع لهم بين نقص الآخرة ونقص الدنيا. والجهل هنا ضد العلم؛ لأنهم جهلوا دلالة الدلائل المتقدمة، فلم تفد منهم شيئاً فعموا عن دلائل الوحدانية التي هي بمراي منهم ومسمع، فجهلوا دلالتها على

١ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٥٩٦/٢

٢ - الزمر: ٦٤

الصانع الواحد ولم يكفهم هذا الحظ من الجهل حتى تدلوا إلى حضيض عبادة أجسام من الصخر الأصم. وحُذِفَ مفعول ﴿الْجَاهِلُونَ﴾ لتنزيل الفعل منزلة اللازم كأن الجهل صار لهم سجية فلا يفقهون شيئاً، فهم جاهلون بما أفادته الدلائل من الوحدانية التي لو علموها لما أشركوا، ولما دعوا النبي - ﷺ - إلى إتباع شركهم، وهم جاهلون بمراتب النفوس الكاملة جهلاً أطمعهم أن يصرفوا النبي - ﷺ - عن التوحيد وأن يستزلوه بِحُزْعِبَالَتِهِمْ^(١) وإطماعهم إياه أن يعبدوا الله إن هو شاركهم في عبادة أصنامهم يحسبون الدين مساومة ومغابنة وتطفيلاً.^(٢) قال البقاعي: "ولما قامت هذه الدلائل كما ترى قيام الأعلام، فأنجابت دياجير الظلام، وكان الجهلة قد دعوه - ﷺ - كما قال المفسرون في أول سورة ص - إلى أن يكف عن آلهتهم، وكان الإقرار عليها عبادة لها، تسبب عن ذلك أمره - ﷺ - بما يصدعهم به بقوله: ﴿قُلْ﴾ ولما كان مقام الغيرة يقتضي محو الأغيار، وكان الغير إذا انمحي تبعه جميع إعراضه، قدم الغير المفعول لأعبد المفعول - على تقدير (أن) - لتأمر فقال: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ أي: الملك الأعظم الذي لا يقر على فساد أصلاً.

ولما كان تقديم الإنكار على فعلهم لهم أرجع، وتأخير ما سبق من الكلام لإنكاره أروع، وكان مد الصوت أوكد في معنى الكلام وأفرع وأهول وأفظع، قال صارفاً الكلام إلى خطابهم؛ لأنه أقعد في إرهابهم وأشد في اكتئابهم ﴿تَأْمُرُونَ﴾ بالإدغام المقتضي للمد في قراءة أكثر القراء. ولعل الإدغام إشارة إلى أنهم حالوه - ﷺ - في أمر آلهتهم على سبيل المكر والخداع.

ولما قرر الإنكار لإثبات الأغيار، أتم تقرير ذكر العامل في ﴿أَفَغَيْرَ﴾ قال حاذفاً (أن) المصدرية لتصير صلتها في حيز الإنكار: ﴿أَعْبُدُ﴾ وهو مرفوع لأن (أن) لما حذفت بطل

١ - حُزْعِبَالَاتٍ - جمع الحُزْعَيْلَةُ - وهي ما أضحكت به القوم، يقال هات بعض حُزْعَيْلَاتِكَ. والحُزْعَيْلَةُ،

الأباطيل. انظر: مختار الصحاح ص ١٩٦

٢ - التحرير والتنوير ٢٤/١٢٥-١٢٦

عملها، ولم يراع أيضاً حكمها ليقال: إنه يمتنع نصب ﴿ غير ﴾ بها لأن معمول الصلة لا يتقدم على الموصول .

ولما كانت عبادة غير الله أجهل الجهل، وكان الجهل محط كل سفول، قال: ﴿ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ أي: العريقون في الجهل، وهو التقدم في الأمور المنبهمه بغير علم.^(١)

٢ - الاستفهام التوبيخي

و التَّوْبِيخِي من وبخ : وَبَّخَهُ بِسُوءٍ تَوْبِيخًا، إِذَا لَامَهُ وَعَدَلَهُ وَأَبَّخَهُ لُغَةً فِيهِ.^(٢)
التقريع: توجيه اللوم والعتاب الشديد الموجه، وأصلُ الْقَرْعِ الضَّرْبُ.
والاستفهام التوبيخي: توجُّهُ التوبيخ على فعل شيءٍ غيرِ حَسَنٍ في نظر موجه الاستفهام، أو ترك فعلٍ كان ينبغي القيامُ به في نظر موجه الاستفهام.^(٣)
ويسمى استفهاماً توبيخياً أو تقريعياً.

١- قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(٤)

قال أبو حيان في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ استفهام تقرير وتوبيخ. لما ذكر - تعالى - أنه شرع للناس ما وصَّى به نُوحاً الآية، أخذ ينكر ما شرع غيره تعالى. والشركاء هنا يحتمل أن يراد به شركاؤهم في الكفر، كالشياطين والمغوين من الناس.

إلى أن قال في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ ﴾ أي: العدة بأن الفصل في الآخرة، أو لو لا القضاء بذلك لقضي بين المؤمن والكافر، أو بين المشركين وشركائهم.^(٥)

١ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤٦٧/٦

٢ - انظر: تاج العروس من جواهر القاموس ٣٦٣/٧

٣ - انظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها (٢١٠/١) لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

٤ - الشورى: ٢١

٥ - تفسير البحر المحيط ٣٣٣/٩

قال ابن عاشور: "ومعنى الاستفهام الذي تقضيه ﴿أَمْ﴾ التي للإضراب هو هنا للتقريع والتهكم، فالتقريع راجع إلى أنهم شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، والتهكم راجع إلى من شرعوا لهم الشرك، فسئلوا عمن شرع لهم دين الشرك: أهم شركاء آخرون اعتقدوهم شركاء لله في الإلهية وفي شرع الأديان كما شرع الله للناس الأديان؟ وهذا تهكم بهم؛ لأن هذا النوع من الشركاء لم يدعه أهل الشرك من العرب. وهذا المعنى هو الذي يساعد تنكير ﴿شُرَكَاءُ﴾ ووصفه بجملة ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ ويجوز أن يكون المسؤول عن الذي شرع لهم هو الأصنام التي يعبدونها، وهو الذي درج عليه المفسرون، فيكون ﴿لَهُمْ﴾ في موضع الحال من ﴿شُرَكَاءُ﴾

والمقصود: فضح فظاعة شركهم بعروه عن الانتساب إلى الله، أي: إن لم يكن مشروعاً من الإله الحق، فهو مشروع من الآلهة الباطلة وهي الشركاء. وظاهر أن تلك الآلهة لا تصلح لتشريع دين؛ لأنها لا تعقل ولا تتكلم، فتعين أن دين الشرك دين لا مستند له. وقريب من هذا قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ﴾^(١) وقيل المراد بالشركاء: أئمة دين الشرك أطلق عليهم اسم الشركاء مجازاً بعلاقة السببية. وضميراً ﴿لَهُمْ﴾ عائدان إلى ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾^(٢) أو ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾^(٣) والتعريف في ﴿الَّذِينَ﴾ للجنس، أي: شرعوا لهم من جنس الدين ما، أي: ديناً لم يأذن به الله، أي: لم يأذن بشرعه، أي: لم يرسل به رسولاً منه ولا أوحى به بواسطة ملائكته.^(٤)

١ - الأنعام: ١٣٧

٢ - الشورى: ١٨

٣ - الشورى: ١٦

٤ - التحرير والتنوير ٢٥/١٤٠-١٤١

٢- قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ أَعَاهَدَ إِلَيْكُمْ يَنْبَغِيَّ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ

مُبِينٌ﴾ (٦٠) (١)

قال السعدي: "لما ذكر -تعالى- جزاء المتقين، ذكر جزاء المجرمين ﴿وَ﴾ أنهم يقال لهم يوم القيامة ﴿وَأَمْتَزُوا أَلْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ﴾ (٢) أي: تميزوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة ليؤخهم ويقرعههم على رءوس الأشهاد قبل أن يدخلهم النار، فيقول لهم: ﴿الَّذِينَ أَعَاهَدَ إِلَيْكُمْ﴾ أي: أمركم وأوصيكم، على السنة رسلي، وأقول لكم: ﴿يَنْبَغِيَّ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ أي: لا تطيعوه، وهذا التوبيخ، يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي؛ لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فحذرتكم منه غاية التحذير، وأندرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه، ﴿وَ﴾ أمرتكم ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾ بامثال أوامري وترك زواجري، ﴿هَذَا﴾ أي: عبادتي وطاعتي، ومعصية الشيطان ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٣)"

قال ابن عاشور: "والاستفهام تقرير، وخطبوا بعنوان ﴿يَنْبَغِيَّ ءَادَمَ﴾ لأن مقام التوبيخ على عبادتهم الشيطان يقتضي تذكيرهم بأنهم أبناء الذي جعله الشيطان عدوا له." إلى أن قال: "و ﴿مُبِينٌ﴾ اسم فاعل من أبان بمعنى بان للمبالغة، أي: عدواته واضحة، ووجه وضوحها أن المرء إذ راقب عواقب الأعمال التي تُوسوسها له نفسه وأتمها وعرضها على وصايا الأنبياء والحكماء وجدها عواقب نحسة، فوضح له أنها من الشيطان بالوسوسة وأن الذي وسوس بها عدو له، لأنه لو كان ودوداً لما أوقعه في الكوارث ولا يضمن به الإيقاع في ذلك عن غير بصيرة لأن التكرار أمثال تلك الوسواس للمرء ولأمثاله ممن ييوح له بأحواله يدل ذلك التكرار على أنها وسواس مقصودة للإيقاع في المهالك، فعلم

١ - يس: ٦٠

٢ - يس: ٥٩

٣ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٦٩٨

أن المشير بها عدو ألد، ولعل هذا المعنى هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٢) (١)

وجملة: ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾ عطف على ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ بإعادة ﴿أَنْ﴾ التفسيرية، فهما جملتان مفسرتان لعهدين. (٢)

فهذا التوبيخ من الله تعالى من عهد الله بالعبادة ثم غره الشيطان فصرفه عن عبادة الله تعالى إلى ما دون ذلك، ثم تأكيدهم من هو مستحق للعبادة و ذكرهم بهذا الأسلوب من هو عدوهم لدود.

١ - يس: ٦٢

٢ - التحرير والتنوير ٢٢/٢٥٢-٢٥٣

٣ - الاستفهام التقريري

و التقرير هو من قَرَّرَت الناقَةُ بِبَوْلِهَا تَقْرِيراً: إذا رَمَت به قُرَّةً بعد قُرَّةٍ، أي: دَفَعَةً بعد دَفَعَةٍ، خائِراً من أَكَلِ الجَبَّةِ.^(١)

الاستفهام التقريري يراد به -غالباً- ثبوت مدلول الشيء المسئول عنه المعلوم للمتكلم، وتقريره في نفس المخاطب، والسامع، أي: طلب الاعتراف بوقوعه والموافقة على حصول مدلوله. فإن كان الاستفهام عن شيء منفي صار المعنى -غالباً- مثبتاً بسبب الاستفهام

المراد منه التقرير.^(٢) كما قال تعالى للنبي - ﷺ - ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۗ ﴾^(٣)

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَصَدِّجِي السِّجْنَءَ رَبَّابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ۗ ﴾^(٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِنِي إِلَّا آسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾^(٤٠)

قال ابن عاشور: "استئناف ابتدائي مصدر بتوجيه الخطاب إلى الفتيين بطريق النداء المسترعي سمعها إلى ما يقوله للاهتمام به. وعبر عنهما بوصف الصحبة في السجن دون اسميهما إما لجهل اسميهما عنده إذ كانا قد دخلا السجن معه في تلك الساعة قبل أن تطول المعاشرة بينهما وبينه، وإما للإيدان بما حدث من الصلة بينهما، وهي صلة المماثلة في الضراء الإلف في الوحشة، فإن الموافقة في الأحوال صلة تقوم مقام صلة القرابة أو تفوقها.

واتفق القراء على - كسر سين - ﴿ يَصَدِّجِي السِّجْنَءَ ﴾ هنا بمعنى البيت الذي يسجن فيه

١ - انظر: تهذيب اللغة ٢٢٩/٨ و تاج العروس من جواهر القاموس ٣٨٨/١٣

٢ - النحو الوافي (٣٥٧/٤) لعباس حسن

٣ - الشرح: ١

٤ - يوسف: ٣٩ - ٤٠

المعاقبون؛ لأن صاحب لا يضاف إلى السجن إلا بمعنى المكان. والإضافة هنا على تقدير حرف الظرفية، مثل: مكر الليل، أي: يا صاحبين في السجن. وأراد بالكلام الذي كلمهما به تقريرهما بإبطال دينهما، فالاستفهام تقريرى. وقد رتب لهما الاستدلال بوجه خطابي قريب من أفهام العامة، إذ فرض لهما إلهًا واحدًا متفردًا بالإلهية، كما هو حال ملته التي أخبرهم بها. وفرض لهما آلهة متفرقين كل إلهٍ منهم إنما يتصرف في أشياء معينة من أنواع الموجودات تحت سلطانه لا يعدوها إلى ما هو من نطاق سلطان غيره منهم، وذلك حال ملة القبط.

ثم فرض لهما مفاضلة بين مجموع الحاليين حال الإله المنفرد بالإلهية والأحوال المتفرقة للآلهة المتعددين ليصل بذلك إلى إقناعهما بأن حال المنفرد بالإلهية أعظم وأغنى، فيرجعان عن اعتقاد تعدد الآلهة. وليس المراد من هذا الاستدلال وجود الحاليين في الإلهية والمفاضلة بين أصحاب هذين الحاليين؛ لأن المخاطبين لا يؤمنون بوجود الإله الواحد.

هذا إذا حمل لفظ ﴿خَيْرٌ﴾ على ظاهر المعارف منه وهو التفضيل بين مشتركات في صفة. ويجوز أن يكون ﴿خَيْرٌ﴾ مستعملًا في معنى الخير عند العقل، أي: الرجحان والقبول. والمعنى: اعتقاد وجود أرباب متفرقين أرجح أم اعتقاد أنه لا يوجد إلا إلهٌ واحد، ليستنزل بذلك طائر نظرهما واستدلالهما حتى ينجلي لهما فساد اعتقاد تعدد الآلهة، إذ يتبين لهما أن أربابًا متفرقين لا يخلو حالهم من تطرق الفساد والخلل في تصرفهم، كما يومئ إليه وصف التفرق بالنسبة للتعدد ووصف القهار بالنسبة للوحدانية.

وكانت ديانة القبط^(١) في سائر العصور التي حفظها التاريخ وشهدت بها الآثار ديانة شرك، أي: تعدد الآلهة. وبالرغم على ما يحاوله بعض المؤرخين المصريين والإفرنج^(٢) من إثبات اعتراف القبط بإلهٍ واحد وتأويلهم لهم تعدد الآلهة بأنها رموز للعناصر، فإنهم لم يستطيعوا أن

١ - القبط هم النصارى من أهل مصر كان ملكهم فرعون و أرسل إليهم موسى -عليه السلام-. انظر: الجواب

الصحيح لمن بدل دين المسيح ٢٢/٥

٢ - الإفرنج - اسم يطلق على الكفار من القارتين الأوروبية والأمريكية. انظر: معجم لغة الفقهاء ص ٣٤٤

يشتوا إلا أن هذا الإله هو معطي التصرف للآلهة الأخرى. وذلك هو شأن سائر أديان الشرك، فإن الشرك ينشأ عن مثل ذلك الخيال، فيصبح تعدد آلهة. والأمم الجاهلة تتخيل هذه الاعتقادات من تخيلات نظام ملوكها وسلاطينها، وهو النظام الإقطاعي القديم." إلى أن قال: "وبعد أن أثار لهما الشك في صحبة إلهية آلهتهم المتعددين انتقل إلى إبطال وجود تلك الآلهة على الحقيقة بقوله: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ يعني أن تلك الآلهة لا تحقق لحقائقها في الوجود الخارجي، بل هي توهمات تخيلوها. ومعنى قصرها على أنها أسماء قصرًا إضافيًا أنها أسماء لا مسميات لها، فليس لها في الوجود إلا أسماءها.

وقوله: ﴿ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ ﴾ جملة مفسرة للضمير المرفوع في ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ والمقصود من ذلك الرد على آباءهم سداً لمنافذ الاحتجاج لأحقيتها بأن تلك الآلهة معبودات آباءهم، وإدماجاً لتلقين المعذرة لهما ليسهل لهما الإقلاع عن عبادة آلهة متعددة.

وإنزال السلطان: كناية عن إيجاد دليل إلهيتها في شواهد العالم. والسلطان: الحجة.

وجملة ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ إبطال لجميع التصرفات المزعومة لآلهتهم بأنها لا حكم لها فيما زعموا أنه من حكمها وتصرفها.

وجملة ﴿ أَمْرًا أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ انتقال من أدلة إثبات انفراد الله - تعالى - بالإلهية إلى التعليم بامثال أمره ونهيته؛ لأن ذلك نتيجة لإثبات الإلهية والوحدانية له، فهي بيان لجملة ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ من حيث ما فيها من معنى الحكم.

وجملة ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ خلاصة لما تقدم من الاستدلال، أي ذلك الدين لا غيره مما أنتم عليه وغيركم. وهو بمنزلة رد العجز على الصدر

لقوله: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ - إلى - ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (١) (٢)

١ - يوسف: ٣٧ - ٣٨

٢ - التحرير والتنوير ١٢/٦٤-٦٦

فيوسف -عليه السلام- يقرر و يوضح لصاحبيه حقيقة الوحدانية و من هو الإله الحق بهذا الأسلوب الاستفهامي، و كل هذا بعد رؤيتهما أخلاق يوسف -عليه السلام- و أنهما عرفا قصته بما جعلهما يدركان إحسانه، فدعاها إلى الله و عبادته.

الفصل الرابع: آثار توحيد العبادة و أسباب الثبات عليه

المبحث الأول: آثار توحيد العبادة

المبحث الثاني: أسباب الثبات عليه

المبحث الأول: آثار توحيد العبادة

أولاً: الوعد بالأمن و الاستخلاف

ثانياً: ولاية الله و محبته لأهله

ثالثاً: رفعة أهله و عزتهم

رابعاً: آثار توحيد العبادة في الآخرة

ما من نفس في هذه الدنيا إلا وتحب السعادة و الاستقرار و السلامة من العنت و القلق، فالكفار يحاولون إدراك الاستقرار بالمال و الهيمنة و علو الشأن، أما المؤمنون فاستقرارهم لا يكون إلا بكمال العبودية لله -تعالى- و تحقيق التوحيد، و كلما نقصت عبوديتهم وضعف تحقيقهم للتوحيد قل استقرارهم و زاد قلقهم. فآثار توحيد العبادة شُهد عبر القرون في هذه الأمة المحمدية، علواً و مجدداً و قوة و تمكيناً، فحين حققت الأمة توحيد العبادة علا شأنها و سادت الدنيا، لكن حين ضعف تحقيقها لتوحيد العبادة سلط الله عليها أعداءها، فساموهم الخسف و الهوان. وقد ذكر الله -تعالى- آثار توحيد العبادة إذا حَقَّقته الأمة، و من ذلك.

أولاً: الوعد بالأمن و الاستخلاف

لا يعرف قيمة الأمن إلا من فقدته، و لا يعرف قيمة الاستخلاف إلا من سلبه. لقد كانت بلاد العرب قبل الإسلام معروفة بانعدام الأمن، تقاتل القبائل بعضها بعضاً و يقهر بعضهم بعضاً، و كان الملك لغيرها -إما للروم أو الفرس أو الحبشة- فلما حققوا التوحيد و العبودية لله وحده، أظهرهم الله على الأمم كلها، فتحقق وعد الله لهم، إذ قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ

ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي

شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ (١)

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ،

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يقول: وأطاعوا الله ورسوله فيما أمره ونهىه ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي

الْأَرْضِ﴾ يقول: ليورثنهم الله أرض المشركين من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها

وساستها ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يقول: كما فعل من قبلهم ذلك بيني إسرائيل، إذ أهلك الجبابرة بالشام، وجعلهم ملوكها وسكانها ﴿ وَلِيُمْكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ يقول: وليوطن لهم دينهم، يعني: ملتهم التي ارتضاها لهم، فأمرهم بها. " إلى أن قال: "وقوله: ﴿ يَعْبُدُونَنِي ﴾ يقول: يخضعون لي بالطاعة ويتذللون لأمرى ونهيي ﴿ لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ يقول: لا يشركون في عبادتهم إياي الأوثان والأصنام ولا شيئاً غيرها، بل يخلصون لي العبادة فيفردونها إليّ دون كل ما عبد من شيء غيري. ودُكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله - ﷺ - من أجل شكاية بعض أصحابه إليه في بعض الأوقات التي كانوا فيها من العدو في خوف شديد مما هم فيه من الرعب والخوف، وما يلقون بسبب ذلك من الأذى والمكروه. " (١)

وقال السعدي في تفسير هذه الآية: "هذا من وعوده الصادقة التي شوهد تأويلها وخبرها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يُمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام الذي فاق الأديان كلها ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جداً بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبغوا لهم الغوائل. فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً، ولا يخافون أحداً إلا الله، فقام صدر هذه الأمة من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم، فمكنتهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها،

وحصل الأمن التام والتمكين التام، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلب عليهم الكفار والمنافقين، ويديلهم في بعض الأحيان بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح.

﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ التمكين والسلطنة التامة لكم، يا معشر المسلمين ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الذين خرجوا عن طاعة الله، وفسدوا، فلم يصلحوا لصالح، ولم يكن فيهم أهلية للخير؛ لأن الذي يترك الإيمان في حال عزه وقهره، وعدم وجود الأسباب المانعة منه يدل على فساد نيته، وخبث طويته؛ لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك. ودلت هذه الآية أن الله قد مكن من قبلنا، واستخلفهم في الأرض، كما قال موسى لقومه: ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ ^(١) وقال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۗ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(٢) ^(٣)

قال ابن تيمية: "فقد وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالاستخلاف، كما وعدهم في تلك الآية مغفرة وأجرًا عظيمًا، والله لا يخلف الميعاد، فدل ذلك على أن الذين استخلفهم، كما استخلف الذين من قبلهم ومكن لهم دين الإسلام، وهو الدين الذي ارتضاه لهم، كما قال تعالى: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ^(٤) وبدلهم من بعد خوفهم أمنًا لهم منه المغفرة والأجر العظيم. وهذا يستدل به من وجهين: يستدل به على أن المستخلفين مؤمنون عملوا الصالحات؛ لأن الوعد لهم لا لغيرهم. ويستدل به على أن

١ - الأعراف: ١٢٩

٢ - القصص: ٥ - ٦

٣ - تفسير السعدي ص ٥٧٣

٤ - المائدة: ٣

هؤلاء مغفور لهم ولهم مغفرة وأجر عظيم؛ لأنهم آمنوا وعملوا الصالحات، فتناولتهم الآياتان آية النور^(١) وآية الفتح^(٢) ومن المعلوم أن هذه النعوت منطبقة على الصحابة على زمن أبي بكر وعمر وعثمان، فإنه إذ ذاك حصل الاستخلاف وتمكن الدين والأمن بعد الخوف لما قهروا فارس والروم، وفتحوا الشام والعراق، ومصر وخراسان وإفريقية، ولما قُتل عثمان وحصلت الفتنة لم يفتحوا شيئاً من بلاد الكفار، بل طمع فيهم الكفار بالشام وخراسان، وكان بعضهم يخاف بعضاً، وحينئذ فقد دل القرآن على إيمان أبي بكر وعمر وعثمان ومن كان معهم في زمن الاستخلاف والتمكين والأمن، والذين كانوا في زمن الاستخلاف والتمكين والأمن، وأدركوا زمن الفتنة كعلي وطلحة^(٣) والزبير^(٤) وأبي موسى الأشعري ومعاوية^(٥) وعمرو بن العاص دخلوا في الآية؛ لأنهم استخلفوا ومكنوا وآمنوا. أما من حدث في زمن الفتنة كالرافضة الذين حدثوا في الإسلام في زمن الفتنة والافتراق وكالخوارج المارقين، فهؤلاء لم يتناولهم النص، فلم يدخلوا فيمن وصف بالإيمان والعمل الصالح المذكورين في هذه الآية؛ لأنهم أولاً ليسوا من الصحابة المخاطبين بهذا، ولم يحصل لهم من الاستخلاف والتمكين والأمن بعد الخوف ما حصل للصحابة، بل لا يزالون خائفين مقلقلين غير ممكنين." (٦)

١ - ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن

قَبْلِهِمْ ﴾ النور: ٥٥

٢ - ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ الفتح: ٢٩

٣ - هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي القرشي المدني، أبو محمد: صحابي، شجاع، وهو أحد العشرة المبشرين، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام. مات ٣٦ هـ. الإصابة (٤٢٧١) ٣/٥٣٣

٤ - هو الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي، أبو عبد الله: الصحابي الشجاع، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من سل سيفه في الإسلام. وشهد بدرًا وأحداً وغيرهما. قتل ٣٦ هـ. الإصابة (٢٧٩١) ٢/٥٥٣

٥ - هو معاوية بن أبي سفيان صخر ابن حرب، القرشي الأموي: خليفة المسلمين، وأحد دهاة العرب المتميزين الكبار. كان فصيحاً حليماً وقوراً. وأسلم يوم فتح مكة، جعله رسول الله ﷺ - في كتابه. كان والياً لأبي بكر، وعمر و عثمان. مات سنة ٦٠ هـ. انظر: الإصابة ١٥١/٦

٦ - منهاج السنة ٢/١٧-٢٠

فالتمكين في الأرض و الاستخلاف أثر عظيم من توحيد العبادة إذا قام المسلمون بتحقيقه، و هذا الأثر على مستوى الأمة، أما على مستوى الأفراد، فالأمن و عدم الخوف من أكبر النعم في هذه الدنيا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾^(١)
قال أبو جعفر: "اختلف أهل التأويل في الذي أخبر -تعالى- ذكره عنه أنه قال هذا القول أعني: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ﴾ الآية.

فقال بعضهم: هذا فصل القضاء من الله بين إبراهيم خليله -صلى الله عليه وسلم- وبين من حاجه من قومه من أهل الشرك بالله، إذ قال لهم إبراهيم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ

أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾^(٢) فقال الله -تعالى ذكره- فاصلاً بينه وبينهم: الذين صدّقوا الله وأخلصوا له العبادة، ولم يخلطوا عبادتهم إياه وتصديقهم له بظلم، يعني: بشرك ولم يشركوا في عبادته شيئاً، ثم جعلوا عبادتهم لله خالصاً أحق بالأمن من عقابه مكروه عبادته من الذين يشركون في عبادتهم إياه الأوثان والأصنام، فإنهم الخائفون من عقابه مكروه عبادتهم، أمّا في عاجل الدنيا فإنهم وجلون من حلول سخط الله بهم، وأما في الآخرة، فإنهم الموقنون بأليم عذاب الله.

وقال آخرون: هذا جوابٌ من قوم إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لإبراهيم، حين قال لهم: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ فقالوا له: الذين آمنوا بالله فوحدوه أحق بالأمن إذا لم يلبسوا إيمانهم بظلم."^(٣)

قال ابن كثير في تفسيره: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة."^(١)

١ - الأنعام: ٨٢

٢ - الأنعام: ٨١

٣ - تفسير الطبري ٤٩٢/١١ - ٤٩٣

قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه-: لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي -ﷺ- وقالوا: أينما لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله -ﷺ-: "ليس كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿يَبْنِي لَّا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) (٢) (٣)"

قال السعدي: "قال الله -تعالى- فاصلاً بين الفريقين ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ أي: يخلطوا ﴿إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ الأمن من المخاوف والعذاب والشقاء، والهداية إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً -لا بشرك ولا بمعاصي- حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة. وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها. ومفهوم الآية الكريمة أن الذين لم يحصل لهم الأمان لم يحصل لهم هداية ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء.

ولما حكم لإبراهيم -عليه السلام- بما بين به من البراهين القاطعة، قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ (٤) أي: علا بها عليهم، وפלجهم بها.

﴿زَفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ ذُنُوبِهِ﴾ كما رفعنا درجات إبراهيم -عليه السلام- في الدنيا والآخرة، فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات خصوصاً العالم العامل المعلم، فإنه يجعله الله إماماً للناس بحسب حاله ترمق أفعاله، وتفتنى آثاره، ويستضاء بنوره، ويمشى بعلمه في ظلمة ديجوره. (٥) قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (٦)

١ - تفسير ابن كثير ٢٩٤/٣

٢ - لقمان: ١٣

٣ - أخرجه البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب ما جاء في التأولين. رقم (٦٩٣٧) ٢٣/٩ و مسلم، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه. رقم (٣٤٢) ٨٠/١

٤ - الأنعام: ٨٣

٥ - والدجور: الظلام. وليلة ديجور: مظلمة. انظر: الصحاح ٦٥٥/٢

٦ - المجادلة: ١١

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فلا يضع العلم والحكمة إلا في المحل اللائق بها، وهو أعلم بذلك المحل، وبما ينبغي له. ^(١)

قال ابن القيم: "قال -تعالى- حكاية عن خيله إبراهيم أنه قال في محاجته لقومه:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ

سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾" ^(٢) فحكم الله -عز و جل- بين

الفريقين بحكم، فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْاَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ

﴿٨٢﴾ وقد صح عن رسول الله -ﷺ- تفسير الظلم فيها بالشرك وقال: "ألم تسمعوا قول

العبد الصالح إن الشرك لظلم عظيم." ^(٣) فالتوحيد من أقوى أسباب الأمن من المخاوف،

والشرك من أعظم أسباب حصول المخاوف، ولذلك من خاف شيئاً غير الله سُلط عليه،

وكان خوفه منه هو سبب تسليطه عليه، ولو خاف الله دونه ولم يخفه لكان عدم خوفه منه

وتوكله على الله من أعظم أسباب نجاته منه، وكذلك من رجا شيئاً غير الله حرم ما رجاه منه،

وكان رجاؤه غير الله من أقوى أسباب حرمانه، فإذا رجا الله وحده كان توحيد رجائه أقوى

أسباب الفوز بما رجاه أو بنظيره، أو بما هو أنفع له منه والله الموفق للصواب. ^(٤)

و قال: "أنكر (النبي ﷺ) على من فهم من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ

بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْاَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أنه ظلم النفس بالمعاصي وبين أنه الشرك، وذكر قول

لقمان لابنه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ مع أن سياق اللفظ عند إعطائه حقه من

التأمل يبين ذلك، فإن الله -سبحانه- لم يقل ولم يظلموا أنفسهم، بل قال: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا

إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ ولبس الشيء بالشيء تغطيته به وإحاطته به من جميع جهاته، ولا يغطي

الإيمان ويحيط به ويلبسه إلا الكفر، ومن هذا قوله تعالى: ﴿بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً

١ - تفسير السعدي ص ٢٦٣

٢ - الأنعام: ٨١

٣ - سبق تحريجه في صفحة ٢٣١

٤ - مفاتيح دار السعادة ٢/٢٧٤

وَأَحْطَّتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾^(١) فإن الخطيئة لا تحيط بالمؤمن أبداً، فإن إيمانه يمنعه من إحاطة الخطيئة به ومع أن سياق قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾^(٢) ثم حكم الله أعدل حكم وأصدقه أن من آمن ولم يلبس إيمانه بظلم، فهو أحق بالأمن والهدى، فدل على أن الظلم الشرك.^(٣)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والخوف الذي يحصل في قلوب الناس هو الشرك الذي في قلوبهم، قال الله تعالى: ﴿سَكُنْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾^(٤) وكما قال الله -جل جلاله- في قصة الخليل عليه السلام: ﴿أَتَحْكُمُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾^(٥) إلى قوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ وفي الحديث الصحيح: "تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة^(٦)، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش."^(٧) فمن كان في قلبه رياسة لمخلوق، ففيه من عبوديته بحسب ذلك، فلما خوفوا خليله بما يعبدونه، ويشركون به الشرك الأكبر كالعبادة قال الخليل: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾^(٨) يقول: إن تطيعوا غير الله وتعبدون غيره، وتكلمون في دينه ما لم ينزل به

١ - البقرة: ٨١

٢ - الأنعام: ٨١

٣ - أعلام الموقعين ١/٣٥١-٣٥٢

٤ - آل عمران: ١٥١

٥ - الأنعام: ٨٠

٦ - الخميصة كساءً أسود مرثع. تهذيب اللغة ٧/٧٣ - و الخميصة منقوع ماءٍ ومنبت شجر. تهذيب اللغة ٧/١٨٢

٧ - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد و السير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله. رقم (٢٨٨٧) ٤/٤١ بلفظ: تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش.

سلطاناً، فأبي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، أي: تشركون بالله ولا تخافونه وتخوفوني أنا بغير الله، فمن ذا الذي يستحق الأمن إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أي: هؤلاء الموحدون المخلصون. ولهذا قال الإمام أحمد لبعض الناس: لو صححت لم تخف أحداً" (١)

و قال: "شق ذلك عليهم (على الصحابة هذه الآية) فبين النبي -ﷺ- لهم ما دلهم على أن الشرك ظلم في كتاب الله تعالى. وحينئذ فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم، ومن لم يلبس إيمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء. كما كان من أهل الاضطفاء في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ (٢) إلى قوله: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ وهذا لا ينفي أن يؤخذ أحدهم بظلم نفسه إذا لم يتب، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (٤) ^(٤) ^(٤) وقد سأل أبو بكر (٥) النبي -ﷺ- عن ذلك، فقال: يا رسول الله! وأينا لم يعمل سوءاً؟ فقال: يا أبا بكر! ألسنت تنصب ألسنت تحزن ألسنت تصيبك اللأواء؟! فذلك ما تجزون به. (٦) فبين أن المؤمن الذي إذا تاب دخل الجنة قد يجزي بسيئاته في الدنيا بالمصائب التي تصيبه."

إلى أن قال: "فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة، (٧) كان له الأمن التام والاهتداء التام. ومن لم يسلم من ظلمه نفسه، كان له الأمن والاهتداء مطلقاً، بمعنى أنه لا بد أن يدخل

١ - كتب و رسائل لابن تيمية ٣٦/٢٨

٢ - فاطر: ٣٢

٣ - الزلزلة: ٧

٤ - النساء: ١٢٣

٥ - هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر ابن كعب التيمي القرشي، أبو بكر: أول الخلفاء الراشدين، وأول من

آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم من الرجال و أعز أصحابه. مات سنة ١٣ هـ. الإصابة (٤٨٢٠) ٤/١٦٩

٦ - أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند أبي بكر الصديق. رقم (٦٨) ١١/١ قال شعيب الأرنؤوط: صحيح

٧ - أنواع الظلم: الظلم الذي هو شرك، وظلم الناس بعضهم بعضاً، وظلم الإنسان نفسه. انظر: مجموع الفتاوى

الجنة كما وعد بذلك في الآية الأخرى، وقد هداه إلى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه نفسه. وليس مراد النبي ﷺ - بقوله: "إنما هو الشرك".^(١) أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام، فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف فلم يحصل لهم الأمن التام، ولا الاهتداء التام الذي يكونون به مهتدين إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين من غير عذاب يحصل لهم، بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط، ومعهم أصل نعمة الله عليهم ولا بد لهم من دخول الجنة. وقول النبي ﷺ: "إنما هو الشرك". إن أراد به الشرك الأكبر، فمقصوده أن من لم يكن من أهله، فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة، وهو مهتد إلى ذلك. وإن كان مراده جنس الشرك، فيقال: ظلم العبد نفسه كبخله - حب المال - ببعض الواجب هو شرك أصغر، وحب ما يبغضه الله حتى يكون يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر ونحو ذلك. فهذا صاحبه قد فاته من الأمن والاهتداء بحسبه، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب في هذا الظلم بهذا الاعتبار.^(٢)

و قال أيضاً: "وهذه آية عظيمة تنفع المؤمن الحنيف في مواضع، فإن الإشراك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل دع جليله، وهو شرك في العبادة والتأله، وشرك في الطاعة والانقياد، وشرك في الإيمان والقبول. فالغالية^(٣) من النصارى والرافضة وضلال الصوفية والفقراء والعامّة يشركون بدعاء غير الله تارة، وبنوع من عبادته أخرى، وبهما جميعاً تارة، ومن أشرك هذا الشرك أشرك في الطاعة. وكثير من المتفهمة وأجناد الملوك وأتباع القضاة والعامّة المتبعة لهؤلاء يشركون شرك الطاعة. وقد قال النبي ﷺ - لعدي بن حاتم^(٤) لما قرأ: ﴿ اتَّخَذُوا

أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ^(١)

١ - مراده الحديث المتقدم تخرجه في تفسير الظلم في صفحة ٧

٢ - مجموع الفتاوى ٧/٨٠-٨٢

٣ - الغالية: هم الذين يقولون بالإلهية لغير الله عز و جل. انظر: الفصل في الملل و الأهواء و النحل ٤/١٤٢

٤ - هو عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرح الطائي، أبو وهب. صحابي. كان رئيس طيبي في الحاهلية

فقال يا رسول الله! ما عبدوهم. فقال: ما عبدوهم، ولكن أحلوا لهم الحرام، فأطاعوهم، وحرّموا عليهم الحلال، فأطاعوهم." (٢) فتجد أحد المنحرفين يجعل الواجب ما أوجبه متبوعه، والحرام ما حرّمه، والحلال ما حلّله، والدين ما شرّعه، إما ديناً وإما دنيا، وإما دنيا ودينا. ثم يخوف من امتنع من هذا الشرك، وهو لا يخاف أنه أشرك به شيئاً في طاعته بغير سلطان من الله، وبهذا يخرج من أوجب الله طاعته من رسول وأمير وعالم ووالد وشيخ وغير ذلك." (٣)

فمن حقق توحيد العبادة ولم يشرك مع الله شيئاً، يحصل له الأمن التام و إن كان معه بعض المعاصي. و إن كان النبي - ﷺ - بشر الصحابة أن الظلم في هذه الآية هو الشرك، فقد كانوا يخافون الشرك، فإنه إذا أطلق تناول الشرك الأكبر و الأصغر، و لذا نجد السلف الصالح يحذرون من الشرك و لو حققوا توحيد العبادة. فلهذا كانوا يجتهدون في العمل حتى قال بعضهم: لو كشف لي عن الأمور المغيبة - يعني لو رأيت الجنة والنار - ما استطعت أن أزداد عملاً؛ لأنه جاء بكل ما يستطيع، وهؤلاء هم الذين وصلوا إلى عين اليقين - فأيقنوا يقيناً صادقاً، وهذا هو إيمان الصحابة - رضوان الله عليهم - و حصل لهم الأمن التام والاستقرار في قلوبهم و عدم خوفهم.

والإسلام. عاش أكثر من مئة سنة. مات ٦٨ هـ. الإصابة (٥٤٧٩) ٤/٤٦٩

١ - التوبة: ٣١

٢ - لعل مراده الحديث الذي أخرجه الترمذي في سننه في كتاب التفسير، باب سورة التوبة. رقم (٣٠٩٥) ٥/٢٧٨ لفظه: قال عدي بن حاتم - رضي الله عنه: "أتيت النبي - ﷺ - وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي اطح عنك هذا الوثن. وسمّته يقرأ في سورة براءة { اتخذوا أجبّارهم و رهبانهم أرباباً من دون الله } قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه." ٨/٢٤٤ قال الشيخ الألباني: حسن. انظر: صحيح وضعيف سنن الترمذي ٧/٩٥

٣ - مجموع الفتاوى ١/٩٧-٩٨

ثانياً: ولاية الله و محبته لأهله

إن الإنسان خلق ضعيفاً، كما قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^(١) فكلما اجتهد لإزالة هذا الضعف لا ينجح إلا أن يكسب نصرة و تأييد من هو قادر أن يقويه و يزيل عنه ضعفه، و يدخل في ولاية الله العزيز الجبار، و هذا الأثر قد تحقق فيمن حقق توحيد العبادة كما أمر الله به.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢)

قال أبو جعفر: "يقول -تعالى- ذكره- للمؤمنين بالله وبرسوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: صدّقوا الله ورسوله، وأقروا بما جاءهم به نبيهم محمد -ﷺ- ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ يقول: من يرجع منكم عن دينه الحق الذي هو عليه اليوم، فيبدّله ويغيره بدخوله في الكفر، إما في اليهودية أو النصرانية أو غير ذلك من صنوف الكفر، فلن يضر الله شيئاً، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ يقول: فسوف يجيء الله بدلاً منهم المؤمنين الذين لم يبدّلوا ولم يغيروا ولم يرتدوا بقوم خير من الذين ارتدّوا وبدّلوا دينهم، يحبهم الله ويحبون الله. وكان هذا الوعيد من الله لمن سبق في علمه أنه سيرتدّ بعد وفاة نبيّه محمد -ﷺ-. وكذلك وعده من وعدّ من المؤمنين ما وعده في هذه الآية لمن سبق له في علمه أنه لا يبدّل ولا يغير دينه، ولا يرتدّ. فلما قبض الله نبيّه -ﷺ- ارتدّ أقوام من أهل الوبر، وبعض أهل المدر، فأبدل الله المؤمنين بخير منهم كما قال -تعالى- ذكره- ووفى للمؤمنين بوعده، وأنفذ فيمن ارتدّ منهم وعيده." ^(٣)

١ - النساء: ٢٨

٢ - المائدة: ٥٤

٣ - تفسير الطبري ١٠/٤١٠

قال أبو جعفر في تفسير قوله تعالى: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أرقاء عليهم، رحماء بهم.

من قول القائل: "ذل فلان لفلان". إذا خضع له واستكان.

ويعني بقوله: ﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أشداء عليهم، غلظاء بهم.

من قول القائل: "قد عزني فلان" إذا أظهر العزة من نفسه له، وأبدى له الجفوة والغلظة. قال

أبو جعفر في قوله تعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ

يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ "يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هؤلاء المؤمنون

الذين وعد الله المؤمنين أن يأتيهم بهم إن ارتد منهم مرتد بدلاً منهم يجاهدون في قتال أعداء

الله على النحو الذي أمر الله بقتالهم، والوجه الذي أذن لهم به، ويجاهدون عدوهم، فذلك

مجاهدتهم في سبيل الله ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ يقول: ولا يخافون في ذات الله أحداً، ولا

يصدّهم عن العمل بما أمرهم الله به من قتال عدوهم لومة لائم لهم في ذلك.

وأما قوله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ فإنه يعني هذا النعت الذي نعتهم به -تعالى ذكره- من أنهم

﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ فضل الله

الذي تفضل به عليهم، والله يؤتي فضله من يشاء من خلقه منةً عليه وتطوّلاً ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

يقول: والله جواد بفضله على من جاد به عليه، لا يخاف نفاد خزائنه فتتلف في عطائه

﴿عَلِيمٌ﴾ بموضع جوده وعطائه، فلا يبذله إلا لمن استحقه، ولا يبذل لمن استحقه إلا على

قدر المصلحة لعلمه بموضع صلاحه له من موضع ضرره.

قال أبو جعفر في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ

الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (١) ليس لكم أيها المؤمنون ناصر إلا الله ورسوله والمؤمنون الذين

صفتهم ما ذكر تعالى ذكره. فأما اليهود والنصارى الذين أمركم الله أن تبرأوا من ولايتهم،

ونهاكم أن تتخذوا منهم أولياء، فليسوا لكم أولياء لا نُصراء، بل بعضهم أولياء بعض، ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً." (١)

قال السعدي: "إن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبداً يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد.

ومن لوازم محبة العبد لربه أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول - ﷺ - ظاهراً وباطناً في أقواله وأعماله وجميع أحواله، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢)

كما أن من لازم محبة الله للعبد أن يكثر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، كما قال النبي - ﷺ - في الحديث الصحيح عن الله: "وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه." (٣)

ومن لوازم محبة الله معرفته - تعالى - والإكثار من ذكره، فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جداً، بل غير موجودة وإن وجدت دعواها، ومن أحب الله أكثر من ذكره، وإذا أحب الله عبداً قبل منه اليسير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل.

ومن صفاتهم أنهم ﴿ أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَظَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم ورافتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله المعاندين لآياته، المكذبين لرسوله - أعزة، قد اجتمعت همهم وعزائمهم على معاداتهم، وبدلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم، قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ

١ - تفسير الطبري ١٠/٤٢٣-٤٢٤

٢ - آل عمران: ٣١

٣ - أخرجه البخاري، كتاب الرقائق، باب التواضع. رقم (٦٢٠٢) ٨/١٣١

وَعَدُّوْكُمْ ﴿١﴾ وقال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ ^(٢) فالغلظة والشدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله، ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي والتي هي أحسن، فتجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم.

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأموالهم وأنفسهم، بأقوالهم وأفعالهم. ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، وهذا يدل على قوة همهم وعزائمهم، فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة، تنتقض عزيمته عند لوم اللائمين، وتفتر قوته عند عدل العاذلين، وفي قلوبهم تعبد لغير الله بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم على أمر الله، فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله حتى لا يخاف في الله لومة لائم.

ولما مدحهم -تعالى- بما من به عليهم من الصفات الجليلة والمناقب العالية المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير أخبر أن هذا من فضله عليهم، وإحسانه لئلا يعجبوا بأنفسهم، وليشكروا الذي من عليهم بذلك ليزيدهم من فضله، وليعلم غيرهم أن فضل الله -تعالى- ليس عليه حجاب، فقال: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع الفضل والإحسان، جزيل المنن، قد عمت رحمته كل شيء، ويوسع على أوليائه من فضله ما لا يكون لغيرهم، ولكنه عليهم بمن يستحق الفضل فيعطيه، فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وفرعاً. ^(٣)

قال ابن القيم: "فأصل المحبة المحمودة التي أمر الله -تعالى- بها وخلق خلقه لأجلها هي محبته وحده لا شريك له المتضمنة لعبادته دون عبادة ما سواه، فإن العبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل، ولا يصلح ذلك إلا لله -عز و جل- وحده.

ولما كانت المحبة جنساً تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف، كان أغلب ما يذكر فيها في حق الله -تعالى- ما يختص به ويليق به، كالعبادة والإنابة والإحبات، ولهذا لا يذكر فيها

١ - الأنفال: ٦٠

٢ - الفتح: ٢٩

٣ - تفسير السعدي ص ٢٣٥-٢٣٦

لفظ العشق والغرام والصبابة والشغف والهوى، وقد يذكر لفظ المحبة، كقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^(١) وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(٢) وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(٣)

ومدار كتب الله -تعالى- المنزلة من أولها إلى آخرها على الأمر بتلك المحبة ولوازمها، والنهي عن محبة ما يضادها، وملازمتها وضرب الأمثال والمقاييس لأهل المحبتين وذكر قصصهم ومآلهم ومنزلهم وثوابهم وعقابهم ولا يجد حلاوة الإيمان، بل لا يذوق طعمه إلا من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، كما قال النبي -ﷺ-: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان." وفي لفظ: "لا يجد طعم الإيمان إلا من كان فيه ثلاث: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله -تعالى- منه كما يكره أن يلقى في النار."^(٤) وقال -ﷺ-: "والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين."^(٥) ولهذا اتفقت دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم على عبادة الله وحده لا شريك له، وأصل العبادة وتمامها وكمالها هو المحبة، وإفراد الرب -سبحانه- بها، فلا يشرك العبد به فيها غيره."^(٥)

قال ابن تيمية: "أخبر -سبحانه- بذلهم للمؤمنين وعزهم على الكافرين، وجهادهم في سبيله، وأنهم لا يخافون لومة لائم، فلا يخافون لوم الخلق لهم على ذلك.

١ - آل عمران: ٣١

٢ - البقرة: ١٦٥

٣ - أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب من كره أن يعود في الكفر. رقم (١٦) ١٠/١ و مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، عن أنس بن مالك، رقم (١٧٤) ٤٨/١

٤ - أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان، رقم (١٥) ١٠/١ و مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة، رقم (١٧٨) ٤٩/١

٥ - إغاثة اللهفان ١٣٣/٢

وهؤلاء هم الذين يهتمون الملام والعدل في حب الله ورسوله، والجهاد في سبيله، والله يحبهم وهم يحبونه، ليسوا بمنزلة من يهتم الملام والعدل في محبة ما لا يحبه الله ورسوله، ولا بمنزلة الذين أظهروا من مكروهات الحق ما يلامون عليه ويسمون بالملامتية^(١) ظانين أنهم لما أظهروا ما يلومهم الخلق عليه من المنكرات مع صحتهم في الباطن كان ذلك من صدقهم وإخلاصهم، وهم في ذلك إنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس، فإن ذلك المنكر الذي يكرهه الله ورسوله لا يكون فعله مما يحبه الله ورسوله، ولا يكون من الصدق والإخلاص في حب الله ورسوله والناس يلامون عليه، وسنام ذلك الجهاد في سبيل الله، فإنه أعلى ما يحبه الله ورسوله، واللائمون عليه كثير، إذ كثير من الناس الذين فيهم إيمان يكرهونه، وهم إما مخذلون مفترون للهمة والإرادة فيه، وإما مرجفون مضعفون للقوة والقدرة عليه، وإن كان ذلك من النفاق." (٢)

قال عبد الرحمن آل الشيخ: "ذكر لها أربع علامات:

إحداها : أنهم أدلة على المؤمنين. قيل: معناه أرقاء رحماء مشفقين عاطفين عليهم، فلما ضمن أدلة هذا المعنى عداه بأداة (على) قال عطاء رحمه الله: للمؤمنين كالولد لوالده وكالعبد لسيدته، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته ﴿أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (٣) العلامة الثالثة^(٤): الجهاد في سبيل الله بالنفوس واليد والمال واللسان، وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة : إنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم. وهذه علامة صحة المحبة، فكل محب أخذ اللوم على محبوبه، فليس بمحب على الحقيقة. وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ

١ - الملامتية أو الملامية: هي المذهب الصوفي و وسواسه المتشعبة وأمانيه البراقة، ويعلنون بأنهم مع الناس في الظاهر، و مع الله في الباطن مهما كانت أفعاله في الظاهر، ويسمون النفاق محمودا حين يأتي الصوفي بما يلام عليه لأجل أغراض سامية فيما يزعمون. مؤسسها أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمار المعروف بالقصار مات ٢٧١هـ. انظر: مجموع الفتاوى ١٦٤/٣٥ و فرق معاصرة لغالب بن علي عواجي ١٠/٣

٢ - الاستقامة ١/٢٦٤-٢٦٥

٣ - الفتح: ٢٩

٤ - لم يذكر الشيخ الثانية، لعلها قول عطاء و قوله: "وعلى الكافرين كالأسد على فريسته."

يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۗ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ (١) فذكر المقامات الثلاثة: الحب، وهو ابتغاء القرب إليه والتوسل إليه بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف، يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة، وخوف العذاب، ومن المعلوم قطعاً أنه لا يتنافس إلا في قرب من يحب قربه وحب قربه تبع لمحبة ذاته، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه. (٢)

إن المحبة الصادقة لله -تعالى- من عباده تتحقق بطاعته -سبحانه- وحب لقائه، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (٣) فلما كان الجهاد في سبيل الله إزهاق الأرواح في طاعته، مدحهم الله -تعالى- بقوله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ و هذا الفضل هو نتيجة بعد الوسيلة و هي الجهاد، و الأصل هو محبة الله التي تُحرك النفوس نحو ربها، فلا تتحقق النتيجة و الوسيلة إلا بهذا الأصل العظيم الذي هو الأساس الذي يدفع الإنسان لفعل الخيرات و ترك المنكرات، و هو من أكبر أسباب توحيد العبادة، و ولاية الله -تعالى- و محبته، فإن المحبوب في حرز حبيبه، نظر لنظره، و سعى لسعيه، و زجر لزجره، و انتهى لنهيه، و أحب لحبه، و أبغض لبغضه. و هذا هو أثر العبادة حقاً و ولاية ربه صدقاً، فمن نقص شيئاً من هذا، نقص قدر ذلك من توحيد العبادة و ولاية ربه، كما قال النبي -ﷺ-: "من أحب لله و أبغض لله، و أعطى لله و منع لله، فقد استكمل الإيمان." (٤)

و قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ (٥)

١ - الإسراء: ٥٧

٢ - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٣١٩

٣ - الكهف: ١١٠

٤ - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه. رقم (٤٦٨٣) ٤/٣٥٤ قال

الألباني: صحيح، انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/٦٥٧

٥ - يونس: ٦٢ - ٦٣

قال أبو جعفر: "يقول تعالى ذكره: ألا إن أنصار الله لا خوف عليهم في الآخرة من عقاب الله؛ لأن الله رضي عنهم فآمنهم من عقابه. ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا. والأولياء جمع ولي. وهو النصير."^(١)

و قال في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ "يقول تعالى ذكره: الذين صدقوا لله ورسوله، وما جاء به من عند الله، وكانوا يتقون الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه. وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من نعت الأولياء، ومعنى الكلام: ألا إن أولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون."^(٢)

قال ابن كثير: "يخبر -تعالى- أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسرههم ربهم، فكل من كان تقياً كان لله ولياً، وأنه ﴿لَا خَوْفٌ﴾ أي: فيما يستقبلون من أهوال القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم في الدنيا.

وقال عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وغير واحد من السلف: أولياء الله الذين إذا رُؤوا ذُكر الله."^(٣)

قال السعدي: "يخبر -تعالى- عن أوليائه وأحبائه، ويذكر أعمالهم، وأوصافهم، وثوابهم، فقال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما أسلفوا؛ لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال. وإذا كانوا لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وصدقوا إيمانهم باستعمال التقوى بامتنال الأوامر، واجتناب النواهي. فكل من كان مؤمناً تقياً كان لله -تعالى- ولياً."^(١)

١ - تفسير الطبري ١١٨/١٥

٢ - تفسير الطبري ١٢٣/١٥

٣ - تفسير ابن كثير ٢٧٨/٤-٢٧٩

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "و أولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما ذكر الله - تعالى - في كتابه، وهم قسمان: المقتصدون أصحاب اليمين، والمقربون السابقون، فولي الله ضد عدو الله، قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ (٢) إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ (٤) وقال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (٥) وقال: ﴿أَفْتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ (٦) و عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال: رسول الله - ﷺ - يقول الله تعالى: "من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبني يبصر، وبني يبطش، وبني يمشي، ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه." (٧)

والولي مشتق من الولاء وهو القرب، كما أن العدو من العدو، وهو البعد. فولي الله من والاه بالموافقة له في محبوباته ومرضاياته، وتقرب إليه بما أمر به من طاعاته." (٨)

١ - تفسير السعدي ص ٣٦٨

٢ - المائة: ٥٥

٣ - المائة: ٥٦

٤ - الممتحنة: ١

٥ - فصلت: ١٩

٦ - الكهف: ٥٠

٧ - سبق ترجمه في صفحة ٢٣٩

٨ - دقائق التفسير - ابن تيمية ٢/٢١٩-٢٢٠

قال ابن القيم: "ولاية الله - تعالى - لعبده هي بحسب إيمانه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٢) وكذلك معيته الخاصة هي لأهل الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣) فإذا نقص الإيمان وضعف كان حظ العبد من ولاية الله له، ومعيته الخاصة بقدر حظه من الإيمان، وكذلك النصر والتأييد الكامل إنما هو لأهل الإيمان الكامل، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾^(٤) وقال: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾^(٥)

فمن نقص إيمانه، نقص نصيبه من النصر والتأييد، ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله أو بإدالة عدوه عليه، فإنما هي بذنوبه، إما بترك واجب، أو فعل محرم، وهو من نقص إيمانه.^(٦)

فولاية الله - تعالى - هي صلة عظيمة بينه - تعالى - وبين وليه، وهي لا تتحقق إلا بتوحيد العبادة مهما عظم شأن العبد. و من ادعى الولاية بغير توحيد العبادة، فقد كذب على الله تعالى؛ لأن توحيد العبادة يُدخِل العبد في الإيمان و التقوى، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾

١ - آل عمران: ٦٨

٢ - البقرة: ٢٥٧

٣ - العنكبوت: ٦٩

٤ - غافر: ٥١

٥ - الصف: ١٤

٦ - إغاثة اللهفان ٢/١٨٢

وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٤﴾ فلحصول ولاية الله -تعالى- لا بد من هذين الأمرين. و بولاية الله -تعالى- ينال الإنسان البشارة العظيمة، قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾^(١) و هذا الأثر من توحيد العبادة عظيم النفع، بالغ الأثر، و قليل من الناس من يطلبه و يحرص عليه.

ثالثاً: رفعة أهله و عزتهم

إن العزة و الرفعة لله -تعالى- وحده، و من تمام عزته براءته عن كل سوء و شر و عيب، فإن ذلك ينافي العزة التامة، وكذلك اسمه العلي الذي علا عن كل عيب و سوء و نقص، فمهما حقق العبد توحيد العبادة اعتز بالله العلي العزيز، و علا على العباد، لا لإرادته و كبره، بل لعبادته العلي العزيز الذي يؤتي العزة و الرفعة لمن يشاء، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۗ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۗ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ ﴿١٠﴾﴾^(٢)

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ "أي: من كان يجب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة، فليزِم طاعة الله، فإنه يحصل له مقصوده؛ لأن الله مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعها، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْذُونَ الْكُفْرِينَ أَوْلِيَائِهِ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلَيْسَتْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾"^(٣)

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾^(٤) وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ

١ - يونس: ٦٤

٢ - فاطر: ١٠

٣ - النساء: ١٣٩

٤ - يونس: ٦٥

وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾^(١)

قال مجاهد: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ بعبادة الأوثان، ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وقال قتادة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: فليتعزز بطاعة الله عز وجل. وقيل: من كان يريد علم العزة، لمن هي، ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ حكاه ابن جرير.^(٢) قال الشوكاني: "والظاهر في معنى الآية: أن من كان يريد العزة ويطلبها، فليطلبها من الله عز وجل: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ ليس لغيره منها شيء، فتشمل الآية كل من طلب العزة، ويكون المقصود بها التنبيه لذوي الأقدار، وأهمهم من أين تنال العزة، ومن أي جهة تطلب."^(٣)

قال ابن عاشور: "وتعريف العزة، تعريف الجنس. والعزة: الشرف والحصانة من أن ينال بسوء. فالمعنى: من كان يريد العزة فانصرف عن دعوة الله إبقاء على ما يخاله لنفسه من عزة، فهو مخطئ إذ لا عزة له، فهو كمن أراق ماء للمع سراب. والعزة الحق لله الذي دعاهم على لسان رسوله. وعزة المولى ينال حزيه وأوليائه حظ منها، فلو اتبعوا أمر الله فالتحقوا بحزيه صارت لهم عزة الله، وهي العزة الدائمة، فإن عزة المشركين يعقبها ذل الانهزام والقتل والأسر في الدنيا، وذل الخزي والعذاب في الآخرة، وعزة المؤمنين في تزايد الدنيا ولها درجات كمال في الآخرة."^(٤)

وقال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ "أي: من كان يطلب العزة، فليطلبها بطاعة الله بالكلم الطيب والعمل الصالح. وقال بعض السلف: "الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ولا يجدونه إلا في طاعة الله." وقال الحسن: "وإن

١ - المنافقون: ٨

٢ - تفسير ابن كثير ٥٣٦/٦

٣ - تفسير الشوكاني ٣٤١/٤

٤ - التحرير والتنوير ٢٧١/٢٢

هملجت^(١) بهم البراذين^(٢) وطقطقت بهم البغال إن ذل المعصية لفي قلوبهم أبي الله - عز و
جل - إلا أن يذل من عصاه، وذلك أن من أطاع الله - تعالى - فقد والاه، ولا يذل من والاه
ربه، كما في دعاء القنوت: "إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت."^(٣) (٤)

و قَالَ تَعَالَى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٥)
قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: يرفع الله المؤمنين منكم أيها القوم بطاعتهم ربهم، فيما أمرهم
به من التفسح في المجلس إذا قيل لهم تفسحوا، أو بنشوزهم إلى الخيرات إذا قيل لهم انشزوا
إليها، ويرفع الله الذين أوتوا العلم من أهل الإيمان على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم بفضل
علمهم درجات، إذا عملوا بما أمروا به. ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ إن بالعلم لأهله فضلاً، وإن له على أهله حقاً، ولعمري
للحق عليك أيها العالم فضل، والله معطي كل ذي فضل فضله.

وكان مطرف بن عبد الله بن الشخير^(٦) يقول: "فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة،
وخير دينكم الورع."

وكان يقول: "إنك لتلقى الرجلين أحدهما أكثر صوماً وصلاةً وصدقةً، والآخر أفضل منه بوناً
بعيداً. قيل له: وكيف ذلك؟ فقال: هو أشدهما ورعاً لله عن محارمه."

١ - هَمَلَجٌ: والهِمْلَاجُ الحَسَنُ السَّيْرُ فِي سُرْعَةٍ وَبِحَيْثَرَةٍ. انظر: لسان العرب ٣٩٣/٢

٢ - البراذين من الخَيْلِ ما كان من غير نِتَاجِ العَرَابِ وَبَرْدَنَ الفَرَسِ مَشَى مَشْيَ البَرَّادِينَ وَبَرْدَنَ الرَّجُلِ نُقِلَ. انظر: لسان
العرب ٥١/١٣

٣ - هذا جزء من حديث أخرجه أبو داود في كتاب الوتر، باب القنوت في الوتر. رقم (١٤٢٧) ٥٣٦/١ قال
الألباني: صحيح. انظر: صحيح وضعيف سنن أبي داود ٤٢٥/٣

٤ - إغاثة اللهفان ٤٨/١

٥ - المجادلة: ١١

٦ - هو مُطَرِّف بن عبد الله بن الشَّخِيرِ الحرشي العامري، أبو عبد الله: زاهد من كبار التابعين. له كلمات في الحكمة
الحكمة مأثورة، وأخبار. ثقة. ولد في حياة النبي ﷺ - . كانت إقامته ووفاته في البصرة سنة ٨٧ هـ. انظر: سير أعلام
النبلأ ١٨٧/٤

قال ابن زيد^(١)، في قوله: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ " في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يقول تعالى ذكره: والله بأعمالكم أيها الناس ذو خبرة، لا يخفى عليه المطيع منكم ربه من العاصي، وهو مجاز جميعكم بعمله المحسن بإحسانه، والمسيء بالذي هو أهله أو يعفو."^(٢)

قال البغوي في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ "بطاعتهم لرسوله -ﷺ- وقيامهم من مجالسهم وتوسعتهم لإخوانهم ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من المؤمنين بفضل علمهم وسابقتهم ﴿دَرَجَاتٍ﴾ فأخبر الله -عز وجل- أن رسوله -ﷺ- مصيب فيما أمر، وأن أولئك المؤمنين مثابون فيما ائتمروا، وأن النفر من أهل بدر مستحقون لما عوملوا من الإكرام. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ قال الحسن: قرأ ابن مسعود هذه الآية وقال: أيها الناس افهموا هذه الآية ولنرغبنكم في العلم، فإن الله تعالى يقول: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ المؤمن العالم فوق الذي لا يعلم درجات."^(٣)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ خص -سبحانه- رفعه بالأقدار والدرجات الذين أوتوا العلم والإيمان، وهم الذين استشهد بهم في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾^(٤) وأخبر أنهم هم الذين يرون ما أنزل إلى الرسول هو الحق بقوله تعالى: ﴿وَيَرَى

١ - هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمري المدني، أخو أسامة، وعبد الله، كان عبد الرحمن صاحب قرآن وتفسير،

جمع تفسيراً في مجلد، وكتاباً في الناسخ والمنسوخ. توفي: سنة اثنتين وثمانين ومائة. سير أعلام النبلاء ٣٤٩/٨

٢ - تفسير الطبري ٢٣/٢٤٦-٢٤٧

٣ - تفسير البغوي ٥٨/٨

٤ - آل عمران: ١٨

الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴿١﴾ فدلَّ على أن تعلم الحجة، والقيام بها يرفع درجات من يرفعها، كما قال تعالى: ﴿زَفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ ذُنُوبِهِمْ﴾ (٢) قال زيد بن أسلم: بالعلم. فرفع الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان. فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة أو مرتين، وآخر لا ينام الليل، وآخر لا يفطر وغيرهم أقل عبادة منهم، وأرفع قدراً في قلوب الأمة. فهذا كُرْز بن وَبَرَةَ (٣) وَكَهْمَس (٤) وابن طارق (٥) يختمون القرآن في الشهر تسعين مرة، وحال ابن المسيب (٦) وابن سيرين (٧) والحسن وغيرهم في القلوب أرفع. وكذلك ترى كثيراً ممن لبس الصوف ويهجر الشهوات ويتقشف، وغيره ممن لا يدانيه في ذلك من أهل العلم والإيمان أعظم في القلوب وأحلى عند النفوس، وما ذاك إلا لقوة المعاملة الباطنة، وصفائها وخلوصها من شهوات النفوس، وأكدار البشرية وطهارتها من القلوب التي تكدر معاملة أولئك، وإنما نالوا ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول، وكمال تصديقه في قلوبهم، ووده ومحبته وأن يكون الدين كله لله، فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ - وابتهاجها وسرورها، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ (٨) وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ

١ - سبأ: ٦

٢ - الأنعام: ٨٣

٣ - هو كُرْز بن وَبَرَةَ الحارثي، أبو عبد الله: تابعي، من أهل الكوفة، يضرب به المثل في التعبد و الزهد و القدوة. دخل جرجان غازياً مع يزيد بن المهلب سنة ٩٨ هـ ثم سكنها وتوفي سنة ١١٠ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٦/٨٤

٤ - هو كَهْمَس بن الحسن التميمي الحنفي البصري العابد، أبو الحسن، من كبار الثقات. كان يصلي في اليوم واللييلة ألف ركعة وكان براً بأمه، فلما ماتت حج، وأقام بمكة حتى مات، وكان يؤذن. انظر: سير أعلام النبلاء ٦/٣١٦

٥ - عمرو بن مُرَّة بن عبد الله بن طارق المرادي. انظر صفحة ٢٠٥

٦ - سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، أبو محمد: أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. جمع بين الحديث والفقهاء، والزهد والورع، وكان أحفظ الناس لأحكام عمر ابن الخطاب وأقضيته، توفي بالمدينة سنة ٩٤ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٤/٢١٨

٧ - هو محمد بن سيرين البصري، الأنصاري بالولاء، أبو بكر: إمام وقته، تابعي، كان مولى لأنس بن مالك واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا. مات سنة ١١٠ هـ. سير أعلام النبلاء ٤/٦٠٦

٨ - الرعد: ٣٦

فَلْيَفْرَحُوا ﴿ الآية. ^(١) ففضل الله ورحمته: القرآن والإيمان، من فرح به، فقد فرح بأعظم مفروح به، ومن فرح بغيره، فقد ظلم نفسه ووضع الفرح في غير موضعه. فإذا استقر في القلب، وتمكن فيه العلم بكفايته لعبده ورحمته له وحلمه عنده وبره به وإحسانه إليه على الدوام، أوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كل محب بكل محبوب سواه. فلا يزال مترقياً في درجات العلو والارتفاع بحسب رقيه في

هذه المعارف. هذا في باب معرفة الأسماء والصفات، وأما في باب فهم القرآن، فهو دائم التفكير في معانيه والتدبر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئاً من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتركيب قبله، وإلا رده، وإن لم يشهد له بقبول ولا رد وقفه، وهتمته عاكفة على مراد ربه من كلامه. ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إما بالوسوسة في خروج حروفه وترقيقها، وتفخيمها وإمالتها، والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط وغير ذلك. فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه، وكذلك شغل النطق بـ (أنذرتهم) وضم الميم من (عليهم) ووصلها بالواو وكسر الهاء أو ضمها ونحو ذلك. وكذلك مراعاة النغم وتحسين الصوت. وكذلك تتبع وجوه الإعراب واستخراج التأويلات المستكرهه التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان. وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس ونتائج أفكارهم. وكذلك تأويل القرآن على قول من قلده دينه أو مذهبه، فهو يتعسف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعاً لمذهبه وتقوية لقول إمامه، وكل محبوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره. وكذلك يظن من لم يقدر القرآن حق قدره أنه غير كاف في معرفة التوحيد والأسماء والصفات، وما يجب لله وينزه عنه، بل الكافي في ذلك عقول الحيارى والمتهوكين ^(٢) الذين كل منهم قد خالف صريح القرآن

١ - يونس: ٥٨

٢ - مُتَهَوِّكٌ: هوك الهوك: الحُمق، رجلٌ هَوَّكٌ مُتَهَوِّكٌ: مُتَهَوِّزٌ، وهائِكٌ، وهَوِّكٌ، وهو أيضاً السُّقُوطُ في هَوِّةِ الرَّذَى، وهي الهَوِّكَةُ. وَالتَّهَوُّكُ التَّحْيِيرُ. انظر: المحيط في اللغة ٢٠/٤

مخالفة ظاهرة. وهؤلاء أغلظ الناس حجاً عن فهم كتاب الله - تعالى - والله - سبحانه وتعالى - أعلم." (١)

و قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) (٢)

قال البقاعي: "ولما أمرهم بالمسارعة وأتبعها علتها ونتيجتها، نهاهم عما يعوق عنه من قبل الوهن الذي عرض لهم عند رؤيتهم الموت فقال - ويجوز أن يعطف على ما تقديره: فتبينوا واهتدوا واتعظوا إن كنتم متقين، وانظروا أخذنا لمن كان قبلكم من أهل الباطل، وإن كان لهم دول وصولات ومكر وحيل: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي: في جهاد أعدائكم الذين هم أعداء الله، فالله معكم عليهم، وإن ظهروا يوم أحد نوع ظهور فسترون إلى من يؤول الأمر ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي: على ما أصابكم منهم، ولا على غيره مما عساه ينوبكم ﴿و﴾ الحال أنكم ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: في الدارين ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كان الإيمان - وهو التصديق بكل ما يأتي عن الله - لكم صفة راسخة، فإنهم لا يهنون؛ لأنكم بين إحدى الحسينين، كما لم يهن من سيقص عليكم نبأهم ممن كانوا مع الأنبياء قبلكم لعلوكم عدوكم، أما في الدنيا، فلأن دينكم حق ودينهم باطل، ومولاكم العزيز الحكيم الذي قد وعدكم الحق الملك الكبير لمن قتل، والنصر والتوزر لمن بقي، وهو حي قيوم، ولا يخفى عليه شيء من أحوالكم، فهو ناصركم وحاذلكم. وأما في الآخرة، فلأنكم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهم في النار عند ملائكة العذاب الغلاظ الشداد أبدأ." (٣)

قال ابن القيم: "والله - سبحانه - إنما ضمن نصر دينه وحزبه وأوليائه القائمين بدينه علماً وعملاً، لم يضمن نصر الباطل ولو اعتقد صاحبه أنه محق، وكذلك العزة والعلو إنما هما لأهل الإيمان الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه، وهو علم وعمل وحال، قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) فللعبد من العلو بحسب ما معه من الإيمان. وقال تعالى:

١ - مجموع الفتاوى ٥١/١٦

٢ - آل عمران: ١٣٩

٣ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٥٩/٢

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) فله من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه، فإذا فاته حظ من العلو والعزة، ففي مقابلة ما فاته من حقائق الإيمان علماً وعملاً، ظاهراً وباطناً. وكذلك الدفع عن العبد هو بحسب إيمانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(٢) فإذا ضعف الدفع عنه، فهو من نقص إيمانه. وكذلك الكفاية والحسب هي بقدر الإيمان، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) أي: الله حسبك وحسب اتباعك، أي: كافيك وكافيهم، فكفايته لهم بحسب اتباعهم لرسوله وانقيادهم له وطاعتهم له، فما نقص من الإيمان عاد بنقصان ذلك كله، ومذهب أهل السنة والجماعة: أن الإيمان يزيد وينقص.

إلى أن قال: "وبهذا يزول الإشكال الذي يورده كثير من الناس على قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾^(٤) ويجيب عنه كثير منهم بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلاً في الآخرة، ويجيب آخرون بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلاً في الحجة. والتحقيق: أنها مثل هذه الآيات وأن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى، فالمؤمن عزيز غالب مؤيد منصور مكفي مدفوع عنه بالذات أياً كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها إذا قام الإيمان وواجباته ظاهراً وباطناً، وقد قال -تعالى- للمؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾^(٥)

١ - المنافقون: ٨

٢ - الحج: ٣٨

٣ - الأنفال: ٦٤

٤ - النساء: ١٤١

٥ - محمد: ٣٥

فهذا الضمان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم التي هي جندٌ من جنود الله يحفظهم بها، ولا يفردوها عنهم ويقتطعها عنهم، فيبطلها عليهم كما يترُّ الكافرين والمنافقين أعمالهم، إذ كانت لغيره ولم تكن موافقة لأمره." (١)

فأثر توحيد العبادة على العبد كبير في عزته و رفعته في هذه الدنيا، بل لا يكون العبد عزيزاً و لا رفيعاً إلا بتوحيد العبادة، و بعزة العزيز سيبلغ هذا الدين مشارق الأرض ومغاربها، قال رسول الله - ﷺ -: "ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر." (٢)

رابعاً: آثار توحيد العبادة في الآخرة

١ - بقاء الخلة بين المؤمنين و انقلابها إلى عداوة بين الكافرين

كل نفس ذائقة الموت، فإذا كان يوم القيامة يبدو لكل نفس ما عملت من خير أو شر، و يتبع كل إنسان ما كان يعبد، فتظهر قيمة توحيد العبادة لكل من كان يشك فيه أو يقصر، ويتبرأ كل إنسان من صديقه إلا أهل العبادة، فمن آثار توحيد العبادة بقاء الخلة بين المؤمنين و انقلابها إلى عداوة بين الكافرين، قَالَ تَعَالَى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) يَنْعَبَادُوا لَآ حَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ (٣)

قال ابن كثير: "وقوله: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ أي: كل صداقة وصحابة لغير الله، فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله -عز وجل- فإنه دائم بدوامه. وهذا كما قال إبراهيم -عليه السلام- لقومه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ

١ - إغاثة اللهفان ١٨١/٢-١٨٣

٢ - أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث تميم الداري رضي الله عنه. رقم (١٦٩٩٨) ١٠٣/٤
قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم

٣ - الزخرف: ٦٧ - ٦٩

أَوْثِنَا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ
بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَنُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّصِيرِينَ ﴿٢٥﴾^(١)

وقال: علي رضي الله عنه: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ قال: خليلان مؤمنان، وخليلان كافرين، فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة فذكر خليله، فقال: اللهم إن فلاناً خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر، وينبئني أبي ملائكتك، اللهم فلا تضله بعدي حتى تريبه مثل ما أربتني، وترضى عنه كما رضيت عني. فيقال له: اذهب، فلو تعلم ما له عندي لضحكت كثيراً، وبكيت قليلاً. قال: ثم يموت الآخر، فتجتمع أرواحهما، فيقال: ليثن أحدكما على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نعم الأخ، ونعم الصاحب، ونعم الخليل. وإذا مات أحد الكافرين، وبشر بالنار ذكر خليله فيقول: اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير، ويخبرني أبي غير ملائكتك، اللهم فلا تهده بعدي حتى تريبه مثل ما أربتني، وتسخط عليه كما سخطت علي. قال: فيموت الكافر الآخر، فيجمع بين أرواحهما فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه. فيقول كل واحد منهما لصاحبه: بئس الأخ، وبئس الصاحب، وبئس الخليل.^(٢)

وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين.

إلى أن قال في قوله تعالى: ﴿يَنْعَبُدُونَ مَا لَا حَافِيَةَ لَهُمْ أَفَلَا يَحْزَنُونَ﴾ ثم بشرهم.

فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أي: آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم.^(٣)

وقال الشوكاني في قوله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ "أي: الأخلاء في الدنيا المتحابون فيها يوم تأتيهم الساعة بعضهم لبعض عدو، أي: يعادي بعضهم بعضاً،

١ - العنكبوت: ٢٥

٢ - رواه الطبري في تفسيره ٦٣٨/٢١ و ابن أبي حاتم في تفسيره ٣٢٨٥/١٠ و البيهقي في شعب الإيمان، رقم ٥٦٧ (٩٤٤٣)

٣ - تفسير ابن كثير ٢٣٧/٧-٢٣٨

لأنها قد انقطعت بينهم العلائق، واشتغل كل واحد منهم بنفسه، ووجدوا تلك الأمور التي كانوا فيها أخلاء أسباباً للعذاب فصاروا أعداء. ثم استثنى المتقين، فقال: ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة؛ لأنهم وجدوا تلك الخلة التي كانت بينهم من أسباب الخير والثواب، فبقيت خللتهم على حالها ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي: يقال لهؤلاء المتقين المتحابين في الله بهذه المقالة، فيذهب عند ذلك خوفهم ويرتفع حزنهم. (١)

قال ابن القيم: "إذا كان يوم المعاد ولي الحكم العدل - سبحانه - كل محب ما كان يحبه في الدنيا، فكان معه، إما منعماً أو معذباً، ولهذا يمثل لصاحب المال ماله شجاعاً أقرع يأخذ بلهزمتيه، يعني شدقيه يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ويصفح له صفائح من نار يكوى بها جبينه وجنبه وظهره، وكذلك عاشق الصور إذا اجتمع هو ومعشوقه على غير طاعة الله -

تعالى - جمع الله بينهما في النار، وعذب كل منهما بصاحبه، قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ وأخبر - سبحانه - أن الذين توادوا في الدنيا على الشرك يكفر بعضهم ببعض يوم القيامة، ويلعن بعضهم بعضاً، ومأواهم النار وما لهم من ناصرين. فالحب مع محبوبه دنيا وأخرى، ولهذا يقول الله - تعالى - يوم القيامة للخلق: أليس عدلاً مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا. وقال - ﷺ -: "المرء مع من أحب." (٢) وقال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْزُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ

سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لِمَ اتَّخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي

وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾" وقال تعالى: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا

١ - تفسير الشوكاني ٤/٥٦٣

٢ - أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب علامة حب الله عز وجل. رقم (٦١٦٨) ٤٨/٨ و مسلم، كتاب البر والصلة و الأدب، باب المرء مع من أحب رقم (٦٨٨٨) ٤٢/٨

٣ - الفرقان: ٢٧ - ٢٩

كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقَفَّوهُمْ إِيَّاهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴿١﴾

قال عمر بن الخطاب (٢) - رضي الله عنه -: "أزواجهم : أشباههم ونظراؤهم."

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا التُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ (٣) فقرن كل شكل إلى شكله، وجعل معه قريناً وزوجاً: البر مع البر، والفاجر مع الفاجر.

والمقصود: أن من أحب شيئاً سوى الله - عز و جل - فالضرر حاصل له بمحبوبه، إن وجد وإن فقد، فإنه إن فقد عذب بفواته، وتأم على قدر تعلق قلبه به، وإن له من الألم قبل حصوله ومن النكد في حال حصوله، ومن الحسرة عليه بعد فوته أضعاف أضعاف ما في حصوله له من اللذة. (٤)

٢ - اسوداد وجوه الكافرين و بياض وجوه المؤمنين

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴿٥﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ﴿١٠٦﴾ ﴿٦﴾

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى ﴾ يا محمد هؤلاء ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ من قومك فزعموا أن له ولداً، وأن له شريكاً، وعبدوا آلهة من دونه ﴿ وُجُوهُهُمْ

١ - الصفات: ٢٢ - ٢٥

٢ - هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص: ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقب بأمر المؤمنين، صاحب الفتوحات. كان في الجاهلية من أبطال قريش وأشرافهم، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين، وشهد الوقائع. لم يزل الإسلام في اختفاء حتى أسلم عمر. وبويع بالخلافة بعد أبي بكر سنة ١٣ هـ بعهد منه. وفي أيامه تم فتح الشام والعراق، و القدس والمدائن، ومصر والجزيرة. استشهد سنة ٢٣ هـ. انظر: الإصابة (٥٧٤٠) ٤/٥٨٨

٣ - التكوير: ٧

٤ - إغاثة اللهفان ٣٩/١

٥ - الزمر: ٦٠ - ٦١

٦ - آل عمران: ١٠٦

مُسَوَّدَةٌ ﴿ الوجوه وإن كانت مرفوعة بمسودة، فإن فيها معنى نصب؛ لأنها مع خبرها تمام ترى، ولو تقدم قوله مسودة قبل الوجوه، كان نصباً، ولو نصب الوجوه المسودة ناصب في الكلام لا في القرآن، إذا كانت المسودة مؤخرة كان جائزاً."

إلى أن قال في قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ يقول: أليس في جهنم مأوى ومسكن لمن تكبر على الله، فامتنع من توحيد، والانتهاه إلى طاعته فيما أمره ونهاه عنه."

وقال في قوله تعالى: ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره: وينجي الله من جهنم وعذابها الذين اتقوه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه في الدنيا، بمفازتهم: يعني بفوزهم، وهي مفعلة منه." (١)

قال ابن كثير: "يخبر -تعالى- عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه، وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال -تعالى- هاهنا: ﴿ وَيَوْمَ أَقِيمَةَ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أي: في دعواهم له شريكاً وولداً ﴿ وَجُوهُهُمْ مُسَوَّدَةٌ ﴾ أي: بكذبهم وافترائهم.

وقوله: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي: أليست جهنم كافية لهم سجنًا وموتلاً لهم فيها دار الخزي والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق.

وقال في قوله تعالى: ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ أي: مما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله، ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي: ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فزع، مزرحون عن كل شر، مؤملون كل خير." (٢)

١ - تفسير الطبري ٣١٨/٢١-٣١٩

٢ - تفسير ابن كثير ١١١/٧

قال السعدي: "يخبر -تعالى- عن خزي الذين كذبوا عليه، وأن وجوههم يوم القيامة مسودة كأنها الليل البهيم، يعرفهم بذلك أهل الموقف، فالحق أبلج واضح كأنه الصبح، فكما سؤدوا وجه الحق بالكذب، سود الله وجوههم، جزاء من جنس عملهم.

فلهم سواد الوجوه، ولهم العذاب الشديد في جهنم، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق، وعن عبادة ربه، المفترين عليه -بلى والله- إن فيها لعقوبة وخزياً وسخطاً يبلغ من المتكبرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم بها.

والكذب على الله يشمل الكذب عليه باتخاذ الشريك والولد والصاحبة، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله، أو ادعاء النبوة، أو القول في شرعه بما لم يقله، والإخبار بأنه قاله وشرعه.

ولما ذكر حالة المتكبرين، ذكر حالة المتقين، فقال: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: بنجاتهم، وذلك لأن معهم آلة النجاة، وهي تقوى الله -تعالى- التي هي العدة عند كل هول وشدة. ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ أي: العذاب الذي يسوؤهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فنفى عنهم مباشرة العذاب وخوفه، وهذا غاية الأمان. فلهم الأمان التام يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام، فحينئذ يأمنون من كل سوء ومكروه، وتجري عليهم نضرة النعيم، ويقولون ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (١) (٢)

وأثر توحيد العبادة يوم القيامة يظهر لكل أحد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ

وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٦)

وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٧) (٣) وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ

الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ

١ - فاطر: ٣٤

٢ - تفسير السعدي ص ٧٢٨

٣ - آل عمران: ١٠٦ - ١٠٧

﴿٦٠﴾ (١) وقال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌُ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَنْظُرُونَ أَن يُفْعَلَٰ بِهَا فَاغْرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌُ يَوْمَئِذٍ عَلِيًّا غَبْرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ (٤) و ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ (٥) وقال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعِثُّوْا يُعَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوْهَ ﴿٦﴾﴾ (٦) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ (٧)

٣- دخول أهل الجنة الجنة و أهل النار النار

قال الله تعالى في أهل الجنة: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْثَقْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ (٨) وقال تعالى في أهل النار: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ

١ - الزمر: ٦٠

٢ - القيامة: ٢٢ - ٢٥

٣ - عبس: ٣٨ - ٤٢

٤ - الغاشية: ٢ - ٤

٥ - الغاشية: ٨ - ٩

٦ - الكهف: ٢٩

٧ - المطففين: ٢٢ - ٢٤

٨ - الزمر: ٧٣ - ٧٤

رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾
 قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ (١)

قال السعدي في تفسير هذه الآيات: "لما ذكر تعالى حكمه بين عباده الذين جمعهم في خلقه وورقه وتدبيره، واجتماعهم في الدنيا، واجتماعهم في موقف القيامة، فرقهم تعالى عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر، والتقوى والفجور، فقال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: سوقا عنيفا، يضربون بالسياط الموجهة، من الزبانية الغلاظ الشداد، إلى شر محبس وأفظع موضع، وهي جهنم التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء، وزال عنها كل سرور، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ (٢) أي: يدفعون إليها دفعا، وذلك لامتناعهم من دخولها.

ويساقون إليها ﴿زُمَرًا﴾ أي: فرقا متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها يلعن بعضهم بعضا، ويبرأ بعضهم من بعض. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ أي: وصلوا إلى ساحتها ﴿فُتِحَتْ﴾ لهم أي: لأجلهم ﴿أَبْوَابُهَا﴾ لقدومهم وقري لنزولهم. وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا مَهْثِثِينَ لَهُمُ الشَّقَاءَ الْأَبْدِي، والعذاب السرمدي، وموبخين لهم على الأعمال التي أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتمكنون من التلقي عنهم؟ ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ التي أرسلهم الله بها، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين. ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: وهذا يوجب عليكم اتباعهم والحذر من عذاب هذا اليوم، باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟ ﴿قَالُوا﴾ مقرين بذنبهم، وأن حجة الله قامت عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته، وبينوا لنا غاية التبيين، وحذرونا من هذا اليوم. ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب، التي

١ - الزمر: ٧١ - ٧٢

٢ - الطور: ١٣

هي لكل من كفر بآيات الله، ووجد ما جاءت به المرسلون، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.

﴿ قِيلَ ﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال: ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها. ﴿ خَلِدِينَ فِيهَا ﴾ أبداً، لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا ينظرون. ﴿ فَيَسَسَ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي: بسئس المقر، النار مقرهم، وذلك لأنهم تكبروا على الحق، فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة والذل، والحزى.

ثم قال عن أهل الجنة: ﴿ وَسَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ بتوحيده والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز يحشرون وفدا على النجائب. ﴿ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة، التي تناسب عملها وتشاكله. ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا ﴾ أي: وصلوا لتلك الرحاب الرحبية والمنازل الأنيقة، وهبَّ عليهم ريحها ونسيمها، وأن خلودها ونعيمها. ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾ لهم ﴿ أَبْوَابُهَا ﴾ فتح إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها. ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ تهنئة لهم وترحيباً: ﴿ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أي: سلام من كل آفة وشر حال عليكم ﴿ طِبِّئُمْ ﴾ أي: طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبته وخشيتته، وألسنتكم بذكره، وجوارحك بطاعته. ﴿ ف ﴾ بسبب طبيعكم ﴿ فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون.

وقال في النار ﴿ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ وفي الجنة ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾ بالواو، إشارة إلى أن أهل النار بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها من غير إنظار ولا إمهال، وليكون فتحها في وجوههم، وعلى وصولهم، أعظم حرها، وأشد لعذابها.

وأما الجنة، فإنها الدار العالية الغالية، التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد، إلا من أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك، فيحتاجون لدخولها لشفاعة أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد صلى الله عليه وسلم، حتى يشفع، فيشفعه الله تعالى. ^(١)

فأثر توحيد العبادة يتبين عند دخول الجنة أو النار، وأما الجنة، فإنها دار الطيب في الأقوال والأعمال والمآكل والمشارب، وهي لمن حقق توحيد العبادة. و أما النار، فإنها دار الخبث، فالله تعالى يجمع الخبيث بعضه إلى بعض فيركمه، ثم يجعله في جهنم مع أهله، فليس فيها إلا خبيث. ولما كان الناس في توحيد العبادة على ثلاث طبقات: طيب لا خبيث فيه، وخبث لا طيب فيه، وآخرون فيهم خبث وطيب، دورهم ثلاثة: دار الطيب المحض، ودار الخبيث المحض، ودار لمن معه خبث وطيب، وهي دار العصاة، فإنه لا يبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحد، فإنه إذا عذبوا بقدر جزائهم أخرجوا من النار، فأدخلوا الجنة. فيا للعزة و الكرامة لمن سيق إلى الجنة و يتبين تحقيقه للتوحيد، و يا للذل و القهر لمن سيق إلى النار و لطلخ توحيدده بما لا يليق و فرط فيه.

المبحث الثاني: أسباب الثبات على توحيد العبادة

- ١- الإخلاص
- ٢- الدعاء
- ٣- الذكر
- ٤- الاستغفار
- ٥- الصبر
- ٦- الشكر
- ٧- الأعمال الصالحة

إن من عباد الله من يدخل في طاعة الله و يحقق توحيد العبادة، لكنه بعد فترة تضعف عزمته و ثباته، و ليس ذلك إلا لأنه ترك أسباب الثبات. و أسباب الثبات كثيرة، وأنا أذكر هنا أبرزها التي قد لا يصح توحيد العبادة إلا بها.

١ - الإخلاص

جاءت الشريعة، فبينت طرق عدة لإخلاص العبد عمله لله تعالى، فتارة يبين الله تعالى نتيجة الإخلاص في الدنيا و الآخرة، و تارة يبين نجاة المخلصين من مكر أعدائه، و تارة يبين أن الشيطان لا يضر المخلصين و لا يضلهم، و تارة يأمر بالإخلاص في العبادة، و غير ذلك. و الإخلاص شرط لقبول العمل، فلا يقبل العمل إلا به، و خاصة العبادة. فقد أمر الله تعالى بالإخلاص، فقال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (١)

قال السعدي في تفسير هذه الآية: "وإذا لم يؤمن أهل الكتاب لهذا الرسول وينقادوا له، فليس ذلك ببدع من ضلالهم وعنادهم، فإنهم ما تفرقوا واختلفوا وصاروا أحزاباً ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ (٢) التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق، ولكنهم لرداءتهم وندالتهم لم يزدتهم الهدى إلا ضلالاً، ولا البصيرة إلا عمى مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد، ودين واحد، فما أمروا في سائر الشرائع إلا أن يعبدوا ﴿ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ (٣) أي: قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه، ﴿ حُنَفَاءَ ﴾ أي: معرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد. وخصَّ الصلاة والزكاة بالذكر مع

١ - البينة: ٥

٢ - البينة: ٤

٣ - الزمر: ٢

أنهما داخلان في قوله ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.

﴿وَذَلِكَ﴾ أي: التوحيد والإخلاص في الدين هو ﴿دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي: الدين المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم.^(١)

و قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ "أي: وما أمر هؤلاء الكفار في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: ليوحده. واللام في ﴿لِيَعْبُدُوا﴾ بمعنى (أن).

وقال في قوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: العبادة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ وفي هذا دليل على وجوب النية في العبادات، فإن الإخلاص من عمل القلب، وهو الذي يراد به وجه الله -تعالى- لا غيره.

وقوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ﴾ أي: مائلين عن الأديان كلها، إلى دين الإسلام، وكان ابن عباس يقول: حنفاء: على دين إبراهيم عليه السلام. وقيل: الحنيف: من اختتن وحج. قاله سعيد بن جبير^٢. قال أهل اللغة: وأصله أنه تَخَنَّفَ إلى الإسلام،^(٣) أي: مال إليه.^(٤)

قال ابن القيم: "وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فنهى - سبحانه- أن يكون أمر عباده بغير العبادة التي قد أخلص عاملها له فيها النية، ومعلوم أن إخلاص النية للمعبود أصل لنية أصل العبادة، فإذا لم يأمرهم إلا بعمل هو عبادة قد أخلص عاملها النية فيها لربه -عز و جل- ومعلوم أن النية جزء من العبادة، بل هي روح العبادة

١ - تفسير السعدي ص ٩٣١

٢ - هو سعيد بن جبير بن هشام الوابلي الأسدي، بالولاء، الكوفي، أبو عبد الله: تابعي، كان أعلمهم على الإطلاق. وهو حبشي الأصل، من موالي بني والبة بن الحارث. أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر مات سنة ٩٥ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء: ٣٢١/٤

٣ - انظر: تاج العروس من جواهر القاموس ١٧٢/٢٣ و تهذيب اللغة ٧٢/٥ و لسان العرب ٥٦/٩

٤ - تفسير القرطبي ١٤٤/٢٠

كما تبين. اعلم أن العمل الذي لم ينو ليس بعبادة، ولا مأمور به، فلا يكون فاعله متقرباً إلى الله -تعالى- وهذا مما لا يقبل نزاعاً." (١)

قال ابن تيمية: "وقد ذكر الله -تعالى- الإخلاص في كتابه في غير موضع، كقوله تعالى:

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ وقوله: ﴿ فَأَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ﴿ الْأَلَا

لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ (٢) وقوله: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾ (٣) وغير ذلك من الآيات.

وإخلاص الدين هو أصل دين الإسلام، ولذلك ذم الرياء في مثل قوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ

﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ (٤) وقوله: ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى

الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٥) وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيَاءَ النَّاسِ ﴾ (٦) الآية." (٧)

و عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: "ما قال عبد لا إله إلا الله

قط مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر." (٨)

و عن سهل بن حنيف (٩) أن النبي -ﷺ- قال: "من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله

منازل الشهداء وإن مات على فراشه." (١٠)

١ - بدائع الفوائد ٣/٧٠٧

٢ - الزمر: ٣

٣ - الزمر: ١٤

٤ - الماعون: ٤-٦

٥ - النساء: ١٤٢

٦ - النساء: ٣٨

٧ - مجموع الفتاوى ١٨/٢٥٧

٨ - أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب دعاء أم سلمة. رقم (٣٥٩٠) ٥/٥٧٥ قال هذا حديث حسن غريب

من هذا الوجه. قال الشيخ الألباني: حسن

٩ - هو سهل بن حنيف بن وهب الأنصاري الأوسي، أبو سعيد: صحابي، من السابقين. شهد بدرًا وثبت يوم أحد.

أحد. وشهد المشاهد كلها. وأخى النبي -ﷺ- بينه وبين علي بن أبي طالب. وتوفي بالكوفة سنة ٣٨هـ. انظر:

الإصابة (٣٥٢٩) ٣/١٩٨

١٠ - أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى. رقم (٥٠٣٩) ٦/٤٨

إن من أكبر أسباب الثبات على توحيد العبادة هو الإخلاص، و النجاة كل نجاة في الإخلاص لله رب العالمين، فمهما أخلصت نية العبد في الحق - ولو على نفسه - كفاه الله ما بينه وبين الناس، و كفاه كل شر، فقد قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكَّعُوكُمْ فِي السَّمَاءِ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَجَّعْتَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾^(١) و قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَالظُّلَلِ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَجَّعْتَهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾^(٢) فذكر -تعالى- أنه يُنجي المشركين من المصائب في الدنيا إذا صادفت قلوبهم الإخلاص، و إذا اعترفوا برهم حق الاعتراف، و هذه سنة الله في خلقه، ولو كانت هذه النجاة لحظات يسيرة.

فإن العبد إذا أخلص نيته لله -تعالى- وكان قصده وهمه لوجهه -سبحانه- كان الله معه، فإنه -سبحانه- ﴿مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿٣١﴾﴾ ورأس التقوى والإحسان خلوص النية لله في إقامة الحق، والله -سبحانه- لا غالب له، فمن كان معه، فمن ذا الذي يغلبه أو يناله بسوء، فإن كان الله مع العبد، فمن يخاف، وإن لم يكن معه، فمن يرجو وبمن يثق، ومن ينصره من بعده، فإذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولاً، وكان قيامه بالله، والله لم يقم له شيء، ولو كادته السماوات والأرض والجبال لكفاه الله مؤنتها، وجعل له فرجاً و مخرجاً.

إن الله -سبحانه- استثنى المخلصين من كيد الشيطان وإضلاله لهم، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعَرْنِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾﴾^(٥)

١ - العنكبوت: ٦٥

٢ - لقمان: ٣٢

٣ - النحل: ١٢٨

٤ - الحجر: ٣٩ - ٤٠

٥ - ص: ٨٢ - ٨٣

واستثناهم أن يقولوا كذباً على الرسل، قال تعالى: ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَىٰ﴾ (١٣٦)

فَكَذَّبُوهُ فَأْتَهُمْ لَمَحْضُرُونَ ﴿١٣٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٣٨﴾ (١)

و استثناهم أن يصفوا الله بغير ما وصف نفسه، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٥٩) إِلَّا

عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ (٢)

و استثنى الله -تعالى- من رجع من المنافقين عن نفاقه من العذاب، قال تعالى: ﴿إِلَّا

الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ

يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ (٣)

و لقد وصف الله أفضل خلقه -عليهم الصلاة و السلام- بالإخلاص، فقال -تعالى- في

يوسف -عليه السلام-: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ^ط وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا^ط أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ^ع كَذَلِكَ

لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ (٤)

و قال -تعالى- في موسى - عليه السلام-: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَوْسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ

رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ (٥)

و قال -تعالى- في محمد -ﷺ-: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ (٦)

وقال -تعالى- في الأنبياء و الرسل: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ (٧)

و أمر -تعالى- المؤمنين بإخلاص، فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا

لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ (٨) و قال تعالى: ﴿قُلِ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ (٩) وإن كان

١ - الصافات: ١٢٦ - ١٢٨

٢ - الصافات: ١٥٩ - ١٦٠

٣ - النساء: ١٤٦

٤ - يوسف: ٢٤

٥ - مريم: ٥١

٦ - الزمر: ١٤

٧ - ص: ٤٦

٨ - الزمر: ٢

كان الخطاب للنبي - ﷺ - يدخل فيه أمته، و قال تعالى: ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (١٤) وقال تعالى: ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٦٥) (٢)

وإنما يؤتى العبد من تفريطه وتقصيره في الإخلاص، فتوحيد العبادة لا يقبل الشرك بوجه من الوجوه. فقد قال رسول الله - ﷺ - : "قال الله - تبارك وتعالى - : أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه." (٤)

و عن معقل بن يسار (٥) يقول: انطلقت مع أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - إلى النبي - ﷺ - فقال: "يا أبا بكر! للشرك فيكم أخفى من ديب النمل. فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلهاً آخر؟ قال النبي - ﷺ - : والذي نفسي بيده، للشرك أخفى من ديب النمل. ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟ قال: قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم." (٦)

فعلى العبد أن يخلص عبادته لله وحده، وليعلم أن إخلاصه يكون سبباً في قبول عبادته وفوزه في الدنيا والآخرة.

١ - الزمر: ١١

٢ - غافر: ١٤

٣ - غافر: ٦٥

٤ - تقدم تخرجه في ص ٥٥

٥ - هو معقل بن يسار بن عبد الله المزني، يكنى أبا علي، وقيل أبو عبد الله: صحابي. أسلم قبل الحديبية. وشهد بيعة

الرضوان. وسكن البصرة و توفي بها سنة ٦٥ هـ انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ١٨٥/٦

٦ - أخرجه البخاري في الأدب المفرد، كتاب الأذكار، باب فضل الدعاء. رقم (٧١٦) ص ٢٥٠. قال الشيخ

الألباني: صحيح. انظر: صحيح الأدب المفرد ٢٥٩/١

٢ - الدعاء

و من أسباب الثبات على توحيد العبادة: الدعاء، بل الدعاء هو العبادة، كما قال النبي -ﷺ-: " الدعاء هو العبادة." ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾^(١) (٢) فإذا أكثر العبد من دعاء ربه كان سبباً في ثباته على توحيد العبادة.

قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾^(٣)

قال أبو جعفر: " وهذا تعليم من الله -عز وجل- عباده المؤمنين دعاءه كيف يدعونه، وما يقولونه في دعائهم إياه. ومعناه: قولوا: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا ﴾ شيئاً فرضت علينا عمله فلم نعمله ﴿ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ في فعل شيء نهيئنا عن فعله ففعلناه على غير قصد منا إلى معصيتك، ولكن على جهالة منا به وخطأ." (٤)

و قال في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ " ويعني بذلك -جل ثناؤه: قولوا: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا ﴾ يعني ب ﴿ إَصْرًا ﴾ العهد، كما قال -جل ثناؤه: ﴿ قَالَ أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ﴾^(٥) وإنما عنى بقوله:

١ - غافر: ٦٠

٢ - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوتر، باب الدعاء. رقم (١٤٨١) ٥٥١/١ و الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة البقرة. رقم (٢٩٦٩) ٢١١/٥ عن النعمان بن بشير. قال الشيخ الألباني: صحيح

٣ - البقرة: ٢٨٦

٤ - تفسير الطبري ١٢٩/٦

٥ - آل عمران: ٨١

﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾ ولا تحمل علينا عهداً، فنعجز عن القيام به ولا نستطيعه ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ يعني: على اليهود والنصارى الذين كلفوا أعمالاً وأخذت عهودهم ومواثيقهم على القيام بها، فلم يقوموا بها فعوجلوا بالعقوبة. فعلم الله - عز وجل - أمة محمد - ﷺ - الرغبة إليه بمسألته أن لا يحملهم من عهوده ومواثيقه على أعمال - إن ضيعوها أو أخطأوا فيها أو نسوها - مثل الذي حمل من قبلهم، فيحل بهم بخطئهم فيه وتضييعهم إياه، مثل الذي أحل بمن قبلهم." (١)

وقال في قوله تعالى: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا﴾ وفي هذا أيضاً، من قول الله - عز وجل - خبراً عن المؤمنين من مسألته إياه ذلك الدلالة الواضحة أنهم سألوه تيسير فرائضه عليهم بقوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ لأنهم عقبوا ذلك بقولهم: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾ مسألة منهم رَهِمَ أن يعفوَ لهم عن تقصير إن كان منهم في بعض ما أمرهم به من فرائضه، فيصفح لهم عنه ولا يعاقبهم عليه. وإن خفَّ ما كلفهم من فرائضه على أبدانهم." (٢)

وقال في قوله تعالى: ﴿وَأَرْحَمْنَا﴾ يعني بذلك - جل ثناؤه: تغمدا منك برحمة تنجينا بها من عقابك، فإنه ليس بناج من عقابك أحد إلا برحمتك إياه دون عمله، وليست أعمالنا منجيتنا إن أنت لم ترحمنا، فوفقنا لما يرضيك عنا."

وقال في قوله تعالى: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ يعني بقوله - جل ثناؤه: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أنت وليُّنا بنصرك، دون من عاداك وكفر بك؛ لأننا مؤمنون بك، ومطيعوك فيما أمرتنا ونهيتنا، فأنت وليٌّ من أطاعك، وعدوّ من كفر بك فعصاك، ﴿فَانصُرْنَا﴾ لأننا حزبك ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ الذين جحدوا وحدانيتك، وعبدوا الآلهة والأنداد دونك، وأطاعوا في معصيتك الشيطان." (٣)

١ - تفسير الطبري ١٣٥/٦

٢ - تفسير الطبري ١٤٠/٦

٣ - تفسير الطبري ١٤١/٦

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ "أي: لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها، كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم التي بعثت نبيك محمداً - ﷺ - نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيف السهل السمح."

و قال في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أي: من التكليف والمصائب والبلاء لا تتلينا بما لا قبل لنا به."

وقوله: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾ "أي: فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا، ﴿وَأَعْفِرْنَا﴾ أي: فيما بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة، ﴿وَأَرْحَمْنَا﴾ أي: فيما يستقبل، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره."

وقوله: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ "أي: أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك ﴿فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة." (١)

و قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٢)

قال الطبري: "وقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: ويقول ربكم أيها الناس لكم ادعوني: يقول: اعبدوني وأخلصوا لي العبادة دون من تعبدون من دوبي من الأوثان والأصنام وغير ذلك ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ يقول: أجب دعاءكم فأعفو عنكم وأرحمكم.

١ - تفسير ابن كثير ١/٧٣٨

٢ - غافر: ٦٠

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ يقول: إن الذين يتعظمون عن إفرادي بالعبادة، وإفراد الألوهة لي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ بمعنى: صاغرين. وقد قيل: إن معنى قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ إن الذين يستكبرون عن دعائي. ^(١)

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "هذا من فضله -تبارك وتعالى- وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثوري يقول: "يا من أحب عباده إليه من سأله، فأكثر سؤاله، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله، وليس كذلك غيرك يا رب." ^(٢) وقال السعدي: "هذا من لطفه بعباده، ونعمته العظيمة حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم وديناهم، وأمرهم بدعائه، دعاء العبادة، ودعاء المسألة، ووعدهم أن يستجيب لهم، وتوعد من استكبر عنها، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة، جزاء على استكبارهم." ^(٣)

قال ابن القيم: "إن الرب -سبحانه- يحب من عبده أن يسأله ويرغب إليه؛ لأن وصول بره وإحسانه إليه موقوف على سؤاله، بل هو المتفضل به ابتداءً بلا سبب من العبد، ولا توسط سؤاله وطلبه، بل قدر له ذلك الفضل بلا سبب من العبد، ثم أمره بسؤاله والطلب منه إظهاراً لمرتبة العبودية والفقر والحاجة واعترافاً بعز الربوبية، وكمال غنى الرب وتفرد بالفضل والإحسان، وأن العبد لا غنى له عن فضله طرفة عين، فيأتي بالطلب والسؤال إتيان من يعلم أنه لا يستحق بطلبه وسؤاله شيئاً، ولكن ربه -تعالى- يحب أن يسأل ويرغب إليه ويطلب منه، كما قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ

١ - تفسير الطبري ٤٠٦/٢١-٤٠٨

٢ - تفسير ابن كثير ١٥٣/٧

٣ - تفسير السعدي ص ٧٤٠

يُرْسُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ^(١) وقال: ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ^(٢) وقال: ﴿قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي

لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ ^(٣) وقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ ^(٤)

وقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ^(٥)

وقال -ﷺ-: "من لم يسأل الله يغضب عليه." ^(٦)

وقال -ﷺ-: " ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه

من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم. فقال رجل من القوم: إذا نكثت؟ قال: الله أكثر." ^(٧)

وقال -ﷺ-: "ليس شيء أكرم على الله من الدعاء." ^(٨)

وقال -تعالى- في الحديث القدسي فيما رواه أبو ذر ^(٩) -رضي الله عنه- عن رسول الله -

ﷺ- قال: "يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي

كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم. يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته،

فاستهدوني أهدكم. يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ولا

١ - البقرة: ١٨٦

٢ - النساء: ٣٢

٣ - الفرقان: ٧٧

٤ - الأعراف: ٥٥

٥ - الأعراف: ٥٦

٦ - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، عن أبي هريرة رقم: (٣٣٧٣) ٤٥٦/٥ قال الشيخ الألباني: حسن

٧ - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب في انتظار الفرج وغير ذلك. رقم (٣٥٧٣) ٥٦٦/٥ قال الشيخ

الألباني: حسن صحيح

٨ - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب الدعاء عن أبي هريرة. رقم (٣٣٧٠) ٤٥٥/٥ و ابن ماجه في

سننه، كتاب الدعاء. رقم (٣٨٢٩) ٦/٥ قال الشيخ الألباني: حسن

٩ - هو جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد، الغفاري، أبو ذر: صحابي، من كبارهم. قديم الإسلام، يقال أسلم بعد أربعة وكان خامسا. يضرب به المثل في الصدق. وهو أول من حيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحية الإسلام. مات

سنة ٣٢ في الريدة بقرب المدينة. انظر: الإصابة (٩٨٦٨) ١٢٥/٧ و سير أعلام النبلاء ٤٦/٢

أبالي، فاستغفروني أغفر لكم." (١) (٢)

فمن أسباب الثبات على توحيد العبادة الدعاء، و به عناية ذوي الهمم، و من أحق ما اهتدي بأنواره في غياهب (٣) الظلم، وأنفع ما يدرك به النعم، وأمنع ما يدفع به النقم، وبه أبواب الخير مفتوحة، و به ملك المؤمنون أعظم سلاح، وذلك الدعاء الذي أمر الله - تعالى - به في كتابه العظيم ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ وإليه جنح المرسلون والأنبياء ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (٤) و ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٥) وعليه عول الصالحون والأولياء ﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٦) و ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مَا آتَيْتَ آبَاءَنَا مَا آتَيْتَ آبَاءَنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنْتَ خَيْرُ الْبَاقِينَ ﴾ (٧) و ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٨) و ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٩) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴾ (٩)

وأحسن أن يجعل المرء دعائه في كل مهمة صغيرة كان أو كبيرة، وتحراه لكل خطب مدله، فيحصل المقصود بدعائه مع بركة التأسى والافتداء برسول الهدى، فقد علّم - ﷺ - أمته

١ - أخرجه مسلم، كتاب البر و الصلة و الأدب، باب تحريم الظلم. رقم (٦٧٣٧) ١٦/٨

٢ - مدارج السالكين ٣/ ١٠٢-١٠٣

٣ - غياهب الجمع (الغيب) الظلمة ومن الليل الشديد الظلمة، ومن الخيل ونحوها الشديد السواد. يقال أسود غيب. انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٦٦٥

٤ - يونس: ٨٨

٥ - الأنبياء: ٨٣

٦ - البقرة: ٢٠١

٧ - آل عمران: ٥٣

٨ - المؤمنون: ١٠٩

٩ - آل عمران: ٨ - ٩

الدعاء في كثير من الأحوال و الأوقات. و قد أورد جُلّ المحدثين في كتبهم أبواب الدعاء، و كتب بعض العلماء الكتب في الدعاء^(١) بما يدل على أهميته في ثبات المؤمن على الدين.

٣ - الذكر

إن حياة الأبدان متوقفة على الطعام، و حياة القلوب متوقفة على ذكر الله -تعالى- و شعور العبد وشهوده لذكر الله له يغني قلبه ويسد فاقته، وهذا بخلاف من نسوا الله فنسيهم، فإن الفقر من كل خير حاصل لهم، وما يظنون أنه حاصل لهم من الغنى، فهو من أكبر أسباب فقرهم، فهم كما قال تعالى: ﴿أَعْمَلُهُمْ كَسْرَابٍ يَاقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾^(٢) أو مثلهم كمثل العطشان الذي يشرب ماء البحر لا يزيده إلا عطشاً. أما الذين يذكرون الله، فتطمئن قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٣) و هذا الاطمئنان سبب لثبات العبد على توحيد العبادة. فقد أمر ربنا بذكره، فقال الله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٤)

قال أبو جعفر: "يقول تعالى ذكره: ﴿وَأذْكُرْ﴾ أيها المستمع المنصت للقرآن، إذا قرئ في صلاة أو خطبة ﴿رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ يقول: اتعظ بما في آي القرآن، واعتبر به، وتذكر معادك إليه عند سماعك ﴿تَضَرُّعًا﴾ يقول: افعل ذلك تخشعاً لله وتواضعاً له. ﴿وَخِيفَةً﴾ يقول: وخوفاً من الله أن يعاقبك على تقصير يكون منك في الاتعاظ به والاعتبار، وغفلة

١ - من الكتب صنف في الدعاء: دعاء لابن فضي (المتوفى ١٩٥ هـ) الدعاء، للحسين الضبي المحاملي (المتوفى: ٣٣٠ هـ) الدعاء للطبراني (المتوفى ٣٦٠ هـ)، الترغيب في الدعاء، لعبد الغني المقدسي (المتوفى ٦٠٠ هـ) وغيرها.

٢ - النور: ٣٩

٣ - الرعد: ٢٨

٤ - الأعراف: ٢٠٥

عما بين الله فيه من حدوده. ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يقول: ودعاء باللسان لله في خفاء لا جهار. يقول: ليكن ذكر الله عند استماعك القرآن في دعاء إن دعوت غير جهار، ولكن في خفاء من القول. وأما قوله: ﴿بِالْعُدْوِ وَالْأَصَالِ﴾ فإنه يعني بالبكر والعشيات. وأما قوله: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ فإنه يقول: ولا تكن من اللاهين إذا قرئ القرآن عن عظاته وعبره، وما فيه من عجائبه، ولكن تدبر ذلك وتفهمه، وأشعره قلبك بذكر الله، وخضوع له، وخوف من قدرة الله عليك، إن أنت غفلت عن ذلك." (١)

قال ابن كثير: "يأمر -تعالى- بذكره أول النهار وآخره، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ (٢) وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية.

وقال هاهنا بالعدو -وهو أوائل النهار: ﴿وَالْأَصَالِ﴾ جمع أصيل، كما أن الأيمان جمع يمين. وأما قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي: اذكر ربك في نفسك رهبة ورغبة، وبالقول لا جهراً، ولهذا قال: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداءً وجهراً بليغاً، ولهذا لما سألو رسول الله -ﷺ- فقالوا: "أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟" فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (٣) قال أبو موسى الأشعري (٤): رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النبي -ﷺ-: "أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً؛ إن الذي تدعونه سميع قريب." (٥) (١)

١ - تفسير الطبري ١٣/٣٥٣-٣٥٥

٢ - ق: ٣٩

٣ - البقرة: ١٨٦

٤ - هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب، أبو موسى، الأشعري، صحابي، من الشجعان الولاة الفاتحين. ولد في زيد باليمن وقدم مكة عند ظهور الإسلام، فأسلم، وهاجر إلى الحبشة. مات ٤٤ هـ. الإصابة (٤٩٠١) ٤/٢١
٥ - أخرجه البخاري، كتاب الجهاد و السير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير. رقم (٢٩٩٢) ٤/٦٩ ومسلم، كتاب الذكر و الدعاء و التوبة، باب استحباب خفض الصوت بالذكر. رقم (٧٠٣٧) ٨/٧٣

قال السعدي: "الذكر لله -تعالى- يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر الله عبده ورسوله محمداً أصلاً وغيره تبعاً، بذكر ربه في نفسه، أي: مخلصاً خالياً. ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: متضرعاً بلسانك، مكرراً لأنواع الذكر، ﴿وَخِيفَةً﴾ في قلبك بأن تكون خائفاً من الله، ووجل القلب منه، خوفاً أن يكون عمرك غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه، والنصح به.

﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: كن متوسطاً، لا تجهر بصلاتك، ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلاً. ﴿بِالْعُدْوِ﴾ أول النهار ﴿وَالْأَصَالِ﴾ آخره، وهذان الوقتان لذكر الله فيهما مزية وفضيلة على غيرهما.

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الذين نسوا الله، فأنساهم أنفسهم، فإثم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على من كل الشقاوة والخيبة في الاشتغال به، وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر الله آناء الليل والنهار، خصوصاً طرقي النهار، مخلصاً خاشعاً متضرعاً، متذللاً ساكناً، وتواطئاً عليه قلبه ولسانه بأدب ووقار، وإقبال على الدعاء والذكر، وإحضار له بقلبه وعدم غفلة، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه. (٢)

قال ابن القيم: "ولا سبيل إلى الإيمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله -تعالى- واللهمج (٣) به، وأن لا يزال اللسان رطباً به، وأن يتولى منزلة حياته التي لا غنى له عنها، ومنزلة غذائه الذي إذا فقد فسد جسمه وهلك، ومنزلة الماء عند شدة العطش، ومنزلة اللباس في الحر والبرد، ومنزلة الكبر (٤) في شدة الشتاء والسموم.

فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم، فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده؟! هذا هلاك لا بد منه، وقد يعقبه صلاح لا بد، وأما هلاك القلب

١ - تفسير ابن كثير ٣/٥٣٨-٥٣٩

٢ - تفسير السعدي ص ٣١٤

٣ - اللهمج بالشيء: الولوع به. وقد لهج به يلهج لهجاً، إذا أُغري به فتأبر عليه. انظر: الصحاح تاج اللغة ١/٣٣٩

٤ - الكبر: الشثرة؛ والجمع أكنان. انظر: الصحاح تاج اللغة ٦/٢١٨٨

والروح، فهلاك لا يرجى معه صلاح، ولا فلاح، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. و لو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفي بها، فمن نسي الله - تعالى - أنساه نفسه في الدنيا، ونسيه في العذاب يوم القيامة. ^(١)

و الله - تعالى - ما ترك لعباده خيراً إلا دلّ عليه، فقد حث عباده على الذكر، فقال تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ ^(٢) و قال

تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ﴾ ^(٣) فحث - سبحانه - على الذكر في أصعب الأوقات - أعني لقاء العدو - بما

يدل على عظمته. وذكر - تعالى - جزاء الذكر، فقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا

لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ^(٤) و هل يوجد أكبر الجزاء للعبد من أن يذكره العزيز الجبار؟! و قال

تعالى: ﴿وَالذَّكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ^(٥)

فمن أسباب ثبات العبد على توحيد العبادة الذكر، فالعبد معرض لكيد الشيطان و لا ينجو منه إلا بذكر الله تعالى، قال - ﷺ -: "وأمركم أن تذكروا الله تعالى، فإن مثل ذلك مثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين، فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله. ^(٦)

فالعبد لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده، فإذا غفل وثب عليه وافترسه، وإن ذكر الله - تعالى - تصاغر عدو الله تعالى.

١ - الوابل الصيب ص ٦٧

٢ - الأحزاب: ٤١ - ٤٢

٣ - الأنفال: ٤٥

٤ - البقرة: ١٥٢

٥ - الأحزاب: ٣٥

٦ - هذا جزء من الحديث أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة.

رقم (٢٨٦٣) ١٤٨/٥ قال الألباني: صحيح

قال النبي ﷺ - : " لا يقعد قوم يذكرون الله - عز وجل - إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده." (١)

و قال النبي - ﷺ - : " مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت." (٢)
وقال رسول الله - ﷺ - : " يقول الله - تعالى - : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبراً، تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً، تقربت منه باعاً، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة." (٣)

فهذا جزء يسير من أحاديث رسول الله - ﷺ - في الذكر، و هي كثيرة بما يدل على شدة حاجة العبد إليه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فأى لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله - عز وجل - كانت عليه لا له، وكان خسارانه فيها أعظم مما ربح في غفلته عن الله - تعالى - و قد يكون سبب لعدم تحقيق كمال توحيد العبادة، فالله المستعان. (٤)

١ - أخرجه مسلم في كتاب الذكر و الدعاء و التوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر. عن أبي هريرة و أبي سعيد الخدري رقم (٧٠٣٠) ٧٢/٨

٢ - أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز و جل. عن أبي موسى الأشعري. رقم (٦٤٠٧) ١٠٧/٨

٣ - أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى (ويحذركم الله نفسه). رقم (٧٤٠٥) ١٤٨/٩ و مسلم كتاب الذكر و الدعاء و التوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى رقم (٦٩٨١) ٦٢/٨ عن أبي هريرة

٤ - انظر الكتاب: الوابل الصيب، ففيه فوائد الذكر كثيرة ذكر ابن القيم فيه أكثر من مائة فائدة.

٤ - الاستغفار

إن العبد لا بد أن يحصل له نوع من التقصير بما أمر من العبادة، فبالاستغفار تتم الطاعة، ومن أفضل القربات الصلاة، فإذا أداها العبد أمر بالاستغفار. وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره.^(١) و العبد إذا أدى ما عليه مما أمر به فعليه بالاستغفار، لقد فهم هذا عمر وابن

عباس -رضي الله عنهما- من قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ

النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۗ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا

﴿٢﴾ إذ أن النبي -ﷺ- أدى رسالة ربه، فأمره الله بالتحميد والاستغفار.^(٣) وهو

سبب لثبات العبد على توحيد العبادة؛ لأن الذنوب تحيط به حتى تهلكه، فإذا استغفر ربه

ثبت عليه. قال تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْ نَّذِيرٍ وَبَشِيرٍ ۗ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ

تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَّنْعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۗ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ

عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۗ ﴿٤﴾

قال أبو جعفر: "يقول -تعالى- ذكره-: ثم فصلت آياته بأن لا تعبدوا إلا الله، وبأن استغفروا

ربكم. ويعني بقوله: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ وأن اعملوا أيها الناس من الأعمال ما يرضي

١ - هذا التعريف للاستغفار ذكره ابن القيم في مدارج السالكين ١/٣٠٧

٢ - النصر: ١ - ٣

٣ - يدل على هذا الحديث الذي أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب ٥٢ و فيه أن ابن عباس -رضي الله عنهما-

قال: كان عمر يدخلني مع أشيخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا، ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد

علمتم. قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم. قال: وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني. فقال: ما تقولون (إذا جاء

نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون) حتى ختم السورة. فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح

علينا وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئاً. فقال لي: يا ابن عباس! أكذاك تقول؟ قلت: لا. قال: فما

تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أعلمه الله له (إذا جاء نصر الله والفتح) فتح مكة، فذاك

علامة أجلك (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم. رقم (٤٢٩٤) ١٨٩/٥

٤ - هود: ٢ - ٣

ربكم عنكم، فيستر عليكم عظيم ذنوبكم التي ركبتموها بعبادتكم الأوثان والأصنام، وإشراككم الآلهة والأنداد في عبادته.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ يقول: ثم ارجعوا إلى ربكم بإخلاص العبادة له دون ما سواه من سائر ما تعبدون من دونه بعد خلعكم الأنداد وبراءتكم من عبادتها.

ولذلك قيل: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ ولم يقل: "وتوبوا إليه"، لأن "التوبة" معناها الرجوع إلى العمل بطاعة الله، والاستغفار من الشرك الذي كانوا عليه مقيمين، والعمل لله لا يكون عملاً له إلا بعد ترك الشرك به، فأما الشرك، فإن عمله لا يكون إلا للشيطان، فلذلك أمرهم - تعالى ذكره - بالتوبة إليه بعد الاستغفار من الشرك، لأن أهل الشرك كانوا يرون أنهم يطيعون الله بكثير من أفعالهم، وهم على شركهم مقيمون.

وقوله: ﴿يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يقول - تعالى ذكره - للمشركين الذين خاطبهم بهذه الآيات: استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، فإنكم إذا فعلتم ذلك بسط عليكم من الدنيا ورزقكم من زينتها، وأنسأ لكم في آجالكم إلى الوقت الذي قضى فيه عليكم الموت. ^(١)

قال ابن كثير في قوله - تعالى -: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ "أي: وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله - عز وجل - فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك، ﴿يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا﴾ أي: في الدنيا ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: في الدار الآخرة، قاله قتادة، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ ^(٢) وقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

١ - تفسير الطبري ٢٢٩/١٥

٢ - النحل: ٩٧

كَبِيرٍ ﴿ هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ تَوَلَّى عَنْ أَوْامِرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَذَبَ رِسْلَهُ، فَإِنَّ الْعَذَابَ يَنَالُهُ يَوْمَ مَعَادِهِ لَا مَحَالَةَ. ^(١)

قال الشنقيطي: "هذه الآية الكريمة تدل على أن الاستغفار والتوبة إلى الله -تعالى- من الذنوب سبب لأن يمتع الله من فعل ذلك متاعاً حسناً إلى أجل مسمى؛ لأنه رتب ذلك على الاستغفار والتوبة ترتيب الجزاء على شرطه.

والظاهر أن المراد بالمتاع الحسن: سعة الرزق، ورغد العيش، والعافية في الدنيا، وأن المراد بالأجل المسمى، الموت، ويدل لذلك قوله -تعالى- في هذه السورة الكريمة عن نبيه هود

عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿ وَيَقَوْمٍ أَستَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ^(٢) وقوله -تعالى- عن

نوح: ﴿ فَقُلْتُ أَستَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ ^(٣) وقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ

أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ^(٤) وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾ ^(٥) وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا

أَنْزَلْنَا إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ^(٦) وقوله: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا

١ - تفسير ابن كثير ٤/٣٠٣-٣٠٤

٢ - هود: ٥٢

٣ - نوح: ١٠ - ١٢

٤ - النحل: ٩٧

٥ - الأعراف: ٩٦

٦ - المائدة: ٦٦

يَحْتَسِبُ ﴿١﴾ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. " (٢)

قال ابن تيمية: "يقرب الله بين التوحيد والاستغفار في غير موضع. كقوله -تعالى-: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (٣) وقوله: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ وقوله: ﴿وَالِى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (٤) إلى قوله: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ﴾ (٥) وقوله: ﴿فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ (٦) وخاتمة المجلس: "سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك." (٧) إن كان مجلس رحمة كانت كالطابع عليه، وإن كان مجلس لغو لغو كانت كفارة له. وقد روي أيضاً أنها تقال في آخر الوضوء بعد أن يقال: "أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين." (٨) وهذا الذكر يتضمن التوحيد والاستغفار، فإن صدره الشهادتان اللتان هما أصلا الدين وجماعه، فإن جميع الدين داخل في الشهادتين إذ مضمونهما ألا نعبد إلا الله، وأن نطيع رسوله، و الدين كله داخل في هذا في عبادة الله بطاعة الله وطاعة رسوله، وكل ما يجب أو يستحب داخل في طاعة الله ورسوله." (٩)

١ - الطلاق: ٢ - ٣

٢ - أضواء البيان ١٦٩/٢ - ١٧٠

٣ - محمد: ١٩

٤ - هود: ٥٠

٥ - هود: ٥٢

٦ - فصلت: ٦

٧ - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في كفارة المجلس. عن أبي بزة الأسلمي. رقم (٤٨٦١) ٤/٤١٥ و الترمذي في سننه كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا قام من المجلس. عن أبي هريرة (٣٤٣٣) ٥/٤٩٤ قال الألباني:

صحيح

٨ - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب أبواب الطهارة، باب فيما يقال بعد الوضوء عن عمر بن الخطاب (٥٥) ١/٧٨ و أصله في مسلم بدون زيادة: اللهم اجعلني من التوابين. قال الألباني: صحيح

٩ - مجموع الفتاوى ١٠/٢٦٢-٢٦٣

فعلى العبد أن يستغفر ربه كثيراً، فقد كان النبي ﷺ - يستغفر ربه في اليوم أكثر من مائة مرة، كما جاء في الحديث أنه قال: "إنه ليغان^(١) على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة."^(٢)

و علمنا ﷺ - سيد الاستغفار، فقال: " أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، اغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. قال: ومن قالها من النهار موقناً بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة."^(٣)

فمن التزم بما أوصاه النبي ﷺ - نجا في الدنيا و الآخرة.

٥ - الصبر

قالت العرب: الشجاعة صبر ساعة.^(٤) فمن أراد شيئاً فعليه بالصبر. و الصبر نصف الإيمان، الإيمان، فإنه ماهية مركبة من صبر وشكر، كما قال بعض السلف: الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾^(٥) والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. وهو ثلاثة أنواع: صبر على فرائض الله، فلا يضيعها، وصبر عن محارمه، فلا يرتكبها، وصبر على أفضيته وأقداره، فلا يتسخطها.^(٦)

١ - يغان: العَيْنُ وَالْمُرَادُ هُنَا مَا يَتَعَشَّى الْقَلْبُ. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٢٣/١٧

٢ - أخرجه مسلم، كتاب الذكر و الدعاء و التوبة، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، عن الأغر المزني. رقم

٧٢/٨ (٧٠٣٣)

٣ - أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار. عن شداد بن أوس. رقم (٦٣٠٦) ٨٢/٨

٤ - انظر: خريدة القصر وجريدة العصر ٢٨٤/١ لمحمد الأصفهاني

٥ - إبراهيم: ٥

٦ - انظر: زاد المعاد ٣٠١/٤

فقد أمر الله -تعالى- بالصبر، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢٠٠) (١)

قال ابن كثير في قوله -تعالى-: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ "قال الحسن البصري -رحمه الله-: "أمرنا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم -وهو الإسلام- فلا يدعوه لسراء ولا لضرء ولا لشدة ولا لرخاء حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم." وكذلك قال غير واحد من علماء السلف.

وأما المرابطة، فهي المداومة في مكان العبادة والثبات. وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة، قاله مجاهد و ابن عباس وسهل بن حنيف، ومحمد بن كعب القرظي (٢)، وغيرهم (٣). قال الشوكاني: "ختم هذه السورة لما اشتملت عليه من الوصايا التي جمعت خير الدنيا والآخرة، فحضر على الصبر على الطاعات، والشهوات. والصبر: الحبس. والمصابرة: مصابرة الأعداء، قاله الجمهور: أي: غالبوهم في الصبر على الشدائد الحرب. خصَّ المصابرة بالذكر بعد أن ذكر الصبر لكونها أشدَّ منه، وأشقَّ. وقيل: المعنى: صابروا على الصلوات، وقيل صابروا الأنفس عن شهواتها. وقيل: صابروا الوعد الذي وعدتم ولا تيأسوا."

إلى أن قال في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تخالفوا ما شرعه لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: تكونون من جملة الفائزين بكل مطلوب، وهم: المفلحون. (٤) ذكر الله -سبحانه- الصبر في القرآن في تسعين موضعاً. "ونحن نذكر هنا الأنواع التي جاء فيها الصبر وهي:

١ - آل عمران: ٢٠٠

٢ - هو محمد بن كعب بن حيان بن سليم، الإمام، العلامة، أبو حمزة - وقيل: أبو عبد الله - القرظي، المدني، تابعي، رجل صالح، عالم بالقرآن. كان من أئمة التفسير. من حلفاء الأوس، وكان أبوه كعب من سبي بني قريظة، سكن الكوفة، ثم المدينة. انظر: سير أعلام النبلاء ٦٥/٥

٣ - تفسير ابن كثير ١٩٥/٢

٤ - تفسير الشوكاني ٤١٥/١

أحدها: الأمر به كقوله: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٧) (١) و قال: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ (٢)

الثاني: النهى عما يضاده، كقوله: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ (٣) وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ (٤) وقوله: ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْمُتَوَكِّلِ﴾ (٥) فكل ما نهي الله - تعالى - عنه، فإنه يضاد الصبر المأمور به.

الثالث: تعليق الفلاح به، كقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٦)

الرابع: الإخبار عن مضاعفة أجر الصابرين على غيره، كقوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ (٧) وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٨) وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٩)

الخامس: تعليق الإمامة في الدين به وباليقين، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ إِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (١٠) فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. السادس: ظفرهم بمعية الله - سبحانه - لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١١)

١ - النحل: ١٢٧

٢ - الطور: ٤٨

٣ - الأحقاف: ٣٥

٤ - آل عمران: ١٣٩

٥ - القلم: ٤٨

٦ - آل عمران: ٢٠٠

٧ - القصص: ٥٤

٨ - الزمر: ١٠

٩ - الزمر: ١٠

١٠ - السجدة: ٢٤

١١ - البقرة: ١٥٣

السابع: إنه جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم، وهى: الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾^(١)

الثامن: أنه - سبحانه - جعل الصبر عوناً وعدة، وأمر بالاستعانة به، فقال: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴿٢﴾ فَمَن لَّا صَبْرَ لَهُ لَّا عَوْنَ لَهُ.

التاسع: أنه - سبحانه - علق النصر بالصبر والتقوى، فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾^(٣) ولهذا قال النبي - ﷺ -: "واعلم أن النصر مع الصبر".^(٤)

العاشر: أنه - سبحانه - جعل الصبر والتقوى جنة عظيمة من كيد العدو ومكره، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴿٥﴾

الحادي عشر: أنه - سبحانه - أخبر أن ملائكته تسلم عليهم في الجنة بصبرهم، كما قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٦﴾^(٦)

الثاني عشر: أنه - سبحانه - أباح لهم أن يعاقبوا على ما عوقبوا به، ثم أقسم قسماً مؤكداً غاية التأكيد أن صبرهم خير لهم، فقال: ﴿وَإِن عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۗ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿٧﴾^(٧)

١ - البقرة: ١٥٥ - ١٥٧

٢ - البقرة: ٤٥

٣ - آل عمران: ١٢٥

٤ - جز من حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند ابن عباس. رقم (٢٨٠٤) ٣٠٧/١ قال شعيب الأرنؤوط:

صحيح

٥ - آل عمران: ١٢٠

٦ - الرعد: ٢٣ - ٢٤

٧ - النحل: ١٢٦

الثالث عشر: أنه - سبحانه - رتب المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح، فقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١١) ^(١)

فلا ينال مغفرة و أجر كبير و هو الجنة إلا بالصبر والعمل الصالح.

الرابع عشر: أنه - سبحانه - جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور، فقال تعالى:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنَ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٣) ^(٢) وقال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ

وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٧) ^(٣)

الخامس عشر: أنه - سبحانه - وعد المؤمنين بالنصر والظفر، وهى كلمته التي سبقت لهم،

وهى الكلمة الحسنى، وأخبر أنه إنما أنالهم ذلك بالصبر، فقال تعالى: ﴿وَقَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ

الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (٤) ^(٤)

السادس عشر: أنه - سبحانه - علق محبته بالصبر وجعلها لأهله، فقال: ﴿وَكَايِنٍ مِّن نَّبِيِّ

قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ

الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٦) ^(٥)

السابع عشر: أنه - سبحانه - أخبر عن خصال الخير أنه لا يلقاها إلا الصابرون في موضعين؛

قال الذين أوتوا العلم للذين تمنوا مثل ما أوتى قارون: ﴿وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ

وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (٦) وفي سورة السجدة حيث أمر العبد أن يدفع

بالتي هي أحسن، فإذا فعل ذلك صار الذي بينه وبينه عداوة كأنه حبيب قريب، ثم قال: ﴿

وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٣٥) ^(٧)

١ - هود: ١١

٢ - الشورى: ٤٣

٣ - لقمان: ١٧

٤ - الأعراف: ١٣٧

٥ - آل عمران: ١٤٦

٦ - القصص: ٨٠

٧ - فصلت: ٣٥

الثامن عشر: أنه - سبحانه - أخبر أنه إنما ينتفع بآياته، ويتعظ بها الصبار الشكور، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (١) وقال تعالى في لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٢) وقال في قصة سبأ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٤) إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٤)

فهذه أربع مواضع في القرآن تدل على أن آيات الرب إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر.

التاسع عشر: أنه أتى على عبده أيوب بأحسن الثناء على صبره، فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٥) فأطلق عليه نعم العبد بكونه وجده صابراً، وهذا يدل على أن من لم يصبر إذا ابتلي، فإنه بئس العبد.

العشرون: أنه - سبحانه - حكم بالخسران حكماً عاماً على كل من لم يؤمن ولم يكن من أهل الحق والصبر، وهذا يدل على أنه لا رابح سواهم، فقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ﴾ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ (٢) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ (٣)

ولهذا قال الشافعي: "لو فكر الناس كلهم في هذه الآية لوسعتهم، وذلك أن العبد كماله في تكميل قوتيه، قوة العلم، وقوة العمل، وهما الإيمان والعمل الصالح، وكما هو محتاج إلى

١ - إبراهيم: ٥

٢ - لقمان: ٣١

٣ - سبأ: ١٩

٤ - الشورى: ٣٢ - ٣٣

٥ - ص: ٤٤

٦ - العصر: ١ - ٣

تكميل نفسه، فهو محتاج إلى تكميل غيره، وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وقاعدته ذلك وساقه إنما يقوم بالصبر. ^(١)

الحادي والعشرون: أنه - سبحانه - خصَّ أهل الميمنة بأنهم أهل الصبر والمرحمة الذين قامت بهم هاتان الخصلتان ووصوا بهما غيرهم، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۗ (١٧) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۗ (١٨)﴾ ^(٢) وهذا حصر لأصحاب الميمنة، فيمن قام به هذان الوصفان. والناس بالنسبة إليهما أربعة أقسام هؤلاء خير الأقسام، وشهرهم من لا صبر له ولا رحمة فيه، ويليه من له صبر ولا رحمة عنده، ويليه القسم الرابع وهو من له رحمة ورقة، ولكن لا صبر له.

الثاني والعشرون: أنه - سبحانه - قرن الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان كلها، فقرنه بالصلاة، كقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۗ (٣)﴾ وقرنه بالأعمال الصالحة عموماً، كقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۗ (٤)﴾ وجعله قرين التقوى، كقوله: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقْ وَيَصْبِرْ ۗ (٥)﴾ وجعله قرين الشكر، كقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۗ (٦)﴾ وجعله قرين الحق، كقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۗ (٧)﴾ وجعله قرين الرحمة، كقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۗ (٨)﴾ وجعله قرين اليقين، كقوله: ﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۗ (٩)﴾ وجعله قرين الصدق، كقوله: ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ

١ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ٧٥

٢ - البلد: ١٧ - ١٨

٣ - البقرة: ٤٥

٤ - هود: ١١

٥ - يوسف: ٩٠

٦ - إبراهيم: ٥

٧ - العصر: ٣

٨ - البلد: ١٧

٩ - السجدة: ٢٤

وَالْمُتَّصِدِّقَاتِ وَالصَّامِيْنَ وَالصَّامِيَاتِ ﴿١﴾ وجعله سبب محبته ومعيته ونصره وعونه وحسن وحسن جزائه، ويكفي بعض ذلك شرفاً وفضلاً والله أعلم. ﴿٢﴾

٦ - الشكر

إن الله - تعالى - أنعم على الإنسان نعماً كثيرة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ ﴿٣﴾ فلا يستطيع الإنسان أن يعد نعم الله عليه، فلذا كان عليه شكر هذه النعم و إلا كانت وبالاً عليه و قرب فقداها. و الشكر مبني على ثلاثة أركان: الاعتراف بنعم الله باطناً، والتحدث بها ظاهراً، وتصريفها في مرضاة وليها ومعطيها. و الشكر سبب للثبات على توحيد العبادة، بل العبادة نوع من أنواع الشكر، قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٤﴾ فمن أكثر العبادة كان شكره لله أعظم، و إن النبي - ﷺ - كان يقوم فيصلبي حتى ترم ﴿٥﴾ قدماه أو ساقاه، فيقال له. فيقول: "أفلا أكون عبداً شكوراً." ﴿٦﴾ وفي رواية: صلى حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: "أفلا أكون عبداً شكوراً." ﴿٧﴾

١ - الأحزاب: ٣٥

٢ - انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ٧١ - ٧٥

٣ - إبراهيم: ٣٤

٤ - الزمر: ٦٦

٥ - أي انتفخ. انظر: المعجم الوسيط ١٠٢٧/٢

٦ - أخرجه البخاري، أبواب التهجد، باب قيام النبي - ﷺ - حتى ترم قدماه، رقم (١١٣٠) ٦٣/٢

٧ - أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً} رقم (٤٨٣٦) ١٦٩/٦ و مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة. رقم (٧٣٠٢) ١٤١/٨ و روايتان عن المغيرة بن شعبة

وقد أخبر -تعالى- عن الشكر، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ^ط وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾^(١)

قال الطبري في قوله -تعالى-: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ "يقول: لئن شكرتم ربكم، بطاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم لأزيدنكم في أياديه عندكم ونعمه عليكم على ما قد أعطاكم من النجاة من آل فرعون والخالص من عذابهم."^(٢)

قال ابن كثير في قوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ "أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم. ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم و آلى^(٣) بعزته وجلاله وكبريائه كما

قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبَعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ مَن يَسُوءُهُمْ سَاءَ عَذَابٍ ﴿٤﴾^(٤)

وقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ "أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ "أي: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها."^(٥)

قال ابن القيم: "وقرن -سبحانه- الشكر بالإيمان وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به، فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾^(٦) "أي: إن وفيتم ما خلقتم له، وهو الشكر والإيمان، فما أصنع بعذابكم.

هذا وأخبر -سبحانه- أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده، فقال:

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ

١ - إبراهيم: ٧

٢ - تفسير الطبري ١٦ / ٥٢٧

٣ - أي خَلَفَ. انظر: الصحاح في اللغة ص ٢٠

٤ - الأعراف: ١٦٧

٥ - تفسير ابن كثير ٤ / ٤٧٩

٦ - النساء: ١٤٧

بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾^(١) وقسم الناس إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال -تعالى- في الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(٢)

وقال نبيه سليمان: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكُمْ لِيَنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ وَلِيَنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾^(٥) وهذا كثير في القرآن يقابل -سبحانه- بين الشكر والكفر، فهو ضده، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنُيَضِرَ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ

الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾^(٦) والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان، فلم ينقلبوا على أعقابهم، وعلق -سبحانه- المزيد بالشكر والمزيد منه لا نهاية له، كما لا نهاية لشكره، وقد وقف -سبحانه- كثيراً من الجزاء على المشيئة، كقوله: ﴿فَسَوْفَ يُعْزِئُكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾^(٧) وقوله في الإجابة: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾^(٨) وقوله في الرزق: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٩) وفي المغفرة: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١٠) والتوبة: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ

١ - الأنعام: ٥٣

٢ - الإنسان: ٣

٣ - النمل: ٤٠

٤ - إبراهيم: ٧

٥ - الزمر: ٧

٦ - آل عمران: ١٤٤

٧ - التوبة: ٢٨

٨ - الأنعام: ٤١

٩ - البقرة: ٢١٢

١٠ - البقرة: ٢٨٤

يَشَاءُ ﴿١﴾ وأطلق جزاء الشكر إطلاقاً حيث ذكر، كقوله: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٢﴾ و﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ وسيجزي الله الشاكرين. ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأعلاها، جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه، فقال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَّاكِرِينَ﴾ ﴿٣﴾ ووصف الله - سبحانه - الشاكرين بأنهم قليل من عباده، فقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ ﴿٤﴾

وذكر الإمام أحمد^(٥) عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه سمع رجلاً يقول: اللهم اجعلني من الأقلين. فقال: ما هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن الله قال: ﴿وَمَا آءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ﴿٤﴾ وقال تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ﴿٧﴾ فقال عمر: صدقت. ^(٨) وقد أثنى الله - سبحانه وتعالى - على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر، فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ﴿٣﴾ وفي تخصيص نوح هنا بالذكر، وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به.

١ - التوبة: ١٥

٢ - آل عمران: ١٤٥

٣ - الأعراف: ١٧

٤ - سبأ: ١٣

٥ - هو أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله، الشيباني الوائلي، وأحد الائمة الاربعة. أصله من مرو، ولد ببغداد ١٦٤هـ. سافر في سبيل طلب العلم إلى الكوفة، والبصرة، ومكة، والمدينة، واليمن، والشام، والمغرب، والجزائر والعراقين، وفارس، وخراسان، والجبال والأطراف. مات ٢٤١ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١١/١٧٧

٦ - هود: ٤٠

٧ - ص: ٢٤

٨ - خرجه الإمام أحمد في الزهد، زهد عمر - رضي الله عنه. رقم (٥٩٠) ص ١١٤

٩ - الإسراء: ٣

و التشبه به في الشكر أمر مشروع لهذه الأمة المحمدية، فقد علق -سبحانه- نجاته بشكره، فمهما وجد قوم بهذه الصفة (يعني الشكر) نجوا من المصائب و الفتن.

و قال ابن القيم: "قد أخبر -سبحانه- إنما يعبد من شكره، فمن لم يشكره لم يكن من

أهل عبادته، فقال: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(١) وأمر عبده موسى أن

يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر، فقال تعالى: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي

أَصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٢) وأول

وصية وصى الله بها الإنسان بعد ما عقل عنه بالشكر له وللوالدين، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا

الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ

الْمَصِيرِ﴾^(٣)

وأخبر أن رضاه في شكره، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾^(٤) وأثنى -سبحانه- على

خليله إبراهيم بشكر نعمه، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٥) فأخبر عنه -سبحانه-

بأنه أمة، أي: قدوة يؤتم به في الخير، وأنه قانتاً لله، والقانت هو المطيع المقيم على طاعته،

والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه، ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكراً لأنعمه،

فجعل الشكر غاية خليله.

وأخبر -سبحانه- أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره، بل هو الغاية التي خلق عبده

لأجلها: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

١ - البقرة: ١٧٢

٢ - الأعراف: ١٤٤

٣ - لقمان: ١٤

٤ - الزمر: ٧

٥ - النحل: ١٢٠ - ١٢١

وَالْأَفْعِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾^(١) فهذه غاية الخلق وغاية الأمر، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢)

ويجوز أن يكون قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٣) تعليلاً لقضائه لهم بالنصر، ولأمره لهم بالتقوى ولهما معاً، وهو الظاهر.

فالشكر غاية الخلق والأمر، وقد صرح - سبحانه - بأنه غاية أمره وإرساله الرسول في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(٤) فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾^(٥) قالوا فالشكر مراد لنفسه، والصبر مراد لغيره، والصبر إنما حمد لإفضائه وإيصاله إلى الشكر، فهو خادم الشكر.^(٥)

٧ - الأعمال الصالحة

انتدب الله عباده المؤمنين إلى المسابقة في الخيرات، و اغتنام الأوقات و لهذا كان أفضل الخلق عند الله الرسل و الأنبياء - صلى الله عليهم و سلم - سابقون إلى الأعمال الصالحة و سبل الدرجات العالية، فقال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوْكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾^(١) فمن تشبه بالرسل و الأنبياء في المسابقة إلى الأعمال الصالحة كان أقرب إليهم، و كان سبباً في التقرب إلى الله - تعالى - و تحقيق توحيد العبادة، قال - تعالى - على لسان رجل مؤمن من آل فرعون: ﴿وَمَنْ عَمِلَ

١ - النحل: ٧٨

٢ - آل عمران: ١٢٣

٣ - آل عمران: ١٢٣

٤ - البقرة: ١٥١ - ١٥٢

٥ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ١١٦ - ١١٩

٦ - المائدة: ٤٨

صَلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٧﴾^(١) فمن فهم هذا لا يجد بداً إلا أن يستبق في الأعمال الصالحة؛ لأنها سبب في طيب العيش في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢) قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: من عمل بطاعة الله، وأوفى بعهود الله إذا عاهد من ذكر أو أنثى من بني آدم وهو مؤمن: يقول: وهو مصدق بثواب الله الذي وعد أهل طاعته على الطاعة، وبوعيد أهل معصيته على المعصية ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ واختلف أهل التأويل في الذي عنى الله بالحياة الطيبة التي وعد هؤلاء القوم أن يحييهموها، فقال بعضهم: عنى أنه يحييهم في الدنيا ما عاشوا فيها بالرزق الحلال. وقال آخرون ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ بأن نزرقه القناعة. وقال آخرون: الحياة الطيبة، السعادة." ^(٣)

قال ابن كثير: "هذا وعد من الله -تعالى- لمن عمل صالحاً -وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه- من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله -بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة.

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب.

وعن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- أنه فسرها بالقناعة. وكذا قال ابن عباس،

١ - غافر: ٤٠

٢ - النحل: ٩٧

٣ - تفسير الطبري ١٧/٢٨٩-٢٩١

وعكرمة، ووهب بن منبه.^(١)

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أنها السعادة.

وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة.

وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، وقال الضحاك^(٢) أيضاً: هي العمل بالطاعة والانسراح بها.

والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله كما جاء في الحديث أن رسول الله -ﷺ- قال: "قد أفلح من أسلم ورزق كافاً، وفتّعه الله بما آتاه."^(٣)

وقال رسول الله -ﷺ-: " طوبى لمن هدى إلى الإسلام، وكان عيشه كافاً، وقنع به."^{(٤)(٥)}

قال الشوكاني: "وأكثر المفسرين على أن هذه الحياة الطيبة هي في الدنيا، لا في الآخرة؛ لأن حياة الآخرة قد ذكرت بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ووحيد الضمير في ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ﴾ وجمعه في ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ حملاً على لفظ ﴿مَنْ﴾ وعلى معناه."^(٦)

١ - وهب بن منبه بن كامل بن سنج بن ذي كيار الأبنواوي الصنعائي الدماري، أبو عبد الله: مؤرخ، كثير الأخبار عن الكتب القديمة، عالم بالاسرائيليات. من التابعين. أصله من الفرس وأمه من حمير. ولد ومات بصنعاء وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها. مات سنة ١١٤ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٤/٤٤٤

٢ - هو الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو محمدن وقيل أبو القاسم، صاحب التفسير كان من أوعية العلم. روى عن ابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد وزيد بن أرقم وأنس، وقيل غير ذلك. توفي بخراسان سنة ١٠٥ هـ. تهذيب التهذيب ٤/٣٩٧ و سير أعلام النبلاء ٤/٥٩٨

٣ - أخرجه مسلم في كتاب الزكاة باب في الكفاف والقناعة. عن عبد الله بن عمرو بن العاص (٢٤٧٣) ٣/١٠٢

٤ - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه عن فضالة بن عبيد رقم (٢٣٤٩) ٤/٥٧٦ قال الشيخ الألباني: صحيح

٥ - تفسير ابن كثير ٤/٦٠١-٦٠٢

٦ - فتح القدير ٣/١٩٣

قال القاسمي^(١): "هذا وعد منه -تعالى- لمن عمل صالحاً، وهو العمل التابع لكتاب الله وسنة رسوله من ذكر أو أنثى، وهو ثابت على إيمانه إلى الموت، بأن يحييه الله -تعالى- حياة طيبة."

إلى أن قال: "وعندي أن الحياة الطيبة هي الحياة التي فيه تلج الصدور بلذة اليقين وحلاوة الإيمان، والرغبة في الموعود والرضا بالقضاء، وعتق الروح مما كانوا يستعبدون له، والاستكانة إلى معبود واحد، والتنور بسر الوجود الذي قام به، وغير ذلك من مزاياه المقررة في مواضعها هذا في الدنيا. وأما في الآخرة، فله الجزاء الأحسن والثواب الأوفى."^(٢)

قال ابن القيم: "وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته، فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧) وقد فسرت الحياة الطيبة بالقناعة، والرضا والرزق الحسن، وغير ذلك، والصواب أنها حياة القلب ونعيمه، وبهجته وسروره بالإيمان، ومعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه والتوكل عليه، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة، كما كان بعض العارفين يقول: "إنه لتمر بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب." وقال غيره: "إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً." وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح، فإنه ملكها، ولهذا جعل الله المعيشة الضنك لمن أعرض عن ذكره وهي عكس الحياة الطيبة.

وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث، أعني: دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار. والمعيشة الضنك أيضاً تكون في الدور الثلاث، فالأبرار في النعيم هنا وهنالك، والفجار في الجحيم هنا وهنالك، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ سَاءُوا فِيهَا عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣) وقال

١ - هو جمال الدين أو محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، إمام الشام في عصره. مولده في دمشق

سنة ١٢٨٣هـ. كان سلفي العقيدة لا يقول بالتقليد. من كتبه: ديوان خطب و الفتوى في الإسلام و محاسن التأويل و

غيرها. مات سنة ١٣٣٢ هـ. انظر: الأعلام ١٣٤/٢

٢ - محاسن التأويل ٣٨٥٦/١٠

٣ - النحل: ٣٠

تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمِنَّكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾^(١) فذكر الله - سبحانه وتعالى - ومحبته وطاعته، والإقبال عليه ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة، والإعراض عنه والغفلة ومعصيته كفيل بالحياة المنغصة، والمعيشة الضنك في الدنيا والآخرة.^(٢)

و قال في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ فهذا في الدنيا ثم قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فهذا في البرزخ والآخرة. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمِنَّكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾^(٤) فهذا في الآخرة وقال تعالى: ﴿قُلْ يٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٥) فهذه أربعة مواضع ذكر الله - تعالى - فيها أنه يجزي المحسن بإحسانه جزاءين : جزاء في الدنيا وجزاء في الآخرة.^(٦)

قرن الله - تعالى - بين الإيمان و العمل الصالح في كتابه في أكثر من خمسين موضعاً، و هو يأتي على أنواع:

أحدها: بشارة من آمن و عمل عملاً صالحاً بالجنة، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٧) فهم مبشرون في هذه حياة الدنيا بالجنة و نعيمها، و ما فيها من حور العين. و قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

١ - هود: ٣

٢ - مدارج السالكين ٢٥٩/٣

٣ - النحل: ٤١

٤ - هود: ٣

٥ - الزمر: ١٠

٦ - الوابل الصيب ص ٦٧

٧ - البقرة: ٢٥

الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿١﴾

الثاني: أخبر - سبحانه - أنهم خير خلقه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ (٢) استدل بعض العلماء بهذه الآية أنهم أفضل من الملائكة.

الثالث: أنه - سبحانه - يكفر عنهم ذنوبهم، و يجزيهم أحسن من أعمالهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ (٣) و قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ (٤)

الرابع: أنه - سبحانه - لا يسويهم بالجرمين و الفاسقين، قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ (٥) و قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ﴿٦﴾﴾ (٦)

الخامس: أنه - سبحانه - وعدهم المغفرة و الأجر العظيم، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ (٧) و قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٨﴾﴾ (٨)

١ - الشورى: ٢٢ - ٢٣

٢ - البينة: ٧

٣ - التغابن: ٩

٤ - العنكبوت: ٧

٥ - ص: ٢٨

٦ - غافر: ٥٨

٧ - المائدة: ٩

٨ - الفتح: ٢٩

السادس: أنه - سبحانه - وعدهم بالاستخلاف في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾^(١)

السابع: أنه - سبحانه - وعدهم بالجنة، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾^(٢) و قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾^(٣)

الثامن: أنه - سبحانه - يوفر لهم أجورهم، و يزيدهم من فضله، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ﴾^(٤) و قال تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾^(٥)

التاسع: أنه - سبحانه - يدخلهم في الصالحين، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾^(٦)

العاشر: أخبر - سبحانه - أنه لا خوف عليهم و لا يزنون، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾^(٧) و قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾^(٨)

١ - النور: ٥٥

٢ - النساء: ١٢٢

٣ - لقمان: ٨ - ٩

٤ - النساء: ١٧٣

٥ - فاطر: ٣٠

٦ - العنكبوت: ٩

٧ - البقرة: ٢٧٧

٨ - المائدة: ٦٩

الحادي عشر: هدايتهم بإيمانهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾^(١)

الثاني عشر: عدم جزعهم و ثباتهم بما قدر الله لهم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ

ضُرَّاءِ مَسَّتِهِ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾^(٢)

الثالث عشر: أنه - سبحانه - لا يضيع لهم عملاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾^(٣)

الرابع عشر: أنه - سبحانه - ينزلهم في جنة الفردوس و هو أعلى الجنة و أوسطها، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾^(٤)

الخامس عشر: أنه - سبحانه - سيجعل لهم مودة عند الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾^(٥)

السادس عشر: أنه - سبحانه - يرزقهم رزقاً كريماً و مغفرة، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾^(٦)

السابع عشر: أخبر - سبحانه - أنهم، هم الذين يصدق عملهم أقوالهم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ

يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿١﴾﴾^(١)

١ - يونس: ٩

٢ - هود: ١٠ - ١١

٣ - الكهف: ٣٠

٤ - الكهف: ١٠٧

٥ - مريم: ٩٦

٦ - الحج: ٥٠

الثامن عشر: أخبر - سبحانه - أنهم هم الذين يستجيبون له سبحانه، قال تعالى:

﴿وَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾^(٢)

التاسع عشر: أخبر - سبحانه - بخلودهم في الجنة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٣) و قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

أَبَدًا﴾^(٤)

العشرون: استثناهم - سبحانه - من الخسارة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(٥)

فعلى العبد أن يحرص كل حرص على العمل الصالح؛ لأن ذلك يكون له أجرى على الثبات

على توحيد العبادة، و لا يحقرن من المعروف شيئاً، و لو كان إمطة الأذى من الطريق، كما

قال النبي - ﷺ -: "إمطة الأذى عن الطريق صدقة."^(٦)

١ - الشعراء: ٢٢٦ - ٢٢٧

٢ - الشورى: ٢٦

٣ - البقرة: ٨٢

٤ - النساء: ١٢٢

٥ - العصر: ١ - ٣

٦ - أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب إمطة الأذى. ١٧٤/٣ ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة

يقع على كل نوع من المعروف. رقم (٢٣٨٢) ٨٣/٣

الفصل الخامس: حماية توحيد العبادة و النهي عما يضاده

المبحث الأول: تحريم الشرك في توحيد العبادة

المبحث الثاني: بيان آثار الشرك في توحيد العبادة

المبحث الثالث: أساليب معالجة و تدارك من وقع فيه

المبحث الأول: تحريم الشرك في توحيد العبادة

- ١- تحريم الشرك
- ٢- النهي عن الشرك ووسائله
- ٣- النهي عن دعاء أحد إلا الله تعالى

وصف الله - سبحانه - في كتابه الشرك بالنجاسة والخبث، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾^(٢) والكلمة الخبيثة في هذه الآية هي الشرك.^(٣)

فإن النجس هو المستقذر الذي يطلب مباعده والبعد منه بحيث لا يلمس ولا يشم ولا يرى، فضلاً أن يخالط ويلابس لقدارته ونفرة الطباع السليمة عنه، وكلما كان الإيمان أكمل و القلب أسلم كان ابتعاده من ذلك أعظم، ونفرته منه أقوى. فنجاسة الشرك نوعان: نجاسة مغلظة، و نجاسة مخففة.

فالمغلظة: الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله - عز و جل - فإن الله لا يغفر أن يشرك به. والمخففة: الشرك الأصغر، كيسير الرياء والحلف بغير الله.

و الشرك لما كان أظلم الظلم وأقبح القبائح وأنكر المنكرات، كان أبغض الأشياء إلى الله - تعالى - وأكْرهها له، وأشدّها مقتاً عنده، ورتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه، وأخبر أنه لا يغفره، وأن أهله نجس ومنعهم من قربان حرمه، وحرّم ذبائحهم ومناكحتهم، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين، وجعلهم أعداء له - سبحانه - وملائكته ورسله وللمؤمنين، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبنائهم، وأن يتخذوهم عبيداً، وهذا لأن الشرك هضم لحق الربوبية، وتنقيص لحق الإلهية، وسوء ظن برب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَيَعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَنَ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٤) فلم

١ - التوبة: ٢٨

٢ - إبراهيم: ٢٦

٣ - انظر: تفسير الطبري ٥٨٣/١٦ تفسير البغوي ٣٤٨/٤ و تفسير القرطبي ٣٦٢/٩

٤ - الفتح: ٦

يجمع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الشرك، فإنهم ظنوا به ظن السوء حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن لوحدوه حق توحيدده.

فمن يجعل لله عدلاً في العبادة والمحبة والتعظيم، فقد سَوَّى بينه و بين الرب -سبحانه- وهذه التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبي آلهتهم، وعرفوا وهم في النار أنها كانت ضلالاً وباطلاً حتى قالوا لألهتهم وهم في النار معهم ﴿ تَأَلَّهَ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٧﴾ إِذْ سُويَكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾^(١) ومعلوم أنهم ما سووهم به في الذات والصفات والأفعال، ولا قالوا إن آلهتهم خلقت السموات والأرض، وأنها تحيي وتميت، وإنما سووها به في محبتهم وتعظيمهم لها وعبادتهم إياها، كما هو عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام.

فالشرك مبني على سوء الظن بالله -تعالى-، ولهذا يظن المشرك أن الله -سبحانه- إنما تتم قدرته بقدرته الشريك، أو يظن بأنه -تعالى- لا يعلم حتى يعلمه الوساطة، أو لا يرحم حتى يجعله الوساطة يرحم، أو لا يكفي عبده وحده، أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده الوساطة، كما يشفع المخلوق عند المخلوق، فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به وتكثره به من القلة وتعززه به من الذلة، أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الوساطة أن ترفع تلك الحاجات إليه، كما هو حال ملوك الدنيا. وهذا أصل شرك الخلق، أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم حتى يرفع الوسائط ذلك، أو يظن أن للمخلوق عليه حقاً، فهو يقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه ويتوسل إليه بذلك المخلوق، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم ولا يمكنهم مخالفته. وكل هذا تنقص للربوبية وهضم لحقها، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة الله -تعالى- وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه من قلب المشرك بسبب قسمته ذلك بينه -سبحانه- وبين من أشرك به، فينقص ويضعف، أو ينتهي ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عبده من دونه.

فالشرك ملزوم لتنقص الرب -سبحانه- و التنقص لازم له ضرورة شاء المشرك أم أبى، ولهذا اقتضى حمده -سبحانه- وكمال ربوبيته أن لا يغفره، وأن يخلد صاحبه في العذاب الأليم،

ويجعله أشقى البرية، فلا تجد مشركاً قط إلا وهو متنقص لله - سبحانه - وإن زعم أنه يعظمه بذلك. (١)

و لذلك حرم الله الشرك أعظم التحريم، فقال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ^ط إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ (٢)

قال أبو جعفر: "يقول -تعالى- ذكره- لنبية محمد - ﷺ -: قل يا محمد لهؤلاء العادلين برهم الأوثان والأصنام، الزاعمين أن الله حرم عليهم ما هم محرموه من حرثهم وأنعامهم على ما ذكرت لك في تنزيلي عليك: تعالوا أيها القوم، اقرأ عليكم ما حرم ربكم حقاً يقيناً لا الباطل تخرصاً تخرصكم على الله الكذب والفرية ظناً، ولكن وحيماً من الله أوحاه إليّ وتنزيلاً أنزله عليّ: أن لا تشركوا بالله شيئاً من خلقه، ولا تعدلوا به الأوثان والأصنام، ولا تعبدوا شيئاً سواه." (٣)

وقال ابن كثير: "يقول -تعالى- لنبية ورسوله محمد - ﷺ -: قل يا محمد -لهؤلاء المشركين الذين أشركوا و عبدوا غير الله، وحرمو ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم وكل ذلك فعلوه بأرائهم، وتسويل الشياطين لهم، ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ تَعَالَوْا ﴾ أي: هلموا وأقبلوا: ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً لا تخرصاً، ولا ظناً، بل وحيماً منه وأمرأ من عنده: ﴿ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ وكان في الكلام محذوفاً دلّ عليه السياق، وتقديره: وأوصاكم ﴿ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ ولهذا قال في آخر الآية: ﴿ ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٤) (٥)

١ - انظر: إغاثة اللهفان ٥٩-٦٣

٢ - الأنعام: ١٥١

٣ - تفسير الطبري ٢١٥/١٢

٤ - الأنعام: ١٥١

٥ - تفسير ابن كثير ٣/٣٥٩-٣٦٠

قال السعدي: "يقول -تعالى- لنبية -ﷺ-: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ تحريماً عاماً شاملاً لكل أحد، محتويّاً على سائر المحرمات، من المآكل والمشارب والأقوال والأفعال. ﴿أَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً.

وحقيقة الشرك بالله: أن يُعبد المخلوق كما يعبد الله، أو يُعظّم كما يعظم الله، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية، وإذا ترك العبد الشرك كله صار موحداً، مخلصاً لله في جميع أحواله، فهذا حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.^(١)

وقال البقاعي: "ولما أبطل دينهم كله أصولاً وفروعاً في التحريم والإشراك، وبين فساده بالدلائل النيرة، ناسب أن يخبرهم بالدين الحق مما حرمه الملك الذي له الخلق والأمر ومن غيره، فليس التحريم لأحد غيره، فقال: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ أي: أقبلوا إليّ صاعدين من حضيض الجهل والتقليد وسوء المذهب إلى أوج العلم ومحاسن الأعمال."^(٢)

وقال عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: "فالشرك أعظم ذنب عصي الله به أكبره وأصغره. وقد وقع الأكثر من متأخري هذه الأمة في هذا الشرك الذي هو أعظم المحرمات، كما وقع في الجاهلية قبل مبعث النبي -ﷺ- عبدوا القبور والمشاهد والأشجار والأحجار

والطواغيت والجن، كما عبد أولئك اللات والعزى ومناة وهبل وغيرها من الأصنام والأوثان، واتخذوا هذا الشرك ديناً ونفروا إذا دُعوا إلى التوحيد أشد نفرة، واشتد غضبهم لمعبوداتهم، كما

قال -تعالى-: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(٣) وقال -تعالى-: ﴿وَإِذَا ذُكِرَتْ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ

١ - تفسير السعدي ص ٢٧٩

٢ - نظم الضرر ٢/٧٤٠-٧٤١

٣ - الزمر: ٤٥

وَحَدَّهُ، وَلَوْ عَلَىٰ آدْبَرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ^(١) وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ

﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا آلَ الْهَتَنِا لَشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ^(٢)

علموا أن لا إله إلا الله تنفي الشرك الذي وقعوا فيه، وأنكروا التوحيد الذي دلت عليه، فصار أولئك المشركون أعلم بمعنى هذه الكلمة: "لا إله إلا الله" من أكثر متأخري هذه الأمة، لا سيما أهل العلم منهم الذين لهم دراية في بعض الأحكام وعلم الكلام، فجهلوا توحيد العبادة، فوقعوا في الشرك المنافي له وزينوه، وجهلوا توحيد الأسماء والصفات وأنكروه، فوقعوا في نفيه أيضاً. و صنفوا فيه الكتب لاعتقادهم أن ذلك حق وهو باطل. ^(٣)

وقال الشيخ محمد بن عثيمين ^(٤): "سميت هذه الوصايا بالوصايا العشر؛ لأن الله -تعالى-

جمعها في مكان واحد، وكان يختم كل وصية منها، أو كل آية منها بقوله -تعالى-: ﴿ذَلِكُمْ

وَصَّكُم بِهِ﴾ ^(٥) إن الوصية هي العهد بالشيء عهداً مؤكداً، فكأن الله -تعالى- عهد إلينا

بهذه الأشياء عهداً مؤكداً محتماً علينا، فبدأ بقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ

رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ والخطاب هنا للرسول -ﷺ- وأمره الله -تعالى- أن يقول هذا

القول للناس عموماً. وأمر الله -عز وجل- لرسوله أن يقول للناس هذا هو أمر خاص، وإلا

فإن الله -تعالى- قد أمر نبيه على وجه عام أن يبلغ القرآن لكل الأمة.

﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما حرم ربكم عليكم مخالفتها، فهذه الأشياء التي

سيوصي بها الله قد حرم الله علينا مخالفتها، فلا بد أن نقوم بها على الوجه الأكمل.

١ - الإسراء: ٤٦

٢ - الصافات: ٣٥ - ٣٦

٣ - قرعة عيون الموحدين ١٣-١٤ ص

٤ - هو محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين الوهبي التميمي، أبو عبد الله، ولد سنة ١٣٤٧ هـ في عنيزة و نشأ بها ثم درس في الرياض على مشايخها، فقيه العصر، ألف كتباً كثيرة منها: الأصول من علم الأصول، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، أصول التفسير وغير ذلك، توفي سنة ١٤٢١ هـ. انظر: ابن عثيمين الإمام الزاهد ص ٢٧

٥ - الأنعام: ١٥١

وفي قوله -تعالى-: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ ولم يقل: ما حرم الله؛ لأن الرب هو الذي له التصرف المطلق في المربوب، فالرب هو الرب ويقابله العبد، كما قال الله -تعالى-: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) فوصف الله نفسه بأنه رب للعالمين كلهم، والرب هو الذي يملك أن يتصرف فيهم بما شاء من الأمر الكوني والأمر الشرعي.

الوصية الأولى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أي: أن لا تجعلوا معه شريكاً والنهي عن الشرك بالله يشمل ثلاثة أقسام:

القسم الأول: النهي عن الشرك به في ربوبيته.

القسم الثاني: النهي عن الشرك به في ألوهيته.

القسم الثالث: النهي عن الشرك به في أسمائه وصفاته.^(٢)

ففي هذه الآية جاءت الوصايا العشر، فالأولى: تحريم الشرك؛ وهذه الوصية ملزمة بالتوحيد، وإفراد الله بالعبادة، ويكون التوحيد شاملاً: لتوحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، توحيداً خالصاً لا تشوبه شائبة.

وإن الأمور التي جمعتها هذه الوصية أمر هائل، تصدرتها قضية الدين الأساسية؛ قضية العقيدة والتوحيد، وإفراد الله بالعبادة والاستسلام لله، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، قال -تعالى-: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فهذا هو أعظم التحريم؛ لأن الله لا يقبل عملاً مع الشرك.

فالباري -جل وعلا- حرم على الناس الشرك، وهذا التحريم هو القاعدة التي تقوم عليها العقيدة، وترجع إليها التكاليف والفرائض، وهو الأصل الذي يتعين أن يستقر ويثبت قبل الدخول في الأوامر والنواهي، وقبل تفصيل التكاليف والفرائض.

والمقصود من هذا التحريم هو تنقية العقيدة من شوائب الشرك، وتنقية العقل من شوائب الخرافة، وتنقية المجتمع من عادات وتقاليد الجاهلية، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. وإن الشرك في كل صوره وأشكاله، هو المحرم الأول؛ لأنه يجر إلى كل محرم، وهو

١ - الفاتحة: ٢

٢ - مجموع فتاوى العثيمين ص ١٠٧

المنكر الأول الذي يتعين حشد كل الطاقات لإزالته حتى يعترف الناس أنه لا إله إلا الله، و يخلصوا العبادة لله وحده، فإذا فعلوا ذلك عصموا دماءهم و أموالهم إلا بحق الإسلام، كما قال النبي -ﷺ- : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال : لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله".^(١)

والتوحيد على إطلاقه هو القاعدة الأولى التي لا يغني عنها شيء آخر من عبادة أو عمل.^(٢)

و قال -تعالى-: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾^(٣)

قال أبو جعفر: "يقول -جل ثناؤه-: إنما حرم ربي الفواحش والشرك به أن تعبدوا مع الله إلهها غيره ﴿ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ يقول: حرم ربكم عليكم أن تجعلوا معه في عبادته شركاً لشيء لم يجعل لكم في إشراككم إياه في عبادته حجة ولا برهاناً، وهو "السلطان"

﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ يقول: وأن تقولوا إن الله أمركم بالتعري والتجرد للطواف بالبيت، وحرم عليكم أكل هذه الأنعام التي حرمتها وسيبتموها وجعلتموها وصائل^(٤) وحوامي^(٥)، وغير ذلك مما لا تعلمون أن الله حرمه، أو أمر به، أو أباحه، فتضيفوا إلى الله تحريمه وحظره والأمر به، فإن ذلك هو الذي حرمه الله عليكم دون ما تزعمون أن الله حرمه، أو تقولون إن الله أمركم به، جهلاً منكم بحقيقة ما تقولون وتضيفونه إلى الله.^(٦)

١ - أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة. رقم (١٣٩٩) ١٣١/٣ و مسلم في كتاب الإيمان، باب

الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله. رقم (١٣٤) ٣٨/١

٢ - انظر: الوصايا العشر كما جاءت في سورة الأنعام ص ٧-٨ لمحمد بن أحمد الصالح

٣ - الأعراف: ٣٣

٤ - الوصائل: جمع وصيلة هي في الجاهلية الناقة التي وصلت بين عشرة أبطن، وهي من الشاء التي ولدت سبعة أبطن عناقين عناقين، فإن ولدت في السابع عناقاً قيل وصلت أحاها، فلا يشرب لبن الأم إلا الرجال دون النساء وتجري تجرى السائبة. انظر: لسان العرب ٧٢٦/١١

٥ - الحوامي: جمع الحامي: الفحل من الإبل يضرب الضراب المعداد أو عشرة أبطن ثم هو حام، أي: حمى ظهره، فيشرك، فلا يُنتفع منه بشيء ولا يُمنع من ماء ولا مرعى. انظر: تاج العروس من جواهر القاموس ٤٨٢/٣٧

٦ - تفسير الطبري ٤٠٤/١٢

قال ابن القيم: " وقد حرم الله - سبحانه - القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال - تعالى - ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بغيرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ (٣٣) ^(١) فرتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها، وهو الفواحش، ثم ثنى بما هو أشد تحريماً منه، وهو الإثم والظلم، ثم ثلث بما هو أعظم تحريماً منهما، وهو الشرك به - سبحانه -، ثم ربح بما هو أشد تحريماً من ذلك كله، وهو القول عليه بلا علم. وهذا يعم القول عليه - سبحانه - بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه، وقال - تعالى - ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴾ (١١٦) متع قليل ولهم عذاب أليم ^(٢) فتقدم إليهم - سبحانه - بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقولهم لما لم يجرمه هذا حرام ولما لم يحله هذا حلال وهذا بيان منه - سبحانه - أنه لا يجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام إلا بما علم أن الله - سبحانه - أحله وحرمه. وقال بعض السلف: "ليتق أحدكم أن يقول أحل الله كذا وحرم كذا. فيقول الله له كذبت لم أحل كذا ولم أحرم كذا." فلا ينبغي أن يقول لما لا يعلم ورود الوحي المبين بتحليله وتحريمه أحله الله وحرمه الله مجرد التقليد أو بالتأويل. ^(٣)

فالتحريم له مراتب، و أعلى مراتب التحريم هو تحريم الشرك، و القول على الله بغير العلم، وإن الشرك قد يدخل فيه أيضاً. و ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية هذه المراتب، فقال: "أحدها: أن المحرمات قسمان: أحدهما: ما يقطع بأن الشرع لم يبيح منه شيئاً لا لضرورة ولا لغير ضرورة؛ كالشرك والفواحش والقول على الله بغير علم. والظلم المحض وهي الأربعة المذكورة في قوله - تعالى - ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بغيرِ

١ - الأعراف: ٣٣

٢ - النحل: ١١٦ - ١١٧

٣ - إعلام الموقعين ١/٣٩

الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿٣٣﴾^(١) فهذه الأشياء محرمة في جميع الشرائع وبتحريمها بعث الله جميع الرسل، ولم يبح منها شيئاً قط، ولا في حال من الأحوال، ولهذا أنزلت في هذه السورة المكية ونفي التحريم عما سواها؛ فإنما حرمه بعدها كالدم والميتة ولحم الخنزير حرمه في حال دون حال، وليس تحريمه مطلقاً.^(٢)

٨- النهي عن الشرك ووسائله

لما كان الشرك أظلم الظلم وحرمه الله -تعالى- أعظم التحريم، وردت الأدلة الكثيرة في النهي عنه، وسدّ كل الأسباب المؤدية إليه، فتارة نهي الله أن نجعل له نداً، و تارة ينهى عبادة أي شيء من دونه -سبحانه- و تارة ينهى عن أي وسيلة إلى الشرك، كالتطواف حول الأضرحة وغير ذلك. فكمال توحيد العبادة لا يكون إلا بصرف هذه القربات لله وحده، فمن صرف شيئاً من الدعاء و الرجاء و الخوف لغير الله -تعالى- نقص ذلك من توحيد العبادة بقدر ما صرف تلك الوسائل لغير الله تعالى.

و الشرك تسرب في هذه الأمة من مسألة الوسيلة و الشفاعة، لكن النبي -ﷺ- بين أن الشرك يكون في هذه الأمة أخفى من ذلك، قال النبي -ﷺ- : "والذي نفسي بيده، للشرك أخفى من ديب النمل، ألا أدلك على شيء إذا قتلته ذهب عنك قليله وكثيره؟ قال: قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم."^(٣)

فكيف بالذين يستغيثون من دون الله ويدعونهم، و يستشفعون بهم ما لم يأذن به الله تعالى، قال -تعالى-: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ

١ - الأعراف: ٣٣

٢ - مجموع الفتاوى ٤٧٠/١٤

٣ - أخرجه البخاري في الأدب المفرد، كتاب الذكر، باب فضل الدعاء رقم (٧١٦) ص ٢٥٠. قال الشيخ الألباني:

رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾^(١) و أين ذهب عقل من يدعو من دون الله تعالى - وهم لا يعرفون أحوال المدعوين - و لو زعموا أنهم صالحون. لقد قال - تعالى - عن النبي - ﷺ -: ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾^(٢) وقال - تعالى -: ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾^(٣) و قال - تعالى -: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾^(٤) فالنبي - ﷺ - أفضل الخلق - لا يملك لنفسه شيئاً إلا ما شاء الله، فكيف يملك لغيره. فمن يجعل للخلق شيئاً من صفات الخالق، فقد أشركه معه، قال الله -- تعالى -: ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴿٥٥﴾^(٥) قال أبو جعفر: "يعني بذلك - جل ثناؤه -: وذلوا لله بالطاعة، واخلصوا له بها، وأفردوه بالربوبية، وأخلصوا له الخضوع والذلة، بالانتهاء إلى أمره، و الانزجار عن نهيهِ، ولا تجعلوا له في الربوبية والعبادة شريكاً تعظمونه تعظيمكم إياه." ^(٦)

١ - الإسراء: ٥٦ - ٥٧

٢ - الأعراف: ١٨٨

٣ - يونس: ٤٩

٤ - الجن: ٢٠ - ٢٢

٥ - النساء: ٣٦

٦ - تفسير الطبري ٣٣٤/٨

قال ابن كثير: "يأمر -تبارك وتعالى- بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات، فهو المستحق منهم أن يوحده، ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته." (١)

قال القرطبي: "أجمع العلماء على أن هذه الآية من المحكم المتفق عليه، ليس منها شيء منسوخ. وكذلك هي في جميع الكتب. ولو لم يكن كذلك لعرف ذلك من جهة العقل، وإن لم ينزل به الكتاب. وقد مضى معنى العبودية وهي التذلل والافتقار لمن له الحكم والاختيار؛ فأمر الله -تعالى- عباده بالتذلل له والإخلاص فيه، فالآية أصل في خلوص الأعمال لله -تعالى- وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره؛ قال الله -تعالى-: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (٢) حتى لقد قال بعض علمائنا: إنه من تطهر تبرداً أو صام محمداً (٣) لمعدته ونوى مع ذلك التقرب لم يجزه (٤)؛ لأنه مزج في نية التقرب نية دنيوية وليس لله إلا العمل الخالص، كما قال -تعالى-: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ (٥) وقال -تعالى-: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (٦) وكذلك إذا أحس الرجل بداخل في الركوع وهو إمام لم ينتظره؛ لأنه يخرج ركوعه بانتظاره عن كونه خالصاً لله تعالى." (٧)

فالقارطبي استدل بهذه الآية على منع الشرك الأصغر، وإن كان دخول الشرك الأكبر من باب الأولى.

١ - تفسير ابن كثير ٢/٢٩٧-٢٩٨

٢ - الكهف: ١١٠

٣ - أي مُقَرَّب. انظر: تاج العروس من جواهر القاموس ١٠/٣٢

٤ - اختلف العلماء في هذا على ثلاثة أقوال: ١- أنه يجزيه هذا العمل و أن النية ليست شرطاً في الغسل، هذا قول أبي حنيفة ٢- أنه يجزيه مع النقص في الأجر، ٣- أنه لا يجزيه لأن النية في الطهارة شرط و هذا قول الجمهور. انظر:

الشرح الممتع على زاد المستقنع ١/١٩٧ و ١/٣٥٨

٥ - الزمر: ٣

٦ - البينة: ٥

٧ - تفسير القرطبي ٥/١٨٠

وقال السعدي: "أمر -تعالى- عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رق عبوديته، والانقياد لأوامره ونواهيه، محبة وذلّاً وإخلاصاً له في جميع العبادات الظاهرة والباطنة. وينهى عن الشرك به شيئاً لا شركاً أصغر ولا أكبر، لا ملكاً ولا نبياً ولا ولياً ولا غيرهم من المخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً، بل الواجب المتعين إخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد." (١)

و قال -تعالى-: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ (٢) قال ابن كثير في هذه الآية "يقول تعالى - والمراد المكلفون من الأمة- لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ على إشراكك ﴿مَّخْذُولًا﴾ لأن الرب -تعالى- لا ينصرك، بل يكللك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضرراً ولا نفعاً؛ لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له." (٣)

قال السعدي في تفسير: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ "أي: لا تعتقد أن أحداً من المخلوقين يستحق شيئاً من العبادة، ولا تشرك بالله أحداً منهم، فإن ذلك داع للذم والخذلان، فالله وملائكته ورسله قد نهبوا عن الشرك، وذموا من عمله أشد الذم، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة، والأوصاف المقبوحة ما كان به متعاطيه أشنع الخلق وصفاً وأقبحهم نعتاً، وله من الخذلان في أمر دينه ودينه بحسب ما تركه من التعلق بربه، فمن تعلق بغيره، فهو مخذول قد وكل إلى من تعلق به، ولا أحد من الخلق ينفع أحداً إلا

١ - تفسير السعدي ص ١٧٧

٢ - الإسراء: ٢٢

٣ - تفسير ابن كثير ٦٤/٥

بإذن الله، كما أن من جعل مع الله إلهاً آخر له الذم والخذلان، فمن وحّده وأخلص دينه لله وتعلق به دون غيره، فإنه محمود معان في جميع أحواله." (١)

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٢) في مسائل من هذه الآية: "العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء، وفيها ثماني عشرة مسألة، بدأها الله بقوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُومًا﴾ وختمها بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْقَلَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّذْحُورًا﴾ (٣) ونبها الله - سبحانه - على عظم شأن هذه المسائل بقوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ (٤)"

فالنهي عن الشرك ورد كثيراً في القرآن الكريم، و مسار هذا النهي يأتي على أساليب: الأول: النهي أن يجعل مع الله إلهاً آخر، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُومًا﴾ (٥) و قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْقَلَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّذْحُورًا﴾ (٦) و قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٧)

١ - تفسير السعدي ص ٤٥٥

٢ - هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي، الإمام المجدد، ولد سنة ١١١٥ هـ ونشأ في العيينة ثم سكن حرملاء. ثم انتقل إلى العيينة، ثم الدرعية سنة ١١٥٧ هـ فتلقاه أميرها محمد بن سعود بالإكرام وقبل دعوته و نصره هو و ابنه حتى أظهر الله دعوته و مكنهم في الأرض. مات سنة ١٢٠٦ هـ. انظر: علماء نجد ١/١٢٥ ومشاهير علماء نجد وغيرهم ص ٢٠

٣ - الإسراء: ٣٩

٤ - كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد ص ٤

٥ - الإسراء: ٢٢

٦ - الإسراء: ٣٩

٧ - الذاريات: ٥١

الثاني: النهي عن الأنداد لله - سبحانه -، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾^(١) و قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۗ ﴾^(٢) و قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۗ ﴾^(٣)

الثالث: النهي عن الأرباب من دون الله - تعالى -، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ۗ ﴾^(٤) و قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۗ ﴾^(٥) و قال تعالى: ﴿ اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^(٦)

الرابع: وصف من يشرك بالله - تعالى - بأقبح الصفات، قال تعالى: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ۗ ﴾^(٧) و قال

١ - البقرة: ٢٢

٢ - إبراهيم: ٣٠

٣ - الزمر: ٨

٤ - آل عمران: ٦٤

٥ - آل عمران: ٨٠

٦ - التوبة: ٣١

٧ - التوبة: ٢٨

تعالى: ﴿يَبْتَغِي لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(١) و قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ

فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾^(٢)

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ - : " قال الله - تبارك وتعالى - أنا أغنى الشركاء

عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه."^(٣)

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي - ﷺ - : " اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا

: يا رسول الله! وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا

بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات

المؤمنات الغافلات."^(٤)

عن أنس بن مالك عن النبي - ﷺ - قال: "يقول الله - تبارك وتعالى - لأهون أهل النار

عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم. فيقول: قد أردت

منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك - أحسبه قال - ولا أدخلك

النار فأبيت إلا الشرك."^(٥)

١ - لقمان: ١٣

٢ - الحج: ٣١

٣ - تقدم تخريجه ص ٥٥

٤ - أخرجه البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾. رقم (٢٧٦٦) ١٢/٤ و مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها. رقم

(٢٧٢) ٦٤/١

٥ - أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته. رقم (٣٣٣٤) ١٦٢/٤

ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب طلب الكافر الغداء بملء الأرض ذهباً. رقم (٧٢٦١) ١٣٤/٨

٩ - النهي عن دعاء أحد إلا الله تعالى

ذكرت أن الدعاء عبادة، وهذه العبادة من الوسائل التي يتقرب بها إلى الله -تعالى-، فمن يستكبر و يتجاهل عن هذه العبادة، و يدعو غير الله -تعالى-، فقد عرض نفسه للهلاك، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (١) و من يؤمن بالله يتقرب إلى الله وحده، و يدعو وحده، و لا يصرف من عبادته لغير الله -تعالى- شيئاً، و هذا هو الرشد الذي هُدي إليه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٢) فمن استجاب لله -تعالى- لا يمكنه أن يصرف شيئاً من دعائه لغير الله -تعالى-، و هو وحده -سبحانه- ينفع و يضر، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) قال أبو جعفر: "يقول -تعالى- ذكره-: ولا تدع يا محمد من دون معبودك وخالقك شيئاً لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك في دين ولا دنيا، يعني بذلك الآلهة والأصنام. يقول: لا تعبدها راجياً نفعها أو خائفاً ضررها، فإنها لا تنفع ولا تضر ﴿ فَإِن فَعَلْتَ ﴾ ذلك، فدعوها من دون الله ﴿ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ يقول: من المشركين بالله، الظالمين أنفسهم." (٤)

قال السعدي في تفسير: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ "وهذا وصف لكل مخلوق أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار هو الله تعالى.

١ - غافر: ٦٠

٢ - البقرة: ١٨٦

٣ - يونس: ١٠٦

٤ - تفسير الطبري ٢١٨/١٥

﴿ فَإِن فَعَلْتَ ﴾ بأن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴿ فَإِنَّكَ إِذَا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: الضارين أنفسهم بإهلاكها، وهذا الظلم هو الشرك، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾^(١) فإذا كان خير الخلق لو دعا مع الله غيره، لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره؟!^(٢)

قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ اعتراض بين فعل ﴿ تَدْعُ ﴾ ومفعوله، وهو إدماج للحث على دعائه الله.

وتفريع ﴿ فَإِن فَعَلْتَ ﴾ على النهين للإشارة إلى أنه لا معذرة لمن يأتي ما نهي عنه بعد أن أكد نهيهِ وبينت علتَهُ، فمن فعله فقد ظلم نفسه واعتدى على حق ربه.

وأكد الكون من الظالمين على ذلك التقدير بـ ﴿ إِنَّكَ ﴾ لزيادة التحذير، وأتى بـ ﴿ إِذَا ﴾ للإشارة إلى سؤال مقدر كأن سائلاً سأل: فإن فعلت فماذا يكون؟.

وفي قوله: ﴿ مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ من تأكيد مثل ما تقدم في قوله: ﴿ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٣) ونظائره.

والمقصود من هذا الفرض تنبيه الناس على فظاعة عظم هذا الفعل حتى لو فعله أشرف المخلوقين لكان من الظالمين، على حد قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ

لَئِن شَرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٤)^(٥)

قال عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: "ففي هذه الآية النهي عن أن يدعى أحد من دونه -

تعالى-، وأخبر -تعالى- أن غيره لا يضر ولا ينفع. قوله: ﴿ فَإِنَّكَ إِذَا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ والظلم

١ - لقمان: ١٣

٢ - تفسير السعدي ص ٣٧٥

٣ - يونس: ١٠٥

٤ - الزمر: ٦٥

٥ - التحرير والتنوير ١١/١٩١

في هذه الآية هو الشرك، كما قال -تعالى- عن لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(١) قال سليمان بن سحمان^(٢): "فمن دعا غير الله، واستغاث به ولجأ إليه، وصرف له شيئاً من خالص حق الله، كان هذا الفعل منه بهذا القصد شركاً بدليل ما قال أبو واقد الليثي^(٣): "خرجنا مع رسول الله -ﷺ- إلى حنين^(٤)، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة^(٥) يعكفون عندها، و ينوطون^(٦) بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله -ﷺ-: "الله أكبر إنها السنن، قلتم -والذي نفسي بيده- كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾^{(٧)(٨)}

فقوله: "وينوطون بها أسلحتهم" أي يعلقونها للبركة، ففي هذا بيان أن عبادتهم لها بالتعظيم والعكوف والتبرك، وبهذه الأمور الثلاثة عبدت الأشجار ونحوها، فظنوا أن هذا الأمر محبوب

١ - قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين ص ١٥٧

٢ - هو سُليمان بن سَحْمَان بن مصلح بن حمدان النجدي، له نظم، من علماء نجد. ولد في قرية (السقا) سنة ١٢٦٨ هـ من أعمال أُنْهَآ في عسير. وانتقل مع أبيه إلى الرياض فتلقى عن علمائها التوحيد والفقه واللغة. وصنف كتباً ورسائل، منها: الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق، و الهدية السنينة، و الصواعق المرسلية، وديوان شعر سماه؛ عقود الجواهر المنضدة الحسان، وغير ذلك. وكف بصره في آخر حياته، توفي في الرياض سنة ١٣٤٩ هـ انظر: مشاهير علماء نجد ص ٢٩٠

٣ - هو الحارث بن مالك، وقيل بن عوف وقيل عوف بن الحارث بن أسيد، أبو واقد الليثي ، أسلم قديماً وكان يحمل لواء بني ليث وضمرة وسعد بن بكر يوم الفتح وحنين وفي غزوة تبوك يستنفر بني ليث وكان خرج إلى مكة فجاور بها سنة، مات في خلافة معاوية. انظر: الإصابة (١٠٦٩٥) ٤٥٥/٧

٤ - حُنَيْنٌ وَهُوَ وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ مَكَّةَ ، يَقَعُ شَرْقَهَا بِقَرَابَةِ ثَلَاثِينَ كَيْلًا ، يُسَمَّى الْيَوْمَ وَاوِي الشَّرَائِعِ . انظر: معجم البلدان ٣١٣/٢

٥ - السِّدْرُ شجر النبق واحدها سِدْرَةٌ . انظر: لسان العرب ٣٥٤/٤

٦ - يَنْوِطُونَ بِهَا سِلَاحَهُمْ أَي يُعَلِّقُونَ وَيَعْكُفُونَ حَوْلَهَا . انظر: تاج العروس ١٦١/٢٠

٧ - الأعراف: ١٣٨

٨ - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم. رقم (٢١٨٠) ٤/٤٧٥ والإمام أحمد في مسنده، مسند الأنصار، حديث أبي واقد الليثي. رقم (٢١٩٤٧) ٥/٢١٨ و اللفظ للإمام أحمد. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. تعليق على المسند شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين

عند الله، فقصدوا التقرب به، فأقسم - ﷻ - أن طلبتهم كطلبة بني إسرائيل بجامع أن كلا طلبه أن يجعل له ما يأله ويعبده من دون الله، وإن اختلف اللفظان، فالمعنى واحد، فتغيير الاسم لا يغير الحقيقة.

ففي هذا الحديث دلالة واضحة على أن طلبتهم من النبي - ﷺ - أن يجعل لهم ذات أنواط، يتبركون بها، كطلبة بني إسرائيل من موسى أن يجعل لهم إلهاً، فأقسم - ﷻ - أن مقالة هؤلاء كمقالة أولئك سواء بسواء. ^(١)

إن من أكثر الوسائل التي دخل فيها الشرك هي الدعاء، لوقوع التشابه بين الدعاء المشروع و الدعاء الشركي، و ما دخل الشرك في هذه الأمة إلا لأنها ابتعدت عن فهم القرآن الكريم و سنة النبي - ﷺ -، و حين ننظر في الآيات التي تمنع الدعاء لغير الله - تعالى - نجدها شاملة كاملة شافية تمنع ذلك على ما يلي:

الأول: أن الدعاء من دون الله لا ينفع و لا يضر، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَىٰ الْهُدَىٰ اثْنًا قُلْ إِنِّي هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ

﴿ ٧١ ﴾ ^(٢) و قال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ ١٠٦ ﴾ ^(٣) و قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ﴿ ٣٨ ﴾ ^(٤)

الثاني: من يدعو من دون الله لا يستجيب له، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ ١١٤ ﴾ ^(٥)

١ - الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق ص ٤١١ - ٤١٢

٢ - الأنعام: ٧١

٣ - يونس: ١٠٦

٤ - الزمر: ٣٨

٥ - الأعراف: ١٩٤

الثالث: من يدعو من دون الله لا يملك له رزقاً و لا مثقال ذرة في الأرض و لا في السماء، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٣) ^(١) و قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِن شَرْكٍ وَمَا لُهُم مِّنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ (٢٢) ^(٢)

الرابع: من دعا غير الله أدخله في الشقاوة، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (٤٨) ^(٣)

الخامس: من دعا غير الله فهو أضل الناس، قال تعالى: ﴿وَمَن أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (٥) ^(٤) و قال تعالى: ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٢) ^(٥)

السادس: لا حجة لمن دعا غير الله -تعالى-، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (٧١) ^(٦) و قال تعالى: ﴿قُلِ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّن عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤) ^(٧)

السابع: من دعا غير الله فهو من أكذب الناس، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ إِنَّ مَا كُنتُمْ

١ - النحل: ٧٣

٢ - سبأ: ٢٢

٣ - مريم: ٤٨

٤ - الأحقاف: ٥

٥ - الحج: ١٢

٦ - الحج: ٧١

٧ - الأحقاف: ٤

تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ
الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ (١)

الثامن: من يدعو من دون الله فقد جلب على نفسه الهلاك، قال تعالى: ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُمْ
أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ (١٣) و قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ
ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهِمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا
زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَابَعٍ﴾ (١٠) أي: غير تحسير.

التاسع: أن هؤلاء المدعويين يحتاجون الوسيلة، و الرحمة عند الله - سبحانه - فكيف بالداعي،
قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٦)
أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ
إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (٥٧) (٤)

العاشر: الحق لله وحده في الدعاء و من دونه - سبحانه - فهو الباطل، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ
بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ
الْكَبِيرُ﴾ (٦٢) و قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ
الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٣٠) (٦)

الحادي عشر: من دعا غير الله - تعالى - فهو خصمه يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى
الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا

١ - غافر: ٧٣ - ٧٤

٢ - الحج: ١٣

٣ - هود: ١٠١

٤ - الإسراء: ٥٦ - ٥٧

٥ - الحج: ٦٢

٦ - لقمان: ٣٠

إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾^(١) و قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ^ط وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾^(٢)

الثاني عشر: من دعا غير الله ليشفع له، فقد خالف أمر الله، قال تعالى: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ^ع يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ^ط وَمَا خَلْفَهُمْ^ط وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴿٣﴾^(٣)

و قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ^ط وَمَا خَلْفَهُمْ^ط وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾^(٤) و قال تعالى: ﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمٰوٰتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَنُ بَعَدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٦٦﴾^(٥) و قال: ﴿ وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾^(٦) و قال: ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ^ع حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾^(٧) فالشفاعة حق الله يؤتيها من يشاء - سبحانه - فضلاً منه - تعالى - وبإذنه،

وبإذنه، فمن طلب الشفاعة من دونه، فقد خالف الكتاب و السنة.

١ - النحل: ٨٦

٢ - يونس: ٢٨

٣ - البقرة: ٢٥٥

٤ - الأنبياء: ٢٨

٥ - النجم: ٢٦

٦ - البقرة: ٤٨

٧ - سبأ: ٢٣

المبحث الثاني: بيان آثار الشرك في توحيد العبادة

- ١- لا يغفر الله للمشرك
- ٢- حرم الله الجنة على المشرك
- ٣- الشرك يحبط العمل
- ٤- الإسلام بريء من الشرك و أهله
- ٥- الشرك سبب لقلّة الرزق

إن الشيطان و أوليائه يسهلون في صدور الناس الشرك و وسائله، فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه الشرك و وسائله، وكلما ضعف إيمانه قوي لجوؤه إلى الشرك.

ومن مكايد الشيطان أنه يسحر العقل دائماً حتى يكيدته، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله، فيزين له الفعل الذي يضره حتى يخيل إليه أنه من أنفع الأشياء، وينفر من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له حتى يخيل له أنه يضره. فكم فتن بهذا السحر من إنسان، وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان، وكم جلا الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة، وشنع الحق وأخرجه في صورة مستقبحة، فهو الذي سحر العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك، وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك، وزين لهم عبادة الأصنام و دعاء غير الله -تعالى- و الاستشفاع بهم و النذر لهم، و وعدهم الفوز بالجنات مع الكفر والفسوق والعصيان. وأبرز لهم الشرك في صورة التعظيم، والكفر بصفات الرب -تعالى- وعلوه، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودد إلى الناس وحسن الخلق معهم، والإعراض عما جاء به الرسول -ﷺ- والنفاق و الادهان في دين الله في قالب العقل الذي يندرج به العبد بين الناس. فهو صاحب الأبوين حين أخرجهما من الجنة، وصاحب قاييل حين قتل أخاه، وصاحب قوم نوح حين أغرقوا، وقوم عاد حين أهلكوا بالريح العقيم، وصاحب قوم صالح حين أهلكوا بالصيحة، وصاحب قوم لوط حين خسف بهم، وأتبعوا بالرجم بالحجارة، وصاحب فرعون وقومه حين أخذوا الأخذة الرابية، وصاحب بني إسرائيل حين عبدوا العجل وجرى عليهم ما جرى، وصاحب قريش حين دعوا يوم بدر^(١)، وصاحب كل هالك ومفتون. فهذه آثار الشرك التي ظهرت للأمم السابقة بعد أن أنذرهم رسلهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ

١ - بَدْر: موضع بين مكة والمدينة، بما الواقعة المباركة التي كانت بين رسول الله ﷺ والمشركين سنة ٢ هـ. انظر: معجم

وَقَوْمٍ آتْرَهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ۚ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ

اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ (١)

فآثار الشرك عظيمة و جلية، لا تخفى على عاقل و من قرأ القرآن و السنة، لكن سحر الشيطان لا يزول إلا لدى من أظهر تعظيم ربه بالإخلاص و اتبع نبيه - ﷺ - بغير جدال. و من آثار الشرك في توحيد العبادة أمور نذكر منها:

١ - لا يغفر الله للمشرك

إن مثل المشرك كمن استعمله سيده في داره، فكان يعمل ويؤدي خراجه، وعمله إلى غير سيده، فهكذا المشرك يعمل لغير الله -تعالى- في دار الله -تعالى- ويتقرب إلى عدو الله بنعم الله -تعالى-، فما بالعبد من نعمة فمناه وحده لا شريك له، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو، وهو وحده المنفرد بخلق عبده ورحمته وتديبه ورزقه ومعافاته وقضاء حوائجه، فكيف يليق به مع هذا أن يعدل به غيره في الحب والخوف والرجاء والحلف والنذر والمعاملة و العبادة كلها ثم يريدون غفرانه - سبحانه و تعالى - لهذا الشرك، مع أنه الشرك الذي لا يغفره الله -عز و جل- قال الله - سبحانه و تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ

يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٢)

قال أبو جعفر: "يعني بذلك -جل ثناؤه-: إن الله لا يغفر لطعمة (٣) إذ أشرك ومات على

شركه بالله، ولا لغيره من خلقه بشركهم وكفرهم به ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يقول:

ويغفر ما دون الشرك بالله من الذنوب لمن يشاء. يعني بذلك -جل ثناؤه-: أن

١ - التوبة: ٧٠

٢ - النساء: ٤٨

٣ - طُعْمَة: اسمٌ للرجل، طعمة بن أبيرق من الأوس، ارتد عن الإسلام ولحق بكفار مكة.

طعمة لولا أنه أشرك بالله ومات على شركه، لكان في مشيئة الله على ما سلف من خيائه ومعصيته، وكان إلى الله أمره في عذابه والعفو عنه، وكذلك حكم كل من اجترم جرماً، فيلى الله أمره، إلا أن يكون جرمه شركاً بالله وكفراً، فإنه ممن حتم عليه أنه من أهل النار إذا مات على شركه، فأما إذا مات على شركه، فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار." (١)

و قال البغوي في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (١١٦) "أي: ذهب عن الطريق وحرم الخير كله، وقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: إن هذه الآية نزلت في شيخ من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ - فقال: يا نبي الله! إني شيخ متهتك (٢) في الذنوب إلا أنني لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفته وآمنت به، ولم أتخذ من دونه ولياً، ولم أواقع المعاصي جرأة على الله، وما توهمت طرفة عين أنني أعجز الله هرباً، وإني لنادم تائب مستغفر، فما حالي؟ فأنزل الله -تعالى- هذه الآية." (٤)

قال السعدي: "إن الشرك لا يغفره الله -تعالى- لتضمنه القدح في رب العالمين، وفي وحدانيته وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً بمن هو مالك النفع والضرر، الذي ما من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبار. فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق الذي ليس له من صفات الكمال شيء، ولا له من صفات الغنى شيء، بل ليس له إلا العدم؛ عدم الوجود، وعدم الكمال، وعدم الغنى، والفقر من جميع الوجوه.

١ - تفسير الطبري ٢٠٦/٩

٢ - النساء: ١١٦

٣ - مُتَهَتِك - يقال هو ضل بن ضل منهك في الضلال، أو مجهول لا يعرف أبوه، أو لا يدري من هو ومن هو، أو داهية لا خير فيه. انظر: المعجم الوسيط ٥٤٣/١

٤ - تفسير البغوي ٢٢٧/٢-٢٢٨

وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي، فهو تحت المشيئة إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه وعاقب بعدله وحكمته." (١)

قال الشوكاني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ "هذا الحكم يشمل جميع طوائف الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، ولا يختص بكفار أهل الحرب؛ لأن اليهود قالوا: عزير ابن الله. وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالوا ثالث ثلاثة. ولا خلاف بين المسلمين أن المشرك إذا مات على شركه لم يكن من أهل المغفرة التي تفضل الله بها على غير أهل الشرك حسبما تقتضيه مشيئته، وأما غير أهل الشرك من عصاة المسلمين، فداخلون تحت المشيئة يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء."

إلى أن قال: "وظاهره أن المغفرة منه - سبحانه - تكون لمن اقتضته مشيئته تفضلاً منه ورحمة، وإن لم يقع من ذلك المذنب توبة، وقيد ذلك المعتزلة بالتوبة. وقد تقدم قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (٢) وهي تدل على أن الله - سبحانه - يغفر سيئات من اجتنب الكبائر، فيكون مجتنب الكبائر ممن قد شاء الله غفران سيئاته." (٣)

قال ابن الجوزي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ "في سبب نزولها قولان. أحدهما: أنها نزلت في حق طُعْمَةَ بن أَبِي رِيفٍ لما هرب من مكة، ومات على الشرك، وهذا قول الجمهور، منهم سعيد بن جبير.

والثاني: أن شيخاً من الأعراب جاء إلى رسول الله - ﷺ - فقال: إني مُنْهَمَكٌ في الذنوب إلا أني لم أشرك بالله منذ عرفته، وإني لنادمٌ مستغفرٌ، فما حالي؟ فنزلت هذه الآية." (٤)

١ - تفسير السعدي ص ٢٠٢

٢ - النساء: ٣١

٣ - تفسير الشوكاني ٤٧٦/١

٤ - زاد المسير ٢٠٢/٢

قال الثعالبي^(١) في وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الآية: "هذه الآية هي الحاكمة ببيان ما تعارض من آيات الوعد والوعيد، وتلخيص الكلام فيها أن يقال: الناس أربعة أصناف: كافر مات على كفره. فهذا مخلد في النار بإجماع.

ومؤمن محسن لم يذنب قط ومات على ذلك. فهذا في الجنة محتوم عليه حسب الخبر من الله تعالى بإجماع.

وتائب مات على توبته. فهو عند أهل السنة وجمهور فقهاء الأمة لاحق بالمؤمن المحسن إلا أن قانون المتكلمين أنه في المشيئة.

ومذنب مات قبل توبته، فهذا هو موضع الخلاف، فقالت المرجئة: هو في الجنة بإيمانه، ولا تضره سيئاته، وجعلوا آيات الوعيد كلها في الكفار، وآيات الوعد عامة في المؤمنين؛ تقيهم وعاصيهم. وقالت المعتزلة: إذا كان صاحب كبيرة، فهو في النار، ولا بد. وقالت الخوارج^(٢): إذا كان صاحب كبيرة، أو صغيرة، فهو في النار مخلد، ولا إيمان له؛ لأنهم يرون كل الذنوب كبائر، وجعلوا آيات الوعد كلها في المؤمن الذي لم يعص قط.

والمؤمن التائب، وقال أهل السنة: هو في المشيئة. وهذه الآية هي الحاكمة، وهي النص في موضع النزاع، وذلك أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ فصل مجمع عليه، وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ فصل قاطع للمعتزلة، راد على قولهم رداً لا محيد لهم عنه، ولو وقفنا في هذا الموضع من الكلام، لصح قول المرجئة، فجاء قوله: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ رداً عليهم مبيناً أن غفران ما دون الشرك إنما هو لقوم دون قوم، بخلاف ما زعموه من أنه مغفور

١ - هو عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري، أبو زيد: مفسر، المالكي، ولد سنة ٧٨٦ هـ في الجزائر. من كتبه: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، و الأنوار في المعجزات النبوية، و روضة الأنوار ونزهة الاخيار، وغير ذلك، مات سنة ٨٧٥ هـ. انظر: الأعلام ٣/٣٣١

٢ - الخوارج: أول من خرج على أمير المؤمنين علي -رضي الله عنه-. وكبار فرق الخوارج ستة: الأزارقة، والنجدات، والعجاردة، والثعلبية، والإباضية، والصفرية، والباقون فروعهم. انظر: الملل والنحل ١/١١٣

لكل مؤمن، ولما حتم - سبحانه - على أنه لا يغفر الشرك، ذكر قبح موقعه، وقدره في الذنوب والفرية : أشد مراتب الكذب قبحاً، وهو الاختلاق.^(١)

قال عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: "فتبين بهذه الآية أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الله - تعالى - أخبر أنه لا يغفر لمن لم يتب منه، وما دونه من الذنوب، فهو داخل تحت المشيئة إن شاء غفره لمن لقيه به، وإن شاء عذبه به، وذلك يوجب للعبد شدة الخوف من الشرك الذي هذا شأنه عند الله؛ لأنه أقبح القبيح، وأظلم الظلم وتنقص لرب العالمين، وصرف خالص حقه لغيره، وعدل غيره به، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾^(٢) ولأنه مناقض للمقصود بالخلق، والأمر مناف له من كل وجه، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته، والذل له والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالم إلا بذلك، فمتى خلا منه حرب وقامت القيامة كما قال - ﷺ -: "لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله."^(٣) ولأن الشرك تشبيهه للمخلوق بالخالق - تعالى - ومشاركة في خصائص الإلهية من ملك الضر والنفع، والعطاء والمنع الذي يوجب تعلق الدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، وأنواع العبادة كلها بالله وحده، فمن علق ذلك بمخلوق، فقد شبهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه ضرراً ولا موتاً، ولا حياة ولا نشوراً شبيهاً بمن له الحمد كله، وله الخلق كله، وله الملك كله، وإليه يرجع الأمر كله، وييده الخير كله، فأزمة الأمور كلها بيده - سبحانه - ومرجعها إليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، الذي إذا فتح للناس رحمة، فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو العزيز الحكيم. فأقبح التشبيه، تشبيه العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات ومن خصائص الإلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال، والخشية والدعاء، والرجاء والإنابة، والتوكل والتوبة، والاستعانة وغاية، الحب مع غاية الدل، كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لله وحده، ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره، فمن فعل شيئاً من

١ - تفسير الثعالبي ٣٧٩/١

٢ - الأنعام: ١

٣ - أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان. رقم (٣٩٢) ٩١/١

ذلك لغيره، فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له، ولا مثيل له ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، فلهذه الأمور وغيرها أخبر - سبحانه وتعالى - أنه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة. هذا معنى كلام ابن القيم - رحمه الله - وفي الآية رد على الخوارج المكفرين بالذنوب، وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر يخلدون في النار، وليسوا عندهم بمؤمنين، ولا كفار، ولا يجوز أن يحمل قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ على التائب، فإن التائب من الشرك مغفور له، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾^(١) فهنا عمم وأطلق؛ لأن المراد به التائب، وهناك خصّ وعلّق؛ لأن المراد به من لم يتب.^(٢)

٢ - حرم الله الجنة على المشرك

لا يدخل الجنة مَنْ لم يطهر الله قلبه من شوائب الشرك، فلا بد أن يناله الخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة بحسب نجاسة قلبه وخبثه من الشرك، ولهذا حرم الله - سبحانه - الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره، قال النبي - ﷺ - : " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر."^(٣) فالكبر خبث و هو أقل من الشرك، فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث، فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا، فإن كانت نجاسته عينية من الشرك و الكفر لن يدخلها أبداً، وإن كانت نجاسته من المعاصي و الذنوب، دخلها بعدما يتطهر في النار من تلك النجاسة ما لم تدركه رحمة الله. والله - سبحانه - بحكمته جعل الدخول إلى جنته موقوفاً على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طيب طاهر، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ نُوفِّقُهُمْ

١ - الزمر: ٥٣

٢ - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٦٩

٣ - أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانها. رقم (٢٧٧) ٦٥/١

﴿الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٢) ^(١) و قال تعالى:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ

خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (٧٣) ^(٢) فنجاسة الشرك تمنع الإنسان أن

يدخل الجنة على حسب هذه النجاسة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ

الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٣)

قال أبو جعفر: "وهذا خبر من الله -تعالى ذكره- عن بعض ما فتن به الإسرائيليين الذين أخبر عنهم أنهم حسبوا أن لا تكون فتنة. يقول -تعالى ذكره-: فكان مما ابتليتهم واختبرتهم به، فنقضوا فيه ميثاقي، وغيروا عهدي الذي كنت أخذته عليهم بأن لا يعبدوا سواي -ولا يتخذوا رباً غيري، وأن يوحّدوني، وينتهوا إلى طاعتي- عبدي عيسى بن مريم، فإني خلقتهم، وأجريت على يده نحو الذي أجريت على يد كثير من رسلي، فقالوا كفرةً منهم: "هو الله".

إلى أن قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ أن يسكنها في

الآخرة ﴿وَمَاؤُهُ النَّارُ﴾ يقول: ومرجعه ومكانه- الذي يأوي إليه ويصير في معاده، من

جعل لله شريكاً في عبادته- نار جهنم ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ يقول: وليس لمن فعل غير ما

أباح الله له، وعبد غير الذي له عبادة الخلق ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ينصرونه يوم القيامة من الله،

فينقذونه منه إذا أوردته جهنم. ^(٤)

قال أبو حيان في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ﴾

"الظاهر أنه كلام المسيح، فهو داخل تحت القول. وفيه أعظم ردع منه عن عبادته، إذ أخبر

أنه من عبد غير الله منعه الله دار من أفردته بالعبادة، وجعل مأواه النار. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ

١ - النحل: ٣٢

٢ - الزمر: ٧٣

٣ - المائدة: ٧٢

٤ - تفسير الطبري ٤٨٠/١٠

﴿يُشْرِكُ بِهِ﴾^(١) وقيل: هو من كلام الله -تعالى- مستأنف، أخبر بذلك على سبيل الوعيد والتهديد. وفي الحديث قال رسول الله -ﷺ-: "إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ."^(٢)

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ظاهره أنه من كلام عيسى، أخبرهم أنه من تجاوز ووضع الشيء غير موضعه فلا ناصر له، ولا مساعد فيما افترى وتقول، وفي ذلك ردع لهم عما انتحلوه في حقهم من دعوى أنه إله، وأنه ظلم إذ جعلوا ما هو مستحيل في العقل واجباً وقوعه، أو فلا ناصر له ولا منجي من عذاب الله في الآخرة. ويحتمل أن يكون من كلام الله -تعالى-، أخبر أنهم ظلموا وعدلوا عن الحق في أمر عيسى وتقولهم عليه، فلا ناصر لهم على ذلك.^(٣)

قال أبو السعود: "وقد قال المسيح مخاطباً لهم: فإني عبدٌ مريبٌ مثلكم، فاعبدوا خالقي وخالقكم ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الشأن ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أي: شيئاً في عبادته، أو فيما يختص به من صفات الألوهية ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ فلن يدخلها أبداً، كما لا يصل المحرم عليه إلى المحرم، فإنها دار الموحدين. وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتحويل الأمر وتربية المهابة ﴿وَمَا وَهُهُ النَّارُ﴾ فإنها هي المعدّة للمشركين، وهذا بيان لابتلائهم بالعقاب إثر بيان حرمانهم الثواب.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي: ما لهم من أحد ينصُرهم بإنقاذهم من النار، إما بطريق المغالبة أو بطريق الشفاعة، والجمع لمراعاة المقابلة بالظالمين، واللام إما للعهد والجمع باعتبار معنى ﴿مَنْ﴾ كما أن الأفراد في الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها، وإما للجنس وهم

١ - النساء: ٤٨

٢ - أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت. رقم (٤٢٥) ١١٥/١ و مسلم في كتاب المساجد، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر. رقم (١٥٢٨) ١٢٦/٢

٣ - تفسير البحر المحيط ٣٢٩/٤

داخلون فيه دخولاً أولياً، ووضعه على الأول موضع الضمير للتسجيل عليهم بأنهم ظلموا بالإشراك وعدلوا عن طريق الحق.

و على معنى لا ينصرکم أحد فيما تقولون، ولا يساعدكم عليه لاستحالاته وبعده عن المعقول، وأنت خبير بأن التعبير عما حُكي عنه -عليه السلام- من مقابلته لقولهم الباطل بصريح الرد والإنكار، والوعيد بحرمان الجنة ودخول النار بمجرد عدم مساعدته على ذلك، ونفي نُصرتَه له، مع خلوّه عن الفائدة تصويرٌ للقوي بصورة الضعيف وتحويل للخطب في مقام تهويله، بل ربما يوهم ذلك بحسب الظاهر ما لا يليق بشأنه -عليه السلام- من توهم المساعدة والنصرة، لا سيما مع ملاحظة قوله: وإن كانوا معظمين له الخ، إلا أن يحمل الكلام على التهكم بهم، وكذا الحال على تقدير كونه من تمام كلامه --عليه السلام- فإن زجره -عليه السلام- إياهم عن قولهم الفاسد بما ذكر من عدم الناصر والمساعد بعد زجره إياهم بما مر من الرد الأكيد والوعيد الشديد بمعزلٍ من الإفادة والتأثير، ولا سبيل هاهنا إلى الاعتذار بالتهكم.^(١)

قال الشيخ سليمان بن سحمان -رحمه الله-: "والشرك المراد بهذه الآيات ونحوها يدخل فيه شرك عباد القبور وعباد الأنبياء والملائكة والصالحين، فإن هذا هو شرك جاهلية العرب الذين بعث فيهم عبد الله ورسوله محمد -ﷺ- - فإنهم كانوا يدعونها، ويلتجئون إليها، ويسألونها على وجه التوسل بجاهها، وشفاعتها لتقربهم إلى الله، كما حكى الله ذلك عنهم في مواضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ

وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِالِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾^(٣) ومعلوم أن المشركين لم يزعموا أن الأنبياء والأولياء والصالحين والملائكة شاركوا الله في خلق السماوات والأرض، أو استقلوا بشيء من التدبير والتأثير والإيجاد، ولو في خلق ذرة من الذرات. قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِي

١ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٢٧٣/ ٢

٢ - يونس: ١٨

٣ - الأحقاف: ٢٨

اللَّهُ يُضِرُّ هَلْ هُنَّ كَشَفَتْ ضُرَّوَهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمَسِّكَتٌ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾^(١) فهم معترفون بهذا مقرون به لا ينازعون فيه، ولذلك حسن موقع الاستفهام، وقامت الحجة بما أقرؤا به من هذه الجمل، وبطلت عبادة من لا يكشف الضر، ولا يمسك الرحمة.

إلى أن قال -رحمه الله-: "وقد بين القرآن في غير موضع أن من المشركين من أشرك بالملائكة، ومنهم من أشرك بالأنبياء والصالحين، ومنهم من أشرك بالكواكب، ومنهم من أشرك بالأصنام، وقد رد عليهم أجمعين، وكفر كل أصنافهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾^(٣) ونحو ذلك في القرآن كثير. و به يعلم المؤمن أن دعاء الأنبياء والصالحين كدعاء الكواكب والأصنام من حيث الشرك والكفر، واتفقهما في العلة التي هي دعاء غير الله.

وقال -رحمه الله-: وهذه العبادات التي صرفها المشركون لأهنتهم هي أفعال العبد الصادرة منه كالحب والخضوع، والإنابة والتوكل، والدعاء والاستغاثة، والاستعانة والخوف، والرجاء والنسك، والتقوى والطواف بيته رغبة ورجاء، وتعلق القلوب، والآمال بفيضه ومدته وإحسانه وكرمه، فهذه الأنواع أشرف أنواع العبادة وأجلها، بل هي لب سائر الأعمال الإسلامية وخلاصتها، وكل عمل يخلو منها، فهو خداج^(٤) مردود على صاحبه، وإنما أشرك وكفر من كفر من المشركين بقصد غير الله بهذا وتأليهه لذلك، قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ

١ - الزمر: ٣٨

٢ - آل عمران: ٨٠

٣ - التوبة: ٣١

٤ - الخداج: النقصان، وأصل ذلك من خداج الناقة إذا ولدت ولدت ناقص الخلق أو لغير تمام. انظر: تاج العروس ٥٠٧/٥

٥ - النحل: ١٧

نَصَرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِتَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ (١) وقال: ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرَدِّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِيَّيَّ إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ (٢) وحكى عن أهل النار أنهم يقولون لألهتهم التي عبدوها من دون الله: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ (٣) ومعلوم أنهم ما سووهم بالله في الخلق والتدبير والتأثير، وإنما كانت التسوية في الحب والخضوع، والتعظيم والدعاء، ونحو ذلك من العبادات. (٤)

٣ - الشرك يحبط العمل

لم يجمع الله -تعالى- على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الشرك، فإنهم ظنوا به ظن السوء حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن لوجدوه حق توحيد، ولهذا أخبر -سبحانه- عن المشركين و أعمالهم، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ (٥) فأعمالهم كسراب، يظنون أنهم بعبادة غير الله و دعائهم كسبوا الحسنات، لكن حين احتاجوها لم يجدوا شيئاً، وما قدروا الله حق قدره إذ جعلوا له عدلاً ونداءً، يحبون غير الله، ويخافونه ويرجونه، ويدلون له ويخضعون له، ويهربون من سخطه ويؤثرون مرضاته. و لقد أخبر الله -تعالى- عن أحب الخلق إليه و هم الأنبياء و الرسل، وأفضلهم محمد -ﷺ- لو أشركوا ما نفعهم قربهم من الله مع شركهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ

١ - الأنبياء: ٤٣

٢ - يس: ٢٣ - ٢٤

٣ - الشعراء: ٩٧ - ٩٨

٤ - الصواعق المرسله الشهائيه على الشبه الداخضه الشاميه لسليمان بن سحمان ١٩/٢-٢٢

٥ - النور: ٣٩

قَبْلِكَ لِيَنُ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾^(١) وقال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢)

قال الطبري: "يقول - تعالى ذكره -: ولقد أوحى إليك يا محمد ربك، و إلى الذين من قبلك من الرسل ﴿لِيَنُ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ يقول: لعن أشركت بالله شيئاً يا محمد ليبطلن عملك، ولا تنال به ثواباً، ولا تدرك جزاء إلا جزاء من أشرك بالله، وهذا من المؤخر الذي معناه التقديم. ومعنى الكلام: ولقد أوحى إليك لعن أشركت ليحبطن عملك، ولتكونن من الخاسرين، وإلى الذين من قبلك، بمعنى: وإلى الذين من قبلك من الرسل من ذلك، مثل الذي أوحى إليك منه، فاحذر أن تشرك بالله شيئاً، فتهلك.

ومعنى قوله: ﴿وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ولتكونن من الهالكين بالإشراك بالله إن أشركت به شيئاً." ^(٣)

و قال في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول: ولو أشرك هؤلاء الأنبياء الذين سميانهم برهم - تعالى ذكره -، فعبدوا معه غيره ﴿لَحَبِطَ عَنْهُمْ﴾ يقول: لبطل فذهب عنهم أجر أعمالهم التي كانوا يعملون؛ لأن الله لا يقبل مع الشرك به عملاً." ^(٤)

و قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ "تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم لملاسته، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لِيَنُ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٥) وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾^(٦)

١ - الزمر: ٦٥

٢ - الأنعام: ٨٨

٣ - تفسير الطبري ٣٢٣/٢١

٤ - تفسير الطبري ٥١٤/١١

٥ - الزمر: ٦٥

٦ - الزخرف: ٨١

وكقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَاتَّخِذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١٧) ﴿١﴾ وكقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٤) ﴿٢﴾ (٣)

قال السعدي: "وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال، مفسد للأحوال، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من جميع الأنبياء. ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ هذا مفرد مضاف يعم كل عمل، ففي نبوة جميع الأنبياء أن الشرك محبط لجميع الأعمال، كما قال -تعالى- في سورة الأنعام - لما عدد كثيراً من أنبيائه ورسله، قال عنهم: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٨) ﴿٤﴾ ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دينك وآخرتك، فبالشرك تحبط الأعمال، ويستحق العقاب والنكال. " (٥)

قال ابن تيمية: "والأنبياء معصومون من الشرك، ولكن المقصود بيان أن الشرك لو صدر من أفضل الخلق لأحبط عمله فكيف بغيره. وكذلك قوله لنبيه -عليه الصلاة والسلام-: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ مع أن الشرك منه ممتنع لكن بين بذلك أنه إذا قدر وجوده كان مستلزماً لحبوط عمل المشرك وخسرانه كائناً من كان، وخوطب بذلك أفضل الخلق لبيان عظم هذا الذنب لا لغض قدر المخاطب، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ﴾ (٤٤) ﴿لَاخِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (٤٥) ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (٤٦) ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (٤٧)

١ - الأنبياء: ١٧

٢ - الزمر: ٤

٣ - تفسير ابن كثير ٢٩٩/٣

٤ - الأنعام: ٨٨

٥ - تفسير السعدي ص ٧٢٩

﴿^(١) ليبيّن - سبحانه - أنه ينتقم ممن يكذب في الرسالة كائناً من كان، وأنه لو قدر أنه غير الرسالة لانتقم منه، والمقصود نفي هذا التقدير لانتفاء لازمه.﴾^(٢)

قال سليمان بن عبد الله آل الشيخ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣) وقوله في الأنبياء: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ "فإذا كان هذا الأمر لا يصدر من الأنبياء وحاشاهم من ذلك لم يفكوا أنفسهم من عذاب الله، فما ظنك بغيرهم، فلم يبق شيء يقرب إلى الله ويباعد من سخطه إلا توحيده والعمل بما يرضاه، لا الاعتماد على شخص، أو قبر أو صنم أو وثن أو مال أو غير ذلك من الأسباب."^(٣)

٤ - الإسلام بريء من الشرك و أهله

كان النبي - ﷺ - يعلم أصحابه - رضي الله عنهم - أن يقرؤوا سورة الكافرون، و سورة قل هو الله أحد في سنة الفجر وسنة المغرب وأن يوتروا بهما، فيكونان خاتمة عمل الليل كما كانتا خاتمة عمل النهار، فإن هاتين السورتين قد اشتملتا على نوعي التوحيد الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما، وهما توحيد الربوبية والألوهية، بل قد ورد أن النبي - ﷺ - سمي سورة (الكافرون) براءة من الشرك. فعن نوفل بن فروة^(٤) - رضي الله عنه - أنه أتى النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله! علمني شيئاً أقوله إذا أويت إلى فراشي. قال: "اقرأ {قل يا أيها الكافرون} فإنها براءة من الشرك."^(٥)

١ - الحاققة: ٤٤ - ٤٧

٢ - الرد على البكري ٤٦٤/٢

٣ - تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص ٢٠٢

٤ - هو نُوفَلُ بن فَرْوَةَ الأشجعي الصحابي، نزل الكوفة روى عن النبي - ﷺ - وروى عنه أولاده. وأخرج له أصحاب

السنن، وأحمد، وابن حبان، والحاكم. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة رقم (٨٨٣٨) ٤٨٢/٦

٥ - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما يقال عند النوم. رقم (٥٠٥٧) ٤٧٣/٤. و الترمذي في سننه،

كتاب الدعوات، باب ٢٢ منه، رقم (٣٤٠٣) ٤٧٤/٥ قال الشيخ الألباني: صحيح

فلما اشتملت السورتان على نوعي التوحيد و البراءة من الشرك علّم النبي ﷺ - المسلمين أن يقرؤوهما ليلاً و نهاراً. فقد أخبر الله -تعالى- أنه هو و رسوله بريء من الشرك و أهله يوم اجتمع الناس في الحج، فقال تعال: ﴿ وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ (١)

قال ابن كثير: "يقول تعالى: وإعلام ﴿ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وتقدم وإنذار إلى الناس، ﴿ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعاً ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ أي: بريء منهم أيضاً." (٢)

قال السعدي: "هذا ما وعد الله به المؤمنين، من نصر دينه وإعلاء كلمته، وخذلان أعدائهم من المشركين الذين أخرجوا الرسول ومن معه من مكة، من بيت الله الحرام، وأجلوهم، مما لهم التسلط عليه من أرض الحجاز.

نصر الله رسوله والمؤمنين حتى افتتح مكة، وأذل المشركين، وصار للمؤمنين الحكم والغلبة على تلك الديار. فأمر النبي ﷺ - مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر، وقت اجتماع الناس مسلمهم وكافرهم من جميع جزيرة العرب أن يؤذن بأن الله بريء ورسوله من المشركين، فليس لهم عنده عهد وميثاق، فأينما وجدوا قتلوا، وقيل لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة.

وحج بالناس أبو بكر الصديق -رضي الله عنه-، وأذن ببراءة -يوم النحر- ابن عم رسول الله ﷺ - علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-. " (٣)

قال ابن عاشور: "وهذا الكلام إنشاء لهذا الأذان، موقفاً بيوم الحج الأكبر، فيؤول إلى معنى الأمر، إذ المعنى آذنوا الناس يوم الحج الأكبر بأن الله ورسوله بريئان من المشركين.

والمراد بـ ﴿ النَّاسِ ﴾ جميع الناس الذين ضمهم الموسم، ومن يبلغه ذلك منهم: مؤمنهم ومشرِكهم؛ لأن هذا الأذان مما يجب أن يعلمه المسلم والمشرك، إذ كان حكمه يلزم

١ - التوبة: ٣

٢ - تفسير ابن كثير ١٠٣/٤

٣ - تفسير السعدي ص ٣٢٨

الفريقين.

وقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يتعلق بـ ﴿وَأَذَانٌ﴾ بحذف حرف الجر- وهو باء التعديّة، أي: إعلام بهذه البراءة المتقدمة في قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾^(١) فإعادتها هنا؛ لأن هذا الإعلام للمشركين المعاهدين وغيرهم تقريراً لعدم غدر المسلمين، والآية المتقدمة إعلام للمسلمين.

وجاء التصريح بفعل البراءة مرة ثانية دون إضمار ولا اختصار بأن يقال: وأذان إلى الناس بذلك، أو بها، أو بالبراءة؛ لأن المقام مقام بيان وإطناب لأجل اختلاف أفهام السامعين فيما يسمعون، ففيهم الذكي والغبي، ففي الإطناب والإيضاح قطع لمعاذيرهم واستقصاء في الإبلاغ لهم.

وعطف ﴿وَرَسُولِهِ﴾ بالرفع عند القراء كلهم؛ لأنه من عطف الجملة؛ لأن السامع يعلم من الرفع أن تقديره: ورسوله بريء من المشركين، ففي هذا الرفع معنى بليغ من الإيضاح للمعنى مع الإيجاز في اللفظ، وهذه نكتة قرآنية بليغة.

إلى أن قال: "والخطاب للمشركين الذين أودنوا بالبراءة، والمعنى: فإن آمنتم بالإيمان خير لكم من العهد الذي كنتم عليه؛ لأن الإيمان فيه النجاة في الدنيا والآخرة، والعهد فيه نجاة الدنيا لا غير. والمراد بالتولي: الإعراض عن الإيمان. وأريد بفعل ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ معنى الاستمرار. أي: إن دتم على الشرك فاعلموا أنكم غير مفلتين من قدرة الله. أي: اعلموا أنكم قد وقعتم في مكنة الله، وأوشكتم على العذاب."^(٢)

قال ابن عطية^(٣) في مدة إعلام البراءة: "تظاهرت به الأحاديث في هذا المعنى أن علياً -رضي الله عنه- أذن بتلك الآية يوم عرفة إثر خطبة أبي بكر، ثم رأى أنه لم يعلم الناس بالإسماع، فتتبعهم بالأذان بها يوم النحر، وفي ذلك اليوم بعث معه أبو بكر من يعينه بالأذان بها كأبي

١ - التوبة: ١

٢ - التحرير والتنوير ١٠/١٧-١٨-١٩

٣ - هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية الحاربي، الغرناطي، المالكي، أبو محمد: مفسر فقيه، أندلسي. ولد سنة ٤٨١هـ. عالم بالأحكام والحديث. ولي قضاء المريّة، وكان يكثر الغزوات. من كتبه: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، وبرنامج، و المجموع، وغيرها. توفي سنة ٥٤٢ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٩/٥٨٦

هريرة وغيره، وتتبعوا بها أيضاً أسواق العرب كذي الحجاز^(١) وغيره، فمن هنا يترجح قول سفيان إن ﴿يَوْمَ﴾ في هذه الآية بمعنى أيام، بسبب ذلك قالت طائفة ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ عرفة حيث وقع أول الأذان. وقالت طائفة أخرى: هو يوم النحر حيث وقع إكمال الأذان، واحتجوا أيضاً بأنه من فاته الوقوف يوم عرفة، فإنه يجزيه الوقوف ليلة النحر، فليس يوم عرفة على هذا يوم الحج الأكبر.^(٢)

فالإسلام بريء من كل شوائب الشرك صغيره وكبيره، فإن الله أمر لنبيه أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾^(٣) بل الإسلام بريء من أعمال المشركين، قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٤) فلذلك نهي النبي - ﷺ - أن يتشبه المسلم بالمشرك أو الكافر أو الفاسق فقال - ﷺ -: "من تشبه بقوم فهو منهم."^(٥) فعلى كل مسلم براءة من الشرك وأهله ومخالفتهم في عاداتهم وتقاليدهم.

٥ - الشرك سبب لقلة الرزق

وقد جعل الله - سبحانه - للحسنات والطاعات أثراً طيبة، وجعل للشرك والمعاصي آلاماً وأثراً خبيثة ومكروهة، قال بعض السلف: "إن للحسنة نوراً في القلب وضياء في الوجه وقوة

١ - ذي الحجاز: وهي قرب عرفة، وتقع في أرض قبيلة هذيل، وكان العرب يقيمون بها ثمان ليال ليتزودوا فيها بالماء ليأخذوه لعرفة ومزدلفة بعد ذلك لإتمام الحج، ولذا سمي يوم الثامن من ذي الحجة بيوم التروية. انظر: في رحاب البيت

العتيق ص ٢٤١

٢ - المحرر الوجيز ٣/٢١٨

٣ - الأنعام: ١٩

٤ - يونس: ٤١

٥ - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة. رقم (٤٠٣٣) ٧٨/٤ قال الشيخ الألباني: صحيح. انظر: صحيح وضعيف الجامع الصغير ١/٥١٥

في البدن وزيادة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه وظلمة في القلب ووهناً في البدن ونقصاً في الرزق وبغضة في قلوب الخلق.^(١)

فما حصل للعبد من ضيق الرزق إلا بذنب، و أكبر الذنوب الشرك، وما يعفو الله عنه كثير، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾^(٢) والنعم والمصائب التي تصيب العبد من الله -تعالى-، فكل نقص وبلاء وشر في الدنيا والآخرة، فسببه الذنوب ومخالفة أوامر الرب.

و الشرك و الذنوب من أسباب قلة الرزق و عدم بركته، بل قد يبسط الله الرزق لعباده ويكون وبالاً عليه و سبب قلقه و نعمته، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ^ط وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾^(٣) فالرزق من الله -تعالى- يبسطه كيف يشاء، فمن بسط له الرزق، فليحمد الله -تعالى-، و من ضاقت له سبل الرزق، فليستغفر الله و يتوب إليه، و قال النبي -ﷺ-: "وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر."^(٤)

فقد أخبر -تعالى- في كتابه أن الشرك يهضم الرزق، فقال تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيَ أَحَدًا ﴾^(٥) قال السعدي: "فاستجاب الله دعاءه ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ أي: أصابه عذاب أحاط به، واستهلكه، فلم يبق منه شيء، والإحاطة بالثمر يستلزم تلف جميع أشجاره، وثماره وزرعه، فندم كل الندامة، واشتد لذلك أسفه، ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ أي: على كثرة

١ - انظر: تفسير ابن كثير ٣٦١/٧

٢ - الشورى: ٣٠

٣ - إبراهيم: ٧

٤ - أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب العقوبات، رقم (٤٠٢٢) ١٥٢/٥ قال الشيخ الألباني: حسن،

انظر: صحيح ابن ماجه ٣٧١/٢

٥ - الكهف: ٤٢

نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض، وندم أيضاً على شركه وشره، ولهذا قال: ﴿ وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾^(١)

فمسألة الرزق مثيرة للاهتمام، فقد أخبر الله -تعالى- عن هذه المسألة، و أن العبد حين يتخلص من الذنوب و الشرك أنه -تعالى- يرزقه بغير حساب، قال تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ

تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ

لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدهمُ مِّنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٢) و قال تعالى: ﴿ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ

هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٣) و أخبر -تعالى- أن للذين آمنوا الطيبات من الرزق، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾^(٤)

و أخبر -تعالى- أنه يرزق المشرك ثم يكون هذا الرزق سبب لهلاكه، قال تعالى عن قارون: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانِ

الْمُنْتَصِرِينَ ﴾^(٥) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن

يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾^(٦)

وأخبر -تعالى- لو أنه بسط الرزق لعباده لبغوا في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ

لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾^(٧)

١ - تفسير السعدي ص ٤٧٧

٢ - النور: ٣٧ - ٣٨

٣ - آل عمران: ٣٧

٤ - الأعراف: ٣٢

٥ - القصص: ٨١ - ٨٢

٦ - الشورى: ٢٧

فعلى العبد أن يجتنب الشرك و المعاصي لعل الله -تعالى- يرزقه بغير الحساب، و يزيده من فضله.

المبحث الثالث: أساليب معالجة الشرك و تدارك من وقع فيه

١- بيان عجز المدعوين و أنهم لا ينفعون و لا يضررون

٢- بيان عواقب الشرك و أهله

٣- بيان حال المشركين في الدنيا

٤- تدارك من وقع في الشرك

٥- تدارك من وقع في الشرك بالمنع أو القتال

إن الله -تعالى- أنزل القرآن في بيئة كان الشرك شائعاً فيها، و كان الناس يعبدون الأصنام والأوثان و يعظمونها مع إقرارهم -غالباً- بوجود الله -تعالى-، و اجتمعت عند العرب معبودات كثيرة،^(١) فلما أرسل الله محمداً -ﷺ- دعاهم إلى عبادة الله وحده، و ترك ما كانوا عليه من الشرك و المنكرات. فتميز أساليب القرآن الكريم في العهد المكي بمعالجة الشرك و المنكرات بغاية الوضوح و البساطة و البراهين و الحجج ما أثار المشركين حتى عرف كل من سمع القرآن أنه لا يمكن أن يأتي به البشر. و القرآن عالج قضايا الشرك و الوثنية و سائر الديانات بأساليب يصعب حصرها، لكن أذكر بعض الأساليب تميزت في بروزها و وضوحها. فمن أساليب القرآن في معالجة الشرك:

١ - بيان عجز المدعوين و أنهم لا ينفعون و لا يضررون

والله -سبحانه- بين لعباده على لسان رسله و أنبيائه ما أراد تقريرهم به بأسهل الطرق إلى العقل و أقلها تكلفاً و أعظمها نفعاً و أجلها ثمرة و فائدة، فحججه -سبحانه- العقلية التي بينها في كتابه جمعت بين كونها عقلية سمعية، ظاهرة واضحة، قليلة المقدمات، سهلة الفهم، قريبة التناول، قاطعة للشكوك و الشبه ملزمة للمعاند و الجاحد، و ما سمعه العقل السليم إلا أثر عليه، و لهذا كانت المعارف التي استنبطت منها في القلوب أرسخ و لعموم الخلق أنفع، و إذا تتبعنا ما في كتاب الله مما حاج به عباده في إقامة التوحيد و إبطال الشرك، و أنه لا يستحق العبادة سواه، نجد المخاطبة منه -سبحانه- في ذلك على أجل و جوه الحجاج و أسبقها إلى القلوب و أعظمها ملاءمة للعقول، و أبعدها من الشكوك و الشبه في أوجز لفظ و أبينه و أحسنه و أدله على المراد، و ذلك مثل قوله -تعالى- فيما حاج به عباده من إقامة التوحيد و بطلان الشرك و قطع أسبابه و حسم مواده كلها، قال تعالى: ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا

١ - انظر: الشرك في القديم و الحديث الباب الثاني: شرك العرب في الجاهلية ١/٣٩٥

يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنِ
ظَهِيرٌ ﴿٢٢﴾ (١)

قال الطبري: "يقول -تعالى ذكره-: قل يا محمد لهؤلاء المشركين برهم من قومك الجاحدين نعمنا عندهم: ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم لله شريك من دونه، فسلوهم أن يفعلوا بكم بعض أفعالنا بالذين وصفنا أمرهم من إنعام أو إياس، فإن لم يقدرُوا على ذلك فاعلموا أنكم مبطلون؛ لأن الشركة في الربوبية لا تصلح ولا تجوز، ثم وصف الذين يدعون من دون الله فقال: إنهم لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض من خير ولا شر ولا ضر ولا نفع، فكيف يكون إلهاً من كان كذلك.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنِ ظَهِيرٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولا هم إذ لم يكونوا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض منفردين بملكه من دون الله يملكونه على وجه الشركة؛ لأن الأملاك في المملوكات لا تكون لملكها إلا على أحد وجهين: إما مقسوماً، وإما مشاعاً. يقول: وألهتهم التي يدعون من دون الله لا يملكون وزن ذرة في السماوات ولا في الأرض، لا مشاعاً ولا مقسوماً، فكيف يكون من كان هكذا شريكاً لمن له ملك جميع ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنِ ظَهِيرٌ﴾ يقول: وما لله من الآلهة التي يدعون من دونه معين على خلق شيء من ذلك، ولا على حفظه، إذ لم يكن لها ملك شيء منه مشاعاً ولا مقسوماً، فيقال: هو لك شريك من أجل أنه أعان وإن لم يكن له ملك شيء منه. (٢)

قال السعدي في تفسير هذه الآية: ﴿قُلْ﴾ "يا أيها الرسول، للمشركين بالله غيره من المخلوقات التي لا تنفع ولا تضر، ملزماً لهم بعجزها، ومبيناً لهم بطلان عبادتها: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: زعمتموهم شركاء لله إن كان دعاؤكم ينفع، فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز، وعدم إجابة الدعاء من كل وجه، فإنهم ليس لهم أدنى ملك ﴿فَلَا

١ - سبأ: ٢٢

٢ - تفسير الطبري ٢٠/٣٩٤

يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴿ على وجه الاستقلال، ولا على وجه الاشتراك، ولهذا قال: ﴿ وَمَا لَهُمْ ﴾ أي: لتلك الآلهة الذين زعمتم ﴿ فِيهِمَا ﴾ أي: في السماوات والأرض، ﴿ مِنْ شَرِكٍ ﴾ أي: لا شرك قليل ولا كثير، فليس لهم ملك، ولا شركة ملك.

بقي أن يقال: ومع ذلك، فقد يكونون أعواناً للمالك، ووزراء له، فدعاؤهم يكون نافعاً، لأنهم - بسبب حاجة الملك إليهم - يقضون حوائج من تعلق بهم، فنفى - تعالى - هذه المرتبة فقال: ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ أي: لله - تعالى - الواحد القهار ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي: من هؤلاء المعبودين ﴿ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ أي: معاون ووزير يساعده على الملك والتدبير.^(١)

قال ابن القيم في هذه الآية: "تأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك، وسدتها عليهم أحكم سد وأبلغه، فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وإلا فلو لم يرج منه منفعة لم يتعلق قلبه به، وحينئذ فلا بد أن يكون المعبود مالكا للأسباب التي ينفع بها عابده أو شريكاً للمالكها أو ظهيراً أو وزيراً ومعاوناً له أو وجيهاً ذا حرمة وقدر يشفع عنده، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه وبطلت انتفت أسباب الشرك، وانقطعت مواده، فنفى - سبحانه - عن آلهتهم أن تملك مثقال ذرة في السموات والأرض، فقد يقول المشرك هي شريكة لمالك الحق، فنفى شركتها له، فيقول المشرك قد تكون ظهيراً ووزيراً ومعاوناً، فقال وماله منهم من ظهير،

فلم يبق إلا الشفاعة فنفاها عن آلهتهم وأخبر أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فهو الذي يأذن للشافع، فإن لم يأذن له لم يتقدم بالشفاعة بين يديه كما يكون في حق المخلوقين، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له، فيقبل شفاعته، وإن لم يأذن له فيها.

وأما من كل ما سواه فقير إليه بذاته وهو الغني بذاته عن كل ما سواه، فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه.^(٢)

١ - تفسير السعدي ص ٦٧٨

٢ - الصواعق المرسله ٢/٤٦١-٤٦٢

و قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا

﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ

عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴿١﴾

و قال تعالى: ﴿ قُلِ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ

فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِنَّ عِدَّةَ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا

غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴿٢﴾

قال الطبري: "قول -تعالى ذكره- لنبية محمد -ﷺ-: ﴿ قُلِ ﴾ يا محمد لمشركي قومك

﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أيها القوم ﴿ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ يقول:

أروني أي شيء خلقوا من الأرض ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ يقول: أم لشركائكم شرك مع

الله في السماوات إن لم يكونوا خلقوا من الأرض شيئاً ﴿ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ

﴿ يقول: أم آتينا هؤلاء المشركين كتاباً أنزلناه عليهم من السماء بأن يشركوا بالله الأوثان

والأصنام، فهم على بينة منه، فهم على برهان مما أمرتهم فيه من الإشراك بي." ﴿٣﴾

قال ابن كثير: "يقول -تعالى- لرسوله -ﷺ- أن يقول للمشركين: ﴿ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي

السَّمَوَاتِ ﴾ أي: ليس لهم شيء من ذلك، ما يملكون من قطمير.

وقوله: ﴿ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولون من

الشرك والكفر؟ ليس الأمر كذلك، ﴿ بَلْ إِنَّ عِدَّةَ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ أي: بل

إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيتهم التي تمنوها لأنفسهم، وهي غرور وباطل

وزور." ﴿٤﴾

١ - الإسراء: ٥٦ - ٥٧

٢ - فاطر: ٤٠

٣ - تفسير الطبري ٤٨٠/٢٠

٤ - تفسير ابن كثير ٥٥٨/٦

قال السعدي في قوله تعالى: ﴿فَرَوِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ هل خلقوا بحراً أم خلقوا جبلاً أو خلقوا حيواناً أو خلقوا جماداً؟ سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء، هو الله -تعالى-، أم لشركائكم شِرْكَةٌ ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ في خلقها وتديرها؟ سيقولون: ليس لهم شركة. فإذا لم يخلقوا شيئاً، ولم يشاركوا الخالق في خلقه، فلم عبدتموهم ودعوتموهم مع إقراركم بعجزهم؟ فانتمى الدليل العقلي على صحة عبادتهم، ودل على بطلانها.

ثم ذكر الدليل السمعي، وأنه أيضاً منتف، فلهذا قال: ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا﴾ يتكلم بما كانوا به يشركون، يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان. ﴿فَهُمْ﴾ في شركهم ﴿عَلَىٰ يَدَيْتِ﴾ من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة الشرك؟ ليس الأمر كذلك؟ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن، ولا جاءهم نذير قبل رسول الله محمد -ﷺ- ولو قدر نزول كتاب إليهم، وإرسال رسول إليهم، وزعموا أنه أمرهم بشركهم، فإننا نجزم بكذبهم؛ لأن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(١) فالرسول والكتب كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾^(٢)

فإن قيل: إذا كان الدليل العقلي والنقلي قد دلا على بطلان الشرك، فما الذي حمل المشركين على الشرك، وفيهم ذوو العقول والذكاء والفتنة؟!

أجاب -تعالى- بقوله: ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: ذلك الذي مشوا عليه ليس لهم فيه حجة، وإنما ذلك توصية بعضهم لبعض به، وتزيين بعضهم لبعض، واقتداء المتأخر بالمتقدم الضال، وأمايِّ مَنَّاها الشيطان، وزين لهم سوء أعمالهم، فنشأت في قلوبهم، وصارت صفة من صفاتها، فعسر زوالها، وتعسر انفصالها، فحصل ما حصل من الإقامة على الكفر والشرك الباطل المضمحل.^(٣)

١ - الأنبياء: ٢٥

٢ - البينة: ٥

٣ - تفسير السعدي ٦٩١ ص

فهذه بعض الآيات في بيانه - سبحانه - للناس بطلان الشرك و عجز المدعويين للنفع أو الضر للداعين، وهي كثيرة جداً في القرآن الكريم حتى يصعب حصرها، و هي سهلة للفهم، واضحة المعنى، شاملة البيان، قاطعة الحجة، لكن المشركين و من سلك نهجهم يقتدون - كما قال الشيخ السعدي - بالمتقدمين، و يتفلسفون بحججهم، و النبي - ﷺ - قال: "ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا رسول الله - ﷺ - هذه الآية:

﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ (١) (٢)

فالقرآن عالج قضية الشرك من كل ناحية، و هل أسهل للفهم من الآية: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (٣) ففي هذه الآية يدخل كل مخلوق من دون استثناء، و يدخل كل نفع و ضرر، بل لو كان يملك هؤلاء المدعون شيئاً لا اختاروا الحياة لكي لا تصيبهم مصيبة الموت، و كيف ما هو أعظم عليهم و أسهل على الله - تعالى - و هو النشور؟!

١ - الزخرف: ٥٨

٢ - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الزخرف. رقم (٣٢٥٣) ٣٧٨/٥ و ابن ماجه في سننه، أبواب السنة، باب اجتناب البدع والجدل. رقم (٤٨) ٣٣/١ عن أبي أمامة. قال الترمذي: هذا حديث حسن

صحيح

٣ - الفرقان: ٣

٢ - بيان عواقب الشرك و أهله

في الأسلوب السابق ذكرت بيان القرآن الكريم في عجز كل مدعو في استجابته للداعي، وأنهم لا يضررون شيئاً و لا ينفعون، بل لا يملكون لأنفسهم موتاً و لا حياة و لا نشوراً، بل أقل من ذلك و هو مثقال ذرة. فمن تدبر هذا الأسلوب في القرآن لا بد أن يترك الشرك و أهله، و إن لم يفعل، فالقرآن الكريم يبين له ماذا ينتظره في الآخرة من العواقب. و نجد أن القرآن بين هذه العواقب في السور المكية و هي تتميز بقصر الآيات و شدة الأسلوب و قوة التصوير و عظم التأثير. و يبين هذا ما قال جبير بن مطعم أنه قدم على النبي - ﷺ - و هو مشرك، فسمعه يقرأ بالطور في المغرب، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴾ (٣٥) أَمْ خُلِقُوا مِنَ الْأَرْضِ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمَصْبُطُونَ ﴾ (٣٧) (١) قال: كاد قلبي أن يطير. " (٢) فهذا تأثير القرآن العزيز على النفوس، كي يبين القرآن المعاندين بأسلوب قوي و بليغ. و هذا الأسلوب استعمله القرآن كثيراً.

و ها هنا بعض الآيات الدالة على ذلك، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُوهَا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴾ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقَاتٍ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا تَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ (٣٧) (٣)

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالله ورسوله ﴿ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ يقول: لهم نار جهنم مخلدين فيها لا حظ لهم في الجنة ولا نعيمها.

١ - الطور: ٣٥ - ٣٧

٢ - أخرجه البخاري، كتاب التفسير، سورة الطور. رقم (٤٨٥٣) ١٥٧/٦

٣ - فاطر: ٣٦ - ٣٧

و عن قتادة ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا تَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ "بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾ لأنهم لو ماتوا لاستراحوا ﴿وَلَا يَخْفَفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا﴾ يقول: ولا يخفف عنهم من عذاب نار جهنم بإماتهم."

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: هكذا يكافئ كل جحود نعم ربه يوم القيامة؛ بأن يدخلهم نار جهنم بسيئاتهم التي قدموها في الدنيا.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ يقول -- تعالى ذكره-: هؤلاء الكفار يستغيثون ويضجون في النار، يقولون: يا ربنا أخرجنا نعمل صالحاً، أي: نعمل بطاعتك ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ قبل من معاصيك. وقوله: ﴿يَصْطَرِحُونَ﴾ يفتعلون من الصراخ؛ حولت تأوها طاء لقرب مخرجها من الصاد لما ثقلت. ^(١)

قال ابن كثير: "لما ذكر -تعالى- حال السعداء، شرع في بيان مآل الأشقياء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾" ^(٢)

إلى أن قال: "ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي: هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب بالحق.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا﴾ أي: ينادون فيها، يجأرون إلى الله -عز وجل- بأصواتهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: يسألون الرجعة إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الرب -جل جلاله- أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نهبوا عنه وإنهم لكاذبون. فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم، كما قال -تعالى- مخبراً عنهم في قولهم: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ ^(١١) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ

١ - تفسير الطبري ٢٠/٤٧٥-٤٧٦

٢ - طه: ٧٤

وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴿١﴾ أي: لا يجيبكم إلى ذلك لأنكم كنتم كذلك، ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتم عنه، ولهذا قال هاهنا: ﴿أَوْلَمْ نَعْمِرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ أي: أو ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم؟" إلى أن قال: "وقوله: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي: فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعماركم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال." (٢)

قال السعدي في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا﴾ أي: يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فاعترفوا بذنبهم، وعرفوا أن الله عدل فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها، فيقال لهم: ﴿أَوْلَمْ نَعْمِرْكُمْ﴾ أي: دهرًا وعمراً ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ أي: يتمكن فيه من أراد التذكر من العمل متعناكم في الدنيا، وأدررنا عليكم الأرزاق، وقيضنا لكم أسباب الراحة، ومددنا لكم في العمر، وتابعنا عليكم الآيات، وأوصلنا إليكم النذر، وابتليناكم بالسراء والضراء، لتنبوا إلينا وترجعوا إلينا، فلم ينجع فيكم إنذار، ولم تفد فيكم موعظة، وأخرنا عنكم العقوبة حتى إذا انقضت آجالكم، وتمت أعماركم، ورحلتم عن دار الإمكان بأشر الحالات، ووصلتم إلى هذه الدار دار الجزاء على الأعمال سألتم الرجعة؟ هيهات هيهات فات وقت الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمن، واشتد عليكم عذاب النار، ونسيكم أهل الجنة، فامكثوا فيها خالدين مخلدين، وفي العذاب مهانين، ولهذا قال: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ينصرهم فيخرجهم منها، أو يخفف عنهم من عذابها." (٣) قال ابن القيم واصفاً أهل النار: "إنهم مسؤولون ثم قيل لهم هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ١٥ ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا

١ - غافر: ١١ - ١٢

٢ - تفسير ابن كثير ٦ / ٥٥٢-٥٥٦

٣ - تفسير السعدي ص ٦٩٠

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴿١﴾ فيراهم شاهد الإيمان، وهم في الحميم على وجوههم يسحبون وفي النار كالحطب يسجرون ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ ﴿٢﴾ فبئس اللحاف وبئس الفراش، وإن استغاثوا من شدة العطش ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَأَلْمَهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ ﴿٣﴾ فإذا شربوه قطع أمعاءهم في أجوافهم، وصهر ما في بطونهم شرابهم الحميم وطعامهم الزقوم، ﴿لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ﴿٤﴾

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد انخلع من الذنوب والمعاصي واتباع الشهوات، ولبس ثياب الخوف والحذر، وأخصب قلبه من مطر أجفانه وهان عليه كل مصيبة تصيبه في غير دينه وقلبه، وعلى حسب قوة هذا الشاهد يكون بعده من المعاصي والمخالفات، فيذيب هذا الشاهد من قلبه الفضلات والمواد المهلكة وينضحها. ^(٥)

فقوة تصوير القرآن لمشاهد أهل النار و ما فيها، تقشعر منه الجلود و يرتفع منه الشعر ويتحرك منه القلب نحو الخوف و الأسف حتى المعاندين و الجاهدين؛ و لذا ورد في القرآن الكريم ذكر أهل النار و أهل الجنة مقارناً؛ لكي يكون المؤمن بين الخوف و الرجاء، أما المشرك فليس عليه إلا أن يتعظ بما جرى لأهل النار و إلا فهو أهلها.

١ - الطور: ١٥ - ١٦

٢ - الأعراف: ٤١

٣ - الكهف: ٢٩

٤ - فاطر: ٣٦ - ٣٧

٥ - مدارج السالكين ٢٥١/٣

٣- بيان حال المشركين في الدنيا

إن أهل الزيغ و العناد قد لا يؤمنون بالجنة و النار، فإن كان كذلك بين القرآن الكريم حال هؤلاء في هذه الدنيا حتى لا يكون لأحد حجة بعد هذا البيان. فأسلوب التنبيه على عدم عقل المشركين و تشتت الأحوال و الذهن يؤتي التصور التام في حال المشركين في هذه الدنيا مهما بلغوا من المنازل في الأرض و الذكاء، فوصفهم بأقبح الأوصاف يجعل الإنسان يتأوه منهم و يتأسف، و قال -تعالى- مبيناً حالهم في هذه الدنيا: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا

خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾^(١)

قال الطبري: "يقول -تعالى- ذكره-: اجتنبوا أيها الناس عبادة الأوثان وقول الشرك، مستقيمين لله على إخلاص التوحيد له، وإفراد الطاعة والعبادة له خالصاً دون الأوثان والأصنام، غير مشركين به شيئاً من دونه، فإنه من يشرك بالله شيئاً من دونه، فمثله في بعده من الهدى وإصابة الحق وهلاكه وذهابه عن ربه، مثل من خر من السماء فتخطفه الطير فهلك، أو هوت به الريح في مكان سحيق، يعني من بعيد."

إلى أن قال: "يقول: فهكذا مثل المشرك بالله في بعده من ربه ومن إصابه الحق، كبعد هذا الواقع من السماء إلى الأرض، أو كهلاك من اختطفته الطير منهم في الهواء."^(٢)

قال ابن القيم: "فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله وتعلق بغيره، ويجوز لك في هذا التشبيه أمران: أحدهما: أن تجعله تشبيهاً مركباً، ويكون قد شبه من أشرك بالله وعبد معه غيره برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكاً لا يرجى معه نجاة، فصور حاله بصورة من خر من السماء فاخطفه الطير في الهوى فتمزق مزعاً في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت في بعض المطارح البعيدة. وعلى هذا لا ينظر إلى كل فرد من أفراد الشبه ومقابلته من المشبه به."

١ - الحج: ٣١

٢ - تفسير الطبري ١٨/٦٢٠

والثاني: أن يكون من التشبيه المفرق، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به. وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطة، فمنها يهبط إلى الأرض وإليها يصعد منها. وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضيق الشديد والآلام المتراكمة والطير الذي يخطف أعضائه ويمزقه، فقال كل ممزق بالشياطين التي يرسلها الله - سبحانه وتعالى - عليه تؤزه أي أزا، وتزعجه وتقلقه إلى مظان هلاكه، فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه، كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه، والريح التي تهوي به في مكان سحيق هو هواه الذي يحمله إلقاء نفسه في أسفل مكان وأبعده من السماء." (١)

و قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ (٢)

قال ابن كثير: "يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي: خلقنا وجعلنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ أي: هيأناهم لها، وبعمل أهلها يعملون، فإنه -تعالى- لما أراد أن يخلق الخلائق علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، كما أن رسول الله -ﷺ- قال: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. قال: وعرشه على الماء." (٣)

إلى أن قال في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ "يعني: ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٤)

١ - الأمثال في القرآن لابن القيم ص ٤٦ و التفسير القيم لابن القيم ٤٨/٢

٢ - الأعراف: ١٧٩

٣ - أخرجه مسلم، كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام. رقم (٦٩١٩) ٥١/٨

٤ - الأحقاف: ٢٦

وقال تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾﴾^(١) هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾﴾^(٢) ولم يكونوا صمماً بكماً عمياً إلا عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ۗ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾^(٣) وقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾^(٤) وقال: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيصٌ لَهُ، شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ، قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾^(٥) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾^(٥)

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ لَا يَسْمَعُونَ الْحَقَّ، وَلَا يَعُونَهُ وَلَا يَبْصُرُونَ الْهُدَى، كَالْأَنْعَامِ السَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَنْتَفِعُ بِهَذِهِ الْحَوَاسِ مِنْهَا إِلَّا فِي الَّذِي يَعِيشُهَا مِنْ ظَاهِرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۗ صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ ﴿٦﴾﴾^(٦) أي: ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول، ولهذا قال في هؤلاء: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾^(٧) أي: من الدواب؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أفس بها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء، ولأن الدواب تفقه ما خلقت له، إما بطبعها، وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر، فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده، فكفر بالله وأشرك به؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر، كانت الدواب أتم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ لَا يَسْمَعُونَ الْحَقَّ، وَلَا يَعُونَهُ وَلَا يَبْصُرُونَ الْهُدَى، كَالْأَنْعَامِ السَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَنْتَفِعُ بِهَذِهِ الْحَوَاسِ مِنْهَا إِلَّا فِي الَّذِي يَعِيشُهَا مِنْ ظَاهِرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۗ صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ ﴿٦﴾﴾^(٦) أي: ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول، ولهذا قال في هؤلاء: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾^(٧) أي: من الدواب؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أفس بها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء، ولأن الدواب تفقه ما خلقت له، إما بطبعها، وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر، فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده، فكفر بالله وأشرك به؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر، كانت الدواب أتم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ لَا يَسْمَعُونَ الْحَقَّ، وَلَا يَعُونَهُ وَلَا يَبْصُرُونَ الْهُدَى، كَالْأَنْعَامِ السَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَنْتَفِعُ بِهَذِهِ الْحَوَاسِ مِنْهَا إِلَّا فِي الَّذِي يَعِيشُهَا مِنْ ظَاهِرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۗ صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ ﴿٦﴾﴾^(٦) أي: ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول، ولهذا قال في هؤلاء: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾^(٧)

١ - البقرة: ١٨

٢ - البقرة: ١٧١

٣ - الأنفال: ٢٣

٤ - الحج: ٤٦

٥ - الزخرف: ٣٦ - ٣٧

٦ - البقرة: ١٧١

٧ - تفسير ابن كثير ٣/٥١٣-٥١٤

قال السعدي: "يقول -تعالى- مبيناً كثرة الغاوين الضالين، المتبعين إبليس اللعين: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي: أنشأنا وبنينا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ صارت البهائم أحسن حالة منهم. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي: لا يصل إليها فقه ولا علم، إلا مجرد قيام الحجة. ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ما ينفعهم، بل فقدوا منفعتها وفائدتها. ﴿ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم. ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ أي: البهائم، التي فقدت العقول، وهؤلاء آثروا ما يفنى على ما يبقى، فسلبوا خاصية العقل. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من البهائم، فإن الأنعام مستعملة فيما خلقت له، ولها أذهان تدرك بها مضرتها من منفعتها، فلذلك كانت أحسن حالاً منهم. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الذين غفلوا عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان بالله وطاعته وذكره.

خلقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار لتكون عوناً لهم على القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود. فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا ممن ذرأ الله لجهنم وخلقهم لها، فخلقهم للنار، وبأعمال أهلها يعملون." (١)

قال ابن القيم: "إن الله -تعالى- وصف أهل النار بالجهل، وأخبر أنه سد عليهم طرق العلم، فقال -تعالى- حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٢) فأخبروا أنهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون، والسمع والعقل هما أصل العلم و بهما يُنال، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (٣) فأخبر -سبحانه- أنهم لم يحصل لهم علم من جهة من جهات العلم الثلاث، وهي: العقل والسمع والبصر، كما قال في موضع آخر: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤) وقال

١ - تفسير السعدي ص ٣٠٩

٢ - الملك: ١٠

٣ - الأعراف: ١٧٩

٤ - البقرة: ١٧١

تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٤٦) وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْعِدَّةً فَمَا آغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْعِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٢) فقد وصف أهل الشقاء - كما ترى - بعدم العلم وشبههم بالأنعام تارة، وتارة بالحمار الذي يحمل الأسفار، وتارة جعلهم أضل من الأنعام، وتارة جعلهم شر الدواب عنده، وتارة جعلهم أمواتاً غير أحياء، وتارة أخبر أنهم في ظلمات الجهل والضلال، وتارة أخبر أن على قلوبهم أكنة وفي آذانهم قرأً وعلى أبصارهم غشاوة. وهذا كله يدل على قبح الجهل، وذم أهله وبغضه لهم. (٣)

و هذا وصف القرآن الكريم للمشركين و أحوالهم، فهم قد يكونون من أذكى الناس في أمور الدنيا و كسبها، و هذا قد يفتن به كثير من المسلمين؛ لأنهم يقرؤون في القرآن بأنهم كالأنعام، و أنهم لا يعقلون، و أنهم شر الدواب إلى غير ذلك مما ذكره ابن القيم، لكنهم مع ذكائهم و بصيرتهم في دنياهم كما وصفهم القرآن الكريم كالأنعام؛ لأنهم لا ينظرون أكبر قضية، وهي خلقهم و رجوعهم إلى خالقهم، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١١٥) (٤) فذكاؤهم ما قادهم إلى خالقهم، بل قادهم إلى استكبارهم وشركهم و كفرهم مما جعلهم أضل من البهائم، و جعلهم في العمى لا خروج منه إلا بإذن

١ - الحج: ٤٦

٢ - الأحقاف: ٢٦

٣ - مفتاح دار السعادة ٥٩/١

٤ - المؤمنون: ١١٥

الله -تعالى-، و لذلك بين الله -تعالى- حالهم في كتابه لكي يتبصر كل مؤمن و لا يقع في شيء مما هو عليه المشركون و الكفار و الفاسقون.

٤ - تدارك من وقع في الشرك

إن الشيطان تواعد أنه يضل عباد الله، قال -تعالى- مخبراً عنه: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُحْصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾^(١) و قال تعالى: ﴿ وَلَا ضَلَالَتَهُمْ وَلَا أُمْمِيَنَّهُمْ وَلَا مُرْتَهُمَ فليَبْتَكَنَّ ءَاذَانَ الْاَنَعَمِ وَلَا مُرْتَهُمَ فليَغِيْرَتِ خَلْقِ اَللهِ ﴾^(٢) فالشيطان يسير على وعده، و يضل عباد الله، و يوقعهم في المعاصي و الشرك. فمن كمال هدي القرآن العظيم تدارك من وقع في الشرك و المعاصي، إما بالدعوة إلى التوبة و غفران الذنوب، أو بعدم القنوط و اليأس من رحمة الله -تعالى-، أو بإرشاد عباد الله بمنعهم من الشرك ومظاهرة أهله، أو قتالهم حتى لا يكون الشرك، و يكون الدين كله لله تعالى.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾^(٣) قال ابن كثير: "هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإجابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت، وكانت مثل زبد البحر. ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه." ^(٤)

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثرُوا، وزنوا فأكثرُوا. فأتوا محمداً ﷺ - فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا

١ - ص: ٨٢ - ٨٣

٢ - النساء: ١١٩

٣ - الزمر: ٥٣

٤ - تفسير ابن كثير ١٠٧/٧

كفارة، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾^(١) ونزل قوله: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾^(٢)

قال السعدي: "يخبر -تعالى- عباده المسرفين بسعة كرمه، ويحثهم على الإنابة قبل أن لا يمكنهم ذلك، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله مخبراً للعباد عن ربهم: ﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مساخط علام الغيوب. ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي: لا تيأسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا أنه يغفر الذنوب جميعاً من الشرك، والقتل، والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود مائة للموجود، تسح يده من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم على العباد والفواضل في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته، ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره الإنابة إلى الله -تعالى- بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلم إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم."^(٣)

١ - الفرقان: ٦٨

٢ - أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم}. رقم (٤٨١٠) ١٥٧/٦

٣ - تفسير السعدي ٧٢٧ ص

قال ابن القيم: "فهذا في حق التائب، فإن التوبة تجب ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والتوحيد يكفر الذنوب، كما في الحديث الصحيح الإلهي: "يا بن آدم لو لقيتني بمثل الأرض خطايا لا تشرك بي شيئاً لقيتكم بملء الأرض مغفرة"^(١)

فلمسلمون ذنوبهم ذنوب موحد إن قوي التوحيد على نحو آثارها بالكلية، وإلا فما معهم من التوحيد يخرجهم من النار إذا عذبوا بذنوبهم، و أما المشركون والكفار، فإن شركهم وكفرهم يجبط حسناهم، فلا يلقون بهم بحسنة يرجون بها النجاة، ولا يغفر لهم شيء من ذنوبهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٢) وقال تعالى في حق الكفار والمشركين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾^(٣) وقال رسول الله - ﷺ -: "أبى الله أن يقبل من مشرك عملاً"^(٤) فالذنوب تنزل آثارها بالتوبة النصوح، والتوحيد الخالص، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة لها، وشفاعة الشافعين في الموحدين، وآخر ذلك إذا عذب بما يبقى عليه منها أخرجه توحيد من النار، وأما الشرك بالله والكفر بالرسول، فإنه يجبط جميع الحسنات بحيث لا تبقى معه حسنة"^(٥)

فتدارك من وقع في الشرك أن يبين له أن الله - تعالى - يغفر الذنوب جميعاً مهما كبرت وكثرت إن تاب منها، وهذا من عظمة الله - تعالى - أنه مهما فعل العبد من الشرك والجحود والمنكرات، ثم عرف أن له رباً يغفر له و يتوب عليه، فتاب و استغفر عُولج شركه. وكفانا الحديث، إذ قال النبي - ﷺ -: "كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال لا. فقتله، فكملة به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل

١ - بهذا اللفظ أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فرض الإيمان. رقم (٢٢٦) ٤٦٢/١

٢ - النساء: ٤٨

٣ - الفرقان: ٢٣

٤ - لم أجد هذا الحديث بهذا اللفظ، إنما وجدت حديث: "لا يقبل الله - عز و جل - من مشرك بعد ما أسلم عملاً أو يفارق المشركين إلى المسلمين." أخرجه النسائي في سننه، كتاب الزكاة، باب من سأل بوجه الله عز و جل، رقم (٢٥٦٨) ٨٢/٥ و ابن ماجه في سننه، كتاب الحدود، باب المرتد عن دينه. رقم (٢٥٣٦) ٥٧٥/٣

٥ - هداية الحيارى ١٣١ ص

الأرض، فدلّ على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء. فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاخصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم. فقال قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له. ففاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة. ^(١) فعلى كل من أذنب أو أشرك أن يعلم أن علاجه من دنس الشرك و الذنوب أن يتوب إلى ربه قبل أن يأتيه ما يحول بينه و بين التوبة.

٥ - تدارك من وقع في الشرك بالمنع أو القتال

من لم ينفعه الوعظ و اللطف و حسن المعاملة، نفعه القوة و الشدة وفق الضوابط التي شرعها الله تعالى. فالقرآن العظيم ما ترك قضية إلا و عاجلها بأحسن أسلوب وبينها النبي - ﷺ - في سنته. وقد وصف القرآن هذه الأمة أنها خير أمة أخرجت في الأرض، قال تعالى: ﴿

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

﴿^(٢) فالمنع عن الشرك وإظهاره بين المسلمين واجب من واجبات الدين، إذا قام به بعض المسلمين سقط عن الباقيين. فتدارك من وقع في الشرك أو المنكرات بالمنع أو القتال قد بينه القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ

شَاءَ إِتَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ^(٣)

١ - أخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله. رقم (٧١٨٤) ١٠٣/٨

٢ - آل عمران: ١١٠

٣ - التوبة: ٢٨

قال ابن كثير: "أمر -تعالى- عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين الذين هم نجس ديناً عن المسجد الحرام، وألا يقربوه بعد نزول هذه الآية. وكان نزولها في سنة تسع؛ ولهذا بعث رسول الله -ﷺ- علياً صحبة أبي بكر -رضي الله عنهما- عامئذٍ، وأمره أن ينادي في المشركين: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. فأتى الله ذلك، وحكم به شرعاً وقدرأً.

إلى أن قال: "قال الإمام أبو عمرو الأوزاعي^(١): كتب عمر بن عبد العزيز^(٢) -رضي الله عنه- أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهييه قول الله:

﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾^(٣)

وقال عطاء^(٤): "الحرم كله مسجد، لقوله تعالى: ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾"^(٥)

ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما دلت على طهارة المؤمن، ولما ورد في الحديث الصحيح: "المؤمن لا ينجس"^(٦) وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس

١ - هو عبد الرحمن بن عمرو بن أحمد الأوزاعي، أبو عمرو: إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، شيخ الإسلام. ولد في بعلبك سنة ٨٨ هـ، ونشأ في البقاع، وسكن بيروت. وله كتاب السنن في الفقه، والمسائل وغيرها. توفي سنة ١٥٧ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٠٧/٧

٢ - هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص: الإمام، الحافظ، المجتهد، الزاهد، العابد، قيل له خامس الخلفاء الراشدين. ولد سنة ٦١ هـ بالمدينة ونشأ بها، وولي إمارتها للوليد. وولي الخلافة بعهد من سليمان سنة ٩٩ هـ وسكن الناس في أيامه من الفتن، وقيل دس له السم فتوفي به سنة ١٠١ هـ. ومدة خلافته سنتان ونصف. انظر: سير أعلام النبلاء ١١٤/٥

٣ - أخرجه الطبري في تفسيره ١٩٢/١٤

٤ - عطاء بن أبي رباح أسلم بن صفوان: تابعي، أبو محمد القرشي مولاهم المكي. أدرك مائتين من أصحاب رسول الله -ﷺ- من أجلاء الفقهاء. كان عبداً أسود. ولد في جند باليمن سنة ٢٧ هـ ونشأ بمكة، فكان مفتي أهلها ومحدثهم، وتوفي فيها سنة ١١٤ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٧٨/٥

٥ - أخرجه الطبري في تفسيره ٣٣٠/١٧ و ابن أبي حاتم في تفسيره ١٧٧٦/٦

٦ - أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب عرق الجنب، وأن المسلم لا ينجس. رقم (٢٨٣) ٧٩/١ و مسلم، كتاب الحيض، باب الدليل على أن المسلم لا ينجس. رقم (٨٥٠) ١٩٤/١

البدن والذات؛ لأن الله -تعالى- أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية^(١) إلى نجاسة أبدانهم.

إلى أن قال في قوله تعالى: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَغُرُونَ﴾^(٢) أي: إن هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوضهم الله بما قطع عنهم من أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية. وهكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة والضحاك، وغيرهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أي: بما يصلحكم، ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: فيما يأمر به وينهى عنه؛ لأنه الكامل في أفعاله وأقواله، العادل في خلقه وأمره -تبارك وتعالى-، ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة.^(٣)

قال السعدي: "يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ﴾ بالله الذين عبدوا معه غيره ﴿نَجَسٌ﴾ أي: خبثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي نجاسة أبلغ ممن كان يعبد مع الله آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنه شيئاً؟"

وأعمالهم ما بين محاربة لله، وصد عن سبيل الله، ونصر للباطل، ورد للحق، وعمل بالفساد في الأرض لا في الصلاح، فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم.

﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وهو سنة تسع من الهجرة، حين حج بالناس أبو بكر الصديق، وبعث النبي -ﷺ- ابن عمه علياً أن يؤذن يوم الحج الأكبر ب﴿براءة﴾ فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وليس المراد هنا نجاسة البدن.

١ - الظاهرية- مذهب فقهي يعتمد على ظاهر النصوص وإعراضه عن التأويل والرأي والقياس، أسسه داود بن علي الظاهري ولد سنة ٢٠١هـ و مات سنة ٢٧٠هـ. وله أتباع من أشهرهم ابن حزم أندلسي. انظر: سير أعلام النبلاء

٩٧/١٣

٢ - التوبة: ٢٩

٣ - تفسير ابن كثير ٤/١٣٠-١٣٢

إلى أن قال في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ خِفْتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿عِيَلَةً﴾ أي: فقراً وحاجة من منع المشركين من قربان المسجد الحرام بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية، ﴿فَسَوْفَ يُعْطِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فليس الرزق مقصوراً على باب واحد، ومحل واحد، بل لا ينغلق باب إلا وفتح غيره أبواب كثيرة، فإن فضل الله واسع وجوده عظيم، خصوصاً لمن ترك شيئاً لوجهه الكريم، فإن الله أكرم الأكرمين. وقد أنجز الله وعده، فإن الله قد أغنى المسلمين من فضله، وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا به من أكبر الأغنياء والملوك.

وقوله: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة؛ لأن الغنى في الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فلهذا علقه الله بالمشيئة.

فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحب.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: علمه واسع، يعلم من يليق به الغنى ومن لا يليق، ويضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها.

وتدل الآية الكريمة، وهي قوله ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ أن المشركين بعد ما كانوا هم الملوك والرؤساء بالبيت، ثم صار بعد الفتح الحكم لرسول الله والمؤمنين مع إقامتهم في البيت ومكة المكرمة، ثم نزلت هذه الآية.

ولما مات النبي - ﷺ - أمر أن يجلو من الحجاز، فلا يبقى فيها دينان، وكل هذا لأجل بُعد

كل كافر عن المسجد الحرام، فيدخل في قوله ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾^(١)

قال ابن عاشور في هذه الآية: "استئناف ابتدائي للرجوع إلى غرض إقصاء المشركين عن المسجد الحرام المفاد بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾^(٢) الآية، جيء به لتأكيد الأمر بإبعادهم عن المسجد الحرام مع تعليقه بعلّة أخرى تقتضي إبعادهم عنه، وهي

١ - تفسير السعدي ص ٣٣٣

٢ - التوبة: ١٧

أنهم نجس، فقد علل فيما مضى بأنهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، فليسوا أهلاً لتعمير المسجد المبني للتوحيد، وعلل هنا بأنهم نجس، فلا يعمرؤ المسجد لطهارته." إلى أن قال: "وقد فرّج على نجاستهم بالشرك المنع من أن يقربوا المسجد الحرام، أي المنع من حضور موسم الحجّ بعد عامهم هذا.

والإشارة إلى العام الذي نزلت فيه الآية، وهو عام تسعة من الهجرة، فقد حضر المشركون موسم الحج فيه، وأعلن لهم فيه أنهم لا يعودون إلى الحج بعد ذلك العام، وإنما أمهلوا إلى بقية العام؛ لأنهم قد حصلوا في الموسم، والرجوع إلى آفاقهم متفاوت، فأريد من العام موسم الحج، وإلا فإن نهاية العام بانسلاخ ذي الحجة، وهم قد أمهلوا إلى نهاية المحرم بقوله تعالى: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾^(١)

إلى أن قال في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ﴾ ظاهره نهي للمشركين عن القرب من المسجد الحرام.

ومواجهة المؤمنين بذلك تقتضي نهي المسلمين عن أن يقرب المشركون المسجد الحرام. جعل النهي في صورة نهي المشركين عن ذلك مبالغة في نهي المؤمنين حين جعلوا مكلفين بانكفاف المشركين عن الاقتراب من المسجد الحرام من باب قول العرب: "لا أرينك ههنا" فليس النهي للمشركين على ظاهره.

والمقصود من النهي عن اقترابهم من المسجد الحرام النهي عن حضورهم الحج؛ لأن مناسك الحج كلها تتقدمها زيارة المسجد الحرام وتعقبها كذلك، ولذلك لما نزلت ﴿براءة﴾ أرسل النبي -ﷺ- بأن ينادي في الموسم أن لا يحج بعد العام مشرك، وقرينة ذلك توقيت ابتداء النهي بما بعد عامهم الحاضر. فدل على أن النهي منظور فيه إلى عمل يكمل مع اقتراب اكتمال العام وذلك هو الحج. ولولا إرادة ذلك لما كان في توقيت النهي عن اقتراب المسجد بانتهاء العام حكمة ولكان النهي على الفور.^(٢)

١ - التوبة: ٢

٢ - التحرير والتنوير ١٠/٦١-٦٣

و قال تعالى: ﴿ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُواهُمْ وَأَحْصَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١)

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ ﴾ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمتنا عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر. ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية أخرى بعد في هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ أي: من الأرض. وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ ﴾ (٢)

وقوله: ﴿ وَخَذُواهُمْ ﴾ أي: وأسروهم، إن شئتم قتلاً وإن شئتم أسراً.

وقوله: ﴿ وَأَحْصَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ﴾ أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدهم بالحصار في معقلهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام، ولهذا قال: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ولهذا اعتمد الصديق -رضي الله عنه- في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي الدخول في الإسلام، والقيام بأداء واجباته. ونبه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة التي هي حق الله -عز وجل- وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعدد إلى الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة، وقد جاء عن ابن عمر -رضي الله عنهما- عن رسول الله -ﷺ- أنه

١ - التوبة: ٥

٢ - البقرة: ١٩١

قال: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة." (١) (٢)

قال السعدي: "يقول تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ أي: التي حرم فيها قتال المشركين المعاهدين، وهي أشهر التسيير الأربعة، وتتمام المدة لمن له مدة أكثر منها، فقد برئت منهم الذمة. ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ في أي مكان وزمان، ﴿وَخَذُوهُمْ﴾ أسرى ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ أي: ضيقوا عليهم، فلا تدعوهم يتوسعون في بلاد الله وأرضه التي جعلها الله معبداً لعباده.

فهؤلاء ليسوا أهلاً لسكناها، ولا يستحقون منها شبراً؛ لأن الأرض أرض الله، وهم أعداؤه المنابذون له ولرسله، المحاربون الذين يريدون أن يخلو الأرض من دينه، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أي: كل ثنية (٣) وموضع يمرون عليه، وربطوا في جهادهم وابدلوا غاية مجهودكم في ذلك، ولا تزالوا على هذا الأمر حتى يتوبوا من شركهم.

ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ من شركهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدوها بحقوقها ﴿وَأَنُؤُوا الزَّكَاةَ﴾ لمستحقيها ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أي: اتركوهم، وليكونوا مثلكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر الشرك فما دونه، للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة، ثم قبولها منهم.

وفي هذه الآية، دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة، فإنه يقاتل حتى يؤديهما، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه. (٤)

١ - أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم). رقم (٢٥) ١٢/١ و

مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله. رقم (١٣٥) ٣٩/١

٢ - تفسير ابن كثير ١١٠-١١٢

٣ - الثَّيْبِيُّ: كلُّ عَقْبَةٍ مَسْلُوكَةٍ، وجمْعُها: ثَنَائِيَا، وهي المِدارِجُ. انظر: تاج العروس من جواهر القاموس ٢٩٥/٣٧

٤ - تفسير السعدي ص ٣٢٩

فأسلوب القرآن في منع الشرك و إظهاره واضح و مبين، و قد جاء تفصيل هذا الأسلوب في سنة النبي - ﷺ - و من ذلك الحديث: كان رسول الله - ﷺ - إذا أمر أميراً على جيش أو سرية^(١) أوصاه في خاصته بتقوى الله، و من معه من المسلمين خيراً، ثم قال: "اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا، فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك، فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا، فاستعن بالله عليهم وقتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله. وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا."^(٢)

فغاية القتال ليس القتل و التمثيل، إنما الغاية النبيلة و الشريفة، المنع من الفساد و الفتنة و أكبر الفساد و الفتنة هو الشرك، قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾^(٣) و قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ

١ - سرية - هي طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة وجمعها السرايا سُموا بذلك لأنهم يكونون خلاصة العسكر وخبائزهم من الشيء السريّ النقيس. انظر: لسان العرب ٣٧٧/١٤

٢ - أخرجه مسلم، كتاب الجهاد و السير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها. رقم (٤٦١٩) ١٣٩/٥

٣ - البقرة: ١٩٣

وَيَكُونُ الَّذِينَ كُفُّوا لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾^(١) و الفتنة هنا الشرك، كما قال المفسرون.^(٢) فمعالجة القرآن الكريم للشرك و المنكرات واضح، فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله، وجب القتال حتى يكون الدين كله لله. و هذه هي الوحدانية التي جاء بها كل رسول و لو اختلفت الشرائع، و القرآن الكريم قد ذكر لنا أساليب عدة في معالجة الشرك و المنكرات، فعلى الإنسان أن يتدبرها و يتدبر سنة النبي - ﷺ - لعله ينتفع و يفلح بكمال العبودية لله وحده.

١ - الأنفال: ٣٩

٢ - انظر: تفسير الطبري ٣/٥٧٠، و تفسير ابن كثير ٤/٥٦، تفسير القرطبي ٢/٣٥٤، الدر المنثور في التفسير بالماثور ٢/٣١٥

الخطبة

الحمد لله رب العلمين الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي خلق السماوات و الأرض و جعل
الظلمات و النور، الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعله عوجاً، الحمد لله فاطر
السماوات والأرض، الحمد لله الذي له ما في السماوات و الأرض و له الحمد في الآخرة،
الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما ينبغي لوجهه الكريم، لا نحصي ثناء عليه، هو كما
أثنى على نفسه، و كما أثنى عليه أفضل خلقه محمد -ﷺ- .

و هذا البحث المتواضع من عبد فقير ضعيف حاول أن يقوي به نفسه و أن يبرز ما يسر الله
-تعالى- له من هذا الموضوع الضخم - توحيد العبادة في القرآن الكريم- الذي تكون به
السعادة في الدنيا و الآخرة. فهذا البحث كتوحيد العبادة مهما اجتهد عبد فيه شعر بالنقص
إما في نفسه أو مما قدمه. و لإتمام هذا البحث أذكر أهم ما توصلت إليه من النتائج و
الفوائد:

- معنى التوحيد عند أئمة السلف هو لا إله إلا الله و تحقيق هذه الكلمة، فمن
حقق هذه الكلمة فقد حقق التوحيد و من نقص شيئاً منها فقد نقص من توحيدده.
- معنى العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، الباطنة
والظاهرة.
- القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، و الله - تعالى- تكلم به
حقيقة، المتعبد بتلاوته، المنقول إلينا بين دفتي المصحف نقلاً تواتراً.
- التفسير الموضوعي هو لون من ألوان التفسير الجديد، و قد كتب بعض العلماء فيه،
مثل الراغب الأصفهاني و غيره، لكن شكله في هذا الزمان أكثر موضوعية
لتخصيص الكتابة في الموضوع الواحد.

- إن كل الرسل و الأنبياء دعوا قومهم إلى توحيد العبادة من آدم - عليه السلام- إلى محمد - ﷺ - وهذا هو حقيقة دعوتهم، فمعرفة الله -تعالى- و الإقرار بأنه -تعالى- خالق، رازق، مدبر، لا يجدي نفعاً إلا بتحقيق توحيد العبادة و عليه جزاء و العقاب، بل هو تمييز بين الحق و الباطل.
- إن الله -تعالى- خلق الخلق لحكمة بالغة، و هي توحيد العبادة، وأسبغ عليهم ما لا يحصونه من نعمته، فعليهم شكرها بتوحيد العبادة، وكرم الله -تعالى- بني آدم بأصناف كرامته، و هي عبوديته -سبحانه و تعالى- و خص عباده المؤمنين بهدايته، و هم الذين يحققون توحيد العبادة.
- خلق الله الخلق لأجل أن يأمرهم بتوحيد العبادة، فمنهم من يستجيب لربه، فيحققه و يدخل في رضاه -تعالى-، و منهم من أعرض عما أمر به، فاستحق اللوم و العقاب.
- الأصل في الناس العبادة، فمن اتبع سبيل الرسل، فقد وافق ما خلق له.
- لتحقيق العبودية لا بد من شيئين؛ الغاية و الوسيلة المشروعة، فمن عُرف بفعل الوسائل في العبادة يحمل على حسن قصده، و من عُرف بتكاسل في الوسائل حمل على سوء القصد.
- إن أفضل الناس من يعرف الله -تعالى- حق معرفته، فمعرفة الله -تعالى- تكون بمعرفة ما أمر و ما نهى، و ما يجب و يرضى.
- إن أمر العبادة مبني على التسليم بما جاء من الله عن سبيل الرسل، قد تعرف منه الحكمة و قد لا تعرف، فمن امتثله فهو عين الحكمة، و من طلب الحكمة بغير الامثال ضاعت حكمته.

- القلوب مفتقرة إلى توحيد العبادة، فإن زاد تعبدها تقربت إلى الله، و أحببت الطاعات، و كرهت المعاصي، و بالكفر و المعاصي يزيد ظلام القلب، فيحب المعاصي، و يكره الطاعات.
- توحيد العبادة قسم القلوب على القلب السليم الذي يستجيب لله و لرسوله ويطيعهما، و القلب المريض الذي في غفلة من أوامر الله و رسوله ﷺ-، و القلب الميت الذي لا يعرف الله و لا يستجيب له بشيء، و لا يعرف رسوله و ينكره.
- للقلوب علامات و إمارات تدل على قوة توحيد العبادة فيها، قد ذكر الله -تعالى - بعضها في كتابه، و ذكر بعضها رسول الله -ﷺ- في سنته، و منها: الوجل عند سماع القرآن الكريم، الاطمئنان بذكر الله تعالى، الربط على القلوب، الصبر على البلاء و أداء الفرائض، الإشفاق من عدم قبول العمل، تعظيم الشرع، وغيرها
- من أكبر مقاصد القرآن من توحيد العبادة؛ أن يكون الدين كله لله، و تمييز أهل السعادة و أهل الشقاوة، ورضا الله بعباده و فوزهم بالجنة.
- إن الله -تعالى- خلق السماوات والأرض و أرسل رسله، وأنزل كتبه، و شرع الشرائع، ليُعرف و يُعبد، و يوحد و يكون الدين كله لله. فأسعد الخلق أهل العبادة، و من يجعل دينه لله، وأشقاهم من جعل شيئاً لغير الله تعالى.
- أرسل الله -تعالى- رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، و من أعظم القسط التوحيد، وهو رأس العدل وقوامه، و العدل لا يكون قائماً حتى يكون الدين كله لله، و يظهر القائمون عليه، و يهدم الشرك الذي هو أظلم الظلم، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود، فهو من أكبر الكبائر، و تفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، و ما كان أشد موافقة لهذا المقصود، فهو أوجب الواجبات و أفرض الطاعات.
- الدين لا يكون كله لله إلا بأصلين عظيمين هما: الإخلاص و المتابعة.
- العبادة لله -تعالى- علماً وعملاً، هي في الدين الحق، فأهله هم أصحاب السعادة الكاملة كما أخبر الله -تعالى- بذلك في كتابه في غير موضع، فوعد أهل الهدى والعمل الصالح بالسعادة التامة في الدار الآخرة، وتوعد أهل الضلال والفجور

- بالشقاء في الدار الآخرة مما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى آخرهم وتضمنته الكتب.
- و دين الله هو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه، وهو الصراط المستقيم، وهو طريقة أصحاب رسول الله ﷺ - خير القرون، وأفضل الأمة، وأكرم الخلق على الله - تعالى - بعد النبيين، فالرضا عن السابقين الأولين رضا مطلقاً، ورضي عن التابعين لهم بإحسان. و هذا لما ثبت لهم حسن اللجوء إلى الله وكمال العبادة.
- ذكر الله -تعالى- في كتابه أدلة على استحقاقه عبادته وحده، و ما ترك -سبحانه- لعاقل دليلاً في هذه الدنيا إلا دله عليه سبحانه، فمن الناس من يعظم هذه الأدلة التي جعلها الله في خلقه، و يترك تعظيم خالقها، و هذا الخلق من أعظم الأدلة على وجود فاطرها وكمال قدرته وعلمه وحكمته وانفراده بالعبودية والوحدانية.
- ذكر الله -تعالى- في كتابه الأدلة لإثبات نوعي توحيدته تعالى؛ توحيد الربوبية المتضمن أنه وحده الرب الخالق الفاطر، وتوحيد الإلهية المتضمن أنه وحده الإله المعبود المحبوب الذي لا تصلح العبادة والذل، والخضوع والحب إلا له. و هذا الاستدلال في غاية الظهور ونهاية البيان على جميع مطالب أصول الدين من إثبات الصانع وصفات كماله من قدرته وعلمه، وإرادته وحياته، وحكمته وأفعاله.
- إن الله -تعالى- أمر جميع الناس بالعبادة، ثم وجه الأنظار والقلوب إلى ما في هذا الكون من مخلوقات عجيبة لتبحر العقول فيها و في كمال قدرته، وعظيم تدبيره، وإتقان صنعه، فمن تعمق فيها أسلم لربها طوعاً أو كرهاً، فإن أبي فهذا دليل على ضعف عقله و سفاهته.
- تنوعت أساليب القرآن الكريم في تقرير توحيد العبادة، فتارة يقص لنا قصص الأنبياء والأمم السابقة، و تارة يضرب لنا الأمثال، و تارة يذكر لنا عواقب المعرضين و المطيعين، وتارة يذكر عظمة ربنا و صفاته، و كل هذا ليتعظ الإنسان و يستسلم لربه و يدخل في توحيد العبادة.
- إن في القصص تفكيراً وموعظة؛ لأن في سرد القصص واستحضار النظائر شأناً

عظيماً في اهتداء النفوس بها، وتقريب الأحوال الخفية إلى النفوس الذاهلة أو المتغافلة لما في التنظير بالقصة المخصصة من تذكر مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التذكير المجرد عن التنظير بالشيء المحسوس.

- إن من أساليب القرآن الكريم في توضيح توحيد العبادة ضرب الأمثال، و هو من فصيح الكلام، فلما كان كذلك استعمله القرآن لتأكيد معنى أو بيان غاية. و قد اشتمل القرآن على ثلاثة و أربعين مثلاً و هذا يدل على اهتمام القرآن به.

- و من أساليب القرآن الكريم في توضيح توحيد العبادة أسلوب الاستفهام، و هذا الأسلوب يختلف بحسب الخطاب الموجه إلى سامع، فتارة يأتي الاستفهام و يراد به إنكار شيء، و تارة يأتي الاستفهام و يراد به العتاب الشديد الموجه على فعل شيء غير حسن، و تارة يأتي و يراد به حمل سامع على طلب شيء بوقوعه و الموافقة على حصول مدلوله، لكن أصله - و هو أكثر في القرآن الكريم - يأتي على طلب بيان شيء مراد به، و يسمى الاستفهام الحقيقي.

- إن آثار توحيد العبادة شُهدت عبر القرون في هذه الأمة المحمدية، فحين حققت الأمة توحيد العبادة استقر شأنها و رُفعت فوق كل أمة، لكن حين ضعف تحقيقها لتوحيد العبادة سلط الله عليها أعداءها. فالمؤمنون استقرارهم لا يكون إلا بكمال العبودية لله -تعالى- و تحقيق التوحيد، و مهما قلت عبوديتهم و ضعف تحقيقهم للتوحيد قل استقرارهم و زاد قلقهم.

- إن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبداً يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووقفه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالحبة والوداد. ومن لوازم محبة العبد لربه أنه لا بد أن يحقق توحيد العبادة.

- إن ولاية الله -تعالى- هي صلة عظيمة بينه -تعالى- و بين وليه، و هي لا تتحقق إلا بتوحيد العبادة مهما عظم شأن العبد. و من ادعى الولاية بغير توحيد العبادة،

- فقد كذب على الله تعالى؛ لأن توحيد العبادة يُدخِل العبد في الإيمان و التقوى.
- و من آثار توحيد العبادة العزة، فمهما حقق العبد توحيد العبادة اعتز بالله العلي العزيز، و علا على العباد، لا لإرادته وكبره، بل لعبادته العلي العزيز الذي يؤتي العزة و الرفعة لمن يشاء.
 - أسباب الثبات على التوحيد قد شرعها الله -تعالى- و حث عليها، منها: والإخلاص، الدعاء، الذكر، الاستغفار، الصبر، الشكر وغيرها، فمن حافظ عليها فقد أدى ما عليه من أسباب تحقيق توحيد العبادة، و اقترب إلى الفوز بالجنة.
 - إن الشرك يهضم لحق الربوبية، وينقص لحق توحيد العبادة، ويسيء الظن برب العالمين. فهو أظلم الظلم وأقبح القبائح وأنكر المنكرات، و أبغض الأشياء إلى الله - تعالى- وأكرهها له، وأشدها مقتاً عنده، ورتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه، وأخبر أنه لا يغفره، وأن أهله نجس ومنعهم من قربان حرمه، وحرّم ذبائحهم ومناكحتهم، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين، وجعلهم أعداء له -سبحانه- ولملائكته ورسله وللمؤمنين، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم، وأن يتخذوهم عبيداً.
 - الشرك تسرب في هذه الأمة من مسألة الوسيلة و الشفاعة، و ذلك أن كثيراً من الناس لا يفرقون بين الوسيلة و الشفاعة المشروعة.
 - إن الشيطان و أوليائه يسهلون في صدور الناس الشرك و وسائله، فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه الشرك و وسائله، وكلما ضعف إيمانه قوي لجوؤه إلى الشرك.
 - آثار الشرك في توحيد العبادة كثيرة، منها: لا يغفر الله للمشرك، حرم الله الجنة على المشرك، الشرك يحبط العمل، الإسلام بريء من الشرك و أهله، الشرك سبب لقلة الرزق.
 - الجنة لا يدخلها خبيث من الشرك، ولا من فيه شيء من الخبيث، فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا، فإن

- كانت نجاسته عينية من الشرك و الكفر لن يدخلها أبداً، وإن كانت نجاسته من المعاصي و الذنوب، دخلها بعدما يتطهر في النار من تلك النجاسة.
- أعمال المشركين كسراب، يظنون أنهم بعبادة غير الله و دعائهم كسبوا الحسنات، لكن حين احتاجوها لم يجدوا شيئاً، بل تهلكتهم، وما قدروا الله حق قدره إذ جعلوا له عدلاً ونداً.
- نهى النبي - ﷺ - أن يتشبه المسلم بالمشرك أو الكافر أو الفاسق، فعلى كل مسلم البراءة من الشرك و أهله و مخالفتهم في عاداتهم و تقاليدهم.
- كل نقص وبلاء و شر في الدنيا والآخرة، فسببه الذنوب و مخالفة أوامر الرب، والشرك و الذنوب من أسباب قلة الرزق و عدم بركته، و التوحيد سبب السعادة و كثرة الرزق.
- تميز أساليب القرآن الكريم في العهد المكي بمعالجة الشرك و المنكرات بغاية الوضوح و البساطة و البراهين و الحجج ما أثار المشركين، و منها: بيان عجز المدعويين و أنهم لا ينفعون و لا يضررون، بيان عواقب الشرك و أهله، بيان حال المشركين في الدنيا و الآخرة، تدارك من وقع في الشرك و غيرها.
- وقد وصف القرآن هذه الأمة أنها خير أمة أخرجت في الأرض، فالمنع عن الشرك وإظهاره بين المسلمين واجب من واجبات الدين، إذا قام به بعض المسلمين سقط

عن الباقيين. فتدارك من وقع في الشرك أو المنكرات بالمنع أو القتال قد بينه القرآن الكريم.

- إذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله، وجب القتال حتى يكون الدين كله لله. وهذه هي الوحدانية التي جاء بها كل رسول و لو اختلفت الشرائع، و القرآن الكريم قد ذكر لنا أساليب عدة في معالجة الشرك و المنكرات، فعلى الإنسان أن يتدبرها.

الفهارس

- فهرس الآيات
- فهرس الأحاديث و الآثار
- فهرس الكلمات
- فهرس البلدان
- فهرس الفرق
- فهرس المصادر و المراجع
- فهرس الموضوعات

فهرس الآيات

سورة الفاتحة

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٤..... ٩٢

سورة البقرة:

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ٥..... ١٠٨

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ ٧..... ٨٠

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ ١٠..... ٧٨

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ ٢١..... ١٥٣، ٥٤

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ ٢٢..... ١٥٣

﴿وَيُبَشِّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (٢٥)..... ٣٠٦

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْهُ هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ﴾ ٣٨..... ١١٤، ١٠٨

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (٤٥)..... ٢٩٣، ٢٩٦

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾ ٤٨..... ٩١

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١)..... ٣٠٢

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (١٥٢)..... ٣٠٢

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ٥٨..... ٢٠٤

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ ٧٤..... ٨٣

- ﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَظَّتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٨١) ٢٣٨
- ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٨١) ٢٠٤
- ﴿ وَلَنَجْذِئَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ ٩٦ ٢٠٤
- ﴿ وَإِذْ أَبَتَآ إِلَىٰ بِرْهَعَرِ رَبِّهِ، بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ ١٢٤ ١٩١
- ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (١٥٢) ٢٨٤
- ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٥٣) ٢٩٢
- ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (١٥٧-١٥٥) ٢٩٣
- ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ ١٥٨ ٦٩
- ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (١٦٥) ٢٤٦
- ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (١٧١) ٣٠١
- ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (١٨٦) ٢٨٢
- ﴿ وَقَالُوا هُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِئْتَهُمْ ﴾ ١٩٣ ٩٨
- ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢٠١) ٢٨٠
- ﴿ وَاللَّهُ يَرُؤُا مِّنْ يَشَاءُ ﴾ ٢٩٩
- ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ (٢٥٧) ٢٥١
- ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ ٢٩٩

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٧٧﴾ ٣٠٨.....
 ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِيصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٣٨٦﴾ ٢٧٤، ٢٧٨،

سورة آل عمران

﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴿٨﴾ ٧٦.....
 ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ الْأَمْعَادَ ﴿٩﴾ (٩-٨)..... ٢٨٠.....
 ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴿١٨﴾ ٢٥٦.....
 ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ ٢٤٦، ٢٤٤.....
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴿٥١﴾ ٤٥.....
 ﴿ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ٢٨٠.....
 ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴿٥٩﴾ ٤٤.....
 ﴿ وَاللَّهُ وَرَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ٢٥١.....
 ﴿ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ﴿٨١﴾ ٢٧٥.....
 ﴿ أَفَعَبَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْعُوثَ وَلَهُ اسَّلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ ﴿٨٣﴾ ٩٢.....

- ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ ٢٦٦
- ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّهُوا إِلَّا لِجَحِيلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبِعَضْبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ﴿١١٢﴾ ٢٠٤
- ﴿ وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴿١٢٠﴾ ٢٩٣
- ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣٣﴾ ٣٠٢، ٣٠١
- ﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ ٢٩٣
- ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٦﴾ ٢٩٢، ٢٥٨
- ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ٢٩٩
- ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ٢٩٩
- ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ٢٩٤
- ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ﴿١٥١﴾ ٢٣٨
- ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٤﴾ ٢٥
- ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَعَلُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿١٧٣﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضَّلِ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ١٣٤
- ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١١١﴾ ١٥٩، ١٥٢

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢٠٠) ٢٩٠

النساء:

﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (٢٨) ٢٤٢

﴿ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٣٢) ٢٧٨

﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ (٣٨) ٢٧٠

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ (١٢٢) ٢١٨، ٣٠٧

﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ (١٢٣) ٢٣٩

﴿ الَّذِينَ يَنْخُدُونَ الْكُفْرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْنِئْتُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (١٣٩) ٢٥٣

﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ (١٤١) ٢٥٩

﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَاتًا إِرَاءُؤُنَ النَّاسِ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٤٢) ٢٧٠

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١٤٦) ٢٧٢

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَائِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (١٤٧) ٢٩٨

﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ١٥٥ ٨٦

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴾ ١٥٦ ٤٤

﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ

وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ (١٧٢) ١٨٢

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (١٧٣) ٣٠٨

- ﴿ وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (٣) ٢٣٣
- ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٩) ٣٠٧
- ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ ﴾ ١٦ ٤٨
- ﴿ نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ ﴾ ١٨ ٢٠٢
- ﴿ فَاذْهَبِ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاتِعُدُونَ ﴾ ٢٤ ٢٠٢
- ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٠) إلى ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢٦) ٢٠-٢٦ ١٩٨
- ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢٥) ٢٠٢
- ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢٦) ٢٠٢
- ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ ﴾ ٣١ ٢٥
- ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ٤٨ ٢٨، ٣٠، ٢
- ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَرِّدٍ مِّنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥٤) ٢٤٢
- ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ (٥٥) ٢٥٠، ٢٤٣
- ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٥٦) ٢٥٠
- ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ ٦٥ ١١٠
- ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦٦) ٢٨٨

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصْرَىٰ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦١) ٣٠٨
- ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ ٧٢ ٤٤
- ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ٨٠ ٧٥
- ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ ﴾ ٨١ ٧٥
- ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ ﴾ ٨٣ ٦٦
- ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ صِدْقُهُمْ هُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١١٩) ١٤٧

سورة الأنعام

- ﴿ قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ ^ط قُلْ لِلّٰهِ ﴾ (١٢) ٢١٨
- ﴿ قُلْ اَعْبُدُوا اللَّهَ اَتَّخِذُ وِلِيًّا فَاطِرَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ ﴾ ١٤ ٢١٨، ٤٦
- ﴿ وَوَرُدُّوا الْعَادُوْا لِمَا نُهَوْا عَنْهُ وَاِنَّهُمْ لَكٰذِبُوْنَ ﴾ ٢٨ ١٢٦
- ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُوْنَ اِلَيْهِ اِنْ شَاءَ ﴾ (٤١) ٢٩٩
- ﴿ وَكَذٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُوْلُوْا اَهْتُوْلٰٓءَ مِنْ اِلٰهِنَا عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا اَلَيْسَ اللّٰهُ بِاَعْلَمَ بِالشَّاكِرِيْنَ ﴾ (٥٣) ٢٩٨
- ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ اِلَّا يَعْْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْاَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ اِلَّا فِي كِتٰبٍ مُّبِيْنٍ ﴾ (٥٤) ١٦١
- ﴿ وَالْمَوْتٰى يَبْعَثُهُمُ اللّٰهُ ثُمَّ اِلَيْهِ يُرْجَعُوْنَ ﴾ (٣٦) ٢٥
- ﴿ وَاِذْ قَالَ اِبْرٰهِيْمُ لِاَبِيْهِ اَزَرَ اَتَّخِذُ اَصْنٰمًا ءَالِهَةً ﴾ ٧٤ ١٩٠، ٣٩
- ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الَّيْلُ رءَا كَوْكَبًا ﴾ ٧٦ ٥٠

- ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمَهُ ۖ قَالَ أَتُحْجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۗ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ۚ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ٢٣٨، ١٩٣
- ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٢٣٣، ٢٣٨، ٢٣٧
- ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُم بِظُلْمٍ ءَأُولَئِكَ لَهُمُ الْآمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ٢٣٥
- ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۖ نَزَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ٢٣٦، ٢٥٦، ١٩٣
- ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴿٩٣﴾ ١٧٥
- ﴿ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۗ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ١٥٧
- ﴿ أَوْ مَن كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا ﴿١٢٢﴾ ٨٤
- ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا ﴿١٢٥﴾ ٨٦
- ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ ءَأَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴿١٣٧﴾ ٢٢٣
- ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَأَبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ ﴿١٤٨﴾ ٥٦

سورة الأعراف

- ﴿ ثُمَّ لَا تَيَسَّرُ لِمَن بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِن خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ٣٠٠
- ﴿ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ ﴿٣٨﴾ ١٧٥
- ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴿٥٥﴾ ٢٧٨
- ﴿ وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴿٥٦﴾ ٢٧٨
- ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَفْقَهُمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ۗ ﴿٥٩﴾ ٣٠
- ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا ﴿٦٥﴾ ٣٣

- ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ ٧٣ ٣٥
- ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ ٨٥ ٣٦
- ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ ﴾ (٩٦) ٢٨٨
- ﴿ أَوْلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا ﴾ ١٠٠ ٨٦
- ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ ١٠١ ٨٧
- ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴿١٠٢﴾ ﴾ ٢٥
- ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ ﴾ (١٠٤ - ١٠٥) ١٩٦، ٤٢
- ﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا ﴾ ١٠٦ ٤٢
- ﴿ يَا تُوَكَّيْلُ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ ١١٢ ٤٢
- ﴿ وَيَسْتَخْلِفْكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٢٩) ٢٣٣
- ﴿ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ ١٣٧-١٣٦ ١٩٧
- ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ (١٣٧) ٢٩٤
- ﴿ وَجَلَّوْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَانٍ لَهُمْ ﴾ (١٣٨) ٢٠٩
- ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَجْهُلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ إلى ﴿ قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ ١٣٨-١٤٠ ١٩٨
- ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَةٍ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ ٣٠١
- ﴿ فَأَقْصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ١٧٦ ١٨٧
- ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ ١٧٩ ٥٢، ٥٣

﴿ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

٢٨١.....

سورة الأنفال

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ٢ ٦٥

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ ٢٣ ٨٢

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ ٢٤ ٧٣

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلدِّينِ كُلِّهِ لِلَّهِ ﴾ ٣٩ ٩٨،٩١

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤٥)..... ٢٨٣

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (٦٠)

٢٤٥

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦٤) ٢٥٩

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ﴾ ٧٥ ١٣٨

سورة التوبة

﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ ٥ ١٠٢،٩٩

﴿ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ ١١ ٩٩

﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ (١٥) ٢٩٩

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ ﴾ ٢٤ ١٤٤

﴿ فَسَوْفَ يَغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾ (٢٨) ٢٩٩

﴿ فَاتَّبِعُوا الدِّينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ٢٩ ٩٦

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ (٣١) ٢٤٠،٥٤،١٢

- ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ ٣٣ ١٠٣
- ﴿ وَقَدِّمُوا الْمَشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَدِّمُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ ٣٦ ١٠٢
- ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ٧٢ ١٤٧، ١٤٢
- ﴿ وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ ١٠٠ ١٤٢، ١٣٦
- ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا ﴾ ١٢٥ ٧٩
- ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً تَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ١٢٧ ٨٢

سورة يونس:

- ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) ١٦٠
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (١) ٣٠٨
- ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تُتَّقُونَ ﴾ (٣١) ١٦٨
- ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ (٥٨) ٢٥٧
- ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) ٢٤٩
- ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٦٤) ٢٥٢
- ﴿ وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (٦٥) ٢٥٣
- ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٧٤) ٨٧

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلَّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا
 اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ٢٧٩
 ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ ﴿ ٩٤ ٢٩
 ﴿ قُلْ يَتَىٰهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم
 وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ١٧٢
 ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ٥٧

سورة هود

﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ إلى ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ٤-٢
 ٢٨٦، ١٧٦
 ﴿ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنْعَا حَسَنًا ﴿ ٣ ١١٧، ٣٠٥، ٣٠٦
 ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴿ ٦ ١٦١
 ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ٣٠٨

 ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ٢٩٦، ٣٠٨، ٢٩٤
 ﴿ وَمَا أَمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ٣٠٠
 ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿٥٠﴾ ٢٨٨، ٢٨٩
 ﴿ وَيَنْقُومِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا
 تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ٢٨٨
 ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيئِهَا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ٢١٧
 ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴿ ٨٤ ٣٧
 ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿ ٩٦ - ٩٧ ٤١

﴿ وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ ٢٠٨

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ لَمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ ١٢٨

﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١١٧﴾ ﴾ ١٢٠

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴿١٠٨﴾ ١٢٨، ١١٩

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ ٥٨

﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ١٣٦

سورة يوسف

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِوَيْهٍ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ؎ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ٢٧٢

﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ - إلى - ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٣٧-٣٨) ٢٢٨

﴿ يَصْحَجِي السِّجْنَ ؎ أَرْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ؎ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ؎ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ؎ أَمَرَ ؎ إِلَّا تَعْبُدُوا ؎ إِلَّا إِلَاهَ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَائِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٣٩-٤٠) ٢٢٥

﴿ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ٢١٨

﴿ إِنَّهُ مِنْ يَتَّقِي وَيَصْبِرِ ﴿٩٠﴾ ﴾ ٢٩٦

سورة الرعد

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَعِمَّ عُنُقِي النَّارِ ﴿٢٣﴾ (٢٤-٢٣) ٢٩٣

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ ﴿٢٨﴾ ٢٨١، ٦٧

- ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ (٣٠) ١٣٦
- ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٣٥) ٢٠٥
- ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ الْكِتَابُ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ (٣٦) ٢٥٧

سورة إبراهيم

- ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (٥) ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٠
- ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ ٢٩٩، ٢٩٧
- ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ ٣٢ ١٧١
- ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ (٣٤) ٢٩٧

سورة الحجر

- ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٣٩-٤٠) ٢٧٢
- ﴿ فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ٩٤ ١٧٤

سورة النحل

- ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ١٧١
- ﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ﴾ ٢٢ ٨٠

- ﴿لَذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ ٣٠٥
- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ﴿٣٦﴾ ١٧٧، ٢٤
- ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ ٣٠٦، ١١٧
- ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ١٨٠
- ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِيقٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ ١٩٣
- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ٢١٦
- ﴿الْأَمْثَالُ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ (٧٤-٧٣) ٢١٦
- ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ٢٠٦
- ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوِي ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ ٢٠٦
- ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْيَكُ لِمَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ (٧٦-٧٥) ٢١٣
- ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعَادَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ ٣٠١
- ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ ٢١٨
- ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ١٧٨، ٢٨٧، ٣٠٢، ١١٧، ١٧
- ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ ١٨
- ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ ١٩٥، ٣٠١
- ﴿شَاكِرًا لِأَنْعِمِهِ ۖ أَحْتَبَّهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ ٣٠١

﴿ وَإِنَّ عَابَتُمْ فَعَابُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۗ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ ٢٩٣
 ﴿ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (١٢٨) ٢٩٢، ٢٧١

سورة الإسراء

﴿ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ ٣٠٠
 ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴿١﴾ ﴾ ٢٠٠
 ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ١٠٠
 ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۗ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ ٢٤٨
 ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٢﴾ ٧٩
 ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ ٢٠٦
 ﴿ وَخَشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبِكَمَا وَصَمَّا ﴿٩٧﴾ ١٢٤
 ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَلْمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ ١٩٦
 ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَٰبِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعُونَ مَسْحُورًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ ٢٠٢، ١٩٧

سورة الكهف:

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا ﴿١٤﴾ ٦٨
 ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴿٢٩﴾ ٢٦٦
 ﴿ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَن أَمْرِ رَبِّهِ ۗ ﴿٥٠﴾ ٥٠

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤ ﴾ ٢٠٦
 ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝١١٠ ﴾ ٢٤٨، ١٠١

سورة مريم:

﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۝٤١ - ٤٢ ﴾ ١٨٨، ٣٩
 ﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝٥١ ﴾ ٢٧٣
 ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۝٦٥ ﴾ ١٦٣
 ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢ ﴾ ٢٠٨، ٢٠٨

سورة طه

﴿ يَتَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ۝١٢٠ ﴾ ١٢٥
 ﴿ فَأَمَّا يَا نِينَكَم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ ۝١٢٣ ﴾ ١١٢، ١٠٨
 ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۝١٢٤ ﴾ ١٢١

سورة الأنبياء

﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠ ﴾ ١٩-٢٠
 ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ۝٢٣ ﴾ ١٢٠، ١٠٩
 ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ۝٢٥ ﴾ ١٧٧، ٢٧، ٢٤

- ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ ۗ ﴾ ٢٦ ١٨٠،٥٠
- ﴿ لَا يَسْئُرُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٧) ١٨٠
- ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ﴾ ٢٨ ١٨٠،١٦٢
- ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرٰهِيْمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عٰلِمِينَ ﴾ (٥١) ١٩٣،١٩٠
- ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمٰثِيْلُ الَّتِي آنتُمْ لَهَا عٰكِفُونَ ﴾ (٥٢) ١٩٥
- ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمٰثِيْلُ الَّتِي آنتُمْ لَهَا عٰكِفُونَ ﴾ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ آنتُمْ وءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا اٰجِئْنَا بِالْحَقِّ اَمْ اَنْتَ مِنَ اللَّٰعِيْنَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَاَنَا عَلٰى ذٰلِكُمْ مِنَ الشَّٰهِيْدِيْنَ ﴿٥٦﴾ ٥٦-٥٠ ١٩٥،١٩٠
- ﴿ وَتَاللّٰهِ لَآ كَيْدَنَّ اَصْنَعْنَا بَعْدَ اَنْ تُوْلُوْا مُدْرِيْنَ ﴾ (٥٧) ﴿ اِلٰى ﴾ ﴿ اَفِ لَكُمْ وِلْمًا تَعْبُدُوْنَ مِن دُوْنِ اللّٰهِ اَفَلَا تَعْقِلُوْنَ ﴾ (٦٧) ﴿ ٥٧-٦٧ ١٩٢
- ﴿ قَالُوا ءَاَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِاٰهْلِئِنَّا يٰٓاِبْرٰهِيْمُ ﴾ (٦٢) ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيْرُهُمْ هٰذَا فَاسْئَلُوهُمْ اِنْ كَانُوْا يَنْطِقُوْنَ ﴾ (٦٣) ﴿ ٦٢-٦٣ ٤٠
- ﴿ قَالُوا حَرِّقُوْهُ وَاَنْصُرُوْا ءَالِهَتَكُمْ اِنْ كُنْتُمْ فٰعِلِيْنَ ﴾ (٦٨) ١٩١
- ﴿ وَاٰتُوْبَكَ اِذْ نَادٰى رَبُّهُ اِنِّىْ مَسْنٰى الضُّرِّ وَاَنْتَ اَرْحَمُ الرَّحِيْمِيْنَ ﴾ (٨٣) ٢٧٩

سورة الحج:

- ﴿ ذٰلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيْرَ اللّٰهِ فَاِنَّهَا مِنْ تَقْوٰى الْقُلُوْبِ ﴾ (٣٢) ٦٩
- ﴿ وَاَبَشِّرِ الْمُنٰحِيْتِيْنَ ﴾ ٣٤ ٧١
- ﴿ الَّذِيْنَ اِذَا ذُكِرَ اللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوْبُهُمْ وَالصَّٰرِيْنَ ﴾ ٣٥ ٧٣،٧٩،٧٠
- ﴿ اِنَّ اللّٰهَ يَدْفِعُ عَنِ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا ﴾ (٣٨) ٢٥٩

﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ ﴿٥٣﴾ ٥٣

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ ﴿٥٤﴾ ٧٠

سورة المؤمنون

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ ﴿٢٣﴾ ٣٢

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ ﴿٥٠﴾ ٤٤

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ ﴿٦٠﴾ ٧٢

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾

﴿ قَالُوا خَسِرُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ ﴾ ﴿١٠٨﴾ ١٢٥

﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمِنَّا فَاغْفِرْ ﴾ ﴿١٠٩﴾ ٢٨٠، ١٠٧

سورة النور

﴿ أَعْمَلُهُمْ كَسْرًا بِمِيقَاتِهِ يَحْسِبُهُ الظَّالِمَانُ مَاءً حَاقًا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ ﴿٣٩﴾ ٢٨٠

﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ﴿٥٥﴾ ٢٣١، ٣٠٧

سورة الفرقان

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ (٢٣) ١٣٢

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (٢٧) يَا لَيْتَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا حَلِيلًا

﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ (٢٩) ٢٦٣

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (٦٣) وَالَّذِينَ

يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ ٦٤-٦٣ ١٢١

سورة الشعراء

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٣) ٤٢

﴿ يَا تُوتَك بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴾ (٣٧) ٤٢

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٦٩﴾ - ٧٠ ١٩٠، ٤٠

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ إلى ﴿ فَأَتَاهُمُ عَذَابٌ لَيْلٍ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٧٧) ١٩٥، ١٩٠

﴿ قُلْ مَا يَعْبُؤُنَا بِكُمُ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴿٧٧﴾ ٢٧٨

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ٦٣

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمُّ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٦﴾ - ١٠٨ ٣٢

سورة النمل

﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (٤٠) ٢٩٩

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ١٧١

سورة القصص

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ١٩٦

﴿ وَأَسْتَكْبَرُوا وَكُنُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ١٩٦

﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴿٥٤﴾ ٢٩٢

﴿ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ ٢٩٤

سورة العنكبوت

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ ٣٠٨

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ٣٠٧

﴿ وَإِذْ هَبْنَا شِبْثًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴿١٦﴾ ٣٨

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴿١٧﴾ ١٦٦

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴿٢٤﴾ ١٩١

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٥﴾ ٢٦١

﴿ فَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦١﴾ ١٩٢

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٢٠٧

- ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (٤٣) ٢٠٥
- ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ ﴾ ٦١ ٥٣
- ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٦٣) ١٧١
- ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ ﴾ ٦٥ ٢٧١، ٥٧، ٢١٠، ٢٦، ٥٥
- ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٦٩) ٢٥١

سورة الروم

- ﴿ كَذَلِكَ يَطَّعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٥٩ ٨٧

سورة لقمان:

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ (٨) خَلِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ٣٠٨
- ﴿ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٣) ٢٣٦
- ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴾ (١٤) ٣٠١
- ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١٧) ٢٩٤
- ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴾ ٢٥ ٩٤
- ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴾ ٢٥ ١٥٦
- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (٣١) ٢٩٥

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَظُلُجٍ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٣﴾ ٢٦٠، ٢٧١

﴿ فَلَا تَعْرَنَكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْرَنَكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ ﴿٣٣﴾ ٧٦

سورة السجدة

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ٢٩٦، ٢٩٢

سورة الأحزاب

﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ٢٩٧، ٢٩٢، ٢٨٤

﴿ بِآيَاتِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسِيحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ٢٨٣

سورة سبأ

﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴿٣﴾ ١٦١

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ أَنْزَلِ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴿٦﴾ ٢٥٦

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾ ٣٠٠

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ٢٩٥

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ١٦٩

﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ. حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ ۝﴾

الْكَافِرُ ﴿٣٣﴾ ١٨٣

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ كَالظَّلِيلِ ۝﴾ ٣٢ ٢٨

سورة فاطر:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِن خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآذَنُوا ۝﴾

تُؤَفِّكُونَ ﴿٣﴾ ١٧١

﴿ فَلَا تَعْرَبُوا حَيٰوةَ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۝﴾

٧٦.....

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّبَكُمُ الحَيٰوةَ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ إِنَّ الشَّيْطَانَ ۝﴾

٦-٥ ٩٥

﴿ مَن كَانَ يُرِيدِ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعًا ۝ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۝ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ

السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبْورُ ۝﴾

٢٥٣.....

﴿ لِيُؤْفِكَهُمْ ۝ أَجْرُهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۝ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝﴾

٣٠٨.....

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِنَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِّنْ عِبَادِنَا ۝﴾ (٣٢) ٢٣٩

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحِزْنَ ۝ إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝﴾ (٣٤) ٢٦٥

سورة يس

﴿ وَلَا آتِلُ سَابِقَ النَّهَارِ وَكُلُّ فِي فَلَكَ يُسَبِّحُونَ ۝﴾ ٤٠ ١٦٥

﴿ وَامْتَنُوا أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ۝﴾ (٥٩) ٢٢٤

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَسْبَغِيءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ : ٦٠ - ٦١ ٢٢٤، ١٩٣، ٥٤

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ٢٢٥

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (٧٥-٧٤) ٢٠٨

سورة الصافات:

﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا نَنْصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢٥-٢٢) ٢٦٣

﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ١٤٩

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ٣٠٠

﴿ وَإِذْ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ٨٤ - ٨٣ ١٩١، ٦٣

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا ﴿١٠٥﴾ ١٠٥ - ١٠٣ ١٩١

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَكُلَّ آلِهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ - ٨٥ ١٩٤

﴿ فَرَاغَ إِلَى اللَّهِ إِلَهُ الْعَالَمِينَ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ اتَّعَبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ٩٦ - ٩١ ١٩٢

﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٠﴾ (١٦٠-١٥٩) ٢٧٢

﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوْلَى ﴿١٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَاتَّبَعُوا لِمُحَضَّرُونَ ﴿١٣٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٣٨﴾ (١٢٨-١٢٦) ٢٧٢

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ ١٨٠

- ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴾ ١٦٥ ١٨٤، ١٨٠
- ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ ﴾ ١٦٦ ١٨٤، ١٨٠
- ﴿ وَإِن جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١٧٣) ١٠٩

سورة ص

- ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ ١-٧ ١٠٤
- ﴿ أَجْعَلُ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَجِدًّا إِن هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴾ (٥) ١٦١
- ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ (٢٤) ٣٠٠
- ﴿ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَارِ ﴾ (٢٨) ٣٠٧
- ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٤٤) ٢٩٥
- ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ (٤٦) ٢٧٣
- ﴿ قَالَ فِعْرَنُكَ لَا أَعُوذُ بِهِمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٢) ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴾ (٨٣) (٨٢-٨٣) ٢٧٢

سورة الزمر

- ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ (٢) ٢٧٣، ٢٦٨
- ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ (٣) ٢٧٠
- ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ (٧) ٣٠١، ٢٩٩
- ﴿ قُلْ يَعْبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ ١٠ ٣٠٦، ٢٩٢، ١١٧
- ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ (١١) ٢٧٣
- ﴿ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾ (١٤) ٢٧٣، ٢٧٠
- ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ، لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ٢٢ ٨٣

- ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا ﴾ ٢٣ ٦٦
- ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ٢٨ ١٧
- ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ٢١٠
- ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٣٨﴾ ﴾ ٥٨
- ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴿٤٦﴾ ٤٣
- ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ٢٦٦
- ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ٢٦٤
- ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ٢٢٠، ٤٦
- ﴿ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ٢٩٧

سورة غافر

- ﴿ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١١-١٢﴾ ١٢٦
- ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ ١٦٨
- ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ٢٧٣، ١٧١
- ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴿٢٣-٢٤﴾ ٤١
- ﴿ كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ ٨٧
- ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتْلُمَنُّ بَنِي لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ ﴿٣٦-٣٧﴾ ٤٣

- ﴿ مَنْ عَمِلَ سِئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُنتِفِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ٣٠٢
- ﴿ قَالُوا أَوْلَمْ تَأْتِكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿٥٠﴾ ٩١
- ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ ٢٥٢
- ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴿٥٧﴾ ٩٢
- ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ﴿٥٨﴾ ٣٠٧
- ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴿٦٠﴾ ٢٧٧، ٢٧٤
- ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ٢٧٣

سورة فصلت

- ﴿ قُلُونَا فِيْ أَكْتَنَةِ ﴿٥﴾ ١٧٠
- ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴿٦﴾ ٢٨٩
- ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ٩٢
- ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ ٣٢
- ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ ٢٥١
- ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ٢٩٤
- ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ١٦٥
- ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْئَمُونَ ﴿٣٨﴾ ١٨٣
- ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ١١٥

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ﴾ ٤٤ ٧٩

سورة الشورى

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ ﴾ (١٦) ٢٢٣

﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ (١٨) ٢٢٣

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١١) ٢٠٦، ١٦٤

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ

الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١١) ٢٢٢

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ (٣٢) ﴿ ٣٣ ﴾ إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ

صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (٣٣) (٣٢-٣٣) ٢٩٥، ٣٠٦

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٤٣) ٢٩٤

سورة الزخرف

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٦٧﴾ ﴾ ١٩٠

﴿ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ٤٥ ٢٨، ٢٥

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ٤١

﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ

﴿ ٦٨ ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ (٦٧-٦٨) ٢٦٠

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ٨٧ ٥٣

سورة الجاثية

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

٢٠٣، ١٩٨.....

سورة الأحقاف

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾

٢٩٢.....

سورة محمد

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴿١٥﴾ ﴾

٢٠٥.....

﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿١٩﴾ ﴾

٢٨٨.....

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾

٨٥.....

﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآعِلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾

٢٥٩.....

سورة الفتح:

﴿ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٤﴾ ﴾

١٨٠.....

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴿١٨﴾ ﴾

١٤٠، ٧١.....

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾

١٤١.....

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ ﴿٢٦﴾ ﴾

٨١.....

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ ٢٨ ١٠٥

﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢٩) ٢٤٥، ٣٠٧، ٤٧٤

الحجرات

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ ٣ ٧٣

سورة ق

﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ﴾ ٣٣ - ٣٤ ٦٤

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ (٣٩) ٢٨١

سورة الذاريات

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ ٥٠ ٤٩

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ ٥١ ٤٩

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ (٥٤) ٤٩

﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٥٥ ٤٨

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) ١٥٠، ٤٩٤، ٤٨١، ١٥٠

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ ﴾ (٥٧) ٥٠، ٥١، ٥٦

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ ﴾ ٥٩ ٥٦

سورة الطور

﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ (٤٨)..... ٢٩٢

سورة النجم

﴿ وَإِنِّي أَخْبِرُهُمَّ الَّذِي وَفَى ﴾ (٣٧)..... ١٩١

سورة الرحمن

﴿ وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ (٤٦)..... ٦٥

سورة القيامة

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (١٧)..... ١٦

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ ١٧-١٩..... ١٧

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴾ (٢٢) إِلَى رَيْبِهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَطَنُّنٌ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ (٢٢-٢٥)..... ٢٦٦

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (٣٦)..... ٥٤

سورة الحديد

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ ٢٥..... ٩٠

سورة المجادلة

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (١١) ٢٥٤،٢٣٦،
 ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ٢١ ١٠٩،
 ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ٢٢ ١٤٣،٧٤

سورة الحشر

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ٨ ١٣٧،
 ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا
 وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ٩ ١٣٧،
 ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي
 قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ١٠ ١٣٨،

المتحنة

﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ (١) ٢٥١،
 ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ ٤ ١٩١،١٣٦،٤٠

سورة الصف

﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (١٤) ٢٥٢،

سورة الجمعة

﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ ٣ ١٣٨

سورة المنافقون

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٨ ٢٥٩، ٢٥٣، ١٠٩

سورة المنافقون

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٨ ١١٠

سورة الطلاق

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ٢-٣ ٢٨٨، ١٣٦

سورة التحريم

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ٦ ١٨٠

﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ ١١ ١٦٤

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ٦ ١٨٠

سورة الملك

﴿لِيَلْوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ٢ ١٧٢، ١٠١
 ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ ٣ ١٥٩
 ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ ١٢٦

سورة القلم

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴿٤٨﴾﴾ ٢٩٢

سورة نوح

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمِدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ غَنِيٍّ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٣﴾﴾ (١٠-١٢) ٢٨٨

سورة الجن:

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ ١-٢ ١١٥
 ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾ ٥٠

سورة المزمل

﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ ٨-٩ ١٣٦

سورة المدثر

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ ٣١ ١٨٠

سورة التغابن

﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ ١ ٣٠٧

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ١١ ٧٠

سورة الإنسان

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ ٣ ٢٩٩

سورة المرسلات

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ ١ ﴿ فَالْعَصْفِ عَصْفًا ﴾ ٢ ﴿ وَالنَّشْرِ نَشْرًا ﴾ ٣ ﴿ فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا ﴾ ٤ ﴿ فَالْمُلَقَاتِ ذِكْرًا ﴾ ٥ ١٨٠-٥-١

سورة النبأ

﴿ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴾ ٣٦ ١٤٣

سورة النازعات

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ ٤٠ ٦٥

سورة عبس

﴿ وَجْهٌ يُؤْمِدُ مُسْفِرَةٌ ۝۳۸ ضَاكَّةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۝۳۹ وَوَجْهٌ يُؤْمِدُ عَلَيْهَا غَبْرَةٌ ۝۴۰ تَرْهَقُهَا قَرَةٌ ۝۴۱ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ ۝۴۲ ﴾ (٤٢-٣٨) ٢٦٦

سورة التكوير

﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ ۝۷ ﴾ (٧) ٢٦٣

سورة الإنفطار

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ ۝۱۳-١٤ ﴾ ١٠٨

سورة المطففين

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝۱۴ ﴾ ٨٤
 ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝۲۲ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ۝۲۳ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝۲۴ ﴾ (٢٤-٢٢) ٢٦٦

سورة الغاشية

﴿ وَجْهٌ يُؤْمِدُ خَشِيعَةٌ ۝۲ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝۳ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝۴ ﴾ (٤-٢) ٢٦٦
 ﴿ وَجْهٌ يُؤْمِدُ نَاعِمَةٌ ۝۸ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝۹ ﴾ (٩-٨) ٢٦٦

سورة الفجر

﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ٢٧-٢٨ ١٤٦

سورة البلد

﴿ تَعْرَكَانَ ۖ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ٢٩٦

﴿ تَعْرَكَانَ ۖ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ ٢٩٦. (١٧-١٨)

سورة الليل

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾

فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ١٠-٥ ١١٢

﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ الْمُتَنَفِّسُونَ ﴿٢٦﴾ ١٤٩

سورة الشرح

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ٢٢٥

سورة البينة:

﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ ٢٦٨

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿٥﴾ ٢٦٨، ٥٤

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُم خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ (٧) ٣٠٦
 ﴿ خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ (٨) ١٤٦

سورة الزلزلة

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٧) ٢٣٩
 ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ (٦) ٢٦٩

سورة العصر

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا
 بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ (٣-١) ٢٩٥
 ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (٣) ٢٩٦

سورة الماعون

﴿ قَوْلٍ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ (٦-٤) ٢٧٠

سورة الكافرون

﴿ قُلْ يَتَّيْبُهُا الْكٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَا اَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (٢) ٢-١ ١٧٤

سورة النصر

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ (٣-١) ٢٨٥

فهرس الآثار

- أشهدين أن لا إله إلا الله ١٣
- اجتنبوا السبع الموبقات..... ٣٢٧
- إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت وقال غيره صفوان..... ١٨٤
- أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله..... ١٤٧، ٢٨٩
- أربعة من العرب هود وشعيب وصالح ونبيك..... ٣٨
- أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء..... ١٦٨
- أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي..... ٢٥
- اغزوا بسم الله في سبيل الله..... ٣٨٣
- أفلا أكون عبدا شكوراً..... ٢٩٧
- اقرأ { قل يا أيها الكافرون } فإنها براءة من الشرك..... ٣٥٠
- أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه..... ٢٨٢
- ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم..... ٢٤
- ألا تباعون رسول الله..... ٣١٩
- أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ٣٨٢، ١٢
- إمارة الأذى عن الطريق صدقة،..... ٣١٠

- أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله..... ٣١٩
- آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة... ١٤٩
- أنا أولى الناس بعيسى بن مريم ٣٤
- أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت..... ٢٩٠
- إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه..... ٣٥٤
- إن في الجسد مضغة إذا صلحت ٦٩
- إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ..... ٧٦
- إن الله حرم النار على من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله..... ٣٤٤
- إن الله زَوَى لي الأرض مشارقها ومغاربها ١٠٤
- إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد - ﷺ - خير..... ٧٠
- إن الله - عز وجل - يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة!..... ١٤٩
- إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم..... ٦٣
- أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا..... ٣٧٤
- إنها ستكون فتن. قلت: فما المخرج منها..... ١١٥
- إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة..... ٢٨٩
- إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت..... ٢٥٤
- إني أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب..... ١٠٣

- أولياء الله الذين إذا رُؤوا دُكر الله..... ٢٥٠
- أيها الناس، أربعوا على أنفسكم..... ٢٨٢
- بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم..... ١١١
- تسمعوا قول العبد الصالح إن الشرك لظلم عظيم..... ٢٣٧
- تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة..... ٢٣٨
- تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا..... ٧٧
- تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة..... ١١٦
- التقوى ههنا. وأشار إلى صدره..... ٦٩
- ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان..... ٢٤٦
- جُعِلَ قرة عيني في الصلاة..... ١٢٢
- جلست إلى كعب الأخبار وأنا غلام، فقلت له: رأيت قول الله للملائكة..... ١٨٢
- خليلان مؤمنان، وخليلان كافران..... ٢٦١
- الدعاء هو العبادة..... ٢٧٤
- سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك..... ٢٨٩
- طوبى لمن هدى إلى الإسلام، وكان عيشه كفافا، وقنع به..... ٣٠٤
- فكيف بك بلا إله إلا الله..... ١٣
- كاد قلبي أن يطير..... ٣٦٣

- كان أصحاب النبي ﷺ - إذا قرئ عليهم القرآن..... ٦٦
- كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا..... ٢٨٥
- كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أهل الأرض..... ٣٧٦
- كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة..... ٣٧٠
- كفى بالموت واعظاً، وكفى باليقين غنى..... ١٧٢
- كل مولود يولد على الفطرة..... ٢٤، ٥٣، ٦٧
- قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك..... ٥٧، ٢٧٣، ٣٢٧
- قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه..... ٣٠٤
- قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا..... ٢٧٧
- لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله..... ٢٦٦
- لا يقعد قوم يذكرون الله - عز وجل - إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة..... ٢٨٤
- لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله..... ٣٤١
- لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون و يصلون و يتصدقون..... ٧٢
- لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى:..... ٢٠٣
- لا يقبل الله عز و جل من مشرك بعد ما أسلم عملاً..... ٣٧٥
- لتتبعن سنن من قبلكم..... ٤٣
- اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع..... ٧٦

- اللهم اجعلني من الأقلين..... ٣٠٠
- اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات..... ١٨٠
- الله أكبر إنما السنن، قلت..... ٣٣٠
- اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك..... ١٠٤، ٢١٦
- اللهم لك الحمد أنت قيم السماوات..... ٤٥
- ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار..... ٢٥٩
- ليس شيء أكرم على الله من الدعاء..... ٢٧٨
- ليس كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه..... ٢٣٥
- ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل..... ٣٦٣
- ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصا إلا فتحت له أبواب السماء..... ٢٧١
- ما من داع يدعو الله بدعوة إلا آتاه بها أحد ثلاث..... ٢٧٤
- ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها..... ١١٢
- المؤمن لا ينحس..... ٣٧٨
- مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت..... ٢٨٤
- المرء مع من أحب..... ٢٦٣
- من أحب الله وأبغض الله وأعطى الله..... ٩٥، ٢٤٩، ٩١
- من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله..... ١٣٥

- من تشبه بقوم فهو منهم..... ٣٥٣
- من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء..... ٢٧١
- من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة..... ٢٥١
- من كان منكم مستنًا فليستن بمن قد مات..... ١٣٩
- من قال حين يمسي رضيت بالله رباً..... ١٤٧
- من لم يسأل الله يغضب عليه..... ٢٧٨
- هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك..... ١٨٥
- هل تسمعون ما أسمع؟" قالوا: ما نسمع من شيء..... ١٨٢
- وأمركم أن تذكروا الله تعالى، فإن مثل ذلك مثل رجل خرج العدو..... ٢٨٤
- والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده..... ٢٤٦
- والذي نفس محمد بيده لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً..... ٣٢
- واعلم أن النصر مع الصبر..... ٢٩٣
- وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه..... ٢٤٤
- يا أبا بكر! أأنت تنصب أأنت تحزن أأنت تصيبك الأواء..... ٢٣٩
- يا أبا بكر! للشرك فيكم أخفى من ديب النمل..... ٢٧٣، ٢٧٤، ٣٢٢
- يا بن آدم لو لقيتني بمثل الأرض خطايا..... ٣٧٥
- يا بلال أرحنا بها..... ١٢١

- يا عدي اطرح عنك هذا الوثن. وسمعه يقرأ في سورة براءة..... ٢٤١
- يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته..... ٢٧٩
- يا معشر القراء استقيموا وخذوا طريق من كان قبلكم..... ١٣٩
- يا معاذ أتدري ما حق الله على عباده ٥٤
- يا من أحب عباده إليه من سأله، فأكثر سؤاله..... ٢٧٧
- يدخل ناس جهنم حتى إذا صاروا كالحممة ١٢٩
- يقول الله تبارك وتعالى لأهل النار عذاباً..... ٣٢٧
- يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني..... ٢٨٤

فهرس الأعلام المترجمة

- إبراهيم بن عمر البقاعي..... ١٥٧.
- إبراهيم بن محمد بن السري..... ١٢٩.
- ابن سيرين ٢٤٢.
- ابن عامر سليم بن عيسى..... ١٢١.
- ابن كثير المكّي..... ١٢٨.
- أبو بكر ٢٢٥.
- أبو جعفر يزيد بن القعقاع..... ١٢٧.
- أبو خالد الوالي هرمز..... ٣٨.
- أبو القاسم الحسين بن محمد بالراغب الأصفهاني ١١.
- أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري..... ١٠.
- أبو موسى الأشعري ٢٧١.
- أبو هريرة ١٤٠.
- أحمد بن عبد الخليم ابن تيمية..... ١٥.
- أحمد بن محمد بن حنبل..... ٣٠٠.
- أحمد بن فارس ٧٤.
- أسامة بن زيد ١٢.
- أسماء بنت أبي بكر الصديق..... ٦٦.

٢٧٠.....	إسماعيل بن عمر بن كثير
١٠.....	إسماعيل بن محمد
١٢٧.....	الأسود بن يزيد النخعي
١٨.....	أنس بن مالك
١٢٣.....	بازان أبو صالح
٢٠.....	بدر الدين أبو عبد الله محمد الزركشي
١٣.....	بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد
٢٧٩.....	جندب بن جنادة
٥٩.....	حافظ بن أحمد الحكمي
٧٧.....	حذيفة بن حسل اليمان
١٢٠.....	الحسن بن يسار البصري
٥٣.....	الحسين بن مسعود الفراء
١٧١.....	حكيم بن حزام
١٢٧.....	حمزة بن حبيب
١٧٠.....	خالد بن الوليد
١٢٢.....	خلف بن هشام
٥٤.....	الربيع بن أنس ابن زياد البكري
١٢٠.....	رفيع بن مهران الرياحي
٢٩.....	زيد بن أسلم العدوي العمري
٢٢٠.....	الزبير بن العوام

١٢٣.....	سعد بن مالك الخدري.
٢٥٦.....	سعيد بن المسيب بن حزن.
١٨٥.....	سفيان بن سعيد الثوري.
٣٣٠.....	سُلَيْمَانُ بن سَحْمَانَ.
٢٦.....	سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب.
٢٧١.....	سَهْلُ بن حُنَيْفِ بن وهب.
٦٥.....	سهل بن عبد الله بن يونس التستري.
٣٦.....	شعيب بن يشجر بن عنقا بن مدين بن إبراهيم.
٢٧.....	شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية.
٥٠.....	الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو القاسم.
١٢٧.....	عاصم بن أبي النجود.
١٦٧.....	عامر بن عبد الله بن الجراح.
١٥.....	عبد الله بن عباس.
١٢.....	عبد الله بن مسعود.
٣٥.....	عبد الحق بن غالب.
١٣.....	عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب.
٢٢٤.....	عبد الرحمن بن زيد.
٥٠.....	عبد الرحمن السعدي.
١٧٠.....	عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي.
٣٧٧.....	عبد الرحمن بن عمرو بن يحمدا الأوزاعي.

١٤٩.....	عبد الرحمن بن محمد بن إسحاق.....
٣٤٠.....	عبد الرحمن بن محمد الثعالبي.....
٢١٩.....	عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني.....
١٨٢.....	عبد الله بن الحارث بن نوفل.....
١٤٠.....	عثمان بن عفان.....
٢٢٤.....	عدي بن حاتم.....
٧٤.....	عروة بن الزبير.....
٣٧٧.....	عطاء بن أبي رباح.....
٢٠٠.....	عطية بن قيس.....
١٢٣.....	عكرمة البربري.....
٥٤.....	علي بن أبي طالب.....
٥٥.....	علي بن أبي طلحة.....
٣٩.....	علي بن حمزة الأسدي الكسائي.....
٢٦٣.....	عمر بن الخطاب.....
٣٧٧.....	عمر بن عبد العزيز.....
٧٦.....	عمرو بن العاص.....
٢٠٦.....	عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ.....
١٨.....	عويمر بن مالك الأنصاري الخزرجي أبو الدرداء.....
٢٠٠.....	كالب بن يوفنا.....
٢٥٦.....	كُزْز بن وَبَرَةَ الحارثي.....

الكسائي علي بن حمزة.....	١٢٢
كعب بن مالك	١٧٠
كُهَمَس بن الحسن التميمي.....	٢٥٦
الفضيل بن عياض	٩٨
قتادة بن دعامة بن قنادة بن عزيز السدوسي البصري.....	٣٨
ليث بن سعد عبد الرحمن الفهمي.....	١٩
مالك بن أنس	١٣
مالك بن دينار.....	٨٣
محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري	١١
محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، زين الدين.....	١٦
محمد بن أحمد القرطبي.....	١١
محمد بن إدريس الشافعي.....	١٣
محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي.....	٧٣
محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي.....	١٦
محمد بن جرير الطبري أبو جعفر.....	١٥
محمد بن حبان التميمي أبو حاتم ابن حبان.....	٣٧
محمد بن الحسين أبو يعلى.....	٥٠
محمد بن صالح بن عثيمين.....	٢١٧
محمد جمال الدين بن قاسم.....	٣٠٤
محمد بن الطيب أبو بكر قاضي، ابن الباقلاني.....	٥٢

محمد بن عبد الوهاب.....	٣٢٥
محمد الطاهر بن محمد بن عاشور.....	٢٦
محمد بن علي الشوكاني.....	١٢٧
محمد بن كعب.....	٢٩١
محمد بن القاسم بن بشار بن الحسن الأنباري.....	١٤
محمد بن محمد العمادي.....	١٦٣
محمد بن يوسف بن علي الغرناطي.....	١٧٣
محمود بن عمر الزمخشري.....	٢١٤
معاذ بن جبل.....	٥٤
معاوية بن أبي سفيان.....	٢٣٤
معقل بن يسار بن عبد الله المزني.....	٢٧٣
مُطَرِّف بن عبد الله.....	٢٥٥
مقاتل بن سليمان.....	١٢٩
نافع بن عبد الرحمن.....	١٢٧
نَوْفَل بن فَرَوَةَ الأشجعي.....	٣٥٠
وَهْب بن مُنْبِه.....	٣٠٣
يحيى بن زياد الفراء.....	٥٢
يعقوب بن إسحاق الحضرمي.....	١٢٨
يوشع بن نون.....	١٩٩

فهرس الكلمات الغريبة

الإصخار.....	١٨٤
الأطيطُ.....	١٨٢
البراذين.....	٢٥٤
بَلَسَ.....	١٠٥
النَّيَّةُ.....	٣٨٢
جُدَّاذ.....	١٩٢
الجوادِّ.....	١٧٠
الديجور.....	٢٣٦
خداج.....	٣٤٦
خَزَعَبَلَاتِ.....	٢١٩
سَرِيَّة.....	٣٨٣
سِدْرَةٌ.....	٣٢٧
الشهاب.....	١٨٥
فَدْلَكَّة.....	١٥٧
الْقَلْحُ.....	١٠٥
اللَّهْجُ.....	٢٨٣
الْكِنُّ.....	٢٨٣

مُتَهَتِّكٌ..... ٣٣٨

مُتَهَوِّكٌ..... ٢٥٨

المَرَاجِلُ..... ٣٦

المِسَاكُ..... ١٦٩

مُضِيَانٌ..... ١٣١

هَمَلَجٌ:..... ٢٥٤

الْوَصَائِلُ..... ٣٢٠

يَعَانُ..... ٢٨٩

يَنُوطُونُ..... ٣٣١

فهرس البلدان

أُحُدُ.....	١٣٤
بَابِل.....	٣٨
البحرين.....	١٦٧
بدر.....	٣٣٦
برك الغماد.....	٢٠٣
حمراء الأسد.....	١٣٤
حُنَيْنٌ.....	٣٣٠
خَيْبَرَ.....	١٤١
الدَّهْنَاء.....	٣٣
الدُّور.....	٣٣
ذي المجاز.....	٣٥٣
سَوَادُ الْعِرَاق.....	١٩٢
القلم.....	٣٦
وَبَّار.....	٣٣
يَبْرِينَ.....	٣٣

فهرس الفرق

الأشاعرة	٥١
أهل الكلام.....	٩٤
الجهمية.....	٢٤٨
الخوارج.....	٣٤٠
الصابئة.....	٣٨
طوائف المعطلة	٢٤٨
الظاهرية.....	٣٧٨
الغالية.....	٢٤٠
الكرامية.....	٥٢
القدرية.....	٥٨
الملامتية.....	٢٤٧
المرجئة.....	٢٨

المصادر و المراجع

(أ)

١. الإجماع - ابن المنذر النيسابوري، المحقق: فؤاد عبد المنعم أحمد. الناشر: دار المسلم للنشر والتوزيع. الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
٢. أحكام القرآن - أحمد الجصاص الحنفي. الناشر: دار احياء التراث العربي. بيروت. ١٤٠٥ هـ تحقيق: محمد الصادق قمحاوي
٣. أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه - أبو عبد الله الفاكهي. المحقق: د. عبد الملك عبد الله دهيش الناشر: دار خضر - بيروت. الطبعة : الثانية، ١٤١٤هـ.
٤. الأدب المفرد - البخاري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. الناشر: دار البشائر الإسلامية - بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٩ هـ
٥. الاستقامة- ابن تيمية الحراني. تحقيق: د. محمد رشاد سالم. الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود. الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
٦. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - محمد أبو السعود. الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٧. الإصابة في تمييز الصحابة - ابن حجر العسقلاني. تحقيق: علي محمد البحراوي. الناشر: دار الجيل - بيروت. الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
٨. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن- محمد الأمين الشنقيطي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع بيروت - لبنان. عام النشر : ١٤١٥ هـ.
٩. الاعتصام - للشاطبي موافق للمطبوع- أبو إسحاق الشاطبي. دار النشر: المكتبة التجارية الكبرى- مصر
١٠. إعلام الموقعين عن رب العالمين - ابن القيم الجوزية. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد الناشر: دار الجيل - بيروت، ١٩٧٣م.
١١. الأعلام - خير الدين الزركلي. الناشر: دار العلم للملايين. الطبعة الخامسة عشر ٢٠٠٢م.
١٢. إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان- ابن القيم الجوزية. تحقيق : محمد حامد الفقي. الناشر: دار المعرفة - بيروت. الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.

١٣. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم - شيخ الإسلام ابن تيمية. تحقيق: د. ناصر العقل. الناشر: مكتبة الرشد - الرياض.
١٤. الأمثال في القرآن الكريم - ابن القيم الجوزية. تحقيق: إبراهيم بن محمد. الناشر: مكتبة الصحابة - طنطا. الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ
١٥. أمراض القلب وشفائها - شيخ الإسلام ابن تيمية. النشر: المطبعة السلفية - القاهرة. الطبعة الثانية - ١٣٩٩ هـ.
١٦. لإيمان - ابن تيمية. خرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني. الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت. الطبعة الرابعة - ١٤١٣ هـ.

(ب)

١٧. بيت العنكبوت - خليل بن إبراهيم أمين. مطابع شرقان الغامدي، الرياض. الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ.
١٨. البحر المحيط - أبو حيان الأندلسي الناشر: دار الفكر - بيروت. سنة الطبع: ١٤٢٠ هـ. تحقيق: صدقي محمد جميل.
١٩. بدائع الفوائد - ابن القيم الجوزية. تحقيق: هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي - أشرف أحمد. الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة. الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ.
٢٠. البداية والنهاية. - ابن كثير القرشي الدمشقي، حققه ودقق: علي شيري. الناشر: دار إحياء التراث العربي. الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ.
٢١. بلوغ السعادة من أدلة توحيد العبادة، صالح البدير، بيروت ١٤٢٤ هـ.

(ت)

٢٢. تاج العروس من جواهر القاموس - أبو الفيض الزبيدي. تحقيق: مجموعة من المحققين. الناشر: دار الهداية.
٢٣. تاريخ الأمم والملوك - أبو جعفر الطبري. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ.
٢٤. تاريخ بغداد - أبو بكر الخطيب البغدادي. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.
٢٥. تاريخ الخلفاء - عبد الرحمن السيوطي. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. الناشر: مطبعة السعادة - مصر. الطبعة الأولى، ١٣٧١ هـ.

٢٦. تجبير التيسير في القراءات العشر - ابن الجزري. تحقيق: د. أحمد محمد مفلح القضاة النشر: دار الفرقان - الأردن / عمان - الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ.
٢٧. التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور - ابن عاشور التونسي، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان. الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ.
٢٨. تذكرة الحفاظ - الذهبي. دراسة وتحقيق: زكريا عميرات. الناشر: دار الكتب العلمية بيروت-لبنان. الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ.
٢٩. تفسير الثوري - سفيان الثوري. تحقيق: إمتياز علي عرشي. الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان. الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ.
٣٠. تفسير القرآن العظيم - ابن كثير القرشي الدمشقي، المحقق: سامي بن محمد سلامة. الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ.
٣١. تفسير ابن أبي حاتم - أبو حاتم الرازي. تحقيق: أسعد محمد الطيب. دار النشر: المكتبة العصرية - صيدا.
٣٢. تفسير البيضاوي. أبو سعيد البيضاوي. دار النشر: دار الفكر - بيروت.
٣٣. تفسير الثوري - سفيان الثوري. تحقيق: إمتياز علي عرشي. الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ.
٣٤. التفسير القيم - ابن القيم الجوزية، جمعه: محمد الندوي. المحقق: محمد الفقي. دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٥ هـ.
٣٥. التفسير الموضوعي لآيات التوحيد في القرآن الكريم، عبد العزيز موسى، القاهرة، ١٤٠٢ هـ.
٣٦. تهذيب التهذيب - ابن حجر العسقلاني. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ.
٣٧. تهذيب اللغة - الأزهري. تحقيق: محمد عوض مرعب. دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - ٢٠٠١ م. الطبعة: الأولى.
٣٨. توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم - أحمد عيسى. تحقيق: زهير الشاويش. الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت. الطبعة الثالثة، ١٤٠٦ هـ.
٣٩. تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد - سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب. الناشر: مكتبة الرياض الحديثة - الرياض.
٤٠. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - عبد الرحمن السعدي، المحقق: عبد الرحمن اللويحق. الناشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى ١٤٢٠ هـ.

(ج)

- ٤١ . جامع البيان في تأويل القرآن - بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ.
- ٤٢ . الجامع الصحيح - محمد البخاري. الناشر: دار الشعب - القاهرة. الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ.
- ٤٣ . جامع المسائل لابن تيمية - ابن تيمية الحراني. تحقيق: محمد عزيز شمس. إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد. الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ.
- ٤٤ . جهود المالكية في تقرير توحيد العبادة - عبد الله العرفج. دار التوحيد، الرياض، ١٤٢٨ هـ.
- ٤٥ . الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي. - ابن قيم الجوزية. الناشر: دار المعرفة. ١٤١٨ هـ.
- ٤٦ . الجواهر الحسان في تفسير القرآن - عبد الرحمن الثعالبي. الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

(ح)

- ٤٧ . الحجّة في بيان الحجّة إسماعيل بن محمد، القرشي للتمي. دار الراجية. الطبعة الأولى الرياض ١٤١١ هـ
- ٤٨ . حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات السبع - القاسم الشاطبي. الناشر: دار الكتاب النفيس - بيروت. الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ.
- ٤٩ . حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - أبو نعيم الأصبهاني، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت. الطبعة الرابعة، ١٤٠٥ هـ.

(د)

- ٥٠ . درء تعارض العقل والنقل - ابن تيمية. تحقيق: محمد رشاد سالم عدد الناشر: دار الكنوز الأدبية - الرياض ١٣٩١ هـ.
- ٥١ . دراسات في التفسير الموضوعي - د. زاهر الألمي. مطبعة النرجس. الطبعة الثالثة ١٤٢٥ هـ.
- ٥٢ . الدر المنثور في التفسير بالماثور - السيوطي. تحقيق: مركز هجر للبحوث. الناشر: دار هجر - مصر. ١٤٢٤ هـ.
- ٥٣ . دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية - ابن تيمية الحراني. تحقيق: د. محمد السيد الجليند الناشر: مؤسسة علوم القرآن - دمشق. الطبعة الثانية، ١٤٠٤ هـ.

(ر)

٥٤. الرسالة التبوكية زاد المهاجر إلى ربه. - محمد الزرعي أبو عبد الله. تحقيق: د. محمد جميل غازي. الناشر: مكتبة المدني - جدة.

(ز)

٥٥. زاد المسير في علم التفسير - ابن الجوزي. الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت. الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.

٥٦. زاد المعاد في هدي خير العباد - شمس الدين ابن قيم الجوزية. الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ.

٥٧. الزهد - أحمد بن حنبل. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

(س)

٥٨. سبيل الهدى و الرشاد في هدي خير العباد - محمد تقي الدين الهلالي. التحقيق: مشهور آل سلمان ١٤٢٧ هـ.

٥٩. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل. - ابن قيم الجوزية. الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان. ١٣٩هـ.

٦٠. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة - ناصر الدين الألباني. دار النشر: دار المعارف. الرياض - المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ.

٦١. سنن أبي داود - أبو داود السجستاني. الناشر: دار الكتاب العربي. بيروت.

٦٢. سنن ابن ماجه - ابن ماجه القزويني. حواشيه: محمود خليل. الناشر: مكتبة أبي المعاطي.

٦٣. سنن الترمذي - أبو عيسى الترمذي. تحقيق: أحمد محمد شاکر وآخرون. الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٦٤. سنن الدارمي - عبد الله الدارمي. تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي. الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ.

٦٥. سنن سعيد بن منصور - سعيد بن منصور. المحقق: د. سعد آل حميد. دار النشر: دار العصيمي. الرياض الطبعة الأولى. ١٤١٤هـ.

٦٦. سنن النسائي - المجتبي من السنن. - أبو عبد الرحمن النسائي. تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب. الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

٦٧. سير أعلام النبلاء - شمس الدين الذهبي. المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط. الناشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ.

(ش)

٦٨. شذرات الذهب في أخبار من ذهب - عبد الحي العكري. تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرنؤوط. الناشر: دار بن كثير. دمشق. ١٤٠٦ هـ.

٦٩. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة - أبو القاسم اللالكائي. تحقيق: د. أحمد سعد حمدان. الناشر: دار طيبة - الرياض، ١٤٠٢ هـ.

٧٠. شرح السنة. الإمام البغوي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش. دار النشر: المكتب الإسلامي - دمشق. بيروت الطبعة: الثانية. ١٤٠٣ هـ.

٧١. شرح العقيدة الطحاوية - ابن أبي العز الحنفي، تحقيق: أحمد شاکر. الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد. الطبعة الأولى - ١٤١٨ هـ.

٧٢. شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية - محمد خليل هراس. الناشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ.

٧٣. شرح النووي على صحيح مسلم - أبو زكريا النووي. الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت. الطبعة الثانية، ١٣٩٢ هـ.

٧٤. الشرك في القديم والحديث - أبو بكر محمد زكريا. مكتبة الرشد، الرياض. الطبعة الأولى. ١٤٢٣ هـ.

٧٥. شعب الإيمان - أبو بكر البيهقي. حققه: د. عبد العلي حامد أشرف: مختار أحمد الندوي. الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ.

٧٦. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل - ابن قيم الجوزية. الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان ١٣٩٨ هـ.

(ص)

٧٧. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية - الجوهري. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. الناشر: دار العلم للملايين - بيروت. الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ.

٧٨. صحيح ابن حبان - محمد بن حبان. ترتيب: علي بن بلبان، علاء الدين الفارسي، المنعوت بالأمير. الناشر: مؤسسة الرسالة.
٧٩. صحيح أبي داود - محمد ناصر الدين الألباني. الناشر: مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت. الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ.
٨٠. صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري - محمد ناصر الدين الألباني. الناشر: دار الصديق الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ.
٨١. صحيح الجامع الصغير - ناصر الدين الألباني. النشر: المكتب الإسلامي البلد بيروت. الطبعة الثالثة سنة الطبع: ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨ م
٨٢. صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج. الناشر: دار الجيل بيروت و دار الأفاق الجديدة. بيروت.
٨٣. الصواعق المرسله الشهائيه على الشبهه الداحضة الشاميه - سليمان بن سحمان. الناشر: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية.
٨٤. الصواعق المرسله على الجهمية والمعطله - ابن القيم الجوزية. تحقيق: د. علي بن محمد الدخيل الله. الناشر: دار العاصمة - الرياض. الطبعة الثالثة، ١٤١٨ هـ.

(ض)

٨٥. ضعيف أبي داود - محمد ناصر الدين الألباني. النشر: مؤسسة غراس للنشر و التوزيع - الكويت. الطبعة الأولى - ١٤٢٣ هـ
٨٦. ضعيف الجامع الصغير وزيادته - ناصر الدين الألباني. دار النشر: المكتب الإسلامي. بيروت. الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ.
٨٧. ضعيف سنن الترمذي - محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الاسلامي بيروت. الطبعة الاولى ١٤١١ هـ.
٨٨. الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق - سليمان بن سحمان. دراسة وتحقيق: عبد السلام بن برجس. الناشر: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤١٤ هـ.

(ط)

٨٩. طبقات الشافعية الكبرى - تاج الدين السبكي. تحقيق: د. محمود محمد الطناحي. د. عبد الفتاح محمد الحلو. دار النشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة: الثانية. ١٤١٣ هـ.

٩٠. طبقات المفسرين - عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. تحقيق: علي محمد عمر. الناشر: مكتبة وهبة - القاهرة. الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.

٩١. طريق المجرتين وباب السعادتين. - ابن القيم الجوزية. تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر. الناشر: دار ابن القيم - الدمام. الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ.

(ع)

٩٢. العبودية - المؤلف: تقي الدين ابن تيمية. المحقق: محمد زهير الشاويش. الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت. الطبعة السابعة ١٤٢٦هـ.

٩٣. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين - ابن قيم الجوزية. الناشر: دار ابن كثير، دمشق، بيروت. مكتبة: دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية. الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ.

٩٤. العرش وما رُوي فيه ابن أبي شيبه العبسي. المحقق: محمد التميمي. الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٩٥. عقيدة التوحيد في القرآن الكريم - محمد ملكاوي. مكتبة الرشد. الرياض ١٤٢٥ هـ.

٩٦. عون المعبود شرح سنن أبي داود - أبو الطيب العظيم آبادي. المحقق: عبد الرحمن محمد عثمان النشر: المكتبة السلفية المدينة المنورة. الطبعة الثانية. ١٣٨٨هـ.

(ك)

٩٧. كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد - محمد بن عبد الوهاب. دراسة وتحقيق: عبد العزيز بن عبد الرحمن السعيد وغيره. الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض.

٩٨. كتاب التوحيد لابن منده - محمد بن مندة الأصبهاني. المحقق: محمد إسماعيل. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ.

٩٩. كتاب التوحيد - أبو بكر ابن خزيمة. المحقق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان. الناشر: مكتبة الرشد - الرياض. الطبعة الخامسة، ١٤١٤هـ.

١٠٠. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. - الزمخشري. الناشر: دار الكتاب العربي. بيروت. سنة الطبع: ١٤٠٧ هـ.

(ف)

١٠١. الفتاوى الكبرى - بن تيمية الحراني. المحقق: محمد عبد القادر عطا - مصطفى عبد القادر عطا. الناشر: دار الكتب العلمية. الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ.
١٠٢. فتح الباري شرح صحيح البخاري - حجر العسقلاني. تحقيق: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل. الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ هـ.
١٠٣. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير - محمد الشوكاني. دار النشر: دار الفكر - بيروت.
١٠٤. فتح المجيد شرح كتاب التوحيد - عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ. مكتبة دار السلام الرياض الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ.
١٠٥. الفرق بين الفرق - عبد القاهر البغدادي. الناشر: دار الآفاق الجديدة - بيروت. الطبعة الثانية، ١٩٧٧ م.
١٠٦. الفصل في الملل والأهواء والنحل - ابن حزم الظاهري. الناشر: مكتبة الخانجي - القاهرة
١٠٧. الفوائد - ابن القيم الجوزية. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ.
١٠٨. في رحاب البيت العتيق - د. / محي الدين أحمد إمام. الناشر: دار قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع

(ق)

١٠٩. قاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة - شيخ الإسلام ابن تيمية. المحقق: ربيع بن هادي عمير المدخلي الناشر: مكتبة الفرقان - عجمان. الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ.
١١٠. قاعدة في المحبة - ابن تيمية الحراني. تحقيق: د. محمد رشاد سالم. الناشر: مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة.
١١١. قرّة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين - عبد الرحمن بن حسن. دراسة وتحقيق: بشير محمد عيون. الناشر: مكتبة المؤيد، الطائف، المملكة العربية السعودية / مكتبة دار البيان، دمشق، الجمهورية العربية السورية. الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ.
١١٢. قصص الأنبياء المؤلف - إسماعيل بن كثير. تحقيق: مصطفى عبد الواحد. الناشر: دار الكتب الحديثة. الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـ.

(ل)

١١٣. لسان العرب - ابن منظور المصري. الناشر: دار صادر - بيروت. الطبعة الأولى.
١١٤. لسان الميزان. - ابن حجر العسقلاني. المحقق: عبد الفتاح أبو غدة. دار النشر: مكتب المطبوعات الإسلامية.

(م)

١١٥. مباحث في التفسير الموضوعي - د. مصطفى مسلم. دار القلم، دمشق. الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ.
١١٦. مباحث في علوم القرآن - مناع القطان. الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع. الطبعة الثالثة ١٤٢١ هـ.
١١٧. مجموع الفتاوى - تقي الدين ابن تيمية. المحقق: أنور الباز - عامر الجزائر. الناشر: دار الوفاء. الطبعة الثالثة، ١٤٢٦ هـ.
١١٨. محاسن التأويل - محمد جمال الدين القاسمي. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. الناشر: دار إحياء الكتب العربية.. الطبعة الأولى ١٣٧٦ هـ.
١١٩. المحيط في اللغة. موافقا للمطبوع المؤلف: أبو القاسم الطالقاني. تحقيق: محمد حسن آل ياسين. النشر: عالم الكتب - بيروت / لبنان. الطبعة الأولى. - ١٤١٤ هـ.
١٢٠. مختار الصحاح - محمد الرازي. تحقيق: محمود خاطر. الناشر: مكتبة لبنان ناشرون - بيروت. الطبعة ١٤١٥ هـ.
١٢١. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين - ابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد حامد الفقي. الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت. الطبعة الثانية، ١٣٩٣ هـ.
١٢٢. المستدرک علی الصحیحین - الحاکم النیسابوری. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى ١٤١١ هـ.
١٢٩. مسند ابن أبي شيبة - أبو بكر ابن أبي شيبة. دار الوطن - الرياض. الطبعة الأولى، ١٤٢٧ هـ.
١٢٣. مسند الشاميين - أبو القاسم الطبراني. تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي. الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ.
١٢٤. مسند أحمد بن حنبل - أحمد بن حنبل. المحقق: السيد أبو المعاطي النوري. الناشر: عالم الكتب - بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ.

١٢٥. مشاهير علماء نجد - عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ. دار اليمامة الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ.
١٢٦. معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول - حافظ الحكمي. المحقق: عمر بن محمود. الناشر: دار ابن القيم - الدمام. الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ.
١٢٧. مُصنّف ابن أبي شيبة- أبو بكر ابن أبي شيبة. تحقيق: محمد عوامة. الدار السلفية الهندية القديمة.
١٢٨. مصنف عبد الرزاق- عبد الرزاق الصنعاني. الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت. الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
١٢٩. معالم التنزيل - محيي السنة البغوي. المحقق: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش. الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع. الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ.
١٣٠. معجم مقاييس اللغة - ابن فارس. المحقق: عبد السلام محمد هارون. الناشر: دار الفكر. الطبعة ١٣٩٩هـ.
١٣١. معاني القرآن - أبو زكريا الفراء. تحقيق: أحمد يوسف نجاتي / محمد علي نجار / عبدالفتاح إسماعيل شلبي. الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة. مصر.
١٣٢. معجم آيات القرآن - الدكتور حسين نصار
١٣٣. معجم البلدان - ياقوت الحموي. الناشر: دار الفكر - بيروت.
١٣٤. معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية - عمر رضا كحالة. الناشر: مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي.
١٣٥. المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى - أحمد الزيات - حامد عبد القادر. - محمد النجار. دار النشر: دار الدعوة. تحقيق: مجمع اللغة العربية.
١٣٦. معرفة القراء الكبار على الطبقات و الأعصار - محمد الذهبي. تحقيق: بشار عواد معروف، شعيب الأرنؤوط ، صالح مهدي عباس. الناشر: مؤسسة الرسالة- بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ
١٣٧. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة - ابن القيم الجوزية. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.
١٣٨. المفردات في غريب القرآن. - الراغب الأصفهاني. الناشر: دار العلم الدار الشامية. دمشق - بيروت. سنة الطبع: ١٤١٢ هـ. تحقيق: صفوان عدنان داودي.
١٣٩. مفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي. دار النشر: دار إحياء التراث العربي. بيروت.

١٤٠. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم. - أبو العباس القرطبي. دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ.
١٤١. المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة - محمد السخاوي. المحقق: محمد عثمان الخشت. الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت. الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ
١٤٢. الملل والنحل - محمد الشهرستاني. تحقيق: محمد سيد كيلاني. الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٤٠٤ هـ.
١٤٣. مناهل العرفان في علوم القرآن - محمد الزرقاني. الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه. الطبعة الثالثة.
١٤٤. منهاج السنة النبوية - شيخ الإسلام بن تيمية. المحقق: د. محمد رشاد سالم. الناشر: مؤسسة قرطبة، الطبعة لأولى.
١٤٥. المواقيف - عبد الرحمن الإيجي. تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة. الناشر: دار الجيل - بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٧ هـ.
١٤٦. موطأ الإمام مالك - مالك بن أنس. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. الناشر: دار إحياء التراث العربي - مصر.

(ن)

١٤٧. النحو الوافي - عباس حسن. الناشر: دار المعارف. الطبعة الخامسة عشرة.
١٤٨. النكت والعيون (تفسير الماوردي) - أبو الحسن الماوردي. تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم. دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت

(و)

١٤٩. الوابل الصيب من الكلم الطيب - ابن القيم الجوزية. تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض. الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت. الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ.
١٥٠. الوصايا العشر كما جاءت في سورة الأنعام. تأليف: د. محمد بن أحمد الصالح المصدر مجلة البحوث الإسلامية - العدد ٤٤

فهرس الموضوعات

٢.....	المقدمة
٣.....	أهمية الموضوع و أسباب اختياره وهدفه
٤.....	الدراسات السابقة
٦.....	خطة البحث
٨.....	ومنهج البحث
٩.....	التمهيد و فيه: شرح مفردات العنوان
١٠.....	التوحيد لغة
١١.....	التوحيد شرعاً
١٤.....	العبادة في اللغة
١٥.....	العبادة اصطلاحاً
١٦.....	معنى القرآن لغة
١٧.....	معنى القرآن اصطلاحاً
١٩.....	التفسير الموضوع لغة و اصطلاحاً
٢٢.....	الفصل الأول: أهمية توحيد العبادة و حاجة الناس إليه
٢٣.....	المبحث الأول: أنه حقيقة دعوة الرسل
٣٠.....	دعوة نوح عليه السلام إلى التوحيد
٣٣.....	دعوة هود عليه السلام إلى التوحيد
٣٥.....	دعوة صالح عليه السلام إلى التوحيد
٣٦.....	دعوة شعيب عليه السلام
٣٨.....	دعوة إبراهيم عليه السلام
٤١.....	دعوة موسى عليه السلام
٤٤.....	دعوة عيسى عليه السلام
٤٧.....	المبحث الثاني: خلق الله الخلق لأجله

الأقوال في الآية.....	٥١
الفوائد.....	٦٠
المبحث الثالث: افتقار القلوب إليه.....	٦٢
القلب السليم.....	٦٣
علامات القلب السليم.....	٦٥
الوجل عند سماع القرآن الكريم.....	٦٥
الاطمئنان بذكر الله تعالى.....	٦٧
الربط على القلوب.....	٦٨
تعظيم الشرع.....	٦٩
الصبر على البلاء و أداء الفرائض.....	٧٠
الإشفاق من عدم قبول العمل.....	٧١
تعظيم السنة و الاستجابة للنبي ﷺ.....	٧٣
البغض للكفر و أهله.....	٧٤
الدعاء بثبات القلب و الدعاء لمن سبقهم بالإيمان.....	٧٦
القلب المريض.....	٧٧
قلب الميت.....	٧٩
الفصل الثاني: مقاصد القرآن من توحيد العبادة.....	٨٨
المبحث الأول: أن يكون الدين كله لله.....	٨٩
استسلام من في السماوات و الأرض لله تعالى.....	٩٢
الأمر بقتال من لا يجعل دينه لله تعالى.....	٩٥
إرسال رسولنا محمد ﷺ - ليكون الدين كله لله تعالى.....	١٠٢
المبحث الثاني: تميز أهل السعادة من أهل الشقاوة.....	١٠٧
أحوال أهل السعادة.....	١١١
أحوال أهل الشقاوة.....	١٢٢

المبحث الثالث: رضا الله و الفوز بالجنة.....	١٣٣
الفصل الثالث: منهج القرآن في تقرير توحيد العبادة.....	١٥٠
المبحث الأول: استدلال القرآن على توحيد العبادة.....	١٥١
الاستدلال على الخلق.....	١٥٣
الاستدلال بالرزق.....	١٦٦
الاستدلال بالموت و البعث.....	١٧٢
الاستدلال بعبادة الملائكة.....	١٧٩
المبحث الثاني: أساليب القرآن في تقرير توحيد العبادة.....	١٨٦
أسلوب القصة.....	١٨٧
قصة إبراهيم عليه الصلاة و السلام.....	١٨٨
قصة موسى عليه السلام.....	١٩٥
أسلوب ضرب الأمثال.....	٢٠٥
أسلوب الاستفهام.....	٢١٧
الاستفهام الإنكاري.....	٢١٨
الاستفهام التوبيخي.....	٢٢٢
الاستفهام التقريري.....	٢٢٥
الفصل الرابع: آثار توحيد العبادة و أسباب الثبات عليه.....	٢٢٩
المبحث الأول: آثار توحيد العبادة.....	٢٣٠
الوعد بالأمن و الاستخلاف.....	٢٣١
ولاية الله و محبته لأهله.....	٢٤٢
رفعة أهله و عزتهم.....	٢٥٢
آثار توحيد العبادة في الآخرة.....	٢٦٠
المبحث الثاني: أسباب الثبات على توحيد العبادة.....	٢٦٧
الإخلاص.....	٢٦٨

٢٧٤.....	الدعاء
٢٨٠.....	الذكر
٢٨٥.....	الاستغفار
٢٩٠.....	الصبر
٢٩٧.....	الشكر
٣٠٢.....	الأعمال الصالحة
٣١١.....	الفصل الخامس: حماية توحيد العبادة و النهي عما يضاده
٣١٢.....	المبحث الأول: تحريم الشرك في توحيد العبادة
٣٢١.....	النهي عن الشرك و وسائله
٣٢٨.....	النهي عن دعاء أحد إلا الله تعالى
٣٣٥.....	المبحث الثاني: بيان آثار الشرك في توحيد العبادة
٣٣٧.....	لا يغفر الله للمشرك
٣٤٢.....	حرم الله الجنة على المشرك
٣٤٧.....	الشرك يحبط العمل
٣٥٠.....	الإسلام بريء من الشرك و أهله
٣٥٤.....	الشرك سبب لقلة الرزق
٣٥٧.....	المبحث الثالث: أساليب معالجة الشرك و تدارك من وقع فيه
٣٥٨.....	بيان عجز المدعوين و أنهم لا ينفعون و لا يضررون
٣٦٤.....	بيان عواقب الشرك و أهله
٣٦٨.....	بيان حال المشركين في الدنيا
٣٧٣.....	تدارك من وقع في الشرك
٣٧٦.....	تدارك من وقع في الشرك بالمنع أو القتال
٣٨٥.....	الخاتمة
٣٩٤.....	الفهارس

فهرس الآيات.....	٣٩٥
فهرس الأحاديث و الآثار.....	٤٢٩
فهرس الأعلام المترجمة.....	٤٣٥
فهرس الكلمات.....	٤٤٠
فهرس البلدان	٤٤٢
فهرس الفرق.....	٤٤٣
فهرس المصادر و المراجع.....	٤٤٤
فهرس الموضوعات.....	١٥٦